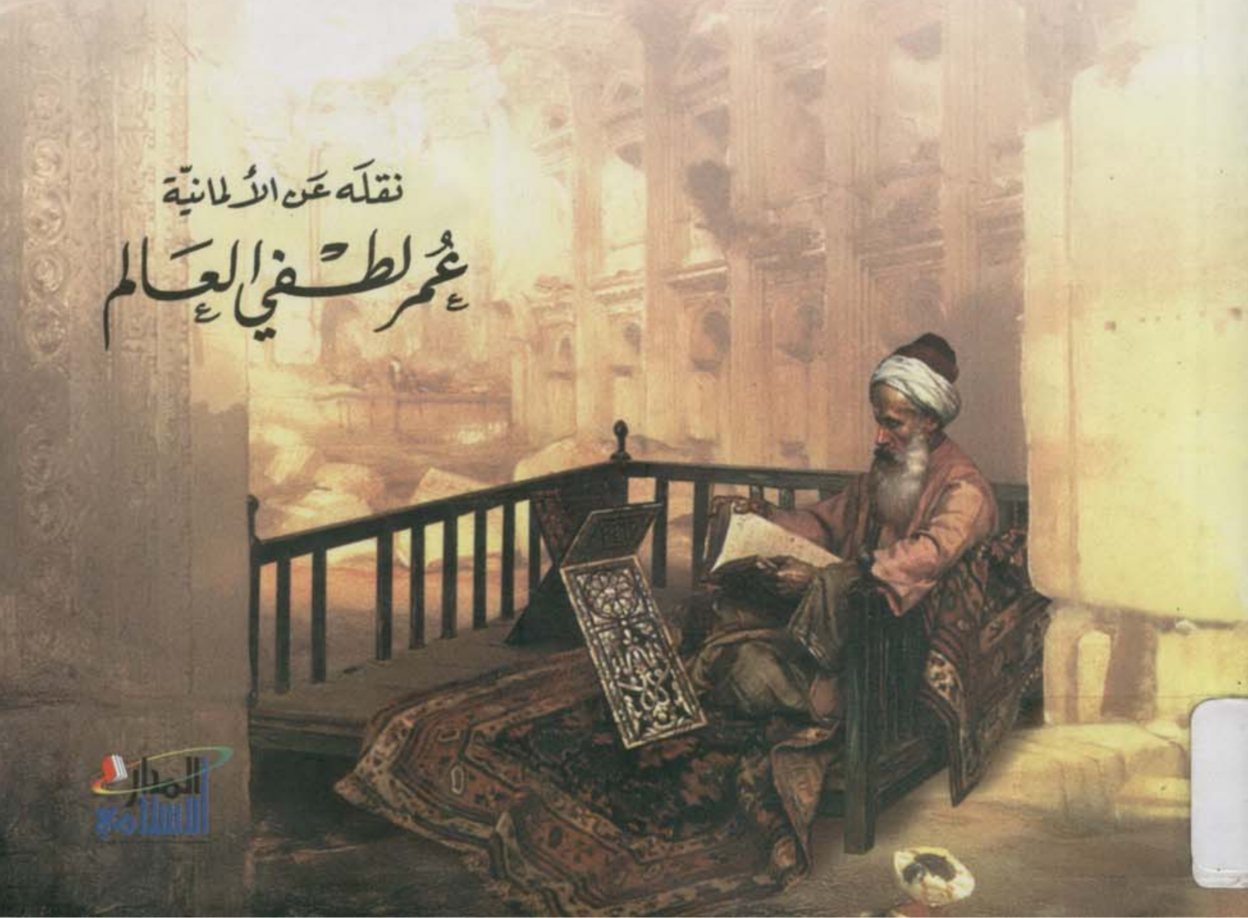
يوهان فوك

تاريخ حركة الاستشراق

الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين

نقله عن الألمانية

عمر لطفي العالم





تاريخ حركة الاستشراق

الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين

المستشرق يوهان فوك

نقله عن الألمانية
عمر لطفي العالم

دار المدار الإسلامي

الطبعة الثانية

حزيران/يونيو/الصيف 2001 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 3918/ 2000
ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 995-29-041-7
دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،
خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961
بيروت ـ لبنان

توزيع دار أويــا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498،
هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

مقدمة الطبعة الثانية

يتزامن صدور الطبعة الثانية من هذا الكتاب، مع حلول الذكرى المئوية الأولى لأقدم مؤلَّف نقدي في الدراسات العربية الاسلامية. فمنذ قرن تقريباً، وبدعوة مفتوحة من الجامعة الملكية البروسية، نال المستشرق الألماني التوراتي (أبراهام جايجر) جائزة الدولة على بحثه: ماذا اقتبس محمد عن اليهودية؟. وأهمية الكتاب الذي احتل مكان الصدارة في قائمة ما يسمى بالدراسات المحمدية، لا يكتسي الأهمية بوصفه الأول من نوعه، بل لأنه الأول في منهجه وتوجهه. وبحكم توقيته، شكل جايجر مفترقاًبين مرحلتين، اجتازتهما حركة الاستشراق عبر مسيرة الألف سنة منذ بطرس المبجل وحتى جايجر. مرحلة اتسمتْ بالتخبط والعفوية في طريقة استقبال النص العربي الاسلامي، وأخرى خططت لمواجهته، وأفادت من الشوارد المعرفية التي منَّ بها عليهم باحثون أكفاء، عكفوا على استكشاف حضارات الشرق القديم، فقدموا خدمة جليلة، من حيث يدرون أو لا يدرون، لسلالة لا تضمر الخير لجنس أو معتقد.

لم يفكر الأخوان فلهلم وفريدريش، ولا ثالثهما بوب، وهم يفتشون عن أصول الأساطير بالسنسكريتية، بل ولا خطر على بال استاذهم المستعرب الفرنسي الكبير (سلفستردي ساسيه)، أنه ابتكارهم المستخدم في تحري الكنوز الأدبية، سيُزج به يوماً زجاً تعسفياً في سياق غير سياقه وغاية مخالفة لغايته، على النحو الذي لمسناه وقرأناه لدي الباحث اليهودي المذكور. ومهما يكُن من صبر المقدمات، فهي لا تتسع صدراً للخوض في تفاصيل

ذلك الحدثان، وذيوله، وآثاره البعيدة. فلا أقل إذاً - والحالة هذه - أن يدرك القارىء في هذه العُجالة، أن فاتحة الازورار لم تقع على عهد أشد المسيحيين غلواً في تاريخ الموقف المسيحي الراديكالي، فلبعض الخصومة مبرراتها أحياناً، بل حين خفَّ هذا المتسابق فقدم ليهوديته نجدة، وسربل مزاعمه بلباس الوقار والتقوى العلميين، وجعل من الاسلام رسالة تابعة، ومن تخاريفه التوراتية والتلمودية والمدراثية قدوة، قد ينزل المنطق السَّويُ على أحكامها صاغراً، ولكنْ بعصا المنهج، وسطوة التوثيق، والانصياع القهري لآليات ما يسمى (المنهج الأكاديمي)المتشدد).

ومثل هذه المغالطة ستقابلك أيضاً، كلما ثقفت دراسة تتناول بالنقد والتحليل مسألة من مسائل تاريخ البعثة بعد ظهور مناهج البحث التاريخي منذ موير وتوري وباريت. فقد أُخضع عدد غير هيّن من القضايا البارزة، التي يتعذر فهمها في غير سياقها التاريخي والبيئوي لقوانين غربية المنشأ، كما هي الحال في تفسير ظاهرة الوحي والهجرة والتعدد، والمكي والمدني وما إليه. لقد ارتأينا بسط هذه الحقائق قبل التوغل في خصوصيات الكتاب، كي يكون القارىء على بينة من أن قراءة تاريخ الحركة يُعرِفُ بتطورها، وأعلامها، ورماكزها، وتشعبها، لكنه لا يغني عن الرجوع إلى الموضوعات والحيثيات التي عالجها الرجال، بالتحقيق، والتصنيف، والترجمة، والتأليف على مدار الألفيتين الأولى والثانية، وشهدت ضموراً مرّةً، وتألقاً تارة، ونهضةً في هذا البلد الأوروبي فتوراً في غيره، تبعاً لاهتمامات ومصالح الدول بالشرق سابقاً وبالمسألة الشرقية لاحقاً.

وقد يكون من الخير أن نذكّرَ، بأن الاستشراق الذي كثيراً ما أسهب المعنيون في توصيفه وتعريفه، لا يعدو في رأي الكوكبة علماً طال الاسلام عقيدة وثقافة، أنّى ترجل فاتح، أو انضوت تحت لوائه أمة وحضارة. وهكذا ندرك المغزى من ازدهار دراسات تركية وعربية وفارسية، بل وهندية وأفريقية وآسيوية، وندرك بقدر أوفى أن ينشط الاستشراق في النمسا وهولندا وانجلترا وايطاليا وفرنسا. فتقدمُ العثمانيين في البلقان ارتعدت له فرائص فيينا بدون

ريب. فلا عجب إنْ نشأتْ مدرسة للدراسات العربية تزعمها المستشرق بورجشتال، ولا غرابة اذا تبوأت لايدن بادارة مستشرقها سنوك هورخرونيه مكانة مرموقة وُضعت في خدمة المستعمرات الهولندية في جنوب شرق آسيا. إلا أنَّ الألمان الذين حُرموا من وليمة المستعمرات، لم يُنههم ذلك عن الضرب بسهم وافر في هذا العلم. ومن بابا أولى ـ ونحن نستجمع أسباب اللهفة الأوروبية على الثقافة العربية ـ أن نعود بذاكرتنا القهقرى، فنستذكر الدافع الذي حال بالاسبان إلى العدول عن السيف إلى الكلمة، من أجل درء الخطر الذي شكله الفتح الاسلامي بداية، ومن بعده الموحدون، الذين أثاروا بانتصاراتهم المتكررة حفيظة الكنيسة، فنبعت فكرة ترجمة القرآن للتعرُّف على الطبيعة المعرفية للخصم، ومقارعته بالحجة وبقوة كلمة المحبة المسيحية بدل العنف الأعمى كما عبر عنه أصحابه في حينه. ولقد أصاب (فوك) كبد الحقيقة، حين شبَّه حال الكنيسة وهي تتبنى الفكرة وتنفذها، بحالة الدول النامية في وقتنا الراهن. إذ بات لزاماً عليها، إنْ هي أرادت الخروج من مأزقها واللحاق بموكب العلم والتكنولوجيا، أن تخطو الخطوة الأولى فتنفتحَ معرفياً على ثقافات وايديولوجيات الدول المبتكرة أولاً.

غير أن تحجيم الحركة على الصورة التي رأينا، وحصرها في دائرة الدراسات الاسلامية، لا يجدي نفعاً، ولا يقدم صورة صادقة باسباب الحركة وأهدافها كافة.

بلى، لقد لعب الدين دوراً رئيساً. فإذا عرّفنا الاستشراق الآن، على أنه فقه اللغة (الفيلولوجيا)، كما حرص المستشرق باريت على تسميته، فلا نكون بذلك قد مرقنا. فاللغة العربية، بحكم تحدرها من أسرة سامية واحدة، إلى جانب الآرامية والسريانية والعبرية، استأثرت باهتمام الكنيسة لشرح ما أبهم من نصوص الكتاب المقدس. من أجل ذلك فلم نفرط، إنْ قلنا. إن الاقبال على تعلُم العربية لميكن بحافز أحادي، ولا بطفرة دمينية فحسب، بل لأسباب معرفية أيضاً نختزر لها ببضع سطور. فمن المعروف أن العصر الوسيط شهد للعرب أنهم ورثة العلوم القديمة. وهو مصطلحٌ كان يطلق

على الطب والفلك والفلسفة والرياضيات. وأنّ هؤلاء العرب شدّوا ببدائعهم أنظار الزائرين والمحاربين والمتتلمذين، الذين ارتادوا المشرق واسبانيا بدرجة سواء. وكانت العربية وقتها كالانجليزية اليوم، لغة الرقي والمدنية، بوابة الخلاص من الجهل والتخلف إلى بهو النور والمعرفة. وعلى مرِّ الزمن تحولت الرغبة من طلب العلم إلى مزيج من الاعجاب والامتنان. فقد حدثنا تاريخ الحركة عن صراع مرير بين هواة التقعر وطلب اللغة للُغة، وبين أنصار التعلُم لتحسس مواطن الحسن والجمال في آثار الآخرين. وكان الشعار المرفوع دوماً وحتى وقت متأخر من القرن الثامن عشر، هو تخليص الاستشراق من قبضة اللاهوت (AUTORITAT). ففي خطٍ موازٍ للرؤية المتشائمة التي صدّرنا بها هذه المقدمة، نشط العمل على غير صعيد لاستنطاق الثقافة العربية الاسلامية، لاسيما بعد وفرة المراجع من مخطوطات مهاجرة، ومسروقة، وكتب، وشهود عيان، وآثار باقية، بالاضافة إلى مذكرات وأعمال الرحالة والمستكشفين. وقد أعانهم على ذلك أيضاً اعتماد مقاعد للغة في بعض الجامعات والمعاهد الأوروبية العليا.

أخذاً لهذا كله بعين الاعتبار، فليس من العدل أن ننظر نظرة متجهمة، ونأخذ الكل بجريرة البعض، سواء ما كان منه بدافع التعصب الديني، أو الطمع الاستعماري، أو الغلو المنهجي. فكما وُجد من بين هؤلاء من قذف العربية واتهمها بالعجز وقصر الأداء، وُجد أيضاً من شغف بها، واستبسل في الدفاع عنها، بل واتخذ من شعرها الغزلي هدية لعروسه في يوم زفافها. وكما نسجل عليهم حق استعادة تراثنا المنهوب، نسجل لهم حفظ جانب مهم من التراث من الاندثار والضياع كما هي الحال مع كتاب (تاريخ الأدب العربي) لبروكلمان. واذا كنا نحترز أن نكون لساناً ينوب عن المؤلف (فوك) في ذكر مناقب هذا الكتاب، وما قدم من معلومات وبيانات تخص حركة الاستشراق منذ نشوئها، فإنه يعزُ علينا أن تمضي هذه المناسبة دون الإشارة إلى أن التاريخ ـ أيَّ تاريخ ـ اذا اقتصر الباحث منه على جانب الرواية الجامة والسرد المستقيم، واكتفى منه برصف الاحداث والأسماء والتاريخ

والأعمال، وصرف النظر عن العامل الانساني في تشخيص الحدث وابرازه، خلا التاريخ من عنصر العبرة والمتعة والتشويق، وأصبح دارةً مغلقة لا نبض فيها ولا حياة.

ويبدو لي أن المؤلف فوك، أدرك الجانب المثمر إلى جانب العقيم لدى كتابة التاريخ، فحرص أن يضخ في كل واقعة شيئاً من روح صاحبها. وهكذا جاء كتابه نسخة مطابقة لعلم هو في النهاية بناء انساني مشترك تتقاطع فيه الأمزجة والأهواء والدرايات.

1 ـ تمهيد

تحتل الدراسات العربية والإسلامية منزلة مهمة في الحوار العقلي الدائر بين أوروبا والإسلام. وللحق فإن فتوحات العرب الكبرى والمواجهة المسلحة بين الدولة الإسلامية الفتية والإمبراطورية البيزنطية وبين الدول الأوروبية الأخرى فيما بعد، لم تتركا للساسة الغربيين متسعاً من الوقت كي ينشغلوا بدراسة اللغة العربية. . يضاف إلى ذلك أن قيام العالم الإسلامي بالمحافظة على تراث القدماء (اليونان وغيرهم) في مجالات الفلسفة، والرياضيات، والطب، والفلك، والعلوم الطبيعية وبإثرائها، حثّ الأوروبيين على الترجمة من العربية إلى اللاتينية، لكنه لم يؤد إلى القيام بدراسات فقهية للغة. وبرغم المحاولة، فإن أقدم ترجمة لاتينية للقرآن التي ترجع إلى سنة 1143م، اضطلعت بتقديم مضمون الفكرة ولم تكترث بأسلوب الأصل العربي وصياغته. لكن الطموحات التبشيرية للكنيسة الكاثوليكية واتحاداتها، امتنعت عن الخوض في تحقيق هذا الغرض بدون مبشرين تتلمذوا لغوياً، مشكلين بذلك الباعث الأول على طريق الدراسة الجادة للغة العربية في أوروبا التي بلغتْ ذروة ازدهارها في إسبانيا أيام تيار الإنسانية الإسباني المبكر، وقدَّمتْ الحرف المطبعي العربي بمطبعة العالم (الميديشتيه)[1] وبعد مضي قرن على ذلك الزمن. وكان للاهتمام الذي أزكته حركة الإصلاح الديني لدراسة الكتاب المقدس وإصحاحاته الشرقية أثره الإيجابي على الدراسات العربية أيضاً. غير أن العلاقات السياسية والاقتصادية للقوى الكبرى مع الدول

(1) نسبة إلى مؤسسها فيرديناند فون ميديشي.

الإسلامية كانت العامل الأكبر وراء الاهتمام باللغة العربية. وانتزعت هولندا زمام المبادرة مع بداية القرن السابع عشر لمدة تقارب القرنين. وبوحي من عصر التنوير، الذي لم يعدْ يمثل على أوروبا خطراً بعد إنهاء الإمبراطورية العثمانية، أخذ الحكم على الإسلام في التبدل تدريجياً. وبعد نجاح الثورة الفرنسية سنة 1789 في تحقيق أفكارها، انتزعت فرنسا الريادة في مجال الدراسات العربية. وكان نصيب هذه الدراسات من الانتعاش الذي شهدته حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر ككل وافراً. وإلى جانب الرومانسية، لعب النقد التاريخي بشكل خاص دوراً مؤثراً في توجيه هذه الدراسات. فالفهم المتبلور المتمثل في عدم تحقيق كل شيء دفعة واحدة، أدى بالضرورة، لدى إمعان النظر تاريخياً في الشخصيات الفذة، أدى إلى الاستكشاف الدقيق للمحيط، وبالتالي للتوصل إلى أسلوب بحث اجتماعي يقضي بعدم النظر إلى الإنسان بوصفه فرداً، بل بتصنيفه في غير معزل عن عالمه، وبمحاولة فهمه من خلال خصوصيات انتماءاته التاريخية.

وفيما يلي من صفحات، تتجه مساعينا لتتبع مراحل تطور الدراسات العربية في أوروبا كلاً على حدة، ولجعلها قريبة من الأذهان في إطار الحوار العقلي الأوروبي مع الإسلام.

2 ـ بطرس المبجل وأقدم ترجمة للقرآن

عاشت أوروبا المسيحية والشرق الإسلامي قروناً طويلة جنباً إلى جنب، دون أن يشعر أحد الطرفين بحاجة لتعلم لغة الآخر. وبما أن الاتصال كان قائماً، كما في التجارة وتبادل السلع، فقد تولى أولئك القيام بمهمة الترجمة لأنفسهم كما هو متعارف عليه، وإلا فإنَّ أهل العقد والحل نادراً ما عرف الواحد منهم عن الجانب الآخر شيئاً، فكل فئة كانت تؤمن بأن ما في حوزتها هو الدين الوحيد الصحيح، ورأت في أحقية كل خصم في الإعراب عن حقه تحدياً مماثلاً.

ولقد عاش المسلمون في حالة حرب مع عالم لم يكن يدين بمعتقدهم، وأبى الاعتراف بسيادتهم سراً كان أو علانية. لكن الكنيسة المسيحية شعرت بوجود تهديد شديد لها نتيجة الانتصارات الساحقة التي حققها الخصوم. فبيزنطة فقدت في القرن السابع مستعمراتها في آسيا وشمال إفريقيا باستثناء آسيا الصغرى على يد العرب، ثم اضطرت إلى التخلي عن آسيا الصغرى للسلاجقة في القرن التاسع بعد معارك كانت فيها الحرب سجالاً بين الجانبين. وبسقوط صقلية فقدت السيادة على البحر، وبذلك أصبح البحر المتوسط غير آمن بسبب القرصنة. وفي الغرب فتح العرب والبربر معظم إسبانيا ولم يبق منها سوى شمالها الغربي. ومن هذه النقطة شُنتْ حروب الاسترداد (ريكونكويستا).

إن مثل هذه العلاقة المتوترة لم تسمح بمعرفة حقيقية متبادلة. فلقد كانت الآراء التي كونها كل طرف عن الآخر في كلا المعسكرين غير دقيقة وغير موضوعية.

ولم يتوقف الأمر لدى عدم استعداد كل طرف لفهم الطرف الآخر، بل تجاوزه إلى وجوده النية الصادقة لإحقاق الحق في الخصم المعادي الكريه، وبالذات منذ تصادم القوتين في الحملة الصليبية الأولى سنة (1096 ـ 1099). على أن عصر الحروب الصليبية بالذات هيأ من جهة أخرى شروطاً مسبقة لدى الأوروبيين للعناية المؤقتة باللغة العربية وآدابها. فقد أحس الأوروبي مبدئياً بالحاجة إلى ملء الفراغ الذي شغله المسلمون بوصفهم أوصياء على التراث اليوناني في مجالات الطب، والفلسفة، والعلوم الطبيعية. ففي نهاية القرن الميلادي الحادي عشر تقريباً، نقل قسطنطين الإفريقي، من أصل مسيحي تونسي، كان في خدمة الدوق روبرت جوسجارد الأبوليوني، الذي انتزع جنده النورمان صقلية من العرب المسلمين في سنة (1060 ـ 1090)، نقل مؤلفات أطباء اليونان والمسلمين إلى اللاتينية، معطياً بذلك مدرسة سالرنو وبالتالي سائر العلوم الطبية في الغرب دفعة قوية. لكن هذه التراجم التي ما لبثت أن تجاوزتها تراجم أخرى في ميادين علوم الأقدمين، لم تهيىء بدروها أيضاً نظرة شمولية في جوهر الإسلام[1]، ولا أعطت حافزاً كافياً لدراسة مستقلة لفقه العربية. وقد اكتفى الدارسون من مادة المخطوطات المعنية بالترجمة بوسطاء لغويين، كمسيحيين شرقيين أو بمسيحيين محليين اعتنقوا الدين الإسلامي، كانوا يقدمون مضمون المعنى فقط. وحيث إن هؤلاء الرجال لم يكونوا من الضليعين في اللاتينية، فقد توجب نقل مضمون ترجمتهم إلى اللهجة الرومانية الدارجة أولاً ومن ثم إلى اللاتينية الفصحى قبل أن يُصار إلى الترجمة النهائية للنص.

ولقد كانت فكرة التبشير هي الدافع الحقيقي خلف انشغال الكنيسة بترجمة القرآن واللغة العربية. فكلما تلاشى الأمل في تحقيق نصر نهائي بقوة السلاح، بدا واضحاً أن احتلال البقاع المقدسة لم يؤدِ إلى ثني المسلمين عن دينهم، بقدر ما أدى إلى عكس ذلك، وهو تأثر المقاتلين الصليبيين بحضارة

(1) شبه المؤلف هذه الحالة باستيراد التقنية الغربية التي لم يصحبها معرفة البنية الحقيقية للمجتمع الغربي.

المسلمين وتقاليدهم ومعيشتهم في حلبات الفكر. وقبل حدوث واقعة (إيديساس) في شهر ديسمبر من سنة 1143، وهي السنة التي رُد فيها الصليبيون على أعقابهم، ظهرت أول ترجمة لاتينية للقرآن في سنة 1143. وقد نُسبت إلى مؤلفها الأب بطرس المبجل، رئيس دير كلاني الذي ولد في سنة 1092 أو 1094 ومات في سنة 1157. وكان بطرس هذا قد أقلّته رحلة عمل إلى إسبانيا في سنة 1141، حيث لم يكتفِ بالإشراف على أتباع طائفته والتوسط لاستتباب السلم بين ألفونس الثاني ملك قشتالة وألفونس الأول الأراجوني، بل وجدها فرصة سانحة للتعرف على الحوار القائم بين الإسلام والمسيحية، والمعارك الدائرة بين المسلمين والإسبان، والشعار المرفوع لاسترداد بيت المقدس كما جاء في أحد الأناشيد، وسياسة الموحدين الدينية الذين شنوا هجماتهم على إسبانيا في تلك السنوات.

وقد خرج من ذلك كله بقناعة، بأن لا سبيل إلى مكافحة (هرطقة محمد) بعنف السلاح الأعمى، وإنما بقوة الكلمة، ودحضها بروح المنطق الحكيم للمحبة المسيحية. لكنّ تحقيق هذا المطلب كان يشترط المعرفة المتعمقة برأي الخصم أولاً. وهكذا وضع خطة للعمل على ترجمة القرآن إلى اللاتينية. وحدث أن تقابل في إحدى ضواحي شبه الجزيرة الإيبرية مع راهبين، أحدهما إنجليزي يدعى (روبرتوس كيتينيسيس)، والآخر يدعى هيرمان الدالماتي، كانا ملمّين باللغة العربية، ويعكفان على در اسة مؤلفات عربية فلكية، وافقا على ترجمة الكتاب مقابل مبلغ مغرٍ من المال. وبحسب ما جاء في مقدمة الترجمة، فقد كان روبرتوس مسؤولاً عن ترجمة القرآن، في حين قام الآخر بترجمة النُبذة المختصرة[1]. كما ترجم، وإن لم يكن يستحق هذا اللقب بكل ما تحمل الكلمة من معنى، ترجم تاريخ إسلام بعض الشخصيات[2]. ومن النصوص الثلاثة هذه نصٌ يعود إلى كتاب (مسائل عبدالله بن سلاّم) واسع الانتشار، ويتضمن وصفاً للكيفية التي أجاب بها

(1) Doctrina Machumet et nutritura eius.

(2) Chronica mendoza et ridiculisa saracenorum.

الرسول عن أسئلة بعض أحبار اليهود، وكيف كان ذلك سبباً لحمله على اعتناق الإسلام، وأما النص الثاني الذي ينسب بروايته الطويلة إلى (كعب الأحبار)، فهو كنايةٌ عن عرض لأصل ومولد وطفولة الرسول. وأما النص الثالث فنظرةٌ إجماليةٌ لتاريخ الإسلام وصولاً إلى وفاة الحسين بن علي كرّم الله وجهه. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كلّف بطرسُ المبجل الأستاذَ بطرس التوليتاني، وهو رفيق مستعرب بترجمة مخطوط في (علم الكلام) من العربية إلى اللاتينية، كما وضع تحت تصرفه، لكون الأخير لا يجيد اللغة اللاتينية، أمين سره الخاص، الموثق القانوني بطرس البكتافينسي، معاوناً أسند له تهذيب وتنقيح وبيان ما قد يغمض من ترجمة (توليدانيرس). وفي سنة 1143، أرسل المبجلُ بطرس كل هذه المخطوطات المترجمة[1] إلى الأب برنهارد شيرفو مشفوعة بخطاب ينوّه فيه بنضال رجالات الكنيسة ضد سائر أشكال الإلحاد. وفي خاتمة المطاف، اعتمد الناشر بيبلياندر النصين

(1) وقد أشرف الأب والناشر السويسري (تيودور المكتبي) على ترجمة روبرتوس كيتينيسيس للقرآن، وكانت الطبعة الأولى في سنة 1543 بمدينة بال السويسرية، أي بعد انقضاء 400 سنة على ترجمتها في ثلاثة مجلدات، فيما صدرت الطبعة الثانية منه في سنة 1550. يجدر بالذكر هنا، أنه وُضع تحت تصرف الناشر مخطوطات مترجمة للقرآن: وعلى سبيل المثال فإنه يملي من نسخة العصر الوسيط كما على الصفحات 19، 93، 185. وبما أن هذه المخطوطات لم تخضع لمراجعة، فإن السؤال يظل قائماً حول ما إذا كان النص الوارد ذكره هنا قديماً أو أنه أجري عليه تعديل. إن التلاعب بالنص الأصلي الذي أشار إليه بيبلياندر على صفحة العنوان، لم يؤثر في شكل نصه، ولقد كانت معرفته بالعربية متواضعةً إلى درجة أنه لم يكشف النقاب في حواشيه عن وجود ثغرات أو أخطاء في النص إلا نادراً، بالإضافة إلى عدم بذل أي محاولة لتصحيحها كما جاء على الصفحات (185، 187، 188) على سبيل المثال. وغير مرة، قام بضبط الأرقام الناقصة في النص، 3 و4 (ص16، 19) بحسب ما جاء في النص الآخر. ومن جهة أخرى فقد أرفق ترجمة متميِّزة جداً لسورة البقرة لمترجم أغفل اسمه [قسمت طوال السور 2 ـ 5 وفق تقدمة الحزب إلى ثلاثة مقاطع]. (وبدون إشارة إلى المصدر)، مع محاولة أخرى لترجمة السورة نفسها من قبل فلهلم بوستل. وبعد (الشروع في الطباعة) فقط، تلقى مخطوطين آخرين، اقتبس منهما عدداً كبيراً من القراءات مدونة على الهامش.

المدرجين لترجمة القرآن (تبعاً لما في حوزته من مخطوطات).

1 ـ مراسلة بطرس المبجل رئيس دير كلاني إلى بيرنهارد (الصفحة 1 ـ 2).

2 ـ مجموعة مختصرة من الوثائق الشيطانية المضادة للطائفة الإسلامية الكافرة.

3 ـ مقدمة روبرتوس كيتينبسيس على ترجمته في صورة خطاب موجه إلى رئيس دير كلاني الصفحات (7 ـ 8).

وقد أُلحقتْ بمجموعة بيبلياندر المترجمة النصوص الثلاثة التي سبقت الإشارة إليها، والتي يُنسب منها النصان المترجمان الأولان على الأقل إلى هيرمان الدالماتي:

(1) تعاليم محمد (ص 189 ـ 200).

(2) أمة محمد ونشوؤُها.

(3) تاريخ المسلمين.

وترجمةُ روبرتوس للقرآن تزخر بأخطاء جسيمة سواء في المعنى أو في المبنى.

ولم يكن أميناً إذا أغفل ترجمة العديد من المفردات، كما لم يتقيد بأصل السياق، ولم يقمْ وزناً لخصوصيات الأسلوب، بل أعمل جهده لاستشفاف مضمون فكرة كل آية من كل سورة ثم ترجمتها وتقديمها بما لا يجافي المنطق في السورة 104 مثلاً (الترقيم الحالي للقرآن الكريم وليس طبعة بيبلياندر أي سورة الحطمة، ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ. . .﴾ الآية، أورد. . . الذي سيخلده ماله فحذف (حسب) وبذلك أعطى عكس المعنى المراد من الآية تماماً. . .

وفي موضع آخر من السورة الآية: ﴿. . وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾وما أدراك ما الحطمة، نار الله الموقدة) ترجمها بكلمتين مترادفتين (ألسنة وأعمدة النار الشاهقة).

وبرغم ما اعترى هذه الصياغة من هنات، وإهمال، وعدم دقة، وسهو عن إعطاء ترجمة سليمة للأفكار الرئيسة، فيُعتقد أنَّ أحد مسلمي المغرب الذي كان يلمُّ بالقرآن وقف إلى جانب روبرتوس أثناء عمله. واستناداً إلى ما تقدم، فإن طبعة (أوبزرفاتيو بريفيا) بالقياس إلى مؤلف بطرس المبجل قد يكون صحيحاً، وأن المشرف رئيس دير كلاني جعل إلى جانب المترجمين شخصاً ثالثاً وهو أمين سره بطرس التوليتاني. وبذلك فإن هذا العمل يُعد إنجازاً مهماً، بالنظر لكونه أول ترجمة للقرآن إلى لغة أجنبية.

وبحسب التصور الإسلامي فإن كتاب الله طاهر لا يمسه إلا المطهرون. والخشية من وقوعه في أيدي الكفرة، حمل المسلمين على عدم حمله أثناء سفرهم وتجوالهم في بلاد الأعداء[1]. كما أن إيمانهم باستحالة تقليده، أي ترجمته إلى لغة أخرى، جعل النظر إليها عملاً لا طائل من ورائه، وبالتالي لعدم لعب الترجمة أي دور في الفتوحات الإسلامية. وهكذا فقد بقي مضمون القرآن مجهولاً في أوروبا لقرون طويلة، إلى أن جاءت ترجمة كيتينيسيس. ولعل إقدام بيبلياندر على هذه الترجمة بعد انقضاء أربعة قرون، إنما هو دليل على المنزلة الرفيعة التي كان يحتلها طوال تلك السنين. وجعلُهُ في متناول الجميع بحكم طباعته، زاد في استمراره وشدة تأثيره أكثر من أي وقت مضى. فمنها نبعثْ أقدم ترجمة إيطالية للقرآن أشرف عليها الناشر (أريفابيني في سنة 1547). وفي سنة 1616 ترجم سالمون شفايجر إلى الألمانية عن الإيطالية، وعن الألمانية إلى الهولندية في سنة 1641. ولم تتوار ترجمة روبرتوس عن الأنظار إلا بعد ظهور النسخة الإيطالية التي ترجمها ماراتشي في سنة 1698 والتي لا سبيل إلى مقارنتها من حيث صحتُها مع أي ترجمة أخرى قبلها.

(1) موطأ مالك، الجهاد، الفقرة 7، والبخاري، الجهاد، الفقرة 134 وغيرها.

3 ـ المعجم العربي اللاتيني

يرجع الفضل في صناعة المعجم العربي الذي لم يكتمل، إلى الأوساط التي اهتمت بإجراء مناظرات عقلية مع المسلمين في القرن الميلادي الثاني عشر، وبالقدر نفسه إلى المساهمة الأوروبية فيه. ولم توافنا المصادر المتوفرة باسم واضعه ولا بمكان وتاريخ صدوره، وإن كان محتواه يدل على أنه أُلف في إسبانيا المسيحية. ولا نرتكب خطأً إذا أرجعنا خطة وضعه إلى أحد كبار الرهبان، الذي أراد منه أن يكون عوناً في عملية التبشير. وقد وقع اختياره من حيث المبدأ على ملحق لغوي لأحد المعاجم التي كانت قيد الاستعمال في دور العلم، وعهد إلى أحدهم بترجمته إلى العربية الفصحى. وتكشف الطبيعة اللغوية لهذه الترجمة عن أنها أُعدت من قبل رجل كان يتحدث العربية بطلاقة، الشيء الذي يفهم منه بأنه كان لأحد المستعربين، أي لمسيحي إسباني عاش في ظل الحضارة واللغة العربيتين.

ويلاحظ أنه كان يفتقر لقدْرٍ من المعرفة باللغة اللاتينية بالإضافة إلى ما لوحظ من عجز في التفريق ما بين الترجمة والشرح الموضوعي. وهكذا فبدلاً من إعطاء المرادف اللاتيني بالمفردة العربية المناسبة، لزم ما أورده الشارح اللاتيني. وحيث إنَّ كلمة (لحن) اللاتينية تُرجمت بعبارة (صوت عذب) (dulcedo vocis)، فقد كتب خلفها (غناء حلو) بالعربية. وقد ترجم عبارة قناة الري: Fist ula aquaductus de pgumbo بعبارة (قنوات الرشاش التي يجري فيها الماء). وبسبب الجهل بمعنى المفردة فكثيراً ما فاته الانتباه إلى الخطأ الفادح في الشرح. فعبارة (alipes) المستقاة من الشاعر فيرجيل

ومعناها (بخطى سريعة) عبر عنها بكلمتي (equs velox). فلم يجد هذا المترجم أمامه سوى alipes equus، فكتب كلمة (فرس) خلفها. وكلمةُ angina (خناق الحلق) استبدلت بالعبارة اللاتينية (angina tuberna)، ولهذا السبب فقد ترجمها بكلمة (حانوت). وحيث إن الشروح اللاتينية عادة ما أهملت بعدئذ في المخطوط الوحيد الذي انتهى إلينا في حالة وجود مقابل عربي، فإن ترجماته الخاطئة لا تظهر على الأكثر، إلاّ حين تكون الشروح معروفة لدينا في معجم آخر. وخيرُ ما نرجع إليه في هذه الحالة (معجم كوربوس) الغزير الذي يفي بالغرض، وكذلك (معجم تيزوروس) لواضعه ج .جوتس. فإذا ما ترجم الكلمة اللاتينية (Feniceum)، (purpurrot) بكلمة (وردي)، وجدناها متطابقة هنا وهناك.

إن عدم استقلالية المترجم وتعلقه بشروحات غيره، يُعدان السمة الأولى للنقص الذي يلازم عمله. ويستفاد منها أنه سرعان ما يكدس المرادفات. فمقابل كلمة qauasso، يعطي ما لا يقل عن 16 مرادفاً عربياً، ثم يلجأ إلى العكس حيث يعطي مرادفاً عربياً واحداً لستّ عشرة كلمةً لاتينية. فلكلمة قربان مثلاً، يعطي (Sacrificium, victima... Holocaustum, libamen)، ولكلمة (كافر) لا يكتفي بمرادفين فقط: (imfdus و infidelis) بل يعطي (sacrilegus، imcredulus، praeuaricator crude lis، prefidus)[1].

ويتبع المترجم المنهج نفسه الذي اختطته المعاجم اللغوية قبله، فحيث لا يجد تحت تصرفه شرحاً لمسألة ما، فإنه يكتفي بمطلق معنى اللفظ، وهكذا يعطي المقابل: فيلسوف لكلمة (أكاديمي Academicus، أو أن يعطي (عصير العنب) لكلمة (خمر). وقد قوّى أسلوب الترجمة الركيك من هذا القصور، بحيث أدّت حرفيتها إلى مدلولات ركيكة. فقد ترجم المفردة اللاتينية (legifer) أي مشرع أو فقيه بالعبارة (حامل كتاب)، وكلمة: chirographum، أي سند دين، بمفردات مثل (كتاب، ذكر، حق)،

---

(1) المعنى ذاته موجود في المالطية أيضاً.

وشرحت بعبارة (كتاب الإشارة إلى الحق). وبالنظر إلى أن الثروة اللفظية الإسلامية الحقيقية بما فيها من مصطلحات ثابتة لم تكن جارية على لسان المترجم، فلا يمكن أن يستغربها أي مسيحي، ولم يسلم من هذا الأمر لدى تقديم المصطلحات اللاهوتية، فلكلمة (مقبرة) استعمل (دير)، وللإرادة استعمل كلمة (اختيار). فإذا أضفنا أنه لم يكمل عمله حتى نهايته، بل أهمل ثلث الكلمات المدونة التي تبلغ حوالى 11,000 كلمة، أصبح من المنطقي أن عملاً يعاني من مثل هذه الكثرة في العيوب الخافية والظاهرة، لن يكتب له الاستمرار.

4 ـ رايموندوس مارتيني

إن فكرة التبشير التي أدّت إلى ترجمة القرآن وإلى الاهتمام بالعربية وعلومها، شهدت توسعاً من خلال تنقلات الوعاظ الدينيين لطائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان. فالنضال ضد الإلحاد عن طريق الوعظ، والإرشاد، والحوارات الدينية، تطلّب الاهتمام بتعاليم الخصم والوقوف على حججه. وحرصت القيادات الروحية في أثناء تثقيف المريدين على خلق كوكبة متعلمة. وبالطبع فإنها لم تَرَ دراسة أصل المصادر ضروريةً، واكتفت بالترجمات التي ما لبث أن عبر الفرنسيسكاني روجر باكون (1214 ـ 1294) عن عدم قناعته بها، وإن كان قد ذهب في تأكيداته لما هو أبعد، حين صرح بأن معاونيه من المسلمين الأندلسيين هم المسؤولون عن ترجماته لهرمان الألماني. وأن ميخائيل سكوتوس يدين بفضل ترجماته إلى أحد اليهود الذين كانوا يعيشون تحت السيادة الإسلامية، الشيء الذي يؤكد بأن الاعتماد على الترجمات في عصر ازدهار الدراسات العربية في أوروبا، بتكليف أشخاص اعتنقوا الإسلام وكانوا يلمون بالعربية ويجهلون اللاتينية كلياً أو جزئياً، أضرَّ بها ضرراً فادحاً.

غير أن روجر باكون سارع بالمطالبة بتعلم اليونانية، والعربية، والعبرية، والكلدانية[1]. وكان الناس وقتها يكتفون بأخذ المعلومات بعد أن تتناولها أيادي عِدَّة. وحين عزم الدومينيكانيون على تأليف كتاب يوضع تحت تصرف

---

(1) مطالبة باكون (عالم البصريات والفيلسوف الإنجليزي 1220 ـ 1292؟) بتعلم هذه اللغات له ما يؤيده في تاريخ الأديان، إذ إن اللغة اليونانية كانت لغة الكتاب القدس التي أخذت عنها الترجمات الأوروبية، وأما العبرية وغيرها فباعتبارها من اللغات السامية فيرجع إلى ما كتبه د. أحمد شبلي في الخصوص بتوسع. (المترجم).

أعضاء الطائفة يكون عوناً لهم في مهمتهم التبشيرية[1]، لم توكل هذه المهمة إلى مجرد مبشر كان يعرف طبيعة العلاقات في حقل العمل الديني من خلال رؤيته الخاصة وإلمامه باللغة، بل لأحد أكبر فلاسفة الكنيسة الكاثوليكية، توماس الإكويني الذي ألّف الكتاب: Summa contra gentiles[2] (حوالى سنة 1260 للميلاد). ولم تكن الحاجة إلى معرفة اللغات الأجنبية تقتصر على الوعظ، إذ إن العمل في أهم مجال وهو النشاط التبشيري في الوسطين اليهودي والمسيحي في إسبانيا بالذات، كان يلائم المبشر الذي يتحدث اللغة الرومانية الدارجة في الأوساط الشعبية التي تتحدث بلسانين. أما مقدار معرفتهم التي وصلوا إليها في الأوساط غير المسيحية أيضاً، فذلك ما تشير إليه المفردات العربية في نصوص ابن قزمان الشعرية (المتوفى سنة 1141) بالنسبة للجانب الإسلامي، والمحسنات البديعية العربية والقشتالية في ديوان يهودا هال ـ ليفي (المتوفى 1141) بالنسبة للجانب اليهودي. كذلك، فإن من كان يرغب في مباشرة التبشير في المناطق الخاضعة للسيادة المسيحية في الشرق الأوسط، كان يمكنه الاكتفاء باستخدام أحد المترجمين لهذا الغرض[3]. إنه في ظل هذه الظروف، بقي عدد أولئك الذي عرفوا اللغة العربية أو أي لغة شرقية أخرى قليلاً جداً. ومن بين هذه النخبة برز القس الإسباني الدومينكاني رايموندوس مارتيني[4]، الذي أظهر في مؤلفه (Rugio Gidei aduersus Maurus et Judaeos) أنه ضليع في اللغتين العربية والعبرية. وفي كتابه هذا، الذي أراد منه أن يكون سلاحاً في يد إخوان طائفته للدفاع

---

(1) كان ذلك بتحريض من القس الدومينكاني رايموندوس بينافورت (المتوفى سنة 1275) وكان مكلفاً بالتبشير في الوسطين اليهودي والإسلامي.

(2) اسم الكتاب بالعربية: في تفنيد الفلسفة الدينية.

(3) يزعم المؤلف بأن التشريعات الإسلامية في المناطق الخاضعة للحكم العربي جعلت مهمة التبشير شبه مستحيلة؟

(4) ذكر ب. آلتانز، في المقال حول اللغة العربية في القرنين الثالث والرابع عشر في مجلة الشرقية اللاتينية المجلد II، 437 ـ 42، 1936، ذكر من المصادر أسماء 17 مستعرباً فقط.

عن المعتقدات المسيحية، ضد خصومهم، اليهود منهم بخاصة، يناقش اعتراضات اليهود على فكرة خلاص المسيح وعقيدة التثليث، ولا يكتفي في هذا الخصوص بتلاوة أصل نص العهد القديم (التوراة) وترجمتها، بل ما جاء أيضاً في مخطوطات التلمود وأحبار اليهود، والتفاسير اليهودية ابتداءً من المشنا والمدراش حتى عصر راشي وكميشي اللذين توفيا في (1105 و 1235).

ومن أجل البرهنة على السِّمة النبوية للسيدة مريم، يستدِلُّ أيضاً بآيات القرآن المتعلقة بالخصوص، ثم يروي من صحيحي البخاري ومسلم الأحاديث الدالّة على أن كل حديث ولادة عدا مريم وابنها يمسه الشيطان. وفي الوقت الذي يلمح فيه تلميحاً إلى القرآن والسنة، يكشف عمله عن تأثر شديد بفلسفة الغزالي وغيره من المفكرين المسلمين. ففي الجزء الأول من كتابه يقتبس مقطعاً طويلاً من كتاب (المنقذ من الضلال) للغزالي (المتوفى سنة 505)، والشيء نفسه من كتاب (تهافت الفلاسفة)، وأما السباب والشتيمة اللتان كالهما إلى الفلسفة في الفصل الخامس، فاستقاهما من كتاب التهافت ومن مصدر لاتيني آخر، وتوالت الرواية حول التهافت أكثر من مرة. وإضافة إليه، فقد اطلع رايموندوس على (مشكاة الأنوار) و(ميزان العمل) وكلاهما للغزالي أيضاً. واقتبس من (إشارات) ابن سينا (المتوفى 1037) وصفاً حول (مباهج الجنة)، وكذلك نقضاً لجالينوس فيما كتب حول (مفهوم الروح). وحتى ابن رشد (المتوفى 1198) الذي دافع عن الفلسفة، وكان لأرسطوطاليسيته أنصار في أوروبا، كثيراً ما تردد اسمه في أثناء وضعه للحكمة الإلهية المطلقة. وما كتب حول مسألة: (utrum Deus cogularia)، تقتبس في جوهره من رسالة لابن رشد، وفي موضع آخر يشير إلى (أرجوزة ابن سينا). وقد أورد الرازي في رسالة له حججاً ضد (عدم فناء العالم). كما عَرَّج أيضاً على كتاب فخر الدين الرازي (المتوفى سنة 1210) (المباحث المشرقية) مرّةً. وإنَّ تهجم رايموندوس على القرآن الكريم من خلال تقليده لإحدى سوره، تكشف عن مقدرة فائقة باللغة العربية[1].

---

(1) هو رأي المؤلف على أية حال؟!

5 ـ رايموندوس لولوس

ولعل الأوسع شهرة من سابقه مبشرٌ آخر حانقٌ على الإسلام هو رايموندوس لولوس من القرن 13. ولد في جزيرة مالاقا سنة 1235 أو 1232 قبل أن يستولي عليها الموحدون بست سنين. كان والده نبيلاً شارك مع يعقوب الأول الأراجوني في حربه ضد المسلمين المغاربة، وكوفىء بإقطاعية في مالاقا بعد احتلال الباليار. وهكذا فقد نشأ الصبي في محيط كانت فيه روح النضال الإسبانية أو الاسترداد (ريكونكويستا) على أشدها. لكن الحياة الدنيوية لم تكن أكبر همه، بل أخذت فكرة الزحف الصليبي بمجامع لبّهِ، واعتصرته مسألة تحقيق انتصار الكنيسة الكاثوليكية على الهرطقة والإلحاد. ومن قراءته للتاريخ السياسي لبلاده، توصل إلى أنه لا سبيل إلى فرض المعتقدات المسيحية بطريق الوسائل السلطوية، وأن الفتوحات الكبرى بالذات التي قصرتْ منطقة السيادة الإسلامية على الأندلس في منتصف القرن 13، زادت من وتيرة الصعوبات السياسية الدينية للأمراء المسيحيين. وكان أمله أقوى في إمكان البرهنة على الحقائق المسيحية المقدسة بحجج مقنعة لا سبيل إلى دحضها إذا ما أفلح في ابتكار طريقة غير منقوصة للبيان. فإذا حدث أن نقل أحدهم التعاليم الكاثوليكية إلى أحد الخصوم المثقفين وفق هذا الأسلوب بلغته الأم، فإنه يستحيل على أحد، كائناً من كان، يهودياً، أو مسلماً أو كافراً أو وثنياً، مقاومة قوة البرهان القاهرة، وإلاّ فإنه يمتنع لمجرد أن الشر يغشاه. ومنذ أن أطلق دعوته تلك في سنة 1265، تفرغ لولوس لوضع خطة العمل التبشيري تلك، التي اعتمد في إعدادها على الدراسات اللاهوتية الفلسفية والتأمل الروحي. وليس بدون وجه حق، إنْ هو وجد في

الإسلام العدو اللدود الأكبر للكنيسة. إنه وإنْ كانت الحملات الصليبية لم تنته بعد، لكنه كان بالإمكان التكهن بنتائجها، وذلك بعد سقوط مملكة القدس في سنة 1244 وإمارة أريحا في سنة 1267. صحيحٌ أن الغزو المغولي قد جرف الخلافة في بغداد، لكن مصر بقيت مصونة وأكدت مكانتها تحت قيادة السلطان المملوكي الحصيف الواعي المدرك لأبعاد الأمور، الظاهر بيبرس، بوصفها قوة إسلامية كبرى. وحرمتْ سلسلة من الدول الإسلامية كانت تمتد من إسبانيا غرباً حتى آسيا الصغرى شرقاً حول البحر المتوسط، حرمت شعوب أوروبا من دخول الدول الدافئة. كما أن تراث الأقدمين من العلوم الذي كان يديره المسلمون، ظل موضع احترام كبير في نظر الأوروبيين، فيما كانت فلسفة ابن رشد قد حققت لتوها مسيرتها الظافرة في أوروبا. لكن لولوس كان يعرف من تجربته الشخصية بشكل خاص، أن المسلمين لن يقدموا له أي تنازل يتناول معتقداتهم، فقد كان لزاماً على من يريد إقناعهم بصواب العقيدة المسيحية أن يدخل معهم في حوار طويل ومناقشات حامية. ومن أجل ذلك كان لا بد من إتقان لغتهم إتقاناً كاملاً. إن مثل هذه الموازنات حملت لولوس على تعلم اللغة العربية من قبل رقيق مغربي. وقد أمضى تسع سنوات وهو عاكف على الدرس والتلقي، فكانت محصلةُ ذلك كتابه (Ars major)[1]، الذي احتوى على أسس فن الحوار وسوق الأدلة في صورة تصنيفٍ لأضراب المعاني وطرق الاستدلال المنطقي. ثم أقنع يعقوب الأول بإنشاء مؤسسة لتثقيف مبشرين للعمل في مجال التبشير ضد الإسلام، وافتتحها لولوس بوصفه عضواً من الدرجة الثالثة وبثلاثة عشر تلميذاً من طائفة الفرنسيسكان في سنة 1267 في بلدة ميرمار. فإلى جانب الثقافة اللاهوتية، كان نزلاء الدير يتلقون بشكل خاص دروساً في العربية بكل مستلزماتها. وكان هذا النجاح الذي تحقق مجرد بداية في نظره. ولم تتوقف مساعيه لإقامة المزيد من المعاهد التبشيرية المشابهة. ويعتقد أنه

(1) prantel و Geschichte der logik 3, 155 ff.

سافر إلى روما في إحدى السنتين 1277 أو 1278 بهدف إطلاع البابا نيقولاس الثالث على أفكاره بضرورة تثقيف المبشرين لغوياً. غير أن البابا نيقولاس الثالث لم يظهر اهتماماً كبيراً بالمقترح، وكذلك فعل بعده هونوريوس الرابع ونيقولاس الرابع أيضاً. وحاول عبثاً استمالة فيليب الرابع الجميل الفرنسي إلى خططه؟ فقد كانت نظرة تلك الأوساط تتسم بروّية أكبر حول مسألة التبشير بالقياس إلى فكرته التي يسيطر عليها التفاؤل الساذج. ومما لا شك فيه أن تلك الجهات كانت على بصيرة من عدم استعمال سياسة القوة في حربها مع الكفرة (المسلمين هنا) بصورة جذرية. ولم تستبعد تلك الجهات أيضاً أن فكرة التبشير في الوسط الإسلامي قد مُنيتْ بخيبة أمل كبرى حتى الآن، حتى أن الجنرال الدومينكاني (هوما بيرتوس)، وهو أحد الخبراء المسؤولين عن التبشير، ألّف كتاباً: (Tractatus de Praedicatioue crusis comtra Saracemos) وترجمته (نبذة من التبشير الصليبي في الوسط الإسلامي). وقد أكّد في هذا الكتاب أنه نادراً ما جرى تعميد أحد المسلمين، فإذا ما وقع فعلاً، وهو شيءٌ نادر الحدوث، فزوجٌ من أسرى الحرب، ونادراً ما أصبح أحدهما مسيحياً مخلصاً[1].

إن تجارب كهذه دفعت إلى التفكير في مقترحات لولوس، ثم أدّت إلى رفضها من الجهات صاحبة الحل والعقد. وذاد عن خططه التبشيرية بمزيد من الاجتهاد في مؤلفاته واسعة الانتشار، ولا سيما مؤلفه الأدبي (Blanguerna)[2] الذي ظهر بين سنتي 1283 و 1285، وهو عبارة عن رواية تبشيرية، ثَمن لولوس في وصف بطلها خلاصة تجاربه، طموحاته وآماله، يدير ظهره للدنيا، ويعتكف في زاوية، ثم يرتقي إلى أسقف ومن ثم يصبح بابا. ويقوم بعرض برنامج تبشيري ضخم ويرسل جيشاً من القساوسة إلى

(1) Altanar, Zur Geschichte der antiislamischen polemik waechrevd des 13 und 14, Jahrhumdert in hist. Jahrbuch 56, 1936. S229.

(2) للمزيد أنظر: (فرض العقائد وحرية التبشير في نظرية التنصير لدى لولوس، ألتانر، المجلد السنوي 48).

سائر أنحاء العالم بهدف الدعاية للعقيدة الكاثوليكية. وفي الكتاب هذا تقابلنا بعض الأفكار الخاصة بدراسة اللغة. وهكذا يدعو إلى توظيف عدد من المرتدين عن دينهم لتعليم لغتهم الأم، كما أنه ينبغي على هؤلاء مرافقة المبشرين المتنقلين لإسداء المشورة لهم. كما يجب الإفادة منهم كذلك في تدريس اللغات الشرقية للقساوسة اليونان في الكنائس الشرقية المنشقة، وبالعكس من ذلك تدريسهم باللاتينية[1]، ومحاولة كسبهم لاتحاد كنائس روما. وينبغي تثقيف بعض المبشرين بالتترية، وإيفادهم بصفة مشرفين روحيين إلى المسيحيين الذين يعيشون في ظل سياسة التتار.

وقد حاول لولوس بطلبه هذا عمل حساب لوضع المسيحية الشرقية الذي تغير جذرياً نتيجة الغزو المنغولي. إن الغزو التتاري، أو المغول في البلدان الإسلامية، كما سميت الأسرة الملكية رسمياً بعد جنكيز خان، تحالفوا مع الغرب المسيحي. فلقد حاول أبقه بن هولاكو (1265 ـ 1282) وابنه عرجون (1284 ـ 1291) كسب الإدارة المركزية البابوية وملوك فرنسا وإنجلترا لعمل مشترك ضد المماليك. وقد وصل مبعوثو أبقه إلى (ليون) سنة 1274، وإلى روما سنة 1277، كما وصل بعد ذلك بعشر سنين المسيحي النسطورياني (ربان صوماء) بتفويض من عرجون إلى البلاط الأوروبي. وبالعكس، ففي سنة 1245، أي بعد أربع سنين من معركة ليجنيتز، أرسل البابا عدداً من الفرنسيسكان والدومينيكان عبر ثلاثة طرق إلى التتار. أحدُ هؤلاء كان يوحنا بيان كاربينو، الذي نجح في الوصول إلى معسكر الخاقان كريوك في كاراكوروم. وآخر واسمه، آندرياس نون لونجيوميو، تمكن من الوصول إلى تبريز فقط، لكنه ما لبث أن أعاد الكرّة في سنة 1249 صحبة وفد من طرف لودفيج الرابع فوصل إلى بلاط الخان الأعظم في شرقي آسيا. وأخيراً سافر الفرنسيسكاني فلهلم روبروك سنة 1253 إلى الخاقان مانجو في قره قوروم.

---

(1) حاول جعل اللغة اللاتينية لغة عالمية.

إن تقاريرهم التي وسعت كثيراً من وجه أوروبا الجغرافي، ما لبثت أن استُكملت بطريق الأخبار التي كان يقوم الوسطاء التجاريون النشطون في الشرق بنقلها ولا سيما في الجمهور الإيطالي. وهكذا فهم هؤلاء أن التتار لم يكونوا مختلفين في المسائل الدينية، وأنهم لا يناصبون الأديان الغريبة العداء، وأن روكوز خاتون، حرمَ هولاكو، اعتنقت المسيحية، وأن أبقه قد تزوج بأميرة بيزنطية، وأن وضع المسيحيين تحت إمرة الخانات لا تدعو للقلق أبداً. وتبين كذلك، أنّ المسلمين، واليعاقبة، والنساطرة، واليهود، والبوذيين، كلٌّ يسعى لكسب أنصار له تحت السيادة التترية. هنا وجد لولوس في ذلك فرصةً فريدة سانحة، ليس للتبشير في المناطق التي يحكمها التتار فقط، بل لمحاولة كسب مسيحيي المشرق في اتحاد مع روما. ولم يقابل هذا الاقتراح أيضاً بالترحاب[1].

وفي نهاية سنة 1291، أي في السنة نفسها التي أضاعت فيها الحروب الصليبية آخر نقطة ارتكاز لها على الساحل الفلسطيني في عكا، قرر الذهاب بنفسه إلى المسلمين بقصد التبشير، ولإقناعهم بحقيقة المسيحية عبر نهجه الخاص في البرهان.

سافر بحراً من جنوه إلى تونس التي كانت ملاذاً للمسلمين الفارين من حرب الاسترداد في الأندلس، والتي كانت قد لعبت دوراً مهماً في المجال اللغوي بحكم موقعها الممتاز في المغرب العربي، واستضافت كذلك المسيحيين بسبب تجارتها النشطة مع الموانىء الأوروبية. وبعد وصوله، دعا فقهاء المسلمين إلى حوار مفتوح معه، لم يتمخض، كما كان متوقعاً، عن تنازل من أحد الفرقاء إلى الآخر. وأُبعد لولوس عن البلاد فرجع إلى نابولي.

---

(1) حول مشكلة التتار مع لولوس راجع:

ALTANAR, RAYMUNDUS LULLUS, U-Q. sprachkanonen des konzils. Hist. Jahrbuch 53, 1933, S.199.

وبرغم الإخفاق الذي مُني به فإن همته لم تفتر، إذ أوصى في كتابه الذي قدّمه في سنة 1294 إلى المنتخب الجديد كولستين الثالث[1]، بتعليم المبشرين اللغات، وباعتماد أسلوبه في البرهان، وباتخاذ إجراءات عسكرية لاحتلال أرض الكفرة حسب قوله.

ولم يفلح في مساعيه هذه أيضاً، بل إن سوء الطالع حالفه في هذا الوقت بالذات حيث حُلّت مؤسسة ميرمار التعليمية. لكنه لم ييأس من المضي قدماً في تطوير آرائه الخاصة، سواء كان ذلك في كتبه أو في عرائضه والتماساته. وفي سنة 1301، قام بزيارة إلى قبرص المجاورة لآسيا الصغرى التي كانت في ذلك الوقت تشكل مملكة أرمينيا المسيحية وفي سنة 1307 اتخذ مبادرة جديدة لتجريب طريقته في المحادثة الدينية مع علماء المسلمين. وانتهى في مدينة (بوجيه) بالجزائر إلى الفشل نفسه.

وفي سنة 1310 ذهب إلى باريس لمحاربة فلسفة ابن رشد. وأخيراً شهد في سنة 1311 راضياً قرار المجمع الكنائسي العام الملتئم في مدينة فيينا بإقرار القانون الذي جرى عليه التصويت بكثرة، وينص على تعيين مدرسين كاثوليكيين في كل جامعة من الجامعات الخمس: (باريس - أوكسفورد - بولونيا - سلمنكا - وجامعة الإدارة المركزية البابوية) مدرسين للغات، اليونانية، العبرية، العربية، والكلدانية، وبذلك يكون مطلبه الذي نادى به المتعلق بالثقافة اللغوية للمبشرين قد تمّ الاعتراف به رسمياً. وبآمال عريضة بالمستقبل، وجد أن الوقت، وقد هزم المسلمون وتم التغلب على هذه العقبة الكأداء، قد حان لدخول البشرية كلها في العقيدة الكاثوليكية. وبرغم كبر سنه، سافر مرّة ثانية إلى تونس، وراح يعظ علانية، فأسيئت معاملته من قبل الجموع ومات متأثراً بجراحه في 29 يونيه 1316.

(1) صدر الكتاب تحت اسم (Petitio pro conversione in fidelium): (المنطق في الحوار مع الكفرة).

6 ـ معجم مفردات اللغة العربية

أحد معالم ذكرى الدعوة إلى الاشتغال باللغة العربية من قبل البعثات التبشيرية للمسلمين في القرن 13، معجمٌ لمفردات العربية نشره (شيبا ريللي) في سنة 1881.

وكما كانت الحال مع المعجم اللاتيني العربي. فالمعلومات منعدمة هنا أيضاً حول المؤلف والملابسات التي رافقت ظهور المعجم. وحيث إن العربية في المخطوطة الوحيدة التي وصلت إليه، تشير بوضوح إلى يد الكاتب نفسه الذي سجّل سباب لولوس وشتمه للإسلام برسم قرآني، فتلك إشارة بنسبتها إلى أوساط الطوائف التبشيرية وبالتالي إلى القرن 13: وتشير كثرة الحواشي في الشروح اللاتينية إلى شرق إسبانيا كمنشأ قطري. وكما كان معجم المفردات، كذلك كان معجم المفردات العربية في البدء معجماً للمفردات العربية اللاتينية، أُضيف إلى كشاف عربي لاتيني. إن هذه العلاقة الأصلية تسمح بالتعرف عليها كذلك في صياغة العمل الذي بين أيدينا، والذي ينطلق فيه القسم العربي اللاتيني من اللاتيني العربي. وفي الوقت الذي يضع فيه الجزء الأول الكلمة اللاتينية المناسبة خلف كل مفردة من المفردات العربية البالغ تعدادها 8000 كلمة، يحتوي الجزء الثاني هذا على أكثر من 4000 مقالة غزيرة البيانات: فتحت كل كلمة هنا يورد عدة مرادفات يتجاوز عددها 12 كلمة مرادفة. ويورد خلف الاسم جمعَه بالطبع. ويقرن الأفعال بعدة صيغ، المبني للمعلوم، والمبني للمجهول، وعادة ما يأتي كذلك على ذكر أصل الفعل (مجرداً)، وإن كان متعدياً أو لازماً أو مع حرف

الجر. وتُلحق بالأسماء أيضاً اشتقاقاتها، وبالعكس، فقد يذكر تحت الاسم أحياناً الاشتقاقات التابعة له، فتحت الاسم: (corona) (تاج) مثلاً مصطلحات الفعل (krönen) يتوج. وبصفة خاصة عادة ما تُدرج تحت مفهوم النوع العام التسميات لكل واحد اسمه الشائع، كأنواع الفاكهة، أسماء العنب، أجناس الكلاب، وفي غنى الثروة اللفظية للملبوسات (Pupura). والسجاد.. والأواني، ينعكس مستوى المعيشة العالي، بينما تسمح أسماء مثل، توابل، خردوات، عطورات، عقاقير وأطايب، زخارف خشبية، أحجار كريمة ومنتجات أخرى، تسمح بالتعرف على الجانب القوي من تجارة الحوض الشرقي المتوسط. وإنْ ننسَ لا ننسَ الشطرنج ومصطلحاته. وإلى جانب ذلك فالقاموس لا يفتقر إلى مصطلحات الكنيسة اللاهوتية بدءاً بكلمة (apostata) (مرتد عن عقيدة) و (apostolus) (حواري) وانتهاءً بـ (Trinats) (تثليث). وبينما يكثر ذكر الشخصيات التوراتية والمحلية، يقل ذكر أسماء المدن الإسبانية والأوروبية كلها بما فيها روما وذلك على العكس من المعجم اللاتيني العربي. وتندر كذلك أسماء العلوم، بينما تؤخذ بعين الاعتبار أسماء الكواكب، ورسوم الحيوانات، والظواهر السماوية، والأشهر المسيحية. ويعرج في بعض الأحيان على القضايا الإسلامية، بل إنه يتناول من حين لآخر الفروق بين الاستعمالات اللغوية الإسلامية والمسيحية، ولئن كانت كلمة (غازي) قد رُمز إليها بكلمة واحدة فقط (Pirata).

مما تقدم من عرض، يتبين كيف أن لغة الحياة اليومية تغلبُ بقدر كبير، ويتولد الانطباع، بأن المؤلف رغب في جمع الثروة اللفظية للحياة اليومية، في المحيط الذي يحتاج إليه المبشر للتحدث مع أي مثقف مسلم. ولا شك في أنه تلقى، في أثناء عمله، عوناً لغوياً من مُرتدٍّ أو من مغربي، وأن ليس في المادة اللغوية، تكشف عن ذلك طبيعتها الوسيطة (من القرن الوسيط)، ما يشير إلى استعمال مصادر خطية، وأنّ الارتباط بالنص الأدبي لا يُشاهد إلا في حالة مراعاة لغة القرآن. وهكذا، فإنه يجري تعداد كل الأوصاف القرآنية الخاصة بكلمة (inferno) (جهنم) (وخزنتها) على سبيل

المثال. ومن ذلك أيضاً نجد (صِرّ) (وزمهرير) في مقابل كلمة (frigus) (بارد). إن هذا القصد الموجّه إلى الاحتياجات العملية للتبشير في الوسط الإسلامي، يطابقه أنّ المفردات العربية لم تُعجم بحسب قواعد اللغة، بل كما كان يجري النطق بها في الأوساط المثقفة. وبهذا فإنّ لهذا المعجم قيمة كبيرة باقية من أجل التعرف على العامية العربية التي كانت جارية على ألسن الفئة المثقفة بإسبانيا خلال القرن 13[1].

(1) تجدر الإشارة إلى أنه تم العثور على معجم المفردات العربية اللاتينية في مخطوط وحيد بمدينة فلورنسا (Reccard. nr.217)، ثم أعيد إصداره من قبل الناشر شيباريللي في مدينة فرنسا في سنة 1871 بعناية فائقة. وقد أكد الناشر شيباريللي عمر المخطوط كما صنّف هذا المؤلف تبعاً لقدمه ومصدره في موقعه المناسب خلافاً لما جاء في التعليقات غير الصحيحة لمن سبقه. وقوله فقط، بأن للمؤلف أصولاً لمعجم لغوي عربي شرقي، بدليل عدم وجود أسماء لأماكن مغاربية فيه باستثناء البربرية، لا يبقي رأيه على تماسكه. ومردُّ الضعف فيه يرجع إلى أن الجزء العربي اللاتيني منه لم يكن يمثل في الأصل سوى فهرس للجزء اللاتيني العربي.

7 ـ من العصر الوسيط إلى العصر الحديث

إن قرار مؤتمر فيينا بتنصيب أستاذين في كل جامعة من الجامعات الأوروبية الخمس لتدريس اللغات، اليونانية، العربية، العبرية والكلدانية، لم يؤد لا إلى القلق حول الأصل العتيق للكتاب المقدس وتفاسيره، ولا إلى أي اهتمام لغوي أو تاريخي باللغات وآداب الشرق، بل إلى مجرد موازنات عملية: لقد فهم المرء مقدار علو مكانة الإلمام باللغات وأهميته سواء في مجال النشاط التبشيري أو في المباحثات التي تجري بين أعضاء الاتحاد واستخلص من ذلك العبر. أما أنّ مثل هذه الأفكار قد ظلتْ معلقة في الهواء نسبياً حتى بداية القرن 14، فذلك ما كشف عنه الكتاب[1] الذي ألّفه الناشر الفرنسي بيير دوبوا في سنة 1306. في هذا الكتاب ينضج برنامج استعمار الشرق من قِبل شعوب أوروبا المسيحية تحت إمرة المملكة الفرنسية. والمطالبة بتأسيس مدارس لغوية لا تُعنى بتثقيف الموظفين والضباط والمترجمين والمفاوضين، والمبشرين والأطباء الذين تتطلبهم مثل هذه السياسة الاستعمارية فقط، بل فتيات أوروبيات أيضاً، منهن على سبيل المثال اللاتي يتزوجن فيما بعد من قياديين شرقيين يجري إعدادهن لمستقبل حياتهن. فلو أن قانون اللغة الصادر عن مؤتمر فيينا لم يكرس كل توجهه نحو علوم الكتاب المقدس نتيجة لذلك، إذاً لحرض وطالب، في نطاق الدراسات اللغوية والتبشير، إلى العناية بالعبرية والعهد القديم ومؤلفات الأحبار. وكونُ (قانون اللغة) لم يُفد بإحداث تغيرٍ واضح في حقل الدراسات

(1) اسم الكتاب: (De recuperatione terra Sancte) (استرداد الأرض المقدسة).

العربية، فقد كان السبب الجوهري في ذلك يرجع إلى الإخفاق الشديد الذي شهده التبشير وبشكل لا نظير له في الوسط الإسلامي منذ بداية القرن 14. والتتار الذين عقد لولوس كل آماله على تنصيرهم، عقدوا أمرهم على عدم قبول الديانة المسيحية. وفي فارس اعتنق الخان الثالث أحمد تيكودار الإسلام لدى تتويجه لأسباب سياسية. وفي عهد ولي عهده أركوم بدت الكفة وقد رجحت لفائدة النساطرة. ومن ثم استؤنفت المعركة إلى أن أصبح إسلام دولة المغول حقيقة واقعة بيد الخان قازان السابع (1296 ـ 1304). وفي آسيا الوسطى أيضاً برهن الإسلام على أنه الأقوى. فالجاليات المسيحية هنالك انحدرت في القرن 14 إلى الحضيض، وبعدما كانت مزدهرة عادت فانكمشت وتجمدت. وفي القرن 14 كذلك تحولت مملكة الهمج الذهبية جنوبي روسيا إلى الإسلام. وفي مصر التي شهدت في القرن الثالث عشر ذروة ازدهار الأدب المسيحي العربي، ساءت أحوال المسيحيين تحت سيادة المماليك، فالتعصب الديني الذي استعر أواره بسبب الحملات الصليبية، كثيراً ما اضطر المماليك إلى اتخاذ إجراءات ضد الأقباط: لقد كان ذلك نذير شؤم للقرن الذي سيلي، إذ إن الملك الناصر جدّد العمل بالقوانين القديمة المعادية للمسيحية الصادرة في السنوات 701 و1300، بإقالة الموظفين المسيحيين وإغلاق عدد كبير من الكنائس. وفي النوبة أغرق طوفان الإسلام كليةً المسيحية التي استوطنت تلك الأرض منذ القدم. غير أنه وفي الوقت نفسه، ظهر في الإمبراطورية العثمانية رائد إسلامي آخر، سرعان ما وجّه ضرباته إلى دول أوروبا المسيحية. ومع حلول سنة 1353 أحرز العثمانيون موطىء قدم لهم في البلقان، ثم وسعوا دائرة سلطانهم في غضون قرن واحد فقط حتى وصلت نهر الدانوب، واستولوا في سنة 1453 على مدينة القسطنطينية. ونتيجة لذلك، فقد سقط المزيد والمزيد من المناطق المسيحية السابقة تحت السيادة العثمانية، واكتسب الإسلام في وقت مبكر من القرن 15 أنصاراً له في ألبانيا، وصربيا، والبوسنة. وقد أدّى أخذ الأطفال الإجباري من الرعايا المسيحيين الخاضعين وتنشئتهم ثم إلحاقهم بالجيش الإنكشاري بإشراف السلطان، أدّى إلى ثورة المسيحيين في البلقان.

وعلى هذا النحو كان الإسلام في زحف مستمر في كل مكان. وقد شهد القرن 14 بالذات أكبر توسع للدعوة الصوفية الإسلامية. وفي ضوء هذه الظروف قلما أُتيحتْ الفرصة للكنيسة الكاثوليكية للتبشير في أوساط المسلمين باستثناء إسبانيا. هنا كان الإسلام في تراجع بطيء ولكن مستمر. وعبثاً حاول النصريون في غرناطة، بعد سقوط إشبيلية في سنة (1248) وكانت آخر أسرة إسلامية مستقلة في شبه جزيرة أيبريا، الاستعانة بالمرينيين في المغرب، حيث لم يعد لهؤلاء الوسائل الكافية من أجل سياسة توسعية على غرار المرابطين، وكانوا منشغلين في سنة (1340) بوقف حروب الاسترداد من كل جانب. منذ ذلك الوقت أصبح النصريون مغلوبين على أمرهم، وإنْ استطاعوا الصمود مدة قرن ونصف. فلقد أضعفت سلسلة من الإجراءات العسكرية التي لا جدوى من ورائها، والتي تخللتها هُدَنٌ طويلة أو قصيرة، موقفَهم تدريجياً وعملت على تضييق حدودهم باستمرار. وبرغم ذلك فقد انقضت سنون طويلة من المواجهة، قبل أن يتم لفردناند الأرجواني وإيزابيلا القشتالية انتزاعُ آخر قطعة من الأرض الإسبانية من سيادة المسلمين ومن إيقاف تقدمهم في 2 يناير (1492) في غرناطة. وبذلك تكون القوة السياسية لصراع الإسلام حول جزيرة أيبيريا التي استمرت قروناً طويلة قد حسمت لتبسط المسيحية نفوذها من جديد على كل أرجاء المنطقة. لكن الحوار على الجبهة السياسية الداخلية بين المسيحية والإسلام استمر ما يزيد على قرن. إن الزيادة الشديدة التي شهدها الجانب الشعبي المسلم بسبب ضم مملكة غرناطة، وضع أمام الحكام ومستشاريهم مشكلة الأقلية الصعبة التي يمكن أن تكون أكثر إحراجاً للدولة من وحدتهم التي لم تتماسك بعد نتيجة التناقضات الموجودة بين الأقطار ورغبة الإقطاعيين في الاستقلال. وحكمُ الملكية المطلق الذي طمح في تحقيقه الأب (فرانشيسكو كسيمانيس دي سيسنيروس)[1] بالذات، بدا للساسة الإسبان أنه لن يُكتب له الدوام ما لم يقم على قاعدة عريضة من الإيمان الكنائسي قدر الإمكان. ولهذا فقد أيّدوا

---

(1) أصبح في سنة 1945 أسقفاً لمدينتي طليطلة وبريماس الإسبانيتين، وكان أباً لكرسي الاعتراف في المملكة.

كفاح الكنيسة ضد الهرطقة والإلحاد. وقد طالب كل من فرناندو دي تالافيرا رئيس أساقفة إشبيلية وكسيمانس بحمل المسلمين على التنصر بالقوة. وفي بادىء الأمر جرى الرهان على الارتداد بالطرق السلمية. والمرسوم الذي صدر بتاريخ 31 مارس 1492 والذي نصّ على إجلاء سائر اليهود عن إسبانيا، لم يُثر في المسلمين المخاوف. غير أن محاولات التنصير لم تحقق الأمل المرجو منها، بل، على العكس من ذلك، أدّت إلى انفجار غضب المسلمين، حيث نُظمت تظاهراتٌ انطلاقاً من غرناطة وطافت كل أرجاء المملكة القديمة، ولم يتم قمعها إلا بجهد فائق. هنا لجأ كسيمانس وتالافيرا إلى اتباع الشدة، حيث عُمم إعلان يخير المسلمين بين التعميد (اعتناق المسيحية) والهجرة. وعلى أثر ذلك هاجر كثير من المسلمين إلى أقطار إسلامية لا سيما إلى المغرب المجاورة. أما الآخرون الذين امتنعوا أو تعذر عليهم ذلك، فقد قبلوا بالتعميد مكرهين وظلوا على ولائهم النفسي لدينهم الأول. وقد برر المسلمون هذا الرياء تحت شعار (التقيّة) التي كان يمارسها الشيعة بشكل خاص في ما بينهم من جهة ومع المعاصرين لهم من جهة ثانية. واستناداً إلى رأي السنّة، في أن الميزان الصحيح لكل تصرف إنما يخضع لنية الفاعل، وأن في القرآن الكريم ما يؤيد ذلك[1]. وبتحفظ روحي شاركوا المسيحيين شعائرهم، وشربوا الخمر، وأكلوا لحم الخنزير، وزوجوا أبناءهم الذكور لمسيحيات وامتنعوا عن فعل العكس، ثم ما لبثوا أن عادوا إلى الإسلام تارة أخرى، بما أن ذلك لم يشكل خطراً عليهم وعلى وحياتهم. لكن الكنيسة عادت فحاولت التخلص من ظاهرة الاعتناق الشكلي للمسيحية بالاستعانة بمحاكم التفتيش التي تأسست في إسبانيا في سنة 1481 ولكن دون أن يُكلل ذلك بأي نجاح. ومع ذلك فقد استطاع المسلمون تأكيد أنفسهم طوال القرن السادس عشر، بل راودهم الأمل، مع صعود الإمبراطورية العثمانية، في استعادة السيادة الإسلامية في الغرب. ووقعت في

---

(1) قوله تعالى في سورة النحل: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة النحل 106].

جبال الأطلس بالذات عدة محاولات تمرد قُمعت ولكن بصعوبة بالغة كما حدث في سنة 1570. كلُّ ذلك أظهر، بما لا يقبل الشك، أن سياسة تنصير المسلمين ومحاكم التفتيش لم تؤديا إلى النتائج المرجوة. وهكذا فقد وجدت الدولة نفسها مضطرة إلى اتباع أقسى الوسائل، فاجْلت في سنة 1609 المسلمين كافة عن البلاد. وبذلك بات لزاماً على كل الموريسكيين المتبقين مغادرة إسبانيا فهاجرت غالبيتهم العظمى إلى شمال إفريقيا، وتلك كانت نهاية الإسلام على شبه الجزيرة الأيبرية.

8 ـ بيدرو ألاكالا

إن محاولتي تنصير المسلمين اللتين شُرع فيهما مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، تزامنتا مع مؤلفاتٍ من قيمة لا تبور لراهب مغمور يدعى بيدرو دي ألاكالا. ربما تم ذلك بتكليف من فرناندو تالافير، رئيس أساقفة غرناطة، في سنة 1499، بهدف العمل بمعجم إسباني عربي في الأوساط الإسلامية والمتنصرين حديثاً في مملكة غرناطة من قبل المبشرين. وقد وضع ألاكالا معجم مفرداته اعتماداً على معجم إسباني عربي لأنطونيو نيبيريا ظهر في سنة 1495، لكنه أضاف إليه الكثير بحيث أصبح تعداد كلماته يزيد على 2200 كلمة، وترجمه بمساعدة بعض الرجال المُلمين بعلوم المسلمين. وقد تمّ إنجاز العمل في سنة 1505 في غرناطة، وظهر مطبوعاً تحت اسم: (Vocabulista arauigo en letra castellana)، وترجمتها (المعجم العربي بالحرف القشتالي). وكما يبدو من العنوان، فتقديمُه بالكتابة الصوتية اللاتينية، ربما كان بسبب الطباعة: فالمطبعةُ لم تكن تملك، باستثناء الحروف القوطية، أي حرف مطبعي آخر، وأن الحروف العربية التي احتاجها بيدرو لشرح الكتابة الصوتية في مقدمته حول طبعة استعمال المعجم، لا بد أنها قد قُطعت من صانع قوالب خشبيةٍ أُمّي. ولإعطاء الحرف الأبجدي العربي بحروف لاتينية، قدّم بيدرو ـ أولاً وقبل كل شيء ـ رمزاً للضبط بالشكل، كحرف C وفوقها ثلاث نقاط لحرف الثاء. وحرف H تحت نقطة ونقطةٌ عن يمينها إلى الأعلى لحرف الخاء، ولنا أن نقيس على مذهبه هذا في الشكل كثيراً من الحروف. كذلك، فإن المقطع الصوتي قُدم برمز على رأسه حرف مد قصير. ويبيّن المؤلف بوضوح ما يتعلق بالكتابة اللاتينية من

أسئلة حول النطق والنبرة في ما سبق التنويه به في طريقة الاستعمال. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مساعديه المسلمين، بحكم تعودهم على خط عربي مضبوط الشكل وغير مناسب إطلاقاً لإعادة صيغ العامية ووقوعهم تحت تأثير الفصحى، باتوا لا يملكون سوى تفهم ضئيل لإعادة الضبط بالشكل واللحن بالكتابة اللاتينية، وهكذا فإن إنجاز المعجم المرقم، برغم ما يعتور المحاولة الأولى هذه من هنات، يدعو للإعجاب، وبالذات لدى مقارنته بأمثاله من محاولات الكتابة الصوتية في ذات العصر، ككتاب الحج لمؤلفه ريتر. ف. هارف.

وفي تقديمه لمعجمه، تحدث بيدرو دي ألكالا، الذي كان قد بلغ وقتها من العمر عتياً، تحدث عن قواعد عامية غرناطة. وقد ظهرت كذلك في سنة 1505 في غرناطة باسم يحمل المعنى نفسه، ثم صدرت منه طبعة ثانية منقحة ومزيدة في السنة نفسها. وهذا الأخير يظهر، أكثر من سابقه، أن مؤلفه كان ذا عقل متحرر. على أنه وإن كانت قواعد العربية غير مجهولة بالنسبة إليه، فإنه لا يتقيّد بها ويفضل العمل بالقواعد الجارية على ألسن الناس، ويعترف بأن فنون النحو العربي غير ملائمة؛ إنه يخوض، بوصفه أول من اتّبع المذهب الإنساني، غمار تجربة شجاعة، بحمل أشكال قواعد اللغة اللاتينية على عامية غرناطة. وعلى الصفحات الثلاثين التالية، يعالج مادته العلمية بحسب الموضوعات الثمانية الشهيرة، بحيث تحتل الأسماء، والضمائر، والأفعال، واسم المفعول، معظم المساحة المخصصة. ثم يعود ويعلق في أعلى الصفحات قطعاً خشبية تمثل أحرف الهجاء العربية، وما يقابلها بحروف لاتينية. وفي ختام القواعد يُعرج المؤلف من جديد على علم الخط العربي، وقبل نهاية الجزء الأخير، يقدم قواعد للنطق برموز الحرف الصوتي (الألف والواو والياء) (أو الضمة والفتحة والكسرة). وفي خاتمة هذا الجزء يضع إشارة لقراءة مقطع الخط العربي. واقتضى التعلّق القوي بقواعد اللاتينية بعض التجاوزات بالطبع. فاتخاذها قدوةً، تطلب تصريفاً يتضمن ست حالات، بل ضرب لها أمثلة من العربية أيضاً:

مبتدأ NOM. (mubtada): al-fugaha

. مضاف GEN. (mudaf): mital-fugaha

مجرور DAT. (magrur): lal-fugaha

. مفعول AKM. (maful): al-fugaha

. منادى BOK. (munada): yafugaha

. ظرف ABL. (zarf): maal-fugaha

وقد ألحق بالقواعد، وهو ما يشكل الجزء الثاني، نصوصاً بطريقة نطق سكان غرناطة يحتاج إليها المبشر بشكل مُلِح. في البداية الصلواتُ المعهودة وعبارات الإيمان بالعقيدة، يتبعها الجزء المباشر وهو إرشادات بكيفية تعميد النصارى الجدد، مع إعادة كاملة لجميع مسائل التعميد باللغتين العربية والإسبانية. واحتوى هذا المقطع بالذات على عدة قوائم بالخطايا القاتلة، وموضوعات الشفقة، والأسرار المقدسة، ومقالات العقائد. ويردفها بتعداد للحواس الخمس، والفضائل السبع الأساسية. وتعقبها صيغة الأسئلة التي يوجهها القسُّ قبل العقد إلى الزوجين، ومن ثمَّ صيغة تلقين سر الاحتضار المقدس، وفوق ذلك مراسم القداس في الأحوال العامة والأحوال الخاصة. وتشكل ترجمة فاتحة إنجيل يوحنا خاتمة القول.

ويُعدُ معجم المفردات وكتاب الفنون لواضعهما بيدرو ألاكالا شهادتين بارزتين في حركة الإنسانية[1] الإسبانية المبكرة. ولا نحس بأي حرج إذا ما قورنا في نوعهما بالقاموس اللغوي الغزير لمؤلفه كومبولت الذي ظهر إلى الوجود في سنة 1514 ـ 1517 بتكليف من الكاردينال كسيمينس دي سيزنيروس. إن الأسس المتينة للمنهج اللغوي الرصين الذي سلكه بيدرو، جعلتْ مؤلّفه مستقلاً عن المؤثرات الخارجية التي كانت السبب في ظهوره،

(1) Humanism us.

ومنحته قيمة داخلية غير قابلة للزوال. إنّ منهجه هذا مكّنه من تقديم تصور لدارج غرناطة ونظرة شمولية في ثروتها اللفظية، كما مكّنه من المحافظة على ضبطه وعلاقات نبرته بصورة لا نعرفها في أي عامية عربية أخرى. أجل، إنه بالافتقار الشديد للتدقيق المشار للنص العربي ـ اللاتيني، أحرز عمله على قيمة المخطوطات المرجعية.

9 ـ الدراسات العربية في إيطاليا مع بداية القرن السادس عشر

تمثل مؤلفات بيدرو ألاكالا ذروة ونهاية الدراسات العربية على التراب الإسباني في القرن الوسيط بهدف تنصير المسلمين. لقد فقدت إسبانيا، بوصفها رائدة فوق هذه المنطقة منذ البداية، بالقدر نفسه وفي الوقت ذاته الذي اختفت فيه المورسكية[1]، وانعدمت اللهجة الإسبانية العربية ، فقدت رغبتها في متابعة العناية باللغة العربية لتُحلَّ محلها لغات أوروبية أخرى. وللحق فإن أحداً منهم لم يواجه أي مشكلة مع الأقلية الإسلامية التي تتحدث العربية في محيطه الخاص، ولا عرضتْ لأحدهم قضية لتنصير المسلمين بدعم حكومي. وكان اهتمام الإدارة البابوية منصباً على مسألة اتحاد الكنائس، فأبقتْ على فكرة الاهتمام بالعربية واللغات الشرقية الأخرى حيّةً الآن كما كان من قبل. إن أول طبعة بالأحرف العربية صدرت في شهر سبتمبر من سنة 1514 في فانون[2]، تمّت بإيعاز من البابا يوليوس الثاني وصممت خصيصاً ليعاقبة مصر. ولم تزد المحاولة على هذه، كما لم تقم المطبعة بعدها بطبع أي كتاب عربي، وكان من نتيجة علاقات الجهاز المركزي البابوي مع الكنائس المسيحية، أن وجد الاهتمام باللغات والآداب الأجنبية الذي أيقظه التيار الإنساني، أن وجد في روما ميداناً أكثر مما وجد في أي مكان آخر بسبب تقاطر عدد كبير من الزوار القادمين من أقطار

(1) لهجة عربية مغربية دارجة.

(2) Septem Horae canonica.

مشرقية عدة. فإلى جانب المسيحيين الشرقيين كان يشاهد في روما أحياناً ضيوف آخرون من الشرق. من ذلك أن وجود شقيق الإمبراطور العثماني بايزيد الثاني في روما في سنة 1489 ـ 1495، وكان ينازع أخاه السلطة، أدى إلى إيفاد مبعوثَيْن إلى البابا من لدن الباب العالي. وبعد عشرين سنة من ذلك التاريخ استضافت روما مسلماً آخر وهو (ليون الإفريقي) وهو مغربي أسره القراصنة وأُرسل إلى إيطاليا، ووضع تحت الإقامة الجبرية بادىء الأمر في أنجلز بورج، ثم اعتنق المسيحية وقدمت مؤلفاته المختلفة، ومنها وصفه الشهير لإفريقيا بشكل خاص، لأوروبا معرفة أفضل عن القضايا الإسلامية. وقبل أن نختم نعود لنتوقف قليلاً ونذكّر بأن القرآن قد طُبع مرة أخرى في مدينة فينيسيا وذلك في سنة 1530. وحيث إن كل الطبعة المذكورة قد أُتلفت في عهد بولس الثالث سنة (1534 ـ 1537)، فإن أحداً لا يعرف إن كان لهذه الطبعة المشكوك في استكمالها بل التي أُحيلت على عالم الخيال، أثرٌ على مسار الدراسات العربية في أوروبا.

10 ـ فلهلم بوستل

ولعل الشيء الذي تمتع بتأثير أشد بكثير من اتحاد الكنائس وطموحات التبشير على مسار الدراسات العربية، كان العلاقات الخارجية التي أقامتها الدول المسيحية المتنفذة مع الباب العالي. فمع وفاة محمد الفاتح العثماني في السنة 1481، كان العثمانيون قد أخضعوا شبه جزيرة البلقان جنوب نهر الألب باستثناء الجبل الأسود وبعض مناطق البندقية الساحلية لنفوذهم. ولقد شهد القرن السادس عشر تحت حكم السلطان سليم الأول (1512 ـ 1520) توسعاً مهماً لرقعة نفوذه في آسيا وإفريقيا والارتقاء إلى مصاف الدولة السنية العظمى الأولى. واستأنفت الفتوحات مسيراتها مع السلطان سليمان القانوني (1520 ـ 1566) في شبه جزيرة البلقان. فالمجرُ التي كانت تُعد العدو التقليدي الذي كان العثمانيون يحسبون له ألف حساب منذ قرابة 100 سنة، هُزم سنة 1526 في واقعة (محاق). وفي سنة 1529، وقف الترك لأول مرة على أبواب مدينة فيينا. ولم تقف دول أوروبا المسيحية مقابل هذا التهديد الخطير من طرف قوة إسلامية عظمى وقفة رجل واحد، بل سعى معظمهم إلى تحقيق مطالبه الخاصة عن طريق تسويات منفردة. وهكذا، فإن فرانس الأول ملك، فرنسا، لم تفِلّ الأيديولوجية الكاثوليكية التي كانت ترى فيه الملك الكاثوليكي الأول والأخت الكبرى لروما في الكنيسة الفرنسية، من عزمه على محاولة الحصول على مساندة السلطان العثماني في صراعه ضد شارل الرابع. ففي أثناء وقوعه في الأسر، عقد محادثات في سنة 1525. وفي سنة 1534، استطاعت بعثة فرنسية السفر إلى القسطنطينية والحصول على الاستسلام المعروف، الذي يمنح السلطان بموجبه تابعه فرانس الأول الحق

للإقامة في تركيا ومزاولة التجارة، والتمتع بحق الحماية القنصلية. ومن أجل المضي قدماً في تعزيز تلك المصالح الاقتصادية والسياسية، سعى شارل الأول، بوحي من مذهب الإنسانية الذي يعتنقه، لعلاقات حضارية لكلا البلدين، وذلك بتعيين علماء في البعثات المرسلة. وهكذا فقد أرسل في سنة 1534 أو بعد بقليل، أرسل فلهلم بوستل لشراء مخطوطات شرقية، وإلى هذا الرجل تدين أوروبا بفضل قواعد اللغة العربية. ولد وليم بوستل[1] في وسط متواضع بالنورماندي سنة 1510، درس في باريس، وعني بدراسة اللغتين اليونانية والعبرية اللتين انكبتْ على دراستهما أيضاً الأوساط المسيحية بجدية منذ نهاية القرن الخامس عشر. وتعلم أيضاً الإيطالية، والإسبانية، والبرتغالية. وقد استرعت موهبته في تعلم اللغات الأجنبية انتباه أساتذته. وبتوصية من الأخت مارغريت فون نافارا، العرّابة الروحية للملك فرانس الأول، أُذن له بدخول البلاط. وحين أرسل الملك إلى الشرق، قضى بعض الوقت في مصر ثم واصل سفره متجهاً إلى القسطنطينية، حيث قوبلت معرفته باللغات الأجنبية بالترحاب حصراً من قبل السفير الفرنسي (فروستانوس). وسرعان ما تعلم اللغة التركية. واستدل برفقة (موسى المعلمي) وهو يهودي كان يشغل وظيفة الطبيب الخاص للبعثة، استدل على المكتبة اليهودية حيث قرأ (الزُهار). لكنه اهتم بدراسة العربية بوجه خاص، وقد ساعده على دراسة نحوه أستاذ تركي. وأفاد كثيراً من معرفته بالعبرية لدى تعلمه العربية، وإلى جانب ذلك فقد استغل كل مناسبة لتوسيع مداركه اللغوية، وهكذا استقى من رهبان الكنيسة الحبشية بعض الإرشادات حول اللغة الحبشية، التي كان عرفها الغرب في سنة 1513 للمرة الأولى من خلال أول طبعة بالحبشية لترجمة التراتيل الدينية (أطلق عليها اسم كلدانية) أنشأها الألماني يوهان بوتكن رئيس دير جيورجن في كولونيا. وبعد إقامة دامت أقل من عامين، عاد إلى أوروبا

(1) للمزيد من الاطلاع حول هذه الشخصية يراجع: J. KABACALA, W. APOSTEL seine geistesart und seine Reformgedanken in Archib F. Refermationsgeschichte IX 91912). 285-330, xi 200-227, XII, 157-203 . . وغيره.

في مطلع سنة 1537. وفي طريقه أدى في البندقية زيارة للناشر المعروف دانيال بومبرج، وربما حاول إقناعه بنحت حروف من طراز عربي وبتأسيس مطبعة شرقية. كما تعرف إلى القانوني (تيسيو أمبروجيو) (1460 ـ 1540)، وكان واحداً من أقدم المستشرقين الطليان الذين اهتموا بمختلف اللغات. وعنه اقتبس بوستل الرموز الهندية لفائدة الحبشية، والبونية للمغربية، العربية، وبعد مقدمه إلى باريس ثانية في خريف سنة 1537، استخدمه فرانس الأول كمحاضر ومترجم وعينه في سنة 1539 أستاذاً في الكلية الفرنسية التي كانت قد تأسست حديثاً. وقد فقد منصبه ذاك بعد سقوط صاحبه الذي قام بتعيينه، وفي سنة 1538 نشر كتابه[1] الذي عالج فيه اللغات الآتية وأبجدياتها: العبرية، الكلدانية، الكلدانية الحديثة والسريانية من ضمنها، السومرية، العربية، الهندية، الحبشية، اليونانية، الجورجية، الصربية، الألبانية، الأرمنية، واللاتينية.

وفي السنة نفسها أو السنة التي تلت، ظهر مؤلّفه (قواعد العربية) الذي توخى منه في الواقع استبدال الجزء الثامن من كتابه الأول، حيث أشار صراحة إلى أن الحافز من وراء تأليفه هو تذليل المصاعب. وقد شكر بوستل للأسقف فون أينو أريحيته على الأنماط العربية الرديئة للقواعد كما يستفاد من مقدمته ويؤخذ من مقدمة بوستل، أنه انطلق في تعليله حول ما كتب عن القواعد وأحرف الهجاء العربية، من توسع الإسلام في كل إفريقيا باستثناء النوبة وسائر آسيا ابتداءً من السواحل الغربية وحتى الشرق الأقصى، وكذلك الحال في أوروبا. ومن ثمّ يمتدح بوستل ثراء المصادر العربية، وبخاصةٍ منها كتبَ الفلك والطب الطبيعي ويهاجم الكتاب الذين انتقصوا من قيمتها بقوله:

«لا أحد يستطيع الاستغناء عن طرق علاج وأدوية الطب العربية. وإن

---

(1) الكتاب هو: Linguarum XII characterum differectium alphabetum introductio aclegendi modus longe facellimus.

ما قاله ابن سينا في صفحة أو صفحتين يزيد على ما ذكره جالينوس في خمسة أو ستة مجلدات ضخمة».

ثم يعود فيذكر بقرار مؤتمر فيينا المتعلق باللغات. وبعد أن يُبرز وجه القرابة بين العبرية والعربية التي تجعل التعلم سهلاً جداً، يوجز الجدوى من معرفة اللغة العربية: «. . . بوصفها لغة عالمية، فإنها تفيد في التعامل مع المغاربة، والمصريين، والسوريين، والفرس، والترك، والمغول، والهنود. وهي لغة غنية بالمراجع، من يتمكن من إجادتها سيتسنى له اختراق سائر أعداء العقيدة المسيحية بسيف الكلمة المقدس ودحض حججهم بمعتقداتهم نفسها، والطواف حول العالم بلغة واحدة فقط». وفي هذا المدخل تلي قواعد اللغة التي تظهر كل صفحة من صفحاتها مقدار تعلق المؤلف بالنحاة العرب، ولكن تبرهن أيضاً أنه ليس سيدَ المادة التي بين يديه.

فهي تحتوي قبل كل شيء تحت العنوان: (Alphabetum Arabicum) (أبجدية العربية) الحرف الأبجدي متبوعاً بكتابة صوتية (بدون نقط) متناقضة وغير محتاطة. ثم يأتي تقديم الأبجدية في حروف متصلة وأخرى منفصلة، ثم يقوم في الوقت ذاته بتعداد سائر الأحوال التي تظهر فيها الحروف الأصلية (أي غير المتصلة) بأشكالها التعليمية، وإن كان القارىء لم يلق نظرة إجمالية عليها. والنظرة الشمولية على الاسم والفعل والحرف ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع النحو العربي، ويناقش في الفعل أزمنته من خلال فعلين (ناصر، دحرج) ويغض الطرف تماماً عن اشتقاقات الأفعال.

وفي ما يتعلق بالمبتدأ، يُبقي بوستل على نظام الحالات اللاتيني وينقل طبقات الاسم من حافظته دون أن يتعرض لطريقة صياغته. وبين الأدوات ينضوي ما لم يكن ليندرج في أي موضع آخر: ملحقات الضمير (المقاطع المضافة بقصد تغيير المعنى)، أسماء الإشارة، بعض الظروف، ومن ثم وبعد إسداء بعض النصائح حول قراءة النصوص غير المعجمة، تلي كلمات الحروف. وتشكل عبارة (أبانا الذي في السماء) مكتوبة بالعربية، فاتحة الكتاب مع ترجمة لاتينية لها ملأى بالأخطاء تقريباً، تظهر أن معرفة بوستل بالعربية كانت تفتقر لأسس رصينة.

إن كتاب بوستل الضعيف والمليء بالأخطاء المطبعية (قواعد العربية)، كان آخر اسهامات المؤلف المذكور في الدراسات العربية. وقد ألّف بوستل في سنة 1539 أو سنة 1540 الكتاب الذي أعيد طبعه مراراً وتكراراً clarepubligue des turcs (جمهورية الترك)، قدم فيه صورة مثلى للمجتمع العثماني. غير أن كتاباته دخلت بعد ذلك في منعطف غير عادي، فلقد استولت على تفكيره خطط أشبه بالمغامرة لتحسين العالم يوظف فيها مواهبه اللغوية. وحلم بعمل تبشيري رفيع المستوى من أجل تنصير الكفرة والوثنيين كافة، وبالسيطرة على العالم بأمم مسيحية تقودها فرنسا، وبانبلاج عصر جديد تتحد فيه البشرية وتعيش في أُلفة وسلام في ظل لواء الزنابق. وكما فعل لولوس قبله، فقد توصل هو أيضاً إلى أن الانتصار على القلوب لا يكون بقوة السلاح، بل كان مقتنعاً مثل لولوس، بأن حقيقة المسيحية يمكن أن يبرهن عليها لسائر خصومها بالمنطق والعقل. بهذه التصورات القروسطية ارتبطت وطنيته التي اعتبرت الفرنسيين شعب الله المختار وأنه مدعو لسيادة العالم كما يظن. إن حدة وأحادية النظرة في هاتين الفكرتين خففتْ من غلوائهما الأوصاف التي تحلى بها بوستل كطفل في القرن السادس عشر، طموحاتُه البعيدة، وتفهُمه لما هو غريب، ما جعله يقدِّر حتى محمداً تقديراً عالياً، وتسامحه بحيث نظر إلى الدين على أنه مسألة تخص الدولة، باستثناء تهديد الملحدين بعقوبة الموت، وأخيراً إيمانه بازدهار الحضارة. لقد نقل مسار هذه الأفكار في كتابه الذي ظهر في سنة 1543 بادىء الأمر: des) .orbis terrarum concordia)

وبالنظر إلى أنه لم يجد في باريس أذناً صاغية، سافر في سنة 1544 إلى روما، حيث أمل في أن يجد لدى الفرنسيين تفهماً لخططه. لكن المركيز إجناتوس لم يكن ليستخدم رجلاً رفع الملك الفرنسي إلى مصاف سيد مطلق للعالم وتمسك برأيه القائل بأن المجمع الكنائسي فوق البابا نفسه. وهكذا فقد ذهب في نهاية سنة 1545 إلى البندقية حيث وقعت المقابلة التي تمخضت عنها أوخم النتائج مع الأخت ماتريوحنا التي توفيت في سنة

(1551)، وكانت ممرضة طاعنة في السنة تعاني من أوهام ونوبات صرع، وتوهمت أن العالم يوشك أن ينتهي وأنها ستكون المخلّص. وازداد وقوع بوستيليوس تحت تأثيرها في تيار الهوس العقائدي. وزاد في الطين بلّةً أن بحوثه حول منشأ اللغات، وهي المشكلة التي عالجها في كتابه originibus سنة 1539، كشفت النقاب عن تأملات غير صحية لِلُغة التي كان يتحدث بها سيدنا نوح والتي كما رأى تتحدر من أصول يونانية ولاتينية، كما أن العربية السوريانية الكلدانية اشتُقتْ من لغة التصوف. ولم تغادره خططه التبشيرية فاحتفظ بها دائماً نصب عينيه، فمن أجل كسب دول الشرق إلى صف المسيحية بوساطة الإنجيل العربي والسرياني، كان في حاجة للحصول على مخطوطات شرقية للكتاب المقدس. وهكذا التمس من (بومبرج) مرة أخرى أن يمكنه من رحلة أخرى إلى الشرق. وأقلّته باخرة حجاج فينيسية (نسبة إلى البندقية) في سنة 1549 إلى فلسطين ودخل القدس في شهر أغسطس من العام نفسه. وسرعان ما أدرك أن وسائله لم تكن كافية أبداً، وغمرته السعادة حين تهيأ له السفر إلى القسطنطينية في ركاب حاشية المبعوث الفرنسي الذي حلَّ في القدس في شهر نوفمبر من السنة ذاتها، حيث أقام منذ أول سنة 1550 وحتى سنة 1551. ثم قفل راجعاً إلى البندقية وأودع ما في حوزته من مخطوطات شرقية لدى (بومبرج) ومنها ذهب إلى باريس. وبعد موت الأخت ماتر يوحنا، اعتبر نفسه مُحقاً للحديث عن رسالتها. وهكذا أنذر بقرب نهاية العالم، بعودة المسيح وبالخلاص للبشرية، ونوّه بالأخت يوحنا وبدورها المهم كمخلِّصَةٍ للطبيعة السفلى. وآمن بأن مادة الأخت يوحنا قد حلّتْ فيه ورمز إلى نفسه باسم: (restitus) (المرجع). إلى جانب ذلك وسع من دائرة نشاطه الأدبي فنشر بين سنتي (1551 ـ 1553) عدة مؤلفات في مختلف الموضوعات. لكنه أثار في النهاية شكوك الملك، الشيء الذي اضطره إلى السفر إلى فيينا عبر البندقية في زيارة إلى (يوحنا ألبرشت فيد مانستيتر) (1506 ـ 1551)، الذي كان بصدد إصدار العدد الجديد من الكتاب المقدس بتمويل من فيرديناند الأول وبمساعدة الراهب موسى المارديني، وكان هذا عملاً راق لبوستل المساهمة فيه. وعينه إمبراطور النمسا أستاذاً

زائراً في أكاديمية فيينا التي أُسست حديثاً. وفي أول محاضرة له تحت عنوان: (De linguae phoe niciae excellentia) تناول اللغة العبرية على أنها لغة مقدسة، والدور الذي سيلعبه الكتاب المقدس المترجم إلى اللغتين السوريانية والعربية في تنصير الشرق، وأخيراً ضرورة العمل باللغات الثلاث هذه لكي يتسنى انبلاج العصر الذهبي. لكنه بعد نصف سنة فقط، أي في الأول من مايو سنة 1554، غادر مدينة فيينا. وقد وُضعت له بضعة مؤلفات في الفهرسة وحاول تبرئة نفسه من التهم التي نسبتْ إليه، إلا أن اعتراضه لم يلق تجاوباً باستثناء منحة شهادة تنص على أن ما صدر عنه لم يُبيتْ به شراً، وأنه وقع بسوء تقدير منه. ولما ساءت حالته المادية، اضطر للانفصال عن المخطوطات التي جمعها في الشرق. وبوساطة من صديقه (أندرياس ماسيوس)، مستشار سلوفانيا وفالزيا، رهن لدى أميرها (أوتها ينريش) تلك المخطوطات لفائدة مكتبة هايدلبرج العامة، وتلقى في مقابل ذلك مبلغ 200 دوكات[1]. وفي صيف سنة 1555، عثر على متبرع أوصى بصياغة قوالب لحروف عربية في مدينة سابيونيتا على نفقته الخاصة لكنه قبل أن يستعملها، مثُل مجدداً أمام قاضٍ في محكمة التفتيش بسبب إحدى مؤلفاته الجديدة، وأُلقي القبض عليه ليقضي ثلاث سنين في السجن. ولم يُفرج عنه إلا بعد قيام ثورة شعبية في سنة 1559، فهام على وجهه في البلاد طولاً وعرضاً إلى أن عاد إلى فرنسا في سنة 1561 مرة أخرى قبل ليلة من انفجار الحرب الأهلية. وتعرض في مقالات عدة إلى قضية الاتفاقية بين البابوات والبروتستانت الفرنسيين، فوقع نتيجة لذلك في مأزق جديد، فاعتقل بأمر ملكي، ومثل في نهاية سنة 1562 أمام قاض، ثم أُحضر إلى دير سانت مارتين في إحدى ضواحي باريس، هنا قضى آخر سني عمره، محتقراً من قبل المشرفين على السجن بسبب انحرافه العلمي ومحبوباً منهم بسبب طيب قلبه، ولم يجلب له جنونه المسالم سوى المتاعب، كما أنّ هوسه الديني

(1) بعد سرقة محتويات مكتبة هايدلبرج في حرب الثلاثين سنة في ألمانيا، انتقلت مكنونات بوستل إلى روما. انظر -Lebi Della Bida Ricerehe zpo.ff.

تناقص خطره كلما طال أمد انتظار زوال العالم الذي أعلن عنه. وهكذا فقد رفع عنه الاعتقال، وأُعيدت إليه كتبه، وسمح له بكتابة الرسائل من جديد، وبإلقاء محاضرات في ما بعد. وتمكن من قضاء 18 سنة أخرى من العمل غير المثمر بأفكاره الثابتة بغير ما كلال، ومناقشتها في مكاتبات ومقالات على أوسع نطاق.

11 ـ بداية الدراسات العربية في ألمانيا

مع وصول مخطوطات بوستل إلى مكتبة أمير منطقة بفالز، تكون بدايات الدراسات العربية في ألمانيا بلغتْ أولى محطاتها. ومنذ أن اعتنق الأمير فريدريك الثالث المذهب الكالفيني، ازدهر في هايدلبرج العلم الذي تناولته يد الإصلاح. هنا ومنذ سنة 1561، لعب مانويل تريميليوس (1510 ـ 1580)، وهو يهودي من فيرارا اعتنق الكاثوليكية بادىء الأمر ثم ارتد عنها إلى البروتستانتية، لعب دوراً فاعلاً منذ سنة 1561. وقد قدَّم هذا الأخير في سنة 1569 بحثاً في قواعد اللغة الكلدانية والسوريانية، كما قدم في السنة نفسها الترجمة السوريانية للعهد الجديد (الإنجيل) في صورة مطابقة للمخطوطات التي أحضرها بوستل من الشرق وإلى جانبها ترجمة لاتينية. وانصرف منذ سنة 1561 بطلب من أمير مقاطعة كور إلى إعداد ترجمة حرفية للعهد القديم (التوراة) إلى اللاتينية، وبمؤازرةٍ من تلميذه وزوج ابنته ومن ثمّ خلفِهِ فاي يونيوس (1545 ـ 1602). ولقد صادف إقدام يونيوس الذي نال نصيباً من علوم العربية على ترجمة الكتاب المقدس الذي وُجد مجلد منه بين رسائل بولس وتاريخ الرسل التي تركها بوستل بين مستنداته تطابقاً مع توجهات الأوساط المعنية جداً بكلمة الرب ضمن المنحى الإصلاحي (اللوثري)[1]. إن أول شخص تعامل مع مخطوطات بوستل الموجودة في مكتبه هايدلبرج تعاملاً جاداً، كان أحد تلامذة يونيوس واسمه ياكوب كريستمان (1554 ـ 1613). وقد وافانا منها بمسرد لكل مخطوط عنواناً

(1) نسبة إلى المصطلح البروتستانتي لوثر.

ومحتوىً، وإن كان هذا المسرد من قبيل المراجعة وغير صحيح في أدائه. وفي ضوء ما أفاد منه هنا من خبرة، أخرج في سنة 1582 مؤلفاً[1]، وهو نبذة مختصرة لفن الخط العربي وأحرف عربية مقبولة صُنعت من قوالب خشبية بحسب رسوم المؤلف. وفي الختام قدم عبارة الصلاة (أبانا الذي في السماء) وفقاً لما جاء في نص قواعد بوستل باللغة العربية، وذلك بمنزلة تمرين منه على القراءة. ويعتقد كريستمان أنه قام بتصحيح كثير من الأخطاء التي ارتكبها بوستل في نص الصلاة وأنه صاغ نصاً صحيحاً. لكن نصوصه وحدها أيضاً، شأنها شأن الكتابة الصوتية المرفقة، مليئة بالأخطاء، وتظهر، كما لم يفعل غيرها، خروجاً صارخاً على قواعد العربية. وباعتماده على قواعد بوستل وحدها، التي لم تكن بخافية عليه، فلا بد أن مقدار معرفته بالقواعد كان بالضرورة قليلاً. إن كريستمان نفسه، أيقن أن من المستحيل بلوغ تقدم على بوستل بدون مساعدة من مخطوط مضبوط بالشكل. وحيث إن هذه الوسيلة لم تكن متوفرة لديه، فقد تراجع عن هدفه في كتابة نحو عربي وإن لم يفُته التنويه على الدوام بضرورة دراسة قواعد العربية. إن رسالة بهذا المعنى وجهها في سنة 1585 من هيدلبرج، حيث عاد إليها أستاذاً للعبرية، وجهها إلى سكاليجه، بقيت بدون نتائج. وحيث ترجم 1590 كتاب الفلك (للفرغاني) (لم تكن الترجمة عن النص العربي الأصلي، بل عن الترجمة العبرية ليعقوب أناطولي) إلى اللاتينية، اقترح على أمير المقاطعة يوحنا كازمير في الإهداء الموجه إليه، تأسيس كرسي للغة العربية، وتعليم الفلسفة والطب من المصادر العربية. ولقد وضعت المطبعة الرومانية لأجل ذلك أجمل الطبعات تحت التصرف، كوزموجرافيا أبي الفداء، تاريخ أبي الحسومي (المكين)، مختصر المجسطي في الفلك لبطليموس، ومخطوطات أخرى. بمساعدة هذه مجتمعة يمكن للمرء أن ينشىء قاموساً وصرحاً علمياً لغوياً، آخذاً في الحسبان أن الجذور قد حُللت منهجياً. بعدئذ سيتسنى

---

(1) Alphabetum Arabicum cum isagoge scribendilegen digus Arabice

اكتشاف العربية من الجذور واستبعاد الغث الذي تسرب إلى الترجمان. وكان ينبغي أن تنقضي سنوات، قبل أن يتحول هذا الاقتراح إلى حقيقة، علماً أن كريستمان كُلف لأن يكون ممثلاً للعربية في جامعة هايدلبرج قبل وفاته بأربع سنين فقط.

وإلى جانب كريستمان اشتغل رجل لاهوت آخر من محيط هايدلبرج، وهو الموظف الراهب روثر سباي الذي كان يعمل في ضاحية شوناو، اشتغل بترجمة الكتاب المقدس إلى العربية حين التقاه بينما كان ينظم الكتب التلمودية لمكتبة هايدلبرج بتكليف من أمير المقاطعة. ويستفاد من الإشارة المتكررة لمخطوط بوستل أنه أصدر في سنة 15 رسالة لرجالات وألحقها بالوصايا العشر، وبشهادة الدخول في الدين، والصلاة الربانية وبضع كلمات أخرى من الكتاب المقدس. أما النص العربي فقد صُنع من القوالب الخشبية. إن النبذة العربية المنتظمة في نهاية هذا المرجع، هي في بعضها نص مفرداتي مجتزأ من قواعد بوستل الذي أُغفل اسمه بقصد، حتى في المقدمة التي وُصفت فيها المخطوطات العربية التي كانت في عهدة الأمير بأنها كنز. وفي الوقت الذي كان فيه كريستمان يزاول نشاطه في العربية بهدف عائد الثقافة الشخصي بشكل رئيس، وذلك لما يمكن أن تقدمه هذه اللغة من علوم وثيقة الصلة بها كالطب، وضع سباي فكرة التبشير في المقدمة، إذ نصح بإنشاء مطبعة عربية لطبع الكتاب المقدس باللغة العربية، وبإرسال تلك النسخ إلى الشرق (كما فعل سلفه فرديناند بالعهد الجديد السورياني) كي ينهل سكانه من (الدين الحق)، وليصدقوا بنور الإنجيل الصادق. لكن كل هذه المحاولات لم تلق أذناً صاغية، لأنه لا أحد من الأمراء الألمان الذين قدم لهم سباي عمله فكر في إنفاق المال من أجل إنشاء مطبعة حروف عربية.

12 ـ جوزيف سكاليجه

يُعد سكاليجه (1540 ـ 1609) في فرنسا، الذي دفع به بوستل للعمل في حقل العربية، واحداً من القلائل، لا لأن اللغة القديمة ترى فيه أحد أكبر أساتذتها، بل لأنه لم يكن له كمستشرق بين أبناء عصره مثيل. وبهدف تعلم العربية عاش خلال سنة 1562 صحبة أستاذه غريب الأطوار. ويجوز للمرء أن ينظر إليه دون تحفظ على أنه الوريث الفعلي للعلم الآخذ في التوسع الذي اكتسبه بوستل في مختلف اللغات. ومن البديهي أن سكاليجه سرعان ما لاحظ بأن بوستل لم يعشْ في موطن اللغة كما كان يتمنى، وأنه لم يُتح له بحق تعلُّم اللغة بحسب أصولها. وبهذه الكلمات تكون اعترافاته حول نفسه قد أوجزت. ولم يخْفَ عليه كذلك، أن قواعد بوستل قد ترجمت عن قواعد النحويين العرب. ولم يغبْ عن نظره الثاقب أيضاً، أن أواصر القربى بين العربية والعبرية، وإن كانت، لمن يعرفها، تجعل المدخل اللغوي سهلاً، لكنها لا تسمح للتوغل في اللغة، وأن ذلك لن يتحقق بدون وسائل أخرى مساعدة. ولم يشاطر كذلك بوستل إيمانه الوهمي بحكمة تصوف الشرق، فلقد بين له بأن الشرق لم يكن موئل الحكمة كلها ولا حكراً على الكلدانيين وحدهم، وأن إنسان الغرب أو الشمال كان مخلوقاً ينضح بالحكمة. لكن الشيء الذي كان غريباً عنه كل الغرابة، هو سعي أستاذه التبشيري، بل كل فكرة ترمي إلى وضع معرفته اللغوية في خدمة الديانة المسيحية. لقد انصب همه الأكبر على الحقيقة التاريخية، فإذا ما حدث وعثر على ما يدل على نتيجة مثمرة لبحوثه، مضى بحصافة وبغير تحيز، وبكل ما أتيح له من وسائل في إثبات الحقائق. ويُعدّ عمله الذي أطلق على اسم (ثمرة النهم إلى

المعرفة)، والذي نبع من الإعجاب ونشأ من كل الفلسفات، أنصع دليل على ذلك. ومما يؤسف له أن بعضهم قد أكد قبله أن تآريخ الأحداث العالمية، كالمعركة التي جرت على الأراضي البروتستانتية، وانتصار شارل مارتل على المسلمين، لم تعذ في حكم المؤكد. وكذلك الحال بالنسبة لسقوط القسطنطينية في يد محمد الفاتح العثماني في عصر متأخر جداً، ظلت موضع خلاف سنة بعد سنة ويوماً بعد يوم. لكن سكاليجه وحده، الذي لم يكتفِ بجمع سائر ما وصل إليه من تقاويم لكل البلدان وكلّ العصور، بل صنفها، ووصفها، وربطها بسنة تقويم الإمبراطور جوليان، وجعلها في متناول العمل من خلال تزامن منهجي، بل درّسها بإماطة اللثام عن مبدئها الداخلي وفهم المراحل والأطوار الزمنية كروح للتاريخ، رفع بذلك التاريخ من مرتبة الاستعمال الخاص إلى مرتبة التشدد العلمي. إن تصوره الذي ارتقى إلى أعلى مراتب التأمل التاريخي العالمي أحرزه بما كان تحت تصرفه من مختلف الوسائل: استخدم المصادر اليونانية واللاتينية، وفرز المخطوطات ذات الجدوى، من ذلك مثلاً أنه أعاد ضرب الإسكندر ذي القرنين على قطع النقود المعدنية اليونانية لشرح مصطلح (ذو القرنين) عليها. وكان في العصر الوسيط في وطنه فتعقب بولع المعضلات التاريخية لتاريخ إفريقيا المبكرة. وقد ألمّ كذلك بوثائق عصره، فهو على علم برحلات الإسبان والبرتغال الاستكشافية كعلمه بإرسالياتهم التبشيرية إلى الهند والصين وأمريكا. ويعرف كذلك برحلات ماركو بولو، وثمّن عمل ليون الإفريقي (Descritione dell Africa)، واطلع على التقرير الخاص برحلة بنيامين فون توديلا في إحدى ترجمات آرياس مونتانوس اللاتينية. وقيّم ما كتب ف.ر، ألفاريز حول رحلته إلى الحبشة، وأورد رسالة يصف فيها اليسوعي البرتغالي (الويس فرواز) السنة اليابانية الجديدة، واقتبس من تاريخ الهند لليسوعي فرانك لوبيز جومارا التقويم المكسيكي. بعدئذ تأتي المصادر الشرقية الغزيرة المزركشة التي قدر على تقييمها بفضل معرفته المتعددة باللغة. إن كثرة اطلاعه على مخطوطات حاخامات اليهود سمحت له بالإقدام على الشروح التوراتية (المشنا) وكتب الشعائر لواضعها مايمونيد ويوسف بن آشر، وحواشي دافيد كيميشي على

التوراة، وطقوس وتقويم الجالية اليهودية في فرنسا. وتيسر له كذلك الاطلاع على الترجمة الآرامية للعهد القديم (التوراة)، وعلى الترجمة السوريانية للعهد الجديد. وكان يلم إلمامة جيدة باللغة الأمهرية بحيث تسنى له استخدام الإنجيل الذي صدر في سنة 1548 بهذه اللغة، وأن يكتشف بأن النص الذي يقدمونه حول تاريخ الرسل ليس أصيلاً، بل هو من وضع الناشر بطرس اتيوبس. أما عن الترجمات العربية، فقد كان في حوزته وضمن مجموعته مخطوطات شرقية أوصى لها بنفسه في مكتبة لايدن (هولندا) وتتكون من ثلاث نسخ. فإذا حدث وكانت مادته العلمية في حقل الدراسات الشرقية مُلحةً ومحدودة، تفنن في استخدامها، وأجرى استبياناً شخصياً حولها إن لم تكن مستنداته كافية لتحقيق هذا الغرض. وهكذا فقد تبادل الرسائل مع المواطن اليعقوبي العكاوي اجناتيوس الذي شارك في مباحثات الاتحاد الكنائسي في روما لسنة 1577 وكان مولعاً بالمسائل التاريخية. ولا بد للمرء أن يتذكر إلى جانب هذا أنّ كتاب سكاليجه عالج حيثية كانت تشغل في قلبه اهتماماً واقعياً كبيراً. فالإصلاح المقترح من جانب لويس ليليوس لتصحيح تقويم جوليان، وجّه اهتمام الرأي العام في هذه المنطقة، لقبوله من قبل البابا جريجور وتسيير ما يدعى بالتقويم الجريجوري إلى ما هو أبعد من الوسط التخصصي الضيق، وأدى إلى إضفاء وصف حي. وفي مواضع عدة من كتابه يورد سكاليجه معلومات في النص العربي الأصلي لا يسع المرء إلا أن يُسدي أسمى عبارات التقدير للرجل الأمين عليها، فإليه ترجع على سبيل المثال الأسماء الاثني عشر للحيوانات التي تمثل دورة السنة الشرق آسيوية، والتي أورد ذكرها باللغات التركية والفارسية والسوريانية والعربية، بلغة الشاتاي والياجواري. كذلك توجه سكاليجه إلى السامريين في نابلس والقاهرة، فبعثوا له من الأخيرة بتقويم عن السنة 1584 طبعه بأحرف سامرية، ويَعدُ بالاعتراف بالعجز في محاولته الأولى هذه، وشدَّ أنظار زوار فلسطين في المستقبل بالتوقف لمشاهدة الأعمال السامرية وبالأخص أسفار التوراة الخمسة الأولى. كذلك فقد حصل من القاهرة، وبوساطة أحد التجار الإيطاليين، على رسوم أحد الرهبان الأحباش حول تواريخ الكنائس الحبشية

والقبطية والفلسطينية. لكنه وإنْ اشتكى من جهل وإهمال هذا الشخص مراراً وتكراراً، فإن التصور الذي قدمته طبيعة هذا التاريخ يتناول ثلاث كنائس من حيث المبدأ حسبما جاء في بياناته. وإلى هذا الأب يرجع الفضل في التقويم الحبشي الذي أخذه سكاليجه مكتوباً بأحرف صوتية عبرية وترجمة لاتينية وملاحظات وافية، ولكن ليس بدون ملاحظات مريرة يبديها القارىء سكاليجه حول سهو المؤلف وسقطاته. وهذا الراهب أيضاً هو الذي قام بوصف تاريخ الكنيسة العكاوية لسنة 1578 التي أوردها في نص عربي أصلي (قوالب خشبية)، وأرفقها بترجمة لاتينية وتهميشات. وقد تعذر عليه استقاء حساب الزمن الإسلامي. لقد عرف أعمال أبي مَصار القبيسي التباني في الترجمات اللاتينية والجداول الألفونسية (نسبة إلى الملك ألفونس الإسباني)، لكنه لم يحصل، باستثناء القرآن الذي قرأه، إلا على القليل من الأعمال المتأخرة التي قدمتْ له القليل مما يفيد في أغراضه. ولقد وقع في يده تقويم فارسي مهم ذات مرة. لكنه أخفق في التعرف على طبيعته، مثلما أخفق في الحصول على معلومات شافية، حيث عرضه سنة 1583 على راهب في تولوز كان يجيد التحدث بالعربية وقضى ردحاً من الزمن مع المسلمين. وقد فشل بالقدر نفسه في إعطاء تصور صحيح عن الأزمنة الهجرية والتواريخ الإسلامية بقصد حسابها وفق تقويم جوليان. واستطاع الكشف عن أخطاء في التسلسل التزامني للأحداث في أعمال كل من ليوكلانيوس ومارتين كروسيوس، دون أن يغمط هذين فضلهما أو أن يستخف بالجهد الذي بذلا. ويظهر من كتابه أنه كان يحيط علماً بالإصلاح الذي أدخله السلطان السلجوقي ألب أرسلان على التقويم، وعلى التآريخ. لكنه في الوقت الذي تتكشف فيه الدوافع التاريخية أمام نظر القارىء في العصور القديمة والعالم المسيحي، يخيم ضباب كثيف على ماضي شعوب أخرى لم يستطع سكاليجه اختراقها بنظره العلمي أيضاً.

13 ـ بداية حروف الطباعة العربية

إن عدم توفر حروف الطباعة العربية بصورة كاملة تقريباً حتى نهاية القرن 16، أثّر تأثيراً قوياً على سير الدراسات العربية. فإذا رغب أحدهم في تنويع نص عربي مطبوع، توجب عليه اللجوء إلى قالب خشبي. وحيث إنه لم يكن يتوفر خطاط شرقي تحت التصرف، يتولى بنفسه رسم النماذج بحروف غير ركيكة، ولا توفر كذلك متبرع يتحمل نفقات صناعة الحروف من جيبه الخاص كما حدث لبوستل، فالنتائج لم تكن أفضل. إن صناعة الأحرف بيد غير خبيرة، أنتجتْ لدى جمعها كُلاً غير متناسق. إذاً فلقد كان إنشاء مطبعة عربية في ثمانينات القرن السادس عشر في روما من قبل الأسقف ودوق توسكانا كبير النبلاء، فيردناند فون ميديشي بأحرف عربية جيدة، كان إنشاؤها تقدماً جباراً. إن تأسيس تلك المطبعة تم أيضاً بتشجيع من الجهاز المركزي البابوي للاتحاد الذي شهد حركية متميزة في ظل إدارة جريجور الخامس (1572 ـ 1585). وهكذا فقد أرسل المالطي ليوناردو آبل إلى الشرق في سنة 1583 لفتح حوار مع الكنائس الشرقية، وأرسل في سنة 1584 إلى الموارنة والأرمن الذين كانوا لا يزالون نزلاء في المجلس المسمى (نيو فيتوروم) (وهو إشارة إلى اليهود والشرقيين الذين ارتدوا عن دينهم) وكان تأسس في سنة 1543، وكان الهدف من زيارة المالطي ليوناردو إنشاء مجمع جديد لكل منهما.

كان مدير المطبعة (المديشية) (نسبة إلى مؤسسها مديشي) شاباً إيطالياً من جريمونا ويدعى جيوفاني باتيستا رايموندي، الذي أقام مدة غير قصيرة

في آسيا بشهادة (أربينيوس المؤرخ)، وربما تعلم العربية في أثناء إقامته، واكتسب بشكل خاص مهارات في الخصوصيات الجوهرية للخط العربي. هذه مكنته بالتالي من ابتكار أحرف عربية ومن تقطيعها، كالحروف المستقلة أو التي ترتبط مع غيرها، وتعطي بعد رصفها باليد جنباً إلى جنب صورة لخط مقروء.

ومنذ السادس من سبتمبر لسنة 1586 تمكّن من صناعة أحرف عربية أنيقة تم بواسطتها طباعة كتاب القانون لابن سينا الذي يُعد بحق أبلغ شهادة لصالح تلك المطبعة.

وبالنظر لسعة وضخامة هذه الموسوعة الطبية غير العادية، التي أرفقت أيضاً بكتاب (النجاة) للمؤلف نفسه، فلم يصدر هذا الكتاب الضخم الذي أشرفت عليه الدولة في أكثر من ألف صفحة إلا في سنة 1593. وبناءً على ذلك فقد صدرت عن هذه المطبعة أعمال أخرى أقصر: فصدرت في سنة 1590 بادىء الأمر الأناجيل الأربعة باللغة العربية، وتبعها في سنة 1591 إصدار للترجمة نفسها بنص لاتيني مقابل. وفي سنة 1594 ظهر اثنان من مباحث القواعد المفضلة في الشرق، (الكافية) لابن حقيب، والأجرومية لابن أجروم، إضافة لذلك فقد صدر في سنة 1592 الكتاب الذي سمي فيها بعد خطأ (جغرافية النوبة)، ونعني به الكتاب ذائع الصيت (نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق من كتاب الإدريسي لروجر). وفي سنة 1588 تلقتْ المطبعة إذناً من السلطان مراد الثالث يُسمح بموجبه بتسويق كتاب تحرير أصول إقليدس بترجمة عربية لمؤلفة الطوسي في سائر أنحاء الإمبراطورية العثمانية، إلا أن طباعته لم تُستكمل إلا في سنة 1594. كما ظهرت ترجمة عربية مستقلة أنجزها أحد الموالي التونسيين ويدعى دومينيكو سيرليو. وبعد الإصدارات التي أنجزت بإيعاز من البابا كليمن السابع (1592 ـ 1605)، مرَّت فترة توقف طويلة، ربما كان السبب فيها عدم مطابقة فصول النسخ المرسلة إلى الشرق للتوقعات المرتقبة. فكان من اللازم أن تتداول الأيدي الشرقية كل النسخ، بما أنها لم تصدر بلغتين. ولم يكن

رجال الكنيسة اللاتين هم المعنيين باستعمالها، فلم تتضمن إضافة إلى النص العربي أي عناصر أخرى، حتى ولا عنوان الصفحة اللاتيني المعتاد. ولم تقف عقبة أمام انتشارها في الشرق، حيث كان ينظر الشرقيون بتوجس لكل ما كان يصدر عن الغرب، سوى الأخطاء المطبعية والسهو كما كشفت عنها صفحات الخطأ والصواب لكتابَيْ القانون لابن سينا والأصول لإقليدس. ولم يهيىء الأسباب للعودة إلى نشر الكتب الشرقية سوى البابا بولس الرابع (1605 ـ 1621). وتركز الاهتمام الآن على ابتكار الوسائل المساعدة على دراسة اللغات الشرقية مثل قواعد اللغة والمعاجم. وحين نشر رايموندي مختصراً ثالثاً للقواعد (كتاب التصريف تأليف الشيخ الإمام العربي) في سنة 1601، أرفق النص المقدَّم في فقرات، بترجمة لاتينية حرفية وأخرى بتصرف. وكان ذلك آخر ما صدر عن هذه المطبعة العربية الشهيرة، حيث لبّى رايموندي نداء ربه في سنة 1614. لكن تقاليد مطبعته لم تتوقف واستؤنفت من قبل تلميذه ستيفانوس بادلينوس، الذي أنشأ بمساندة السفير الفرنسي فرانسوا سافاري دي بريفيه لدى الإدارة البابوية المركزية في روما (1608 ـ 1614) مطبعة شرقية جديدة، بهرت برونق إنتاجها وجمال حروفها العربية عيون الناظرين. وقد أراد سافاري من وراء ذلك، انسجاماً مع روح السياسة التقليدية الفرنسية في منطقة المتوسط التي مثلها بوصفه سفيراً لبلاده لدى الباب العالي لسنين طويلة، أراد تنشيط طموحات الكنيسة الكاثوليكية في الاتحاد. فقد صدرت وعلى نفقته الخاصة في سنة 1514 الترجمة العربية لأركان الدين المسيحي للكاردينال بيلارمين رفقة ترجمة لاتينية للنص الإيطالي الأصلي، كما صدر في سنة 1614 سفر المزامير بالعربية واللاتينية. وقد شارك في ترجمة كلا العملين شخصان مارونيان، أحدهما ويدعى فكتور شالاك أكورينيسيس الذي درّس اللغة العربية منذ سنة 1601 في ثانوية سابينتيا، والآخر ويدعى جابرييل سيونتيا. وبعد عودة سافاري في سنة 1615 إلى باريس، اصطحب معه حروفه العربية، وترك لستيفانوس باولينوس أمر تأسيس (مطبعة اللغات الشرقية) في الوقت نفسه من السنة التي صدر فيها العقد الذي أبرمه باسم هنري الرابع مع السلطان أحمد الأول في سنة 1604.

إضافة لذلك فقد عمل سافاري بصحبة جابرييل سونيتا وماروني آخر هو يوحنا هيسرونيتا، وقد قام هذان بنشر كتاب (قواعد العربية المارونية) في سنة 1616 على نفقته الخاصة، الذي لم يزد في البدء على جزء معالجة فن الكتابة، ثم قاما بترجمة (جغرافية النوبة) بعد ذلك بثلاث سنين بناء على رغبة توانوس إلى اللاتينية.

لكن حروف الطباعة العربية الجميلة لمطبعة ميديشي سرعان ما استنهضت الهمم للتقليد في مسار مغاير. فقد صنع على غرارها في هولندا فرانشيسكو رافيلينجيوس (1539 ـ 1597) حروفاً عربية تحتل مرتبة متأخرة بكثير بعد الرومانية بالطبع من حيث الجمال. لكنه طبع بهذه الحروف الأبجدية الهجائية فقط والنشيد الخمسين من المزامير بشكل خاص، في حين أن معجم عربيته الضخم لم ينشر إلا بعد انقضاء 16 سنة على موته من قبل ابنه. ومن حيث الجوهر، فقد كانت الحروف التي ابتكرها الناشر الفرنسي (فيلهلم ليبي) حوالى سنة 1600 أجمل، لكنه استعملها أيضاً كما يبدو من أجل طبعة تجريبية فقط، ولأجل بعض الجمل العربية في مجموعة سكاليجه الثانية التي صدرت في سنة 1610 لمؤلفه الأدبي الصغير.

وأخيراً في ألمانيا، حيث لم تلق مناشدة (سبيس) الأمراء لتأسيس مطبعة شرقية أذناً صاغية، فقد أوصى الطبيب بيتر كيرستن (1575 ـ 1540) من مدينة برسلاو، وبتمويل من بيتر فون سيلاو بقطع قوالب أحرف عربية وبسكبها، لم تكن في الواقع في مثل جمال الأحرف الرومانية، لكنها كانت واضحة وصافية. وبهذه مكّن عدداً من المطابع العمل في الفترة الواقعة بين 1608 و1611، ومن بين ما أنتج قواعد اللغة العربية في ثلاثة أجزاء، يحتوي آخر جزء منها كتاب الأجروميّة، حسب الإصدار الروماني بترجمة لاتينية وتهميشات، ومن ثم جزء من طبعة المجلد الثاني لكتاب القانون لابن سينا، ورسالة يهودا بالعربية وفق مخطوط بوستل المودع في مكتبة هايدلبرج الذي تكررت الإشارة إليه أكثر من مرة، وبعض من الأناجيل الأربعة بالعربية استناداً إلى مخطوط من مكتبة بلاط فيينا، ومجلد ضخم بتعليقات على

إنجيل متى، يستند بشكل أساس على ترجمة عربية للكتاب المقدس. وقد اهتم كيرستن بدراسة العربية بهدف الاستعمال الشخصي بشكل خاص. وكان قد استقى عربيته من دراسة ترجمات متداولة ملأى بالأخطاء لكتاب ابن سينا وغيره من الأطباء والفلاسفة في نصها الأصلي، ذلك أنه، بوصفه طالب طب، استلهم وجهة نظر أساتذته القائلة، بأن الطبيب الذي يريد أن يحقق نجاحاً في حياته العملية، لا بد أن يكون سينوياً جيداً (نسبة لابن سينا)، كما أن سكاليجه سبق أن ذكر له، أن الطبيب الناجح يمكن أن يستغني عن اللاتينية قبل أن يستغني عن العربية واليونانية. لكنه لم يكن يملك سوى وسائل مساعدة قليلة وناقصة، وإن تعامله مع مسيحي شرقي غير متعلم تلقى على يديه العربية، على ما يبدو، زمناً غير قصير، لم يعد عليه بنفع كبير. وهكذا فقد بقي ذلك الشخص غير المتخصص، الذي لم تُتح له مهنته التي لم تُبق له سوى سويعات قليلة يخصصها لدراسة العربية، فرصة لتعويض العجز في تسلحه العلمي. ولهذا السبب فإن أعماله تعاني من هنات شديدة، فمفردات أعداده في نحوه على سبيل المثال كلها خطأ تقريباً.

ومن البديهي أنه لم يجد لا لدى الإمبراطور رودولف الثاني ولا لدى فريدريك الرابع المساندة اللازمة. وفي النهاية اضطر إلى وأد كل آماله التي عقدها على تعلم اللغة العربية وقد مُني بخيبة أمل كبرى. وفي سنة 1636 هاجر برفقة أحرفه العربية إلى السويد ليصبح الطبيب الخاص للملكة كريستينا، وأستاذاً في الطب في أوبسالا وتوفي فيها عام 1640.

14 ـ توماس إربنيوس

لقد عرف النقاد كيف يقومون أهمية الاستشراق تقويماً مختلفاً آخر في هولندا التي فتحتْ مردوداتُ التجارة مع الهنديتين أنظار مواطنيها على فوائد معرفة اللغات الأجنبية. ففي شخص توماس إربنيوس (فان إربه 1584 ـ 1623)، ملكت هولندا قديماً عالماً استدعي بسبب قواعده العربية لإقامة فقه اللغة العربية في أوروبا على أسس متينة، فيما مكنه الرجال ذوو النظر البعيد، الذين كانت في أيديهم مقاليد إدارة جامعة لايدن، للتعبير عن مواهبه، فعينوا له أستاذاً للغات الشرقية باستثناء العبرية.

وهكذا كسبت هولندا قصب السبق فانتزعت الريادة بين الأمم الأوروبية على مدى قرنين من الزمان تقريباً.

ولد توماس إربنيوس سنة 1584 في جوركوم، ودرس اللاهوت في مدينة لايدن. وكان سكاليجه قد أسدى له النصح لدراسة العربية، فلم يجد من أجل هذا الهدف، لا في هولندا ولا في رحلته إلى إنجلترا حيث كان وليم بيدويل (1562 ـ 1632) أحد أوائل المهتمين بدراسة اللغة العربية، لم يجد فيهم الوسيلة الصحيحة المساعدة، إلى أن سافر في بداية سنة 1609 إلى باريس، حيث قابل هناك رجالاً وجد فيهم النفع الذي لم يكن متيسراً ذلك الوقت في هذا المجال. وكان الطبيب الخاص لبلاط هنري الرابع، أستاذاً للغة العربية في جامعة باريس. وكان من بين الذين التقاهم ستيفانوس هوبرتوس الذي اكتسب علومه العربية في الشرق. وقد برز الوكيل الملكي للنشر إسحاق كاساوبونوس (1559 ـ 1614)، وكان أكبر علماء عصره

باليونانية القديمة وعالماً موسوعياً، برز كواحد ممن أخذوا بيده على طريق تعلم العربية. وشد الفضول كاساوبونوس نحو الشاب الهولندي الذي سرعان ما اكتشف فيه موهبته، فشجعه على استعمال كتبه ومخطوطاته العربية ومدوناته في القواعد والمعاجم التي كان يقتنيها، وكان من بينها أيضاً تركات طالب الطب المتوفى سنة 1604 هادريانوس فليسين - جينيس من مدينة فليسنجن، الذي كثيراً ما طالع العربية، وقرأ لابن سينا، وشرع مع كاساوبونوس في ترجمة (جغرافية بلاد النوبة)، وخلّف انطباعات حول قواعد اللغة العربية. لكن إربنيوس وجد الفرصة سانحة وبشكل خاص في باريس للتحدث بالعربية مع يعقوبي مصري (يوسف بن أبي داقان). وقد حقق بذلك تقدماً سريعاً، بحيث إنه تمكن من كتابة رسالة بالعربية إلى بيدويل في 14 سبتمبر من سنة 1609 أي بعد مضي تسعة أشهر. وشكلت دراسة اللاهوت، والحالة هذه، أهمية بالنسبة إليه، إذ غادر باريس إلى ساومور لمدة سنة. لقد بلغ الآن خمساً وعشرين سنة من العمر، وبرغم كونه قد عاش في ظروف مالية مريحة كابن لأحد الملاك، ولم يساوره أي قلق حول مستقبله، فكثيراً ما ألح عليه السؤال عن المهنة التي سيختار. وفي لحظة يأس من مقدرته أوشك أن يتخلى كلية عن مواصلة دراسة العربية، لكنه عاد فاتخذ بينه وبين نفسه قراراً بالبقاء وفياً للعربية. وتعمق في دراسة بحوث العربية التي وضعها تحت تصرفه هوبرتوس وكاساوبونوس مثل (كتب الأجرومية، الكيفية، والمئة عامل للجرجاني وغيرها)، كما نظر في القرآن الكريم حيث وجد بعض مخطوطاته في مقتنيات هادريانوس، وفي جغرافية النوبة وترجمات المزامير والأناجيل. وبالنظرة الثاقبة لباحث لغوي موهوب قلّب أبنية العربية الغنية، وضع يده على قواعد بنائها، وسرعان ما تبين له أن الفارق بين العربية والعبرية حتميٌّ، وأنه يتوضح بموجب قواعد السياق الثابتة. وتنبه إلى الفرق بين الفصحى والدارجة، فقام، بإيحاء من كاساوبونوس، بجمع القواعد الرئيسة للغة باختصار ضمن إطار منهجي منظم. بعدها بقليل جرب موهبته في الشرح على أحد النصوص التي نصحه بها كاسوبونوس بهدف النشر، وهي كناية عن مجموعة من المترادفات العربية لمئتي قول عربي مأثور

تحصل على مخطوطها (دي فلورنس)، المربي اللاحق للملك لودفيج السابع في روما، ثم قدمها إلى كاساوبونوس مرفقة بترجمة لاتينية لها أعدها له أحد المارونيين بتكليف منه.

وقد قام سكاليجه بترجمة وشرح الـ: 176 قولاً الأولى لكنه توفي في سنة 1609. وقد حل إربنيوس محل صاحبه بعد وفاته في إصدارها وكان ذلك في سنة 1615 تحت اسم (كتاب الأمثال). وقد توصل إلى أن المخطوط يرجع إلى كاتب غير متعلم، واستبدل إعجامه بحسب قواعد النحاة العرب والقرآن الأنموذج، غير متناسٍ أنه قد حاد في بعض الأحيان عن الصواب بالطبع. كما أنه وجد الكثير مما يجب تصحيحه في ترجمة سكاليجه. ومن البديهي أن معرفته ووسائله المساعدة لم تكن كافية لتمكينه من فهم النص السَّيِّىء والصعب موضوعياً بكامله. لكنه يواجه الصعوبة ولا يتهرب منها ويعترف صراحة إذا ظل موضع ما مبهماً لديه. وهكذا فإن كتابه (Proverbiorum Arabicorum centuriae duae) يشكل، برغم ما فيه من عيوب وأخطاء ما كان أحد ليتسامح بها مع مبتدىء في عصرنا الحاضر، يشكل علامة مضيئة أولى في تاريخ الدراسات العربية الأوروبية بحسب الأسس اللغوية المنهجية للنص كما كان.

وفي سنة 1610 قفل إربنيوس راجعاً إلى باريس من ساومور، لكنه لم يلتق بعدها كاساوبونوس الذي هاجر إلى لندن بعد اغتيال الملك هنري الرابع. ولكي يتسنى له جعل كتاب الأمثال جاهزاً للطبع بعيداً عن أي مزعجات، ذهب في صيف 1611 إلى كونفلانس. هناك جمعته المصادفة في أثناء طريقه بتاجر مغربي (أحمد بن قاسم الأندلسي). واهتبل تلك المناسبة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر للتحدث مع مسلم، ثم شد الرحال إلى باريس مرة أخرى بدافع الشوق إليه. على أنه لم يتعلم المزيد في ما يخص قواعد اللغة قبل أن يتركه عائداً إلى بلده، لكن ثروته اللفظية ازدادت بشكل ملحوظ بعدما تعودت أذنه سماع النطق المغربي. غير أنه تعلم هنا لأول مرة بدافع من رؤيته الشخصية جوهر التدين الإسلامي. ولقد أقنعته أحاديثه مع المغربي

أن الإسلام أقوى من أن يُدحض ببساطة كما ذهب البعض إلى الاعتقاد. وأعرب عن رأيه في أن القرآن ليس الأساس الوحيد الذي يقوم الإسلام عليه، وأن الاستعمال المستحب لبعض آيات الذكر الحكيم من قبل المسيحيين، إما أن يُردَّ عليه المسلمون بمعنى ينتزعونه من كتب التفاسير أو بسنةٍ قولية أو فعلية للرسول. إنه وإنْ لم يقدر على وضع تصور عن مضمون السنة ومعناها الرفيع[1]، فقد أدرك أنه لا سبيل إلى فتح حوار حول الإسلام بدون معرفة بها.

لقد خطط إربنيوس في الأصل لرحلة إلى إيطاليا، ومن فينيسيا عبر راجوسا إلى القسطنطينية. لكن إقامته المديدة غير المتوقعة في باريس، اضطرته إلى الاستغناء عن خطط أخرى بعيدة. في هذه الأثناء، حيث تعلم يوحنا أنطونيو وهو أحد تلامذة رافيلينجيوس، جرى الحديث في لايدن (هولندا) حول إنشاء كرسي للدراسات العربية. ولم يبخل كاساوبونوس وغيره من أمثال دانيال هاينزيوس بتزكية إربنيوس. وهكذا تقلد في سنة 624 منصب الأستاذية التي شغلها حتى وفاته في سنة 1624 عن سن مبكرة. وخلال هذه المدة القصيرة من الزمن، قدم كأستاذ وباحث أفضل ما عنده، مما عاد بجني بعيد الأثر على الدراسات العربية في أوروبا. فقد نشر بادىء الأمر عن طريق مطبعة رافيلين، في السنة نفسها التي صدر فيها معجم المفردات العربية لرافيلينيجس المتوفى سنة 1596، كتابه (قواعد العربية)، وهو أول كتاب في اللغة العربية القديمة كتب بيد وتصور أوروبيين. يبدأ بعلم الإملاء، حيث يتناول من جهة فن الخط، ثم أنواعه، والنظام العددي (القبطي من ضمنه)، وكتابة العربية، يمثل هذا بحروف عبرية وسريانية، بعد ذلك يجيب عن أسئلة تتعلق بعلم الأصوات. من ذلك النطق مثلاً، وظاهر الإدغام في الجمل، وأحكام ترتيل القرآن. ويعطي بصورة خاصة قواعد الأحرف الصوتية أ، و، ي، التي يعود إربنيوس لمعالجتها مرة أخرى بشكل

(1) أدرج ذكر المدونة المالكية مع بقية كتب التفسير التي ذكرها.

مستقل في سنة 1618، وذلك بسبب أهميتها الجوهرية. وفي علم الصرف، يتعرض بالتفصيل للحديث عن بناء الفعل، والفعل المهموز، والفعل المنقوص، والماضي البعيد، ويفلح للمرة الأولى في ضرب الأمثلة على صيغ الأسماء والحال وجمع الكسور. لكن الأدوات والمبني لا يستغرق منه سوى صفحات قليلة. وقواعدُه، حيثما كانت، وُصفت بدقة ووضوح، والأمثلة اختيرت، وقد روعي فيها على الدوام ضرورة استيعاب الدارسين لها. لكنّ الذي أبرز قيمة الكتاب، كونه قد تصدر تدريس العربية في أوروبا كأشد ما يكون طوال قرنين بلا منازع. ولم تُجر عليه أيُّ تعديلات جوهرية في كل مرة باستثناء إضافة بعض نصوص للمطالعة: في سنة 1636، حيث استعمل أنطون دوسنغ، أستاذ الطب والرياضيات في جرونئجن التنقيح الذي أجراه إربنيوس بنفسه على نسخة مخطوطة، في سنة 1656 من قبل جوليوس، وفي سنتيْ 1758 و1767 من قبل آ. شوتنس، الذي عرض على المستشرق رايسكه القيام بنقد مرخص به، وفي سنة 1771 قام المستشرق ي.د. ميخائيل بترجمة الكتاب إلى اللغة الألمانية. ولم تسجل خطوة متقدمة في هذا المضمار إلا بعد صدور كتاب (قواعد العربية) باللغة الفرنسية للمستشرق الفرنسي دي ساسيه في سنة 1810.

وبعد كتابه في قواعد اللغة، أصدر إربنيوس في سنة 1614 المئتي مثال عربي الذي سبقت الإشارة إليه. لكن مطبعة رافيلنجن التي صدر عنها هذا الكتاب أيضاً، عجزت منذ وقت غير قصير عن تلبية كلّ الطلبات. وبحافز من حروف سافاري الذي ورد ذكره، أوصى بتفصيل حروف من نمط آخر على نفقته الخاصة، توسطت في حجمها حروف كتاب (القانون) التي طبعتها مطبعة ميديشيه والحروف الكبيرة التي طبعت بها الأناجيل، وصار يصدر مؤلفاته منذ ذلك الحين بطريق دار نشره الخاصة. ففي البداية أخرج، كاستكمال لما بدأه بكتاب قواعد اللغة، كتاباً عربياً للمطالعة من أجل المبتدئين، واختار من أجل ذلك أمثال لقمان، التي كتبها أحد النصارى المصريين بلغة مليئة بالأخطاء.

إن إربنيوس الذي لم يقرأ نصاً قديماً باستثناء القرآن بالطبع، اعتقد أنه سيتعرف فيها إلى ترجمة قديمة من الفارسية، وإن كان خامره الشك، بأن الأمر قد يتعلق بعمل حديث، وهكذا فقد ظل يعتقد، بأن أسلوب وتعبير هذه الأمثال رشيق جداً. وفي مقابل ذلك فقد أضاف مئة مقولة عربية أخرى، ونشر كلا النصين بغير إعجام (لأن مطبعته كانت تفتقر لأحرف الحركة) مع التقيد قدر الإمكان بحرفية الترجمة اللاتينية مع حق التصرف فضلاً عن حواشٍ مقتضبة. وكما حدث لكتاب قواعده الذي اعتُمد كنصوص للمطالعة منذ عهد طبعة (دوسنغ)، فإن هذه الأمثال والأقوال قد حافظتْ على مكانتها في التعليم العربي حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر[1].
في تلك الأثناء دخلت العربية، أول ما دخلت، على معظم المهتمين بتعلمها في أوروبا كلغة مهلهلة كُتبت بها، بأمثال لقمان، وبالمفردات المصطلحات العامية، وعدم اكتراثها بالقواعد القديمة الملائمة، ومخالفاتها الفظة لحالة ونظام الإعراب. والشخص الذي استهل محاولاته في الترجمة بهذه النصوص، لم يجد، ابتداءً منها، طريقاً توصله إلى العربية الصحيحة التي تتمتع بروح مختلفة عنها كل الاختلاف. إن تفهُّم اللغة الكلاسيكية، وإمعان النظر في مختلف المراحل التي مرت بها في تاريخها، كان أمراً يتطلب فرضه جهداً أكبر مما ينبغي أن نتوقعه في الحقيقة من التعريف التدريجي بنصوص اللغة التقليدية. لكن المطلب البديهي في النظم اللغوية الأخرى، بضرورة إعطاء المبتدىء بالذات نصوصاً لغوية لا غبار عليها، بحيث يسمح ذلك بنمو حسٍ لغوي داخلي سليم فيه، لم يعد اليوم مُتبعاً دائماً في الدراسات العربية، واستمرَّ إربنيوس في إصدار سلسلة الكتب المخصصة للدارسين. ففي سنة 1617، ضبط بالشكل سورة يوسف (حيث امتلكتْ مطبعته الآن حروف الطباعة اللازمة لذلك) وأصدرها. وبقصد تلبية

(1) لم يشر في كتابه إلى مصدر حصوله على تلك النصوص. فأمثال لقمان كان في الوقت نفسه في حوزة أحد تلامذة سانت هوبرتوس الذي كان يعمل لدى أحد حاشية الملك الفرنسي ي. ب. دوفال المتوفى سنة 1634.

الاحتياجات المدرسية، لم يهمل إربنيوس شيئاً قد يساعد الطالب، الذي يفترض فيه تصوراً بسيطاً عن الكتابة، على استعمال النص، فهو يضع البديل اللاتيني فوق كل كلمة عربية بحسب تقليد العصر. وحيث إن الرواية المقحمة بين الأسطر قلما تسمح بتخمين المعنى، فإنه يقدم على الحاشية ترجمة إلى اللاتينية القديمة لسورة يوسف مقتبسةً عن بيبلياندر[1]، وصياغة روبرتوس كيتينسس (صاحب أول ترجمة للقرآن)، ويؤيدها بستين صفحة من الشروح النحوية واللغوية، ويقدم في الختام نفس السورة الأولى المترجم المفسر بالطريقة نفسها. إن قيمة هذا الإصدار الذي نُشرت ودُرست به لأول مرة في أوروبا سورة من طوال السور، ينتزع تقديراً أسمى من كل ما صدر خلال القرن السابع عشر من أعمال جدّ نادرة تتعلق بالقرآن في أوروبا. ولم تفقد سورة يوسف، كنص رائد ابتدىء به، منزلتها المحببة في المطالعات القرآنية.

وفي السنة نفسها أصدر إربنيوس كتاب الأجرومية، وكتاب الجرجاني حول (المائة عامل)[2] (الولاة) في نص مضبوط بالشكل تماماً ومترجم ومشروح. وكان قد صدر في روما كتاب للأجرومية) غير مضبوط بالشكل، وكرَّر المستشرق كيرستن في المجلد الثالث من قواعده النصَّ الروماني، صارفاً النظر عن الترجمة اللاتينية غير المفهومة المليئة بالأخطاء. ولكن ما إن بدأ إربنيوس بالتعمق في فهم قواعد العربية، حتى وضع، بالاعتماد على أربع مخطوطات نصاً أفضل، ليفسح بترجمته المقروءة وشروحه سبيلاً إلى فهمه.

ولقد حاول التغلب على الصعوبات الجمة التي كانت تشكلها المصطلحات اللغوية المحلية على كل مترجم أوروبي من خلال التماس المصطلحات المطابقة في القواعد اللاتينية وقدر الإمكان. فإذا تعذر ذلك، ترجمها إلى اللاتينية (الاستثناء، والتمييز، والحال، والصرف، والمبتدأ،

---

(1) سورة يوسف وتهجئة العرب.

(2) ورد العنوان على النحو التالي: (كتاب الجَرومية ومأية العامل).

والخبر إلخ. . .)، واحتفظ فقط بأسماء حركة الحرف (الفتحة والكسرة والضمة) والإعراب (الرفع، والنصب، والخفض، والجزم) وصاغ مقابلها أفعالاً (نصبة ري، رفعة ري، خفضة ري، جزمة ري)، ويضع لحالة الرفع (المبتدأ ورفع المضارع) والاسم للتنوين. وبسبب أخذه للمصطلحات، فقد اتهمه بعض النقاد بأنه عرَّب علم القواعد، في ما ذهب آخرون لما هو أبعد، حيث وقفوا ضد التعامل مع اللغويين المحليين، متجاهلين بذلك أن قواعد اللغة العربية تحتل نقطة مركزية في البنية الإسلامية. وقواعد اللغة تسري في كل الأدب لغة وتفسيراً، كما أن أثرها يُلمس بقوة في الكتابة، وحين يكيل أحد العرب الثناء للغته، أو حين يقوِّمُ موضوعاً لغوياً، فإن ذلك يحدث في المصطلحات التي وضعها النحاة. وبدون معرفة بمصطلحاتها، فلا سبيل إلى فهم معاجم المفردات المحلية، ولا الدراسات حول دواوين الشعراء، لا تفاسير القرآن، ولا شروح مجموعات اللغة، ولا الجاحظ ولا الحريري. ولأن إربنيوس دلّنا على الطريق إلى العربية الفصحى، فسيظل ذلك أحد عناوين شهرته التي لا تنسى.»

إن الاهتمام الذي دفع إربنيوس نحو المصادر الإسلامية كان ذا طبيعة لغوية على الراجح. وحتى القرآن نفسه، فإنه لم ينظر إليه إلا على أنه مجرد نصب (تذكاري لغوي). ولم تخْفَ عليه الخيوط التي تصل بين مضمونه ومضمون الكتب اليهودية، بل إنه فكر لحظة في تبعيتها. لكن الجانب اللاهوتي ما لبث أن سيطر على تفكيره، فخلص إلى أن ما في القرآن لا يعدو أن يكون تقليداً (مضحكاً) للكتاب المقدس. وقد شارك الرأي العام في أوروبا النفور الذي ساد قديماً من النبي العربي ومن تعاليمه التي لم تلائم ذوقه وبدت مضحكة له. وقد شعر بانجذاب أقوى نحو النصوص التي منّى بها نفسه للحصول على فهم أعمق وأقوى عن كلمة الله ألا وهي إصحاحات الإنجيل الشرقية. وليس ثمة ما يمكن أن يعبر عن مشاركته الفاعلة في فقه اللغة أكثر من خطته الجبارة في نشر العهد الجديد وإصحاحاته في مؤلف بعدة لغات. وقد تقرر أن يكون النص اليوناني الأصلي كما أصدره

ستيفانوس مع الحواشي إلى جانب ترجمة آرياس مونتانوس اللاتينية المصححة المقحمة في النص، ومن ثمَّ الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس والترجمات اللاتينية الحديثة لآراسيموس وبجنينوس، والسويسرية لكاستيلو وبيزا، وأخيراً وضع لكل إصحاح شرحاً لغوياً وموضوعياً مأخوذاً من مصادر التفسير. ولم يُقدر لهذا المشروع أن يرى النور بالطبع. غير أن إربنيوس قدَّم في سنة 1717 العهد الجديد بالعربية، وذلك على منوال مخطوط كتب بالطوبية سنة 1342 في دير يوحنا، كان وصى به سكاليجه لمكتبة لايدن. وقد اكتفى منه بطبعة النص غير المعجم الذي أهملت فيه العبارات العامية فلم تمسّ، كما صرف النظر عن الترجمة الإضافية أو التعليق. كذلك فإنه نهج، بعدما أحضر إصحاحات الأسفار الأولى الخمسة التي أعدها يهودي مغربي في القرن 13، نهْجَ مخطوط آخر للمستشرق سكاليجه مناقضٍ في أسلوبه وبحروف عبرية بدل الحروف العربية. لكنه عدَّد في مقدمته هذه المرَّة، الملامح اللغوية لهذه النصوص (وتشمل عدم الاكتراث بالمنهج القديم وتركيب الجملة، استبدال المؤنث بالمذكر، واستعمال اسم الوصل، أي الذي، في كل الحالات). وأورد في الختام وللمرة الأولى اللهجة المغربية الدارجة.

وفي سياق الحديث عن دراسة الكتاب المقدس هذه، يجدر بالذكر أن إربنيوس الذي تقلد كرسي الأستاذية للغة العبرية منذ سنة 1620، ونشر في سنة 1621 كتاباً في قواعد العبرية وأصول كتب صموئيل مترجمةً إلى اللاتينية، وكان في سنة 1624 مسؤولاً عن طباعة سفر الرؤيا مجهول المؤلف، لزم أن يلعب دوراً كبيراً في النزاعات العقائدية حول إيحاء الأفعال، بالنظر إلى أن المؤلِّف، وهو لاهوتي من حزب الإصلاح يدعى (لودوفيج كابيلوس) (1585 ـ 1658)، أوحى إليه بالبرهان على حقيقة كانت معروفة لدى المصلح البروتستانتي لوثر ومعاصريه ثم طواها النسيان، ومفادها أن ضبط الحروف العبرية أقرب عهداً من النص الساكن (الوقف).

وإذا كان إربنيوس لم يظهر تعاطفاً نحو دين الإسلام، فقد أبدى اهتماماً فائقاً بتاريخ الإسلام السياسي الذي لم يكن يعرف عنه الأوروبيون سوى

القليل. ومن أجل إثراء معرفته في هذا المجال، فقد استعار في سنة 1613 كتاب (تقويم البلدان) لأبي الفدا من مكتبة هايدلبرج العامة، وكان وقتها هو المخطوط العربي الوحيد ذا المحتوى التاريخي الذي أحضره معه المستشرق بوستل من الشرق. وكذلك المجلَّد الثاني من تاريخ العالم لمؤلفه القبطي جرجس بن العميد المتوفى سنة 1263، الذي يعالج وقائع تاريخ محمد حتى سنة 658 للهجرة. ولقد مثّل استيعاب هذا المخطوط الذي كان يفتقر إلى النُّقَط، التحدي الأكبر لملكات حدس إربنيوس. وبواسطة مرجعية تاريخ العالم الفارسي لمؤلفه (ميرشوند)، والطبري التركي (وهو ترجمة للبلعمي)، وجغرافية أبي الفدا، حاول التثبت من كتابة الأسماء الكثيرة الخاصة التي عرضت له. وكان الحصول على نص خالٍ من الأخطاء في ظل حالة البحث العلمية وقتذاك والنقص الشديد في المراجع العلمية مستحيلاً. ولكي لا يبقى عمله ضائعاً كل هذه السنوات، فقد عزم في نهاية الأمر على نشر النص بعد ترجمته إلى اللاتينية. وأسند مهمة الإشراف على الكتاب، قبل أن يفتك به مرض الطاعون بوقت قليل، إلى تلميذه وخلفه ياكوبوس جوليوس، الذي أنجز العمل الذي كُلف به بإخلاص كبير[1].

وهكذا فلم يظهر كاملاً إلاّ في سنة 1725، بينما صدر ما يكفي منه في سنة 1118. وبالنظر إلى أن التاريخ السياسي المكتوب في المشرق لا يتطرق إلى الأحداث التي وقعت في إسبانيا إلا نادراً، فإن (تاريخ العرب) لمؤلفه (دون رودريجو جيمنسي دي رادا) (1170 ـ 1247)، قد بدأ بسيرة للرسول في سياق التحدث عن العصر الأموي، وأعار أهمية خاصة للمواجهات العسكرية التي دارت في الغرب بشكل خاص، كما قدم وصفاً للخلافة في قرطبة، واختتم بإلقاء نظرة جامعة على المرابطين. وقد حرر جوليوس المقدمة مع دفاع عن الطبعة التي عُزي ضعفها إلى الأوضاع السيئة السائدة التي جاء

(1) تاريخ المسلمين من صاحب شريعة الإسلام أبي القاسم محمد إلى الدولة الأتابكية تأليف الشيخ المكين جرجس بن العميد أبو الياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيب.

صدورها فيها، فربما كان من الأفضل، حسب قوله من بعد، لو أن الإصدار صدر مستنداً على مخطوط أساسي ضعيف. ولكن ما إن كتب جوليوس هذه العبارات اليائسة، حتى كان النجاح حليف إقدام أستاذه، إذ أصبح كتابه المكين، برغم ما قد ينتابه من أخطاء جسيمة، إنجازاً مهماً في مجمله فتح لأوروبا بوابة جديدة على الشرق. إن ترجمته اللاتينية الإضافية التي صدرت، والتي كان من المفترض أن تعقبها ترجمة إنجليزية في السنة التي تلتْ، وكذلك ترجمة ب. فاتيير لسنة 1657 التي استندت على ترجمة إربنيوس، قدمتْ للأوساط الأوروبية الأخرى للمرة الأولى نظرة شمولية عن التاريخ الإسلامي من بداياته حتى الحملات الصليبية، وعرّفت تلك الأوساط بالعصر الذهبي للخلافة في بغداد التي كانت شبه مجهولة لديهم بالاعتماد على رواية المؤرخ الطبري.

15 ـ الدراسات العربية في فرنسا وإيطاليا من 1620 ـ 1650

حققتْ إنجازات إربنيوس لهولندا قفزة جبارة في حقل الدراسات العربية، بحيث إن الشعوب الأوروبية الأخرى التي طالبت بالدراسات نفسها، كان لا بد لها من أن تسعى إلى استكمال تسلحها العلمي أولاً وقبل أن تعود لدخول حلبة السباق من جديد. ونتيجة لذلك، فإن تأثير إربنيوس الناتج عن تحريضه، سرعان ما شدَّ انتباه كل الأمصار التي جهد فيها المهتمون بجدية لدراسة اللغة العربية. وما كان ليتم ذلك بسهولة مع عدم توفر قدوة محركة لقواعد اللغة. وهكذا قام المارونيان جابرييل سيونيتا ويوحنا هيسرونيتار في باريس، بتكليف من سفاري دي بريفيه، على أثر مقابلتهم له، بكتابة قواعد لغة عربية. ومن أصل الكتب الخمسة التي حُسبت لإعداد هذا العمل (بحسب نموذج إربنيوس بالتأكيد)، ظهر في سنة 1616 الجزء الأول الذي قدم له الكاردينال ي. دوبيرون ورئيس البرلمان ي. دي توا. ويقع في 48 صفحة عامرة بعلم الخط ومطبوعة بأحرف مطبعة سافاري. بعدها تعرض المشروع لنكسة واستُعملت قواعد إربنيوس التي أُعيدت طبعة مختصرة منها في سنة 1638 بأحرف مطبعة سافاري. بعد هذا، وبتفويض من دي بارون، قام المارونيان الآنفا الذكر (في هذه الأثناء انسحب سافاري ليتفرغ لحياته الخاصة) بترجمة مؤلفات عربية وكلدانية إلى اللاتينية، وبدأ بإذن من دي توا الذي نفذ بذلك اقتراح صديقه سكاليجه بترجمة مختصرة لكتاب روجر للإدريسي الذي ظهر مطبوعاً في سنة 1619 تحت عنوان (جغرافية بلاد

النوبة)، وإلى جانبه لمحة موجزة للمترجمَين أُخذت من مصادر شرقية متأخرة تتضمن ملاحظات حول بلدان وسكان الشرق، لباسهم، مأكلهم ومشربهم، لغاتهم وآدابهم، وتتناول الدين الإسلامي من حيث تشريعُه وتعاليمُه. بعدها أُصيب هذا المشروع أيضاً بنكسة. ونادراً ما كان يوجد بين الفرنسيين وقتها من يعرف العربية. ومن بين الذين كانوا يعرفونها على سبيل المثال السفير الفرنسي في مصر (آندريه دوريه). وكان أندريه هذا أول من ترجم القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية، وأرفق الترجمة بدراسة مجملة (لديانة الترك). وأول ما صدرت ترجمته الأولى غير الدقيقة في سنة 1647. وبالنظر لتعرض هذه الطبعة لكثير من المراجعات، فقد أُعيد طبعها مراراً وتكراراً، إلى أن أُزيحت من التداول تماماً بعد ظهور ترجمة سافاري. إضافة إلى ذلك، فقد تُرجمت في سنة 1649 إلى الإنكليزية من قبل (آل روس)، وإلى الهولندية من قبل (ي. هـ. كلاسيميكر) في سنة 1658. ومن الصياغة الهولندية هذه جاءت الترجمة الألمانية في هابل سنة 1688، وعثر عليها في هامبورج تحت اسم لاتيني. وفي باريس استُخدم بيير دوفال الذي سبقت الإشارة إليه مترجماً في البلاط. ولعل معجمه العربي اللاتيني الذي صدر في سنة 1632، يكشف عن مقدار عدم تخصصه في هذا العمل وهو فهرسة أبجدية لسائر عبارات الترجمة اللاتينية أرفق بها كلٌّ من فكتور شيالاخ وجبرييل سيونتيا سفر المزامير الذي صدر بالعربية في سنة 1614. وقد وجد دوفال في هذا السجل مرجعاً عربياً للاستعمال الشفوي والمكتوب، وبيَّن بمثالين مركبين من أناشيد المزامير الطريقة التي فكّر بها في استعمال هذا القاموس العجيب. وحين قام الكاردينال ريشيليو بعد هذا بسنوات قليلة بكتابة أركان المسيحية لاستعمال مسيحيي الشرق بأسلوب فرنسا السياسي التقليدي في المشرق، لزم أن يتولى الراهب الكبوشي جوسته دي بيوفيه الإشراف على ترجمة الأصل الفرنسي إلى العربية. وحين تقرر طبع هذه الترجمة في باريس، عاد المشرفون إلى الاعتماد على نصَّي سيونيتا وماروني آخر تذمرت مقدمة الكتاب الذي ظهر أخيراً في سنة 1640 من إهمالهما. كذلك فقد ثبت عدم القدرة على الاستغناء عن الاستعانة بترجمة سيونيتا في

مشروع باريس الضخم للترجمة بعدة لغات الذي صدر في عشرة مجلدات سنة 1645، فقد طُبعت الصياغة العربية للكتاب المقدس طبقاً لمخطوط يرجع إلى سافاري تم الحصول عليه في القاهرة سنة 1606، وأُردف بترجمة لاتينية. كذلك فقد عمل على طبع الصيغة السريانية أصلاً وترجمة. ولم يُحقق إلا في سنة 1640 على يد ابن عم سيونيتا الشاب أبراهام إيشيلينسيس (الحاقلاني 1604 ـ 1665)، الذي كان يعمل مترجماً لدى البابا وأستاذاً محاضراً باللغتين العربية والسوريانية في روما ثم رحل إلى باريس. وقد أقام هنا من سنة 1640 حتى سنة 1641، ومن سنة 1645 حتى سنة 1653، عمل مترجماً لدى الملك وأستاذاً للعربية والسريانية في الجامعة. وفي سنة 1641 أصدر مختصراً لكتاب (مقاصد حكمة فلاسفة العرب) للقاضي مير حسين الميبودي. وفي سنة 1646 صدرت له ترجمة حرفية تكاد لا تُفهم لكتاب (تعليم المتعلمين)، وكتاب حول أنطونيو الكبير استقاه من المصادر العربية. وفي سنة 1651 أتبعه بترجمة كتاب القبطي ابن الراهب حول تاريخ العالم حتى سنة 1259. وبعد مغادرته باريس، استأنف فنونه المتعددة في الكتابة. وبالاشتراك مع عالم الرياضيات بوريللي، أصدر ما تحصل عليه فقط من أجزاء مترجمة إلى العربية من كتاب (مسائل أرخميدس والجمال والمخروط لمؤلفه بيرجا) أصدرها مترجمة إلى اللاتينية. هذا ويدين إليه فقه اللغة السرياني ببعض المشاركات. لكنه وظف علمه بصفة خاصة لخدمة طموحات اتحاد الكنائس اللاتيني، وقام بالتعاون مع (ليون (ألاتشي) بتأليف كتاب (رابطة الأمم الكاثوليكية الشرقية). وكذلك دافع عن رواية كنيسة روما الصائبة، وتصدى إلى تصور تاريخ الكنيسة القديم الذي كتبه الإنكليزي جوهن سلدن والسويسري ج. هـ. تنجر.

وفي روما أيضاً، حيث تواصلت المواظبة على العناية بالعربية بصفة خاصة تمشياً مع تطلعات الاتحاد الكنائسي، فقد مارس المهتمون منذ عشرينيات القرن في هذا المجال نشاطاً أدبياً حثيثاً، كان تحركه بالطبع ضمن مسارات قواعد العربية التقليدية. وفي سنة 1620، نشر بإيعاز من بول ف. الراهب الفرنسيسكاني مورتيلوتوس، كتابه الجامع المسمى (قواعد اللغة

العربية) وناقش فيه للمرة الأولى قواعد العربية بشكل مفصل. وقد نسج المستشرق الفرنسي (دي ساسيه) على منواله، حيث أراد أن يضع تصوراً لقواعد اللغة بعدما عالجها بأسلوب أوروبي وبحسب القواعد المتبعة للنحاة العرب. وعقب ذلك بأربع سنوات، أتبعه، تحت العنوان نفسه، بجامعه المهلهل الذي كان اليسوعي سوري الأصل، بطرس ميتوشيتا، قد قام بجمعه. وفي سنة 1631 قدم الراهب الفرنسيسكاني توماس أوبشيني المتوفى سنة 1633 الذي قضى في الشرق ابتداءً من سنة 1614 أو 1615 عشر سنوات رئيساً لدير النجاة في القدس، ثم أصبح محاضراً للغات الشرقية في دير سانت بتروم في مونتي أوريو بروما، قدم للمرة الرابعة الأجرومية بترجمة لاتينية جيدة وحواشٍ شاملة. وإضافة لذلك ترجم كشافاً عربياً سريانياً مبوباً موضوعياً وهو (كتاب الترجمان في تعليم لغة السريان) للنسطوري[1] (إلياس بار سينأيا)، باستثناء الجزء الثالث منه الذي غص بكثير من الأخطاء في الترجمة إلى اللاتينية. ولم يصدر كل من النص والترجمة إلا بعد موته في سنة 1636 من قبل تلميذه وخلفه دومينيكوس جرمانوس سيليزيا (1588 - 1670) بدون إشارة لاسم المؤلف تحت اسم مستعار (القاموس العربي - السرياني - اللاتيني). وكان جرمانوس الذي أقام في الشرق أربع سنوات متصلة واقتنع بضرورة معرفة المبشر باللهجة الدارجة بصفة خاصة، نشر في السنة نفسها مؤلفه الخاص (قاموس اللغة العربية والإيطالية)، الذي لم يكن، بقصد التحدي للعنوان، معجم مفردات، بل شبه مدخل لا قيمة له للعامية العربية، وأذن سنة 1639 بإلحاقه بالمعجم عديم القيمة (القاموس العربي - الإيطالي الدارج). وعاد بعد ذلك مرة أخرى لممارسة دور المبشر في فارس حيث درس الفارسية والتركية وألَّف (مُدخل عملي إلى اللغات، العربية، الفارسية، والتركية) الذي لم يُقدر له، شأن أغلب أعماله، أن يشهد الطريق إلى الطبع. كذلك كانت الحال بالنسبة لمؤلفه الكبير، وهو ترجمة لاتينية

---

(1) النسطورية: مذهب منشق لا يقول بطبيعة واحدة بل بطبيعتين منفصلتين، ألوهية وبشرية للسيد المسيح، وعُد ذلك هرطقة في عام 431.

للقرآن مزودة بشروح أنجزها بعد عودته من الشرق بعد سنة 1650 في رحاب مكتبة الإسكوريال الزاخرة بكنوز المخطوطات، ظل بدون طبع وبقي مهملاً لبضع عشر سنوات بسبب الرفض التام الذي رافق ترجمة القرآن التي قدمها مستعرب القرن السابع عشر الإيطالي لودوفيجو ماراتشي، بحيث آل عمل المؤلف السابق إلى النسيان التام.

وفي الوقت الذي كان فيه جرمانوس دي سيليسيا لا يزال محاضراً بالعربية في روما، أصدر المدير العام لطائفته فيليبو كوادا جنولي في سنة 1642 كتاباً آخر في قواعد العربية تحت عنوان (قواعد اللغة العربية الوسيطة)، بذل فيه قصارى جهده لأن يكون غير منقوص، واستوعب من خلال كتاب (الخزرجية) عروض الشعر. بعد ذلك بثماني سنوات، دعت الصعوبات التي واجهت الدارسين بسبب التناقض الناشىء بين العربية والفصحى والعامية، دعت راهباً فرنسيسكانياً آخر، الأب أنطونيوس أكويلا الذي أصبح محاضراً للعربية في المشرق في كلية طائفته في روما بعد عشر سنين من العمل في مجال التبشير، دعته لمعالجة اللغة العربية إعرابياً من جديد، بحيث حاول مقارنة العربية الفصحى بالدارجة جنباً إلى جنب بأسلوب مختصر. وفي الوقت الذي لم يلْقَ فيه هذا العمل الذي أُنجز في إيطاليا خلال الفترة الواقعة بين عامي 1620 و1650 في مجال قواعد اللغة العربية تشجيعاً جوهرياً في المقرّرِ العلمي، اختار إيطالي آخر، أنطونيوس جيجايوس، في الفترة نفسها وبنجاح أكبر، العمل في مجال صناعة المعاجم العربية، فمعجمُه (معجم اللغة العربية) الذي طُبع في أربعة مجلدات ضخمة بتمويل من الكاردينال فيديريكو بورومي في روما سنة 1632، قد استند بشكل أساس على قاموس الفيروزأبادي بحسب رواية جوليوس، وعرّف أوروبا للمرة الأولى في تاريخها بالمحتوى الضخم بمعاجم العربية الفصحى. ولكن ما لبث أن تجاوز هذا القاموس قاموسٌ آخر صدر بعد عشرين سنة (المعجم العربي اللاتيني) لجوليوس، دلّت مزاياه على أن من غير السهل منافسة المدرسة الهولندية في ميدان صناعة المعجم العربي أيضاً.

16 ـ يعقوب جوليوس

مارس يعقوب جوليوس (1596 ـ 1668) في مدينة لايدن دراسة متعددة الجوانب، وتقلب في اللاهوت، والفلسفة، والطب، والرياضيات، لكن المستشرق إربنيوس نجح في استمالته إلى الدراسات العربية. وفي ما لم يرَ الشرق البتة بأم عينيه، أتيحت له الفرصة لمرافقة مبعوث سافر إلى المغرب بتفويض من مجلس الدولة. ويبدو أنه توقف مدة طويلة في مدينة صافي الساحلية المطلة على المحيط الأطلسي، التي كانت بحكم مينائها محط الأنظار قديماً في تجارة المغرب الخارجية. هنا تدرب على استعمال العربية، ودرس في تاريخ ابن أبي زار تاريخ المغرب القديم وجمع مخطوطات عربية. ومن إحدى ومضاته، أنه استفسر عن أسماء الغلال التي تُنتج محلياً من كل نوع، واضعاً بعين الاعتبار هنا مصالح وطنه الأم التجارية. وبعد عودته إلى لايدن في سنة 1624 ووفاة إربنيوس في السنة نفسها، وقع الاختيار عليه لكرسي أستاذ العربية. لكنه بعد سنة واحدة فقط، منحه مجلس الجامعة بدافع السخاء والتفهم إجازة لرحلة جديدة إلى المشرق كما وضع تحت إمرته مبلغاً كبيراً من المال بهدف شراء مخطوطات عربية. وطال به المقام في مدينة حلب، حيث قضى بها ثلاث سنين، زار أنطاكية وعدداً من المدن السورية الأخرى، ورافق جحافل الترك في زحفهم على (الفرس)[1] حتى ما بين الرافدين، وتنقل في أرجاء آسيا الصغرى حتى وصل إلى القسطنطينية، ومن هناك عاد أدراجه راجعاً إلى لايدن، حيث وصلها بعد

(1) وقعت بغداد في قبضة فارس منذ سنة 1623.

غيبة دامت أربع سنوات. وإلى جانب عمل الأستاذية بالعربية، أُسندت له كذلك إدارة قسم الرياضيات واستمر على إدارتهما حتى وافته المنية في سنة 1668.

إن المئتين وخمسين مخطوطاً التي عاد بها من رحلته وكان معظمها لفائدة مكتبة لايدن العامة ولا زالت محفوظة فيها حتى يومنا هذا، احتوت على مؤلفات عربية أدبية لم تكن معروفة في أوروبا آنذاك حتى بالاسم. إن هذه المجموعة الصغيرة التي اختيرت بحنكة ودراية ولم تكن ملفتة للنظر عدداً ومحتوى، شكلت النواة الحقيقية لقسم الدراسات الشرقية بمكتبة لايدن، وكانت الأساس لسمعته الكبيرة التي ازدادت بقوة، بعدما وردت عليها في غضون سنة (وليس بعد 1669) مجموعة أخرى من حوالى ألف مجلد مخطوط شرقي تقريباً خلفها أحد تلامذة جوليوس، ليسفينوس فارنر، الذي كان يعيش في القسطنطينية منذ سنة 1644، ومثَّل بلاده لدى الباب العالي. إن وفرة نفائس الكتب التي قدمتها مكتبة لايدن لكل المستعربين الأوروبيين حول مكة، أضفتْ على عمل جوليوس أساساً راسخاً. وسرعان ما انعكس ذلك على كتاب المطالعة العربي (سدرة الأدب من كلام العرب)، الذي عمل على إصداره سنة 1629 لغرض المحاضرة بدون ذكر لصاحب الطبعة. وأول ما تضمنه الكتاب، بجملٍ مضبوطة بالشكل ضبطاً كاملاً، مختارات من 165 قولاً مأثوراً منسوباً إلى الإمام علي، وأول تجربة مطبوعة من نوعها في أوروبا للفن الشعري العربي وهي (لامية العجم) ذائعة الشهرة، وبعدئذ خطبة ابن سينا غير معجمة، وأخيراً بضع جمل غير معجمة أيضاً. فلو أن هذه النصوص مجتمعة، ترجع إلى عصر ما بعد العصر الكلاسيكي، لكانت كُتبت بلغة صحيحة. وحين عاد فأصدر قواعد إربنيوس مرة أخرى في سنة 1757، ضمَّ إليها السورتين 31 و61، والمقامة الأولى من مقامات الحريري، وقصيدة لأبي العلاء المعري. وبرغم ما فيها من أخطاء، فلم يستثن قصص لقمان ومئتي قولٍ من أقوال العرب، ونقل إليه كذلك تلك التي تدخل البهجة على قراء الأدب المسيحي ـ العربي، حتى إنه طبع موعظة

الميلاد للأب النسطوري إلياس الثالث أبو حليم الحديثي المتوفى سنة 1190. ولعل الأهم من هذا كله، أن الدارسين باتوا يعرفون الآن واحداً من أكبر أساتذة العربية، وأن الكتاب الإسلامي دخل إلى مجتمعهم بيد بعض أشهر نوابهم المشاهير. وقد عمل جوليوس نفسه في سنة 1636 على طبع نص لا يخلو من الخطأ لكتاب ابن عربشاه (عجائب المقدور في أخبار تيمور)، وبهذا وعبر نموذج عمله الآسر في السجع العربي وروعة بلاغة الأسلوب المميزة للذوق الأدبي الشرقي، جعل أوروبا تعرف به لأول مرة كذلك. أما العمل الآخر الذي انكب على إنجاز نصه سنوات طويلة، فكان كتاب (محمد بن كثير الفرغاني: في الحركات السماوية وجوامع علم النجم بتفسير الشيخ الفاضل يعقوب غوليوس)، وكان هذا الكتاب معروفاً منذ زمن بعيد بفضل ترجماته اللاتينية وبفضل مختصر كتاب الفرغاني الواسع الانتشار في الفلك (ثلاثون فصلاً) ولم يصدر الكتاب إلا بعد سنتين من وفاته مع ترجمة لاتينية وملاحظات توضيحية، تتوقف في الفصل التاسع من النص العربي.

وبناءً على ما تقدم، فإن العمل الرئيس لجوليوس هذا هو (المعجم العربي اللاتيني). ومن أجل هذا العمل، فقد توافرت في المخطوطات التي أحضرها بنفسه من الشرق، مراجع متميزة كانت تحت تصرفه. بالإضافة لذلك معجم اللغة العربي الكبير (الصحاح) للجوهري، وقاموس الفيروزأبادي، بعدئذ (أساس البلاغة) للزمخشري الذي روعيت فيه المعاني المترجمة بشكل أخص، من ثمَّ (مُجمِلْ اللغة) لابن فارس الذي رُتب بحسب الأبجدية الأوروبية، ومعجم المفردات الدخيلة (المعرّب) للجوالقي. وكان تحت تصرفه أيضاً عدد من المعاجم العربية الفارسية (مخطوطة في مكتبته الخاصة)، (اللغة) لابن معروف، (والسامي في الأسامي وأدلة الأسماء) لابن معروف والكتابان في معالجة الأسماء. ثم معجم (كشاف عربي تركي) (مِرْقاة اللغة). وبالإضافة إلى هذه المعاجم، فقد استطاع استعمال بعض الكتب المرتبة ترتيباً أبجدياً من التخصص نفسه، ومن بينها (معجم ياقوت الجغرافي)، وكتاب ابن البيطار في (الأدوية)، وكتاب

الحيوان للدميري. وعلى النقيض من المستشرق جيجايوس الذي ألزم نفسه (بالقاموس)، فقد اتخذ جوليوس من (صحاح) الجوهري الذي يرجع تاريخه لأكثر من أربعمائة سنة، ويُشهد له من لَدُنْ علماء اللغة المحليين، اتخذ منه أساساً لمعجمه، ورجع لدى ترجمة شروح الجوهري وفي كل حالات التشكك، إلى الفيروزأبادي، والزمخشري، وكتّابٍ عرب آخرين، وفتش كذلك في المراجع التركية والفارسية إذا لم يجد في الأولى ما يشفي غليله. وبرغم ذلك، فقد ظلت حالات كثيرة معلقة تنتظر الجواب اعتمد فيها على حكمه الخاص واكتفى منها بمحاولة للترجمة جارية على اللسان. ومن حينٍ لآخر كان يُكمل المعلومات المتحصلة من المعاجم المحلية بقطوف مطالعاته الواسعة التي يقدم مسردُ المراجع المختصرُ الموجودُ في آخر مقدمة الكتاب نظرة إجمالية عنها. فيه يجد القارىء نفسه مع تفاسير القرآن للزمخشري والبيضاوي، والتاريخ الطبيعي للقزويني وسِير ابن خلكان، ومروج الذهب للمسعودي، وديوان المتنبي، وبضع كتب أخرى من الأدب العربي. وإلى جانب ذلك يُشار أيضاً إلى عدد من المراجع (اللغوية الموسعة) التي كان يستعين بها أحياناً مثل (مقدمة الأدب) للزمخشري، (أحضرها معه من فارس، وتركها لجوليوس)، و(القاموس العربي التركي) لأختاري، والمعجم السوري العربي للبار علي، وبضعة معاجم أخرى فارسية تركية. واستند جوليوس بصورة منفردة أيضاً على الاستعمال اللغوي الحي الذي تعلمه في كل من آسيا وأفريقيا. وقد قدّم الأدلة على سائر المعاني التي ساقها، كما رمز لكل موضع مكتشف برمز: وعادة ما يرمز الحرفان (ca) إلى قاموس، و(ci) إلى الجوهري. وهو يعطي وزناً لاتساق المادة الشمولي الذي يعمل على الترغيب فيه في المعاجم المحلية. فبين الأصول، ابتداءً من الصفحة 232، تقع الصيغ الأصلية، تتبعها الاشتقاقات الاسمية، بحيث تتصدر القصيرة أولاً، تليها الأطول مرتبةً بحسب تسلسل الأحرف الهجائية. وفي الختام وضع ملحقاً لا يقل عن 74 صفحة من القطع الكبير، لم يكتفِ بنقل مختلف المفردات عليها، وإنما أصلها الذي سها عنه الجوهري أو أُهمل بسبب كونه مستحدثاً أيضاً.

لقد حقق معجم جوليوس نجاحاً منقطع النظير. ومنه استقى العلماء الأوروبيون معرفتهم بالثروة اللفظية للعربية الفصحى زهاء قرنين من الزمان، إلى أن زاحمه معجم فريتاج. ومن البديهي أن هذا الأخير اعتمد على منجزات صناعة المعاجم العربية المحلية، مما يعني، منهجياً، عدم التقدم على جوليوس في هذا المضمار. إن قيام معجم مفردات عربي على نصوص مستقلة، يُعد اليوم أيضاً من المهام الملحة للمستعربين.

17 ـ صموئيل بوخارتوس

إنه من خلال جوليوس، يكون جانب مهم من الأدب الإسلامي قد وفد على الواجهة الاجتماعية الأوروبية باللغة العربية. وإنه وإن لم تكن توقعات التبشير المسيحية بمنأى عنه[1]، فقد عُد عمله الخاص في لب عمل المؤلفين المسلمين. ولقد بات واضحاً، أن إنجاز مفسري العهد القديم من الكتاب المقدس، الذين لم يُواجه عملهم غالباً بتحفظات متزايدة في إطار الوثائق المرجعية التوراتية الزهيدة وما فيها من ثروة لغوية عبرية، أدركوا بجدية مقدار الفائدة التي يمكن أن يتوقعوها الآن مما يقع تحت دائرة بصرهم من مردود اللغة العربية وآدابها. صحيح أن الصيغ العربية للكتاب المقدس لم تقدم للنقد شيئاً وقدمت القليل للتفسير، لكن الثروة اللفظية الفخمة وغير العادية للغة العربية المجتمعة بيد شارح متنبه، قدمت تصحيحاً مجدياً بحكم الآصرة اللغوية بين العربية والعبرية، ولا سيما أن للشارح أن ينتظر الفهم والسداد من رصيد النفائس الضخم للمراجع العربية الشاملة في كل ميادين المعرفة، التي نشأت في الوقت ذاته عن الكتاب المقدس في الشرق، وعتَّمتْ على سائر وثائق الشعوب المسيحية الشرقية حجماً ومعنًى[2]. وهكذا فقد استخدم أشهر تلميذ شهير لأربنيوس بعد جوليوس، وهو الفرنسي صموئيل بوخارتوس

---

(1) وصف المؤلف معجمه في المقدمة بأنه مترجم يملك أفضل ما يتحدث به العالم العربي، وما يقدم للشعوب المسيحية وبالعكس ربما لأولئك من نور الإنجيل وهدايته.

(2) التعبير مهذب عن سرقات الأديان وإنكار المصادر.

(1599 ـ 1667) معرفته بالعربية أخيراً بهدف شرح الكتاب المقدس. لكنه بعدما وجد أن التصنيف الموسوعي للمادة العلمية الفخمة التي تعود للمستشرق سكاليجه يتم بحسب وجهات النظر الكبرى، وبرَدُّ الأحداث التاريخية الثابتة إلى عصورها، افتقر تاريخ القرن 18 المتنوع والمزخرف (أي الموسوعي) إلى أهداف تظهره. وعلى سبيل المثال فقد جمع بوخارتوس في مجلده الضخم كل المعلومات المتعلقة بحيوانات الكتاب المقدس في الكتب التي وصلت إليه. وتحتل المقتطفات المقتبسة من كتاب (حياة الحيوان) للدميري، وكتاب (عجائب المخلوقات) للقزويني، وكتاب (القاموس)[1] وأعمال عربية أخرى مختلف عددها في خاتمة المقدمة، تحتل حيزاً كبيراً. ويكشف خطابه المؤرخ في 14 يناير من سنة 1666 الموجه إلى البروفسور ياكوب كابيلوس، أستاذ اللغات الشرقية في ساومور وابن لودفيج كابيلوس الذي سبقت الإشارة إلى اسمه، والذي ألح عليه بدراسة العربية، يكشف خطابه عن مقدار تقويمه لهذه المساهمات العربية (المصادر). وكدليل على ذلك فقد قدم سلسلة من أسماء الحيوانات التوراتية (نسبة إلى التوراة) التي ما كان ليتثبت من أسمائها بغير استعانته بالعربية. ولقد استطاعت بعض محاولاته في التفسير إثبات نفسها حتى يومنا هذا، ولكن كان لا بد من إعادة النظر في بعض منها حيث ثبت أن الاشتقاق مستشارٌ لا يمكن الاعتماد عليه، وأن لا سبيل إلى تقرير المسائل المتعلقة بمعجم الكلمات بوساطته أبداً.

(1) قرأ بوخارت هذا الكتاب بأكمله لهذا الغرض، حيث أقام في بلاط ملكة السويد كريستين في ستوكهولهم سنة 1652.

18 ـ إدوارد بوكوكيوس

وفي إنجلترا كذلك جرت مزاولة العربية بهدف لاهوتي من حيث الجوهر. وإذا كان جوهن سيلدن، (1584 ـ 1654) قد نشر مقطعاً من تاريخ ابن البطريق حول منشأ الكنيسة الإسكندرانية في سنة 1642، ثم حذا حذوه الماروني أبراهام إيشيلينيسيس الذي سبقت الإشارة إليه بعد 20 سنة من ذلك التاريخ بنشر مؤلفه حول الأسقفية الإسكندرانية، فإن المسألة بالنسبة للمؤلفين كانت تدور حول السؤال المتعلق بتساوي القساوسة والأساقفة في المنزلة في الأصل أم لا، وهو السؤال الذي ناقشه قبل ذلك بوقت قصير كلٌ من كلاوديوس سالماسيوس واليسوعي بيتافيوس، الأولُ بهدف الإصلاح الديني، والثاني على العكس منه بدافع الهجوم في رسالة دراسية له، منطلقين في معالجتهما في وجهة نظر الكنيسة اللاتينية. وقد أسهم كل المستشرقين الإنكليز المهتمين بالعمل في المؤلَّف الضخم لكتاب اللندني الضخم الذي صدر بعدة لغات ونفذه (بريان والتون) سنة 1657 وهؤلاء المستشرقون على التوالي هم: بوكوكيوس (1604 ـ 1691)، الذي كان له قصب السبق في شغل أول كرسي للُّغة العربية في جامعة أوكسفورد، وي. د. م. كاستيليوس (كاستيل 1606 ـ 1674) الذي كان يمثل التخصص نفسه في كامبريدج، والذي استهل التدريس بمحاضرات حول الجزء الثاني من كتاب القانون لابن سينا، ثم توماس جرافيوس (جريفس 1606 ـ 1674) الذي درَّس كذلك اللغة العربية في أوكسفورد، وهو شقيق للعالم الفلكي الرياضي جون جريف (1602 ـ 1652) الذي حقق في سنة 1650 جانباً من جغرافية أبو الفدا باللاتينية، والذي كان له الفضل في تعريف أوروبا بجداول الطوسي وأولوك

بيك الفلكية (أولوك بيك عالم تتري). ومن ثمَّ عالم اللغة العبرية جوهن لايتفوت (1602 ـ 1675)، نائب رئيس جامعة كامبردج، ومن بين الأحدث سناً صمويل كليريكوس وتوماس هايد (1636 ـ 1703)، متقدم مكتبات بودلايانا وخليفة بوكوكس منذ سنة 1691. وقد تفوق بوكوك[1] على هؤلاء جميعاً من حيث أهميته. درس بوكوك اللاهوت في جامعة أكسفورد، ثم وجد، بوصفه قسيساً مساعداً للجالية الإنجليزية في حلب، وجد الفرصة مواتية لدراسة العربية دراسة وافية. وعُين في سنة 1636 أستاذاً للعربية في جامعة أكسفورد. لكنه شدَّ الرحال في السنة التي تلت فقام برحلة ثانية إلى الشرق خصيصاً من أجل الحصول على المخطوطات. وفي طريق عودته من استانبول ناقش في سنة 1640 مع المواطن الهولندي (هوجو جروتيوس 1583 ـ 1645) الذي كان يعيش في المنفى خطة ترجمة مخطوطه ولقد وجد بعد انقضاء عشرين سنة على ذلك متطوعاً يأخذ على عاتقه تحمل نفقات الطباعة. وبعد عودته إلى استانبول، شغل مجدداً منصب الأستاذية لكرسي اللغة العربية والعبرية على حد سواء. وقد تقلد هذا المنصب المزدوج حتى وافاه الأجل. إن أول طبعة من كتاب (لامية العجم) لمؤلفها (الطغرائي) تظهر كيف كان يناقش نصوصاً عربية مع تلامذته. ويتبين هنا (في نهاية مقالة الصفدي المسهبة) كيف يحلل كل كلمة قواعدياً، ويردُّها إلى جذورها، ويعطي معناها، وعند الضرورة يسوق اشتقاقات أخرى، ثم في الختام المفردات وثيقة القربى بها اشتقاقياً باللغات، العبرية، الكلدانية، والسريانية. وإن القول بأن بوكوك لم يستطع اشتراط المقدرة المستقلة المسبقة على مستمعيه للتحليل، فإن ذلك يستفاد من الفهرس المرفق، حيث سيقت كل المفردات التي جرت مناقشتها في الموضوع، ليس بحسب جذورها، بل بشكلها الظاهري تماماً الذي بدت فيه في النص الشعري عضوياً. هذا فضلاً عن أن كل كلمة عربية تُقرن بكلمة مرادفة لاتينية في النص. ولهذا، فإن مما

(1) ذكر المستشرق نيللينو أن اسمه الصحيح بوكوك، وليس بوكوكه كما ذهب البعض إلى الاعتقاد، وقد جاء ذلك في إحدى مقالاته عنه التي ظهرت في سنة 1925 في مجلة(الدراسات الشرقية) رقم 250 ص 258.

لا يدعو إلى الدهشة أن الشرح لا يبتعد كثيراً عن الإيضاح البسيط. ويستفاد من التصور الذي أجراه أحد تلامذة بوكوك (صموئيل كليريكوس) لعلم العروض العربي الذي يستند أساساً على (الخزرجية)[1]، أن التلامذة تلقوا شرحاً حول عناصر عمود الشعر العربي وعلم القافية. وعلى النقيض من هذا الإصدار الذي خُصص للمبتدئين، فإن كتابه (لمعٌ من أخبار العرب) الذي صدر في سنة 1650، وهو أول كتاب يطبع بأحرف عربية في أوكسفورد ويتميز بتشدد علمي فائق، ليندفع إلى النور باطلاع المؤلف الواسع، وإلمامته اللغوية الأصولية، وحكمِه الموضوعي الحصيف. وتشكل الصفحتان المقتبستان من التاريخ العربي العالمي لمؤلفه القبطي أبو الفرج جريجوريوس المشهور باسم (بارهيبرايوس المتوفى سنة 688/ 1289) اللتان قدم بهما لتصوره لتاريخ الإسلام، تشكلان نقطة الانطلاق. وتحتويان على بعض الملاحظات الضرورية المقتبسة من (طبقات ابن سعد) حول العرب في العصر الجاهلي، ومن ثمّ لمحة مقتضبة في شكل قائمة تتضمن أبرز التواريخ حول حياة محمد، وملحق بالمواضع التي تتناول الرسول في الكتاب المقدس كما وُضعت من قبل المسلمين[2]. وبعدها لمحة موجزة عن الشعائر الإسلامية الرئيسة والمذاهب الإسلامية الأربعة التي تصب في أركان الإسلام الخمسة. غير أن القيمة الفعلية للكتاب تقع في الملاحظات الكبيرة الفائدة التي وشّح بها المؤلف بوكوك هذا النص عديم الطعم، وبحيث يتسنى للمرء أن يقول عنها: إن لِمرقِ السمك مذاقاً في الفم ألذُّ من السمك نفسه. ونصف هذه الملاحظات القيمة تعالج حياة العرب القبلية قبل البعثة، وأشعارهم، والدين والحضارة. ولم تشغل حياة الرسول من هذه الملاحظات مساحة تزيد على العُشر، وهكذا فإن المؤلف لم يكن مشدوداً كثيراً كما يبدو إلى حامل الدعوة. وكانت حياة الرسول العائلية بصفة خاصة، زوجاته الكثيرات، وبالأخص زواجه من زينب مدعاةً للنفور. وحيث إنه كان يؤمن بالاستغناء

---

(1) صدر نص هذا القصيد المدرسي في سنة 1642 بيراع (جوادا جنولي).

(2) الهوامش 23، 2، المزامير 50، 2 من إنجيل يوحنا 16، 7.

عن المتع الحسيّة كشرط لا مندوحة عنه لكل كمال تقليدي يجب أن يتحلى به الرسل، فقد أنكر أحاديث الرسول حول نبوته، على أنه وإن لم يستعمل نفس ألفاظ السباب والشتائم التي استعملها معاصروه في التعرض لشخصية الرسول ﷺ، فإن حكمه الموضوعي على النبي محمد لم يكن أقل هوادة.

ومن الكثرة أيضاً ملاحظاته الغزيرة حول تاريخ الفِرق الإسلامية التي أرفقها بشواهد من كتب الغزالي والشهرستاني. وهكذا، فإن هذا الكتاب قدم لأوروبا معرفة عميقة بتاريخ العرب قبل الإسلام، وقدم للمرة الأولى نظرة شمولية في وثنية العرب من جهة، كما أنه جلب الكثير جداً من المصادر الجديدة، وإن كانت المصادر المتأخرة حول تاريخ الإسلام الديني، فمهَّد لتفهُم مشكلاتهم المستعصية من جهة أخرى. وقد امتدَّ أثر الكتاب في كلا الجانبين حتى القرن التاسع عشر.

وفي سنة 1655 أصدر بوكوك عدة فصول من شروح المشنا (شروح التوراة) لابن ميمون بالعربية وترجمة باللاتينية. وكملحق لها أرفقها (بحواشي ميشيلاني) التي لا علاقة لها على الإطلاق بنص ابن ميمون، بل خُصصت لتفسير بعض مواضع الكتاب المقدس. وتعالج إحداها الموسوية بإطناب في ما تعالج الأخرى الآخرة والمفهوم الإسلامي، وبخاصة في ضوء ما تركه ابن سينا وفخر الدين الرازي بهذا الخصوص. وبعد ذلك بثلاث سنين صدرت له طبعة تاريخ بوتيشيوس لابن البطريق التي طال انتظارها والتي أعدَّ نصها سيلدن، في حين قدم بوكوك الترجمة اللاتينية فقط. وفي سنة 1663 صدرت أخيراً الطبعة الكاملة لكتاب (تاريخ مختصر الدول) لجريجور أبو الفرج. وكان لبوكوك الابن الذي كان يحمل اسم أبيه، كان له الفضل في الإشراف والتعريف بالقصة الفلسفية الشهيرة (حي بن يقظان) لابن طفيل المتوفى سنة 581 هجرية الموافق 1185 للميلاد بالنص العربي وبترجمة لاتينية تحت عنوان (السيرة الفلسفية الذاتية). كذلك فقد ترك بوكوك الأب لابنه أمر إصدار مخطوط ابن عبداللطيف عن مصر، لكنّ هذا الأخير أوقف بعد موت والده عملية الطبع، واستغرق الأمر زهاء السنة حتى قُدر لمذكرات هذا الطبيب المصري الصدور.

19 ـ الدراسات العربية في ألمانيا
خلال القرن السابع عشر

كان الاهتمام بالعربية في ألمانيا خلال القرن 17 أقل بكثير عما كان عليه في هولندا، أو إيطاليا، أو فرنسا، أو إنجلترا. ولقد كان المهتمون بهذه اللغة اهتماماً ثانوياً من رجال اللاهوت على الغالب برغم ندرة ما توافر لهم من مصادر. وكان يتوجب على الراغبين بالخوض في هذا المجال شدُّ الرحال إلى الخارج كما فعل يوهان إليشمان الذي أقام في هولندا بوصفه طبيباً. وقد عثر في مكتبة لايدن على مخطوط لابن مسكويه بترجمة عربية (تنكارسيس)، وهو عبارة عن صورة مجازية لحياة الإنسان وضعها سيبس الفيلسوف تلميذ سقراط، وقد كان نصها الأصلي اليوناني يشكل مادة محببة من مواد المطالعة المدرسية، وكذلك (الوصايا الذهبية) الشعرية التي يُزعم أنها لفيثاغورث. وقام بضبط كلا النصين شكلاً بالكامل وترجمها إلى اللاتينية. وضع النص اليوناني الأصلي إلى جانبه وربط أيضاً النص اللاتيني القديم المقابل من التذكار كما وضعه أوداكسيوس. وحيث إنه انكب بجدية في وقت مضى على دراسة الفارسية التي لم تكن تحظى إلاّ باهتمام النزر القليل، فقد فكر بإرفاق ترجمة فارسية أيضاً، لكنَّ يد المنون اختطفته وهو في ريعان شبابه وقبل أن يشهد العمل نهايته. وتولى كلاوديوس سالماسيوس (1588 ـ 1653) الإصدار اليتيم فنشر الكتاب في سنة 1640 مرفقاً بمقدمة طويلة، تعرض فيها أيضاً إلى سجية تلك الترجمة العربية، مُظهراً بذلك معرفةً لا يستهان بها بحق.

كذلك فإن البروتستانتي ورجل اللاهوت يوهان هانيريش هوتنجر (1620 ـ 1668) (من مدينة زوريخ السويسرية)، الذي درّس في جامعة هايدلبرج، ارتحل هو الآخر إلى مدينة لايدن بهولندا بهدف التتلمذ على يد جوليوس في العربية، ليكون أول من بذل جهداً من أجل تعلم الفهرسة العربية وتاريخ الأدب. وقد تضمن كشافه فصلاً طويلاً عن المكتبة العربية، عدّد فيها أسماء عدد كبير من المؤلفات العربية لمؤلفين مسيحيين ويهود وسامريين. وفيه أيضاً يورد كثيراً من أقوال العرب بنصها الأصلي وترجمتها اللاتينية. فعلى سبيل المثال: (التكوين 9، 1 ـ 23) ترجمة الأسفار الخمسة الأولى المستعملة من قبل السامريين (الصفحة 98 ـ 100)، في ما بعد، من مخطوط سويسري للقرآن جدول بالاختصارات، ومن بينها يورد فيها مختلف القراءات. وفي موضع آخر، الصفحة (295 ـ 303) مقدمة المعجم السرياني العربية لمؤلفه (علي بار). ويتضمن الملحق بضعة جداول قصيرة بالمخطوطات، ومن بينها قائمة بـ 261 مخطوطة عربية من مكتبة الإسكوريال. وقد نشر هوتنجر باللاتينية مؤلف ليون الإفريقي في الأعلام والرجال كأفضل ما يكون بترجمة لاتينية، وقدّم الصفحات (246 ـ 294) كنموذج لمعجم عربي مستقبلي، بقائمة ضمت أسماء 45 مؤلفاً عربياً تبدأ أسماؤهم بحرف الألف وبنبذة مختصرة مستقاةٍ من ابن خلكان. وكان (هوتنجر) كذلك أول مَن عَرّف عن قرب بمضمون كتاب الفهرست لابن النديم. وقد نشر من مخطوط في شقّ مؤلفه الثاني الذي اختفى بعد وفاته، في معجمه في الصفحات (219 ـ 242) على سبيل المثال المقطع الخاص بترجمات أرسطوطاليس العربية. وأفاد كذلك من جزء الفهرست الخاص بتصوره لتراث سابير[1]. إن هذا التنوع والترحيب الذي كانت تلاقيه هذه المعلومات، بالنظر لما هيأته من نظرة في مناطق غير معروفة، فقد وُظفتْ في خدمة اهتمامات رجال اللاهوت، ولزم أن تسفر عن فهم أفضل لكلمة الرب في العهد القديم وتاريخ الكنيسة. ومن هنا فقد أفاد

---

(1) لم نتمكن من معرفة أي سابير عنى به المؤلف. ولم نجد لهذا الاسم أي حاشية في معاجم الأعلام المتوافرة.

هوتجر، وبالذات في مؤلّفه، (تاريخ العربية)، من المصادر العربية وبالأخص تواريخ يوتيشيوس والمكين فائدة كبرى. وفي هذه كان يفتقر إلى التتلمذ الأساسي في العلوم اللغوية، فأقوال العرب المأثورة لا تخلو من أخطاء جسيمة، كما أن الترجمات ليست دقيقة، وهكذا فإن أنشطته التي مارسها بإصرار أخفقت ولم تصادف نجاحاً ثابتاً في ميدان العربية. وفي الوقت الذي حظيت فيه البروتستانتية بحيّز متواضع في مجال التحدث بالعربية، لم تُعن بها الدول الكاثوليكية مطلقاً. أما في النمسا فإن العلاقات السلمية والحربية مع الباب العالي على حد سواء، أدت إلى عدم إعارة اللغة التركية لفتةً تذكر. لكنه حين عزم المترجم فرانس مينينسكي من مدينة لوترنجن الذي عاش بين عام (1623 ـ 1698) على نشر قاموسه المتميز بالتركية، وجب أن يطبعه بحروف خاصة وعلى نفقته، مما أدى لإغراق نفسه بالديون وتحمل ابنته من بعد وفاته تبعاتها. كذلك فإن تعيين (جوهان بابتيست بودستا) الموهوب لغوياً أستاذاً للغات الشرقية في جامعة فيينا، لم يتمخض عنه أي تغيير جوهري في هذا الخصوص. وكان قد مارس في روما سنة 1673 اللغة العربية، وتحدث اللغة التركية بطلاقة، وعرف كما عرف فيننسكي، أنه لا غنى عن معرفة العربية والفارسية من أجل تفهم اللغة العربية. وإن الأطروحة التي طلب من تلامذته تقديمها مطبوعة بعد ثلاث سنوات، كانت تتضمن لذاك السبب وفي المقام الأول عملاً مدرسياً منزلياً خطياً بالعربية مع ملاحظات أساسية حول اللغة العربية، بالإضافة إلى تحليل قواعدي مختصر لجملة عربية. ولا نستبعد استمرار نوع من التأثير بسبب ما بذل من جهود.

20 ـ طبعات القرآن الأولى

إن الاهتمام اللاهوتي الكنائسي، الذي حمل المستشرقين (هوتنجر وسلدن) على دراسة المصادر المسيحية ـ العربية، وممارسة تأثير قوي لدى انتقاء النصوص التي كان يعمل بها بوكوك، لم يقدر هذا الاهتمام على تفادي ازدياد توجه الباحثين بأنظارهم، بسبب الرجحان الطبيعي لكفّة المخطوطات الإسلامية، نحو الإسلام نفسه. وكان لاضمحلال الإمبراطورية العثمانية الواضح وتزايده مع نهاية القرن السابع عشر أثره في تشجيع هذا التوجه. ومنذ أن توقف زحف العثمانيين على أوروبا أمام أسوار فيينا سنة 1683، فإن مكانة الباب العالي لم تتغير كقوة سياسية فحسب، بل لقد ولّد ذلك إحساساً بالراحة والاستقرار والشروط المسبقة للحكم على دين الخصم حكماً لا يعكر صفوه الكرهُ والهوى. والقرآنُ الذي حرّم البابا ألكسندر (1655 ـ 1667) نشره أو ترجمته، تمتْ طباعته في نهاية القرن 17 مرتين على التوالي بفاصل زمني قصير: مرةً في سنة 1694 من قبل راهبٍ من مدينة هامبورج يدعى أبراهام هنكلمان (1652 ـ 1695)، ومرةً أخرى في سنة 1698 من قبل لودفيجو ماراتشي. وكان لا بد لهنكلمان أن يدافع في المقدمة عن طبعته التي لا تقدم سوى النص ضد الاعتراضات بقوله: إن هذا العمل، شأنه شأن كل الاهتمامات بالعربية، غير ذي جدوى كبيرة، ولا تناسب رجال الدين إلا بقدر طفيف جداً، وما كان ينبغي لها أن تظل بدون ترجمة، إنْ شرحاً أو ردّاً على التعاليم المزيفة، في حال تعرضها للهجوم. وإن ماراتشي الذي زوّد طبعته بترجمة لاتينية وتعليقات دفاعية وبمدخل يخدم الغرض نفسه، اجتهد في الختام بالتفسير الإسلامي للقرآن الكريم كي يقدم مدلول الكلمة الصحيح

لغوياً، لكنه اعتبر دفاع الكاثوليكية ضد الإسلام شيئاً جوهرياً، بحيث قرر لهذا السبب الاستفادة من العرض السخي المقدم له والسماح بطبع كتابه في هولندا، ذلك أن الهولنديين رغبوا في أن يزيِّنَ اعتراضه بسبب، وبحيث يكون كل مسيحي في وضع يؤهله من معرفة خطأ القرآن. وأياً كان فقد كانت خطوة مهمة، ذلك أن القرآن الذي كان يشتمه الكثيرون في أوروبا بدون معرفة سابقة لمحتواه، أصبح الآن أكثر تداولاً بين الجميع.

21 ـ مشهد بين (نيجري ودادايشي)

من بين سائر الذين اهتموا باللغة العربية في ألمانيا مع بداية القرن الثامن عشر نادراً ما كان يوجد بحق شخص يتقن العربية. وحتى هنكلمان نفسه، ناشرُ القرآن، لم يكن ليستغني عن المدد الخارجي. فحين قرر إلحاق طبعته بترجمة، بحث عن يهودي من إستانبول ارتد عن الإسلام إلى الكاثوليكية للانتقال من باريس إلى هامبورج. وكان عليه، حين لم يتمّ له ذلك، أن يتخلى عن إعلانه الذي نشره بالخصوص في معرض ميخائيل في مدينة لايبزيغ. كذلك فإنه لم يكن في عهدة المكتبات الألمانية من ثروة تستحق الذكر من المخطوطات العربية، بالإضافة إلى أن الدراسات العربية في ألمانيا افتقرت كليةً إلى التأييد القوي كالذي تقدمه لهم في فرنسا وهولندا وإنجلترا المصالح الاقتصادية والسياسية الشديدة. ولم يفدهم سوى النشاط التبشيري الذي ألهبتْ البيتسمومسية[1] جذوته في بعض المناطق، وكانت الاهتمامات التبشيرية أيضاً هي التي دعتْ سكرتير زوج الملكة (أنّا) فلهلم لودوف (ابن أخ هيوب لودوف مؤسس اللغة الحبشية) في لندن، لإرسال مدرسين مسيحيين إلى ألمانيا من أجل تدريس اللغة العربية، سالومو نيجري (1665 ـ 1729) وكارلوس ديديشي المتوفى 1734م. وكان نيجري قد رُبي في مدرسة يسوعية للتبشير في دمشق، ثم قامتْ بإرساله للدراسة في كلير مونت وهو في سن السابعة عشرة، لكن الخلاف دبّ بينهما فذهب إلى باريس حيث تلقى دروساً خصوصية فأبدع. ومنه تلقى هيوب لودولف أولى الأخبار

(1) البنسموسية حركة بروتستانتية تدعو لليقظة قامت في القرن 17.

حول السامريين أثناء إقامته في باريس سنة 1684. وحوالي سنة 1697 تلقى روستجارد الشهير العربية على يديه. وبعد إبرام صلح (ريجزفيك) في سنة 1697 ذهب إلى لندن. ومن هناك أوفده، هـ. و. لودوف إلى (هاله) بألمانيا حيث وصلها في صيف سنة 1701. شارك في المعهد العالي الشرقي للاهوت الذي أسسه آ. هـ. فرانكي مرَّةً، وتارة في إعطاء دروس خاصة باللغة العربية. وكان من جملة تلامذته، سي. هـ. ميخائيليس (1680 ـ 1762). وأصبح هذا فيما بعد الوسيطَ في توصيل المعرفة التي شكر السوري عليها، لأنه مكّن ابنه بوساطة هذه البيانات في القواعد من تمثل نطق العربية.

وبعد سنة بالضبط غادر نيجري (هاله) مرة أخرى، وتجول في إيطاليا، ووعد أهالي البندقية بتأسيس مدرسة للمترجمين، وعمل على إيفاد نفسه إلى القسطنطينية لهذه الغاية (زعم أنه يريد تعلم التركية وشراء المخطوطات)، لكنه لم يعد إلا بعد ثلاث سنوات إلى فينيسيا بعدما اختفى في روما حيث عين أستاذاً للغة السريانية في ثانوية (سبايتيا)، ومحاضراً للعربية في المعهد العالي للدعاية. ولم يُطقْ صبراً على البقاء هنا أيضاً، وبخاصة أن مموليه ألحوا عليه بتأليف كتاب لتفنيد الإسلام. وهكذا فقد أفلت بعد أربع سنوات إلى لندن التي وصلها في ربيع سنة 1715، ليظهر للمرة الثانية في مدينة هاله الألمانية في سنة 1716. ولحساب (كالنبرج) ترجم مختصر المصلح البروتستني مارتن لوثر في الدفاع عن العقيدة المسيحية، كما ترجم بعض الكتب إلى اللغة العربية التي أصبح بعدها في سنة 1729 أستاذاً، وعهد إلى معهد اللغة اليهودية الذي أسسه مهمة القيام بطبع الكتاب. وبرغبة من الآخر فقد أملى نيجري على كالنبرج أحاديث عربية بالعامية، ما لبث أن طبعها في سنة 1729.

وما إن انقضى على إقامته سوى 17 شهراً حتى عاد إلى لندن ونزل على (جمعية ترقي المعرفة المسيحية)، وأخرج بتكليف منها (المزامير) في سنة 1724 والعهد القديم في سنة 1727. وبعد ذلك بوقت قصير، أي في سنة 1758 أو 1729، انتقل إلى الرفيق الأعلى. ويبدو أن معاناة كارلوس داديشي، وهو مواطن مثله، لم تختلف عنه. فقد أقام في العديد من المدن الألمانية، وأعطى دروساً في العربية.

22 ـ الدراسات العربية في عصر التنوير المبكر

إن القفزات الحاسمة التي خرجت بها الدراسات العربية عن نطاق المسار الفكري اللاهوتي انطلقت من التنوير. فبتأثير منه أخذ الرأي هنا وهناك في الجهر. فإن الحركة (أي الإسلام) الذي توسع في مساحات مترامية من آسيا وإفريقيا وفي أوروبا أيضاً، لا يمكن أن يكون على هذا القدر من السخرية ومخالفة المعقول كما يصرُ الأوروبيون على الاعتقاد. ولن يتسنى للمرء مواجهتها بحجج وكلمات جوفاء أو أن يستأصل شأفتها تماماً، بل إن كل حوار جاء مع هذه الظاهرة من التاريخ الآسيوي لا بد أن يبدأ بدراسة مراجعه بغير هوى ولا تحيز. إن هذه النزعة الجديدة لتأمل الإسلام بنزاهة وبغير تحيز عقائدي، تسربتْ في وقت مبكر جداً سواء في الطبقات المثقفة أو الأوساط المتخصصة، ولما أطل القرن السابع عشر، بُهر عالم أوروبا العريق بإعجاب غامر بالشرق.

ففي سنة 1600 استولى على الفرنسيينِ تفضيل لكل ما هو صيني، فلما انتصف القرن شمل ذلك كل الطبقات. وفي القرن 17 اتخذ ذلك طابع الهواية، فاعتنقه أيضاً تيار (الروكوكو) الفني الذي كان قد بدأ لتوه بدون أي تحفظ. وبناء على ذلك، فقد تلقى الأوروبيون من اليسوعيين الذين ما انفكوا يبشرون في الصين منذ نهاية القرن 16 أخباراً دقيقة، لا عن البلاد والعباد فقط؛ بل عن حضارة الشرق الأقصى وآدابه. وبصورة تدعو إلى الدهشة، تعرف عصر التنوير أواصر القربى بين أخلاقياتهم ودين الحكمة

الكونفوشيوسية. ولقد تسنَّم الفيلسوف ليبنز منزلة عالية مبالغاً فيها في الصين. وكان تفاؤله في أفضل عالم قد طابق الحكمة الصينية العالمية عن مملكة السماء. وهكذا فقد اعترف ليبنز للصينيين بقصب السبق في الفلسفة العلمية وفي أخلاق الدولة، وعدَّهم أسمى شعب في الأرض، وإلا لما ظلتْ هدية الرب في الوحي محجوبة عنهم. ولم يبق هذا الاهتمام المتوقد الذي لا تعوزه كثيراً المعرفة الموضوعية، لم يقتصر على الصين، بل عادت على الشرق الإسلامي بالنفع أيضاً. وكان بارتولوم دي هيربيلوت (1625 ـ 1695) أحد أقدم ممثلي هذه الرؤية غير العقائدية. فقد درس اللغات القديمة والفلسفة في باريس، لكنه شُغل إلى جانب ذلك باللغات العبرية والسوريانية والكلدانية، وتلقى في الختام العربية والفارسية والتركية. وسافر فيما بعد مرتين إلى إيطاليا كنصف دارس ووجد لدى اللورد فرديناند الثاني أمير توسكانا متطوعاً شديد السخاء. هنا وضع مخططه: (في مكتبة شرقية) لجمع كل ما يعثر عليه في الكتب العربية والفارسية والتركية من معرفة قيمة في ترتيب أبجدي مريح.

وكانت معظم مصادره تقريباً من كتب التاريخ المتأخرة. فمن الكتب الفارسية (روضةُ الصفا) لميرشوند، (وخلاصةُ الأخبار) لخونديمير، و(لب التواريخ) للشيعي يحيى بن عبداللطيف، و(تاريخ القصيدة) لحمدالله القزويني، ومن ثمَّ باللغة العربية (روضة المناظر) لابن سحنه، (تاريخ العرب) للمكين، (ونظم الجوهر) ليوتيشيوس، (وتاريخ مختصر الدول) لبار هيرووس، ثم (وفيات الأعيان) لابن خلكان، وبالفارسية (تذكرة الشعراء) لدولت شاه. واستقى مادته الجغرافية من (تقويم البلدان) لأبي الفدا وجغرافية الإدريسي. ولدى المطالعات القرآنية استدعى تفسير حسين واعظ قاصفي، الذي تعرف من خلاله كثيرٌ على الأساطير التوراتية، وفي الختام اقتبس أيضاً معظم عناوين الكتب العربية والفارسية والتركية، التي كان حاجي خليفة قد جمعها في (كشف الظنون) بجدٍ لا يُضاهى. ثم استدعي من قبل كولبرت إلى باريس، فتقاعد مقابل مبلغ مالي ملكي مقداره 1500 ليرة ليقدم أخيراً

لأبحاثه. ورغب بادىء الأمر في نشر مقتطفاته بنصها الأصلي، لكن النقص في الرسائل العربية اضطره لتحرير كتابه باللغة الفرنسية. وهكذا، وبالرغم من كل الأخطاء التي لم يكن تفاديها ممكناً في مثل هذا العمل، فقد ظهر مؤلفه الذي يستحق كل إعجاب تحت عنوان (المكتبة الشرقية)، وهي لبُّ دائرة المعارف الإسلامية المعاصرة. ولم يُقدر لـ: د. هيربيلوت أن يرى ظهورها، حيث وافاه الأجل سنة 1695 في سن السبعين، بعد أن كان قد سمي لثلاث سنوات خلت أستاذاً للغة السريانية في جامعة باريس (خلفاً لخلف جابرييل سيونيتا). وقد قام أنطوان جالان، الذي وقف إلى جانب المؤلف منذ مدة تزيد على السنة، بإتمام عملية الطبع حتى نهايتها.

لقد كانت (المكتبة العربية) لهيربيلوت إنجازاً فريداً من نوعه. صحيحٌ أن هذا الأطلس لم يستطع، تبعاً لحالته، أن يرسم صورة جامعة عن الشرق، لكنه ضم وفرةً من المعلومات حول تاريخ وأدب العالم الإسلامي، وقدم للعالم من خلال الموضوعات التي كثيراً ما أضفى عليها البهجة بالطرف والنوادر وكما يشتهيها المتخصص المهتم بالشرق. وكما فعل د. هيربيلوت، كذلك دخل أيضاً زميله أنطوان جالان (1646 ـ 1715)، الذي كان أستاذاً للعربية منذ سنة 1709 في الكلية الفرنسية عالمَ الشرق الذي تعرف عليه من خلال ثلاث رحلات إلى تركيا، ودول شرق البحر الأبيض المتوسط بدءاً بإيطاليا، وفلسطين، بقلب مفتوح وبغير تحيز. وباقتداء من مستطرف بلوتارش الهادف ومجموعة نوادر فاليريوس ماكسيموس، جمع من العربية والفارسية والتركية كتباً ككتب تاريخ المكين والبار هيبريوس، (ومطلع السعدين) لعبد الرزاق، و(تاج التواريخ) للخوجه أفندي، وسعدي جولشتان، ومن حياة الشاعر التركي لطيفي أقوالاً مأثورة جديرة بالاطلاع، وذلك لكي يُظهر للأوروبيين بأن الشرقيين، في سياق النكتة، لا يقلون عنهم بأي حال من الأحوال فطنةً وذكاءً. وقد أرفقها بمقدمات اقتبسها من مجموعات اقوال مأثورة نُشرت لأربنيوس وجوليوس. ومن بعدها قاده اهتمامه نحو عالم الألوان الزاهي في الشرق، نحو ألف ليلة وليلة، وهي نصبُ تذكاري لأدب

السمر الشعبي الذي يُعد للسبب الآنف الذكر ذا دلالة كبيرة لمن يريد أن يعرف حياة الشعب في العصر المتأخر الوسيط في الأقطار الإسلامية، ولأنه لا ينتمي إلى بنية التراث الإسلامي.

إن ترجمته المتحررة التي تناسب الذوق الفرنسي، والتي ظهرت في 12 مجلداً خلال السنوات (1704 ـ 1717) وسرعان ما تُرجمت إلى اللغتين الإنجليزية والألمانية، لاقتْ في عالم القارىء الأوروبي نجاحاً غير اعتيادي غزتْ حتى مخادع الأطفال، وحملت أوروبا المثقفة على تغيير موقفها وعدم النظر إلى الشرق الإسلامي أنه وطن يكن العداء للمسيحيين وموئل للبدعة الدينية التي تستحق اللعنة، بل الشرق الراسخ تحت سماء سرمدية بهيجة، برونق ألوانها، وتراثها الهائل، خلفائها، ووزرائها وقضاتها، وحريمها، وأمرائها الأسطوريين، وعفاريتها وخرافاتها، السحرة والكهانة، عالم زاخر بالمغامرات الخيالية والأحداث.

وفي الاتجاه ذاته وفي الوقت نفسه تقريباً، مثّله في هولندا أستاذ اللغات الشرقية في جامعة أوترخت (أدريان ريلاندوس) المتوفى سنة 1718، فقد أصدر (تعليم المتعلمين) للزرنوجي بالعربية عن نسخة أُذن بأخذها الدانماركي فريدريش روستجارد؛ المسؤول اللاحق عن الأرشيف السري في باريس سنة 1691، من قِبل أستاذه في العربية، السوري سالومونيجري نقلاً عن مخطوط في المكتبة الملكية، وأرفق النص بالترجمة اللاتينية التي أعدها في روما روستجارد نفسه بمساعدة الماروني يوسيفوس بانيسموس، ولكنه أرفق لمثل أولئك القراء الذين كانوا ضعفاء في العربية الترجمة الحرفية الفظة الصادرة لأبراهام إيشيلينسيس. وقد أعرب في مقدمة هذه الطبعة التي تُعد إنجازاً سوياً جداً من وجهة نظر لغوية، أعرب ريلاندوس بحق عن قيمة اللغة العربية لشرح الكتاب المقدس، لكنه يبين إلى جانب ذلك وجهة نظر واضحة في مهام فقه اللغة العربية، فضلاً عن علم الدين وحضارة وتاريخ الشعوب الناطقة بالعربية في العالم الإسلامي. لكن كتابه (دين محمد) الذي سرعان ما تُرجم إلى العديد من اللغات الأوروبية، كان خروجاً على مألوف القاعدة.

وقد قدم جزؤه الأول الذي يتضمن نبذة عقائدية بالعربية واللاتينية، قدم للقارىء تصوراً ذاتياً للإسلام، في حين صحح الجزء الثاني من الكتاب بعض الآراء الخاطئة الشائعة قديماً حول الإسلام. ومن هذه البدايات كانت الطريق طويلة بالطبع حتى عزل علم اللغة العربية كعلم مستقل، وانضباطٍ يسيطر على الوسائل الخاصة وطرائق البحث، هذا في ما كان ريلاندوس نفسه مأخوذاً جداً بروح المعرفة الموسوعية السائدة قديماً، بدلاً من التقيد بتخصص واحد بغض النظر عن أهميته. وقد كتب مقالة للحديث عن الحرب الدينية (الجهاد). وفي مقالة أخرى طرق ميدان الآثار الإسلامية[1]، وحيًا اتحاد التتلمذ اللغوي مع معرفة العلوم الحقيقية المكتسبة ذاتياً من خلال الرحلات إلى الشرق كما امتلك ناصيتها أنطوان جالان. لكن اهتماماته اللغوية بعيدة المدى، حملته على الانشغال بمختلف اللغات حتى الصينية واليابانية ولغات أمريكا. ونظريتُه في أصل اللغة تنطلق من كون العبرية هي أصل اللغة، والكلدانية والسريانية عاميتان قريبتان من درجة أولى، ثم العربية والفينيقية، ومن اليونانية سالت اللغات اليونانية والأوروبية، ورأى اللغة العربية، من منظار اللغة العلمي، في منزلة عامية عبرية بدلاً من الاعتراف بها كلغة مستقلة.

وحتى القرآن فقد قرأه الناسُ الآن بأعين أخرى، وأن محمداً لم يكن مخلوقاً شريراً كما صوّره العصر الأوروبي الوسيط.، فلقد رأى فيه لايبنز وكثيرون آخرون من المتنورين داعية للدين الطبيعي، بل إن هنري بولنفلير (1658 ـ 1722) جعل من الرسول محمد بطلاً رومانياً مضاداً للرهبنة، حيث يوصف بكونه ناقلاً لدين الهدى الذي يتفوق على المسيحيين لحد كبير.

وبعد فترة قصيرة صدرت ترجمة القرآن القديمة للإنجليزي (جورج سيل) المتوفى في سنة 1736، وكان محامياً كرّس حياته لدراسة العربية في مرحلة الإلزام الدراسية.

---

(1) كان أيضاً أول من عرض إلى جانب الوصف الأدبي لجغرافية فلسطين قطعاً نقدية ونقوشاً.

وقد ترجم من نص القرآن الأصلي، لكنه استعان بالصياغة اللاتينية لماراتشي، الشيء الذي مكّنه بدوره من الحكم عليها بأنها ترجمة أمينة وإنْ كانتْ حرفية. وإلى شرح ماراتشي يرجع الفضل أيضاً في معظم الأقوال العربية المأثورة التي أوردها.

وجورج سيل نفسُهُ قلما استعمل أي مصدر عربي آخر باستثناء تفسير البيضاوي. وترجمتُهُ التي لم تلبث أن تُرجمت إلى الألمانية سنة 1746، قلّدت نفسها وسام الاستحقاق من خلال نظافة النص الذي يتوقف فقط على تقديم مضمون النص جلياً واضحاً. وقد وجد (سيل) عمله بمنزلة نوع من إنقاذ ماء الوجه لكتاب كثُرت عليه المطاعن. لكنه لا محالة وقع في الخطأ نفسه، حين ازداد بشخصه تمسكاً فتصلب عن وعي وإدراك مع وجهة النظر المسيحية. لم يرفض في الواقع رسالة محمد بل كان على بينةٍ فقط من عدم جدوى الوسائل المستعملة من قبل الكنيسة المسيحية فشجب، بوصفه متنوراً، كل إكراه وكل ما يتعارض مع الحكمة في مسائل العقيدة. وهكذا فإنه، بحصافة موضوعيته، تحققت لترجمته خطوة كبيرة.

ولم يُضف التمهيد إلى النجاح الذي استحقته الترجمة شيئاً ذا بال ولم تحرز إلا جانباً متواضعاً فيه. فقد استهله بتاريخ وديانة العرب قبل الإسلام، وقدم مدخلاً عاماً إلى القرآن، وانتهى بإلقاء نظرة شاملة على أهم الفرق الإسلامية.

إن هذا التصور القائم في معظمه على (تاريخ العرب) للمستشرق بوكوك، قد تبنته مراراً كثير من المؤلفات فضلاً عن أنه تُرجم إلى الفرنسية والهولندية.

لقد استمر قرناً كاملاً مصدراً رئيساً رجعت إليه أوروبا المثقفة في كل المسائل ذات الصلة بالقرآن.

23 ـ آلبرت شولتنز

إحتاج الأمر زمناً طويلاً قبل أن تتمكن صورة الشرق الجديدة التي سيطرت على الأوساط المثقفة المتخصصة على مدار القرن الثامن عشر من فرض نفسها على الجامعات. ولعل أهم عائق اعترض سير الدراسات العربية كان يرجع إلى الدراسة الموسوعية التي استولت على لباب المتعلمين في ذلك العصر، وكانت مع كل من هبَّ ودبَّ طوعَ البنان بسهولةٍ أقرب إلى اللهو منها إلى الجد. وفي وسع المرء أن يتوصل بسهولة إلى قناعة كهذه حين يتصفح الرسائل العلمية المتبادلة مع المكتبي البرليني، الموسوعي وعبقري اللغة لاكروز (1661 ـ 1739) الذي أطلق عليه فريدريك الكبير لقب: (الرجل الأكثر علماً، وبرلين مخزن حقيقي للمعلومات). وبالإضافة إلى ذلك فقد تعثر تطور الدراسات العربية، بالأخص بسبب النظر إليها، وكما فعل ريلاندوس، على أنها مجرد لهجة عامية تفرعت عن العبرية. لكن مثل هذا التفسير، بدا ميالاً لإعطاء أولئك اللاهوتيين الذين استعملوا العربية لأغراض تفسير الكتاب المقدس، الحقَّ، وهو الاتجاه الذي رعاه في ذلك الوقت آلبرت شولتنز (1686 ـ 1750) وشهد على يديه ذروة انتصاره. درس شولتنز في مدينة جرونتجن اللاهوت، واهتم باللغات، الكلدانية، والسريانية، والعربية. وتبنى سنة 1706 وهو في العشرين من عمره في رسالته حول اللغة العربية، تبنى الرأي، أن في اللغات، العربية، الكلدانية، السوريانية والحبشية، لغاتٍ ثانوية أو لهجاتٍ عامية، تمُتُّ إلى العبرية بالعلاقة نفسها التي تمتُّ فيها اللهجات الأوليشية والإيونية واللاتيشية إلى اللغة اليونانية. وخلص من ذلك إلى الحق في توظيف الثروة اللفظية العربية الهائلة في

تحديد معاني المفردات العبرية. وبحنكةٍ وابتكار، قدم في أول عمل له على سبيل اختبار المحصلات المستهدفة على هذا النهج، محاولات شرح خمسة وثلاثين موضعاً مبهماً من العهد القديم، ثم ما لبث أن طبق الطريقة نفسها في ما بعد على كتاب هيوب[1] وحكم سليمان. ومن أجل الوقوف في وجه الاعتراض الوشيك، بأنّ أقدم الآثار العربية هي أحدث عهداً من حيث الجوهر من التوراة، نقل أشعاراً عربية متأخرة إلى عصر سليمان وحتى موسى، ليؤكد بأن تعبير يعرب بن قحطان، الجدّ الأول لعرب الجنوب، كان عربياً، وأن صياغته أعيدت من قبل إسماعيل أبي القبائل العربية الشمالية بحسب النموذج اللغوي العبري في أصالته الأولى. أما أن هذه النظرية الخيالية التي تفتقر لكل حس فني وكل إدراك للحقيقة التاريخية غير قادرة على الصمود من منظور اللغة علمياً، فذلك ما لا يتطرق إليه أدنى شك. إنه وإن كان يوجد عددٌ من الحالات تترادف فيها كلمة عربية وأخرى عبرية من حيث الرسم والمعنى (كبعض أسماء القرابة، ومفردات العدد على سبيل المثال)، فإن هذه المترادفات محدودة الاستعمال، لا تثبت نفسها إلا حين تكون الكلمة العبرية معروفة في مدى أرحب. لكن الحالات الأكثر غزارة، هي التي تكون فيها المعاني مختلفة تماماً بالرغم من التطابق الشكلي، سواءٌ لأن السبب يرجع إلى أن استعمال الكلمة في كلا اللغتين يطرق درباً منفصلاً، كما في العبرية على سبيل المثال، yasab (يجلس) مقابل (وثب) بالعربية، أو hahen بالعبرية مقابل كاهن بالعربية، أو كان، لأن للألفاظ المشتركة جذوراً لا علاقة لبعضها بالبعض الآخر اشتقاقياً مثل. (daqaq بالعبرية ويقابلها daqqa بالعربية. . .) لذلك فإن حمل معنى كلمة عربية على مرادف عبري له غير مُلْزِم إطلاقاً. وهكذا يتأتى من التطابق المحكم مع العبرية أسماء الحيوانات مثل: ريم، ree'm بالعبرية rim' بالعربية، يتطابق المعنى أيضاً وحين تعجز الطريقة الاشتقاقية فلا تفضي لشيء بالتوقع، فإن

---

(1) هيوب (HIOB)، سفر الرعب من العهد القديم.

قيمتها بطريق ذلك تقل كثيراً لدى توظيفه في خدمة تفسير العهد القديم. وهكذا فإن نص ماراتشي لا يخلو من الأخطاء، وإن التماس العون من اللغة العربية، وبخاصة في المواضع المثيرة نقدياً، تم بولع كبير.

ولقد سعى بعض المفسرين قبل شولتنز إلى إبانة المواضع الصعبة في العهد القديم من خلال الملاحظة في السياق، ومن خلال التفسير الأحادي الدقيق، في حين أن نقاداً آخرين احتجوا بأن اتخاذ نص غير مقبول نقدياً كأساس لشروح يُقدم عليها يُعد عملاً غير منهجي. وبرغم ذلك فسرعان ما اعترف به معاصروه.

وقد تحصل في سنة 1713 على كرسي لتدريس العبرية في جامعة فرانيكر، واستدعي في سنة 1729 أستاذاً للغات الشرقية إلى لايدن، وتقلد في سنة 1740 أيضاً كرسي الآثار التوراتية، وسيَّر هاتين الوظيفتين حتى وفاته في سنة 1750. ولقد عبَّر عن اهتمامه بالعربية أيضاً حين أصدر بعض مقامات الحريري وسيرة صلاح الدين لابن شداد. ثم كرَّر بداءة إربنيوس وطبع قواعدها الكبرى مجدَّداً، وأرفقها (مليئة نسبياً بالأخطاء) ببعض قصائد ديوان الحماسة لأبي تمام كمُرفقٍ للنص. ولقد كان من الصعب إن انتظرت العربية من رجل قلل من قيمتها، إذ اعتبرها فرعاً للاهوت (أداة مساعدة)، مردوداً أكبر. لكن سوء استعمال العربية لأغراض تفسير التوراة في المقام الأول لا زال ساري المفعول حتى يومنا هذا في صناعة المعاجم التوراتية. فلا زالوا يسوقونها معها لثقل اشتقاقي، وأحرف هجائية مركبة متنوعة عشوائياً وبغير ما تجريح من اللغات السامية الأخرى والعربية بخاصة، التي ربما كانت في موضع من معجم مشابه للمفردات من معاجم اللغات السامية، ولكن في كتاب يخدم تفسير العهد القديم بغير فائدة وتؤدي إلى ارتكاب الخطأ غير مرّة.

24 ـ يوهان ياكوب رايسكه

إلا أنه وقبل موت شولتنز، تولى النطق بالعربية العبقري يوهان ياكوب رايسكه (1716 ـ 1774)، أول مستعرب شهير أنجبته ألمانيا. وقد كان ظهوره في زمن لم تكن فيه العلاقات مريحة بالنسبة للدراسات العربية بشكل عام. وبدا كأنه معجزة، إذ وُلد في مدينة زوريخ لأب دباغ في الخامس والعشرين في شهر ديسمبر لسنة 1716، وتلقى تعليمه خلال السنوات (1728 ـ 1732) في دار للأيتام بمدينة (هاله). وبولع بالغ يجل عن الوصف، ولا تحده حدود، ولا يجد تفسيراً لدراسة العربية حتى لديه، باشر، بإرادة حرة واستقلالية واختيارٍ خاص، الدراسة منذ ربيع سنة 1733 في مدينة لايبزيغ.

وقد استطاع، مستغنياً عن أي عون خارجي ومعتمداً على موهبته الخاصة لا غير، تجاوز كل صعوبات قواعد اللغة، واقتنى، بعدما استغنى عن احتياجات معيشية عدة، سائر الكتب العربية المتيسرة تقريباً في ذلك العصر (تجدر الإشارة هنا إلى أنه لم يتقاض من والديه سوى 200 تالر سنوياً خلال سني الدراسة الخمس). ولم تجىء سنة 1735 حتى قوي على السجع العسير في سيرة تيمور لابن عربشاه. وبالنظر لكونه أدرك ما في طبعة جوليوس من هنات، سافر في شتاء سنة 1735 إلى مدينة درسدن قاصداً الناشر المدعو سيبيش الذي فهم منه بأن في حوزته تحقيقات المخطوطات الباريزية الثانية للكتاب فنقلها). ولم تحنْ السنة 1736 إلا واطلع تقريباً على كلّ النصوص العربية التي طُبعت. ثم أعد ترجمة لاتينية لرسالة (هيرميس كريسميجيستوس) التي عثر عليها في مخطوط بمدينة لايبريغ، الشيء الذي حمل المستشرق الألماني الشهير فلايشر على الحكم عليه في سنة 1870

بقوله: (من النادر أن نجد الآن شاباً في الثانية والعشرين من عمره، تسلح بأفضل الدروس وموثوق المصادر، ربما كان قادراً على تقديم الأكمل) واستطرد متمنياً: (لو أفلحتُ في تفادي خطأ رايسكه! ولا أمني نفسي بأي فضيلة أخرى).

الآن، في هذه المرحلة، توقف الأمر على وصول المخطوطات. وبناء على توسلاته، أرسل له مؤسس (المكتبة العبرية) يوهان كريستوف فولف (1683 ـ 1739) مقامات من مجموعته الخاصة. واستناداً على هذا المخطوط، نشر رايسكه المقامة 26 بالعربية واللاتينية وذلك في سنة 1737، وكانت حسب حكمه الخاص عليه، تجربة فاشلة (من تلميذ) سرعان ما ترفع عليها. ووضع فولف، خبير المكتبات، تحت تصرفه مخطوطات أخرى، دان لها بالفضل في هذه المرحلة من حياته. لكنه كلما ازداد تعمقه في الأدب العربي، أصبح حبه لها أكثر مضاء، وكبُر شوقه للغوص فيها أكثر فأكثر. وما كان لتلك الرغبة أن تتحقق ما لم يتمكن من الدخول إلى مكتبة لايدن وكنوز المخطوطات البابوية. وفي تحدٍّ لكل العقبات التي تعترض سبيله قرر السفر إلى هولندا وبدأ رحلته في شهر مايو من سنة 1738. توجَّه أولاً نحو هامبورج حيث استقبله فولف استقبالاً حاراً وقدمه لرايماروس. وفي أمستردام بحث عن العالم اللغوي الكلاسيكي (دُوارفيل) ليسلمه رسالة توصية من فولف. وقرر (دُوارفيل) فوراً إمداده بالمال، لكن رايسكه، وقد استبد به هيامُه ورفضه لأن يكون مكبلاً، رفض بشدة ذلك العرض المالي المريح، الشيء الذي زاد من إصرار دُاورفيل على مساعدته، فعهد إليه بمراجعة التصحيحات وشغله بطائفة كبيرة من الأعمال الأدبية. ووفر خلال السنوات الثلاث الأخيرة ما يكفيه من أجل الإقامة في هولندا والعيش فيها. وفي السادس من شهر يونيو لسنة 1738 وصل إلى لايدن. وقد علم من شولتنز الذي أدى زيارة فورية له بأنه لا توجد منحٌ دراسة للأجانب وأن العطلة الصيفية على الأبواب[1].

---

(1) يُفهم من هذا أن رايسكه رغب في تسجيل نفسه طالباً للاستفادة من المنحة رغم غزارة علمه.

لكن الشيء الذي آلمه بشكل خاص، أن المكتبة التي جاء من أجلها ظلتْ موصدةً في وجهه وذلك لافتقاره إلى المال. لكن ما لبث وأدخل السرور على قلبه، أن تاجر الكتب (يوهان لازاك) استخدمه (بناء على رسالة توصية من شولتنز) مصححاً وكفل له تكاليف الإقامة والطعام. كما استطاع من خلال إعطاء دروس خصوصية في اللغة اليونانية والمحادثة باللاتينية مع الطلبة الهولنديين من تأمين مصدر دخل ضئيل. ولما انتهت العطلة الدراسية واستؤنفت المحاضرات الدراسية، استقال من العمل مع شولتنز، وتسلم بوساطة منه، مخطوطات المكتبة التي كان ينتظرها بفارغ الصبر. ولو أن رايسكه تمكَّن من تلبية تطلعاته الخاصة، لتعمق في دراسة الجغرافية والمؤرخين، إلا أن شولتنز هو الذي حثه على دراسة الشعر العربي. وهكذا نقل في سنة 1739 أشعار جرير، ولامية العرب الكبرى للشنفرى، وديوان طهمان، وفي السنة التي تلتْ حماسة البحتري، لكنه اهتم بشكل خاص بقصائد العرب الشهيرة في العصر الجاهلي. بالمعلقات، التي عكف على دراستها مع شروح التبريزي وابن النحاس في مخطوطات فارنر 292 و628 ووقع اختياره أخيراً على أطولها للعمل بها وهي معلقة طرفة بن العبد. وقد امتد عملياً أجل طبع العمل الجاهز منذ سنة 1740 حتى سنة 1745. ويتضمن النصُّ غير المعجم ترجمة لاتينية مقابلة ومن تحته شرح النحاس. وتكشف التهميشات المرتبطة عن استدلالات الشاعر وتشرح كل موضوع على حدا، ومعه أسلوبه الشعري بنظيراته التي أوردها بغزارة من المعلقات الأخرى، وديوان الهذليين ومن الحماستين، والمتنبي، وأبي العلاء وشعراء آخرين. وتعالج المقدمة الخطوط، والحواشي، وشروح المعلقات ـ بناء على بعض الملاحظات حول الترجمة اللاتينية والهوامش ـ ثم مختلف الإشارات والرموز المعروفة من بينها. وقدم من كل واحدة على حدة (باستثناء قصيدة طرفة) نظرة شاملة عن المحتوى فضلاً عن مختصر لسيرة المؤلف، ثم يناقش في الختام حياة طرفة بإطناب. وتوضح شجرة الأنساب علاقات قربى طرفة وغيره من شعراء الشمال العرب، وتسهل ضبط النصوص التاريخية المقترحة في المقدمة. وبعمله الأول هذا، شق رايسكه طرقاً في شرح الشعر العربي لا

زالت تُحتذى حتى في وقتنا الحاضر بالنظر لأنها توصل من أقصر الطرق إلى الهدف. لكنها وقعت بالطبع بعيداً عن السبل التي بحث فيها شولتنز عن الجذور السامية في ضباب خيالاته، ولم يجشم رايسكه نفسه مرة عناء الإشارة إليها. ومن يُتحْ له أن يتعرف عن طريقه أن تاريخ المعلقات يعود إلى القرن السادس، يكتشف بدون أدنى عناء، موقفه من اختراع شولتنز الخاص بشعر العرب في العصر القديم.

كان شولتنز في ذلك العصر في وضع لا يمكنه من إدراك هذا الإنجاز الجبار. لم يعرف كيف يبدأ بكتابه الذي لم يُعزْ أدنى اهتمام لتفسير الكتاب المقدس. من جانب آخر، فقد أورد رايسكه في مقدمته ذكر أستاذٍ ضربه ضرباً مبرحاً بدون أي وجه حق. ولقد كان ذكر هذه الحادثة في غير محله من الناحية الموضوعية. وكان شولتنز، في هذه النقطة على حق حين طالبه بحذف العبارة. لكن رايسكه سمح بطبع العبارة بعناد ورفضٍ لتلقي التوجيهات مما أدى إلى حدوث شقاق شديد بين الرجلين اللذين يختلفان في طبيعتهما اختلافاً جوهرياً. غير أن رايسكه مضى في طريقه الذي آمن بصوابه غير مبالٍ بحكم الأكثرية. لم يكن رايسكه ميالاً للاهوت، وما إذا كانت اللغة العبرية قادرة على جلب الفوائد من اللغة العربية، فقد ظل ذلك سواء بالنسبة إليه. ولم يصغ كذلك لطلب شولتنز بتبديد الوقت في لهجات سامية أخرى، لأنه أدرك بأن الاهتمام بها لن يدرَّ على اللغة العربية من حيث المبدأ شيئاً. ولقد أبصر تفاهة اللُعب الاشتقاقية وتصيد المعنى الأساسي الوهمي للجذور السامية. ولطالما صرح بقوله: (لو أردنا خدمة العربية، لوجب أن لا نتعامل معها كلاهوت).

لقد شبَّ ضميره اللغوي على العداء لعدم التخصص. ولقد سبق له أن عالج نصوصاً عربية مع شولتنز فلاحظ كيف كان يتهرب من الصعوبات. فكان يهمل في صمت الكلمات التي لا يفهمها أو يقدم بعمدٍ على تغييرها. ولقد عرف أن المقدرة الخطية الأصولية للنقل ليست كافية بمفردها لنشر جيد، بل إن المقدرة على النقد، بتعرف مواضع الأخطاء في النص،

والوقوف على قصد المؤلف في السياق بطريق الحدس. ومداواةُ الفساد بالتنقيح المناسب لأسلوب الكاتب اللغوي تُعد من مكملاتها أيضاً. وإن التفويض الذي أُسند إليه بإعادة تنظيم المخطوطات العربية في المكتبة، هيأ له فرصة سانحة للاطلاع عليه بروية. وهكذا فقد نقل المخطوطات التي يتوقف الأمر عليها، كمعارف ابن قتيبة، تاريخ وجغرافية أبي الفدا، قصص حمزة الأصبهاني، مقتطفات من سير الأطباء لابن أبي أصيبعة وغيرهم. وقد وقفت دراسته لنيل شهادة الدكتوراه في كلية الفلسفة حائلاً دون الموقف الرافض الذي اتخذه منه شولتنز. وإن أباه الذي ربّاه لكي يرى فيه خلفاً له من بعده، ومن صميم فؤاده ودَّ لو تخلى ابنه يوهان عن دراسة العربية. وبإلحاح شديد، وضع نصب عيني ولده ووضعه الميؤوس منه ونصحه بالعدول إلى دراسة الطب. وبقراءة مشتركة لبعض التأملات ذات المحتوى الطبي التي قام بجمعها بعض الكتاب العرب، وبعد مشقة[1] حصل في شهر يونيو سنة 1746 على شهادة الدكتوراه في الطب. وفي العاشر من شهر يونيو سنة 1746 بدأ رحلة العودة إلى الوطن ووصل مدينة لايبزيغ في مطلع شهر يوليو. وبالنظر لكونه لم يتمكن من اتخاذ قرار بممارسة مهنة الطب، اضطر مرة أخرى للعمل في التصحيح المطبعي، وإعطاء الدروس الخاصة، والترجمة وما يشبهها من أعمال من أجل تأمين مورد رزقه. وتوفر له وقت فائض لمواصلة دراساته العربية. وفي سنة 1747 ألّف كتابه (المدخل العام إلى التاريخ الإسلامي). ويردُ في عبارات المقدمة على وصف (شرقي) بكونها غير دقيقة، ويستبدل بها عبارة (محمدي) أو (مسلم) لأن المسألة في نظره تتعلق (بتاريخ المسلمين)، ليس في المشرق وحده بل في أفريقيا التي تحدَّث عن مصائرها التاريخ الإسلامي. وفي الجزء الثاني منه يتناول الدول التي كانت مسرحاً للأحداث، وفي الجزء الثالث المصادر التي سنأتي على ذكرها هنا. ويتبع هذا الترتيب الواضح العام تفصيل مركّز. ويعدد في الجزء

---

(1) سعى رجال اللاهوت لسد كل الطرق في وجهه أمام دراسة الطب لاتهام مؤلفاته العلمية بالمادية.

الأول (218 ـ 221) الأجناس البشرية الرائدة وهي: العرب، الفرس، الترك والتركمان، والمغول والتتار والبربر، ويلقي نظرة مختصرة على الأسر الحاكمة التي تحدرت من كل واحدة من هذه الأمم. وفي ربط مع الجزء الأول يعود إلى عرض هذه الأسر في توزعها الجغرافي بدءاً بإسبانيا وحتى آسيا الوسطى. وفي الجزء الثاني (الصفحة 221 وحتى 227)، يعدد في خاتمة أبي الفدا الأقطار الإسلامية وأهمَّ المدن فيها، ثم يأخذ من مقدمة أبي الفدا البحار، والأنهار، والجبال ويعالجها. ويختتم هذا الجزء بتنويه إلى المهمات الخاصة للجغرافيا التاريخية. أما الجزء الثالث (227 ـ 238) حول المصادر الأدبية، فيتضمن فهرسة نقدية. وتبدأ بـ:(دُهير بيلوت)، ثم وبشكل عفوي كتاب رايسكه رفيع المستوى (المكتبة العربية)، ويذكر الكتابين موضوع الاهتمام والنظر: كتاب بوكوكو (النماذج)، المكين، الفرغاني (ابن عربشاه ليس مؤرخاً)، أجزاء من كتب أبي الفدا، ما يدعى بجغرافية النوبة. ويشير باختصار إلى أدب الرحلات والعروض التاريخية والأوروبية، ثم يعرج على المصادر المخطوطة (مؤلفَيْ أبي الفدا، ابن سحنه، حمزة، معارف ابن قتيبة، اشتقاق ابن دريد، رسالة ابن زين الدين، دائرة معارف النويري، ومجموعة أمثال العرب للميداني ـ رايسكه. ويختتم ذلك بملاحظات حول فهرس هيمان للمخطوطات الشرقية في مكتبة لايدن، ويُنهي بإشارة إلى مجموعة المخطوطات غير المعنية في أوكسفورد، باريس وفلورنسا. وبعد أن أنهى رايسكه معالجة موضوعه في الأجزاء الثلاثة هذه، يختتم، جرياً على عادة أهل زمانه، بعبارات الثناء الجديرة بالقراءة حتى في عصرنا الحاضر عن التاريخ الإسلامي، الذي نصح بالاطلاع على مناقبه بشتى الطرق.

إنه، وهذا شيءٌ مفهوم، وإن كانت هذه الأقوال موجهة بقوة، من باب الاكتراث، إلى الفئات القارئة غير المتخصصة ثقافياً، التي ينبغي كسبها إلى جانب الشيء أولاً والتي تفتقر إلى الربط المنطقي الصحيح، فإن هؤلاء لا يضنون بإلقاء نظرة فاحصة على التصورات العامة لرايسكه. إنها ـ دراساته ـ تُظهر أنه ينظر إلى تاريخ الشرق من خلال منطلقات تاريخية مجتزأة، ويرتئي

دراستها كضرورة لأسباب تتعلق باستمرارها التاريخي كالعلوم القديمة تماماً التي كان معترفاً لها بالأهمية. وإنه ليعترف، في الوصف الذي قدمه أبو الفداء عن فارس في العصر الوسيط، بأن الشعوب والطبيعة نفسها، والعادات المعيشية ونظم الحكم نفسه، هي نفس ما عرفه من الصورة التي قدمها هيرودوت للإمبراطورية الفارسية القديمة.

ولقد تمنى رايسكه على القراء أن يتابعوا مصائر كل شعوب ومناطق الشرق وإفريقيا عبر السنين، التي كانت في يوم من الأيام يونانية أو تابعة إلى الإمبراطورية الرومانية. ويشدُّ الانتباه إلى العلاقات المتبادلة التي كانت قائمة منذ أيام شارل الكبير والبيزنطيين، مروراً بعصور النورمان والحروب الصليبية، وصولاً إلى الحروب التركية بين أوروبا والعالم الإسلامي، ويبرز الفوائد التي يمكن للمؤرخ الغربي أن يستخلصها من معرفته بالشرق. لكنه يشدد على أن تاريخ الشرق، من حيث مضمونه، لا يتخلف عن تاريخ أوروبا. كما يتوجب على الباحث التاريخي في رأيه أن يتبين، بأن الشرك بالله والطغيان ازدهرت حظوظها في الماضي بغير ما عقاب، في حين أن التقوى والمحافظة على التقاليد والقيم الحميدة كان مصيرها الهوان، أو أنها ديست بغير عرفان، بلا رحمة بالأقدام، بحيث يتهيأ للمتأمل المندهش والمتعجب في قليل أو كثير، كما لو أن كل شيء، كما في إعصارٍ، اقتيد وشُحن بصدمة عمياء، هذا في حين يبقى الأمل قائماً في محرك السلوك البشري الذي يتكشف لنا بالتاريخ، وهو أحلى ثمر وأهم حصاد من الدراسات التاريخية.

إن من يتعلم حنكة الدولة من خلال دراسة التاريخ، ومن ينقب عن الحكمة الإلهية أو مسالك القدر العشواء، وإن من يرغب في اكتناه السلوك البشري، فلسوف يجد على ذلك أمثلة ناصعة في تاريخ الشرق كما في أوروبا. ولم يتردد في أن يرفع أعمال أرطغرل، وجنكيز خان، وتيمورلنك، ومحمد الفاتح فوق أعمال الإسكندر، ويترك لنفسه عنان الإعجاب ليطال ملوك الفرس، ويقارن تباهي اليونان وبالانتصار عليهم بمنزلة إزعاج البعوض

للفيل. وبالنظرة البعيدة نفسها يتأمل التاريخ الإسلامي، إذ يعتبر ظهور الرسول وانتصار دينه في عداد الأحداث التاريخية التي يعجز العقل البشري عن سبر غورها. ويرى في هذه الأحداث مظهراً لعناية القدرة الإلهية، في ما يعتبر وصول بني أمية إلى السلطة وقصة شيعة علي المأساوية مشيئة إلهية. ويشارك التوجه الشيعي المستقيم مصادره التاريخية التالية: كأن يرى في علي الخليفة المسمّى بعد الرسول، الذي اضطر لأن يناضل زهاء 24 سنة دفاعاً عن حقه في الخلافة نتيجة لدسائس هيئة المنتخبين، ورأى فيه أفضل أمير عرفه العالم الإسلامي، مقداماً، عادلاً، ولكنْ أطيح به من قدر معاكس وبموقف عائشة. ورأى في كفاحه ضد معاوية تجسيداً لانتصار الحيلة على القوة والباطل على الحق. وبلغ به الحد أن قارن علياً (بمارك أوريل) الفيلسوف المتربع على العرش.

إن هذه النزعة لإبراز القيمة النموذجية للأحداث التاريخية، وإبانتها من خلال المقارنة مع الظواهر الأخرى المشابهة في التاريخ الأوروبي، أغرته دوماً بإماطة اللثام عن نظائر جديدة بين التاريخي الإسلامي والأوروبي بهدف إطلاع قرائه على مشاهد فذة غنية بالمعرفة لعبت على شاشة الشرق أيضاً.

وفي وقت مزامن لهذا تقريباً كتب رايسكه كتابه (مبادىء الإسلام. . .)، وتلقى من بلاد درسدن لقب الأستاذية ومرتباً تقاعدياً مقداره 100 تاليرن سنوياً لم تدفع له بانتظام، كما أنها لم تُدفع له أبداً لسنوات عدة بعد عام 1755. واتهمته الكنيسة بالزندقة. وبالرغم من ذلك أبى أن يصف الرسول ﷺ بأنه نبي مزيف ودجال، وأن يصم أذنيه عن تعاليمه لأنها محض أساطير. ولم يصنف تاريخ العالم إلى شقين، شقٌ مقدس وآخرَ مدنس، بل وضع العالم الإسلامي في نقطة الوسط من التاريخ البشري.

وحول هذه النقطة عبّر عن رأيه بكل صراحة غير هيّابٍ ولا مبالٍ بما سيترتب على ذلك من نتائج، الشيءُ الذي أوقعه في شر الخصام. ففي سنة 1748 قام شولتنز بنشر طبعة جديدة من قواعد اللغة العربية لسلفه المستشرق إربنيوس. وقد كرّر فيها الطبعة التي أعدها جوليوس عن النسخة الأصلية

دون أن يغير فيها شيئاً بما في ذلك حكايات لقمان وحكمه المأثورة. وقد زوَّد مادته المقروءة بمقتطفات من ديوان الحماسة الذي لم يكن خالياً من الأخطاء. وقدم شولتنز له بمدخل جامع سعى فيه إلى تفنيد آراء مفسري الكتاب المقدس اليهود ومن تلاهم من المسيحيين حول الطبيعة المقدسة للغة العبرية. إن هذا الخلط لقواعد العربية الأساسية بالصراع المبدئي بالشرح التوراتي فضلاً عن السؤال، إن كان يُسمح للمرء بجمع اللغة العبرية مع اللغات السامية الأخرى، لم يكن هو نفسه قد سُوغ آنئذ لو وافق المرء على هذا السؤال مع شولتنز، ولم يحاول بعدها أحد الإقدام على ذلك الشيء. كما أن الاتفاق كان جامعاً على أن أشعار ديوان الحماسة لم تكن من المطالعات الملائمة للمبتدئين. وفي السنة نفسها نشر شولتنز ترجمة مع تعليق حول حكم سليمان، استعمل فيها أسلوب الاشتقاق بغير ما تحفُّظ.

وكان رايسكه قد ناقش كلا الكتابين في شهر ديسمبر من سنة 1748 وشهر يناير من سنة 1749 في كتاب (منكِنْ): (تاريخ الرسل.. الحديث) الذي صدر. ولم يُطِقْ ضميره العلمي إلا المجاهرة بالحقيقة: إنّه وإن فعل ذلك بكل ما يدين به من تقدير لشولتنز، فلم يفُتْه أن يذكّر في تلك المشاركة، بأنه ربما كان من الأفضل لو أن أحداً غيره قد أقدم على فعل ذلك. لكنّ شولتنز الذي تعوّد بالفعل على المنازعات الأدبية ولم يجرؤ أحدٌ حتى الآن على الشك في تربعه على عرش العربية (في بلاده بالطبع، دافع عن نفسه في رسالتين وجههما إلى مِنْكن، ثم طبعهما وقام بتوزيعهما على أوسع نطاق). في هاتين الرسالتين خرج بالحوار عن الصعيد الموضوعي إلى الصعيد الشخصي وطعن في شخص رايسكه كأشد ما يكون الطعن. لكنّ هذا لم يخيب الرجاء في عمله، لأن من بين قراء المواجهة (عُرضت الرسائل على عدد من أساتذة الكليات في جامعة لايبزيغ) لم يكن في وسع أحد تثمين حجج رايسكه الموضوعية، ولا الوقوف معه أو ضده من واقع المعرفة الخاصة. ولم تمتد يدٌ بالعون له. ومرّتْ سنة في إثر سنة دون أن تستدعيه أي جامعة، ولم يعد عليه بأي نفع أيضاً، حين أكد نفسه من خلال مقالاته كعالم لامع في اللغة اليونانية القديمة، كما أن (آرنستي) الذي اشتهر في حينه

بأنه الرجل المعيار للغة الكلاسيكية وللاهوت معاً، لم يترك لرايسكه فرصةً لكي يعمل، ولم يتورع عن قذفه بعبارة: (إنه لا يستحق شرف حل عقال رباط حذائي). وفي سنة 1753، أجرى الأستاذ النمساوي بوبوفتش محاولة لتوظيف رايسكه في بعثة (شفاختهايم) الذي كان قد أرسل وفداً إلى البلاط التركي، لكن الخطة أخفقتْ لأن رايسكه امتنع عن اعتناق المذهب الكاثوليكي. وتدهورت حاله من سيّئ لأسوأ، وبخاصة حين توقف دفع مرتبه في سنة 1755. وفي غمرة يأسه توجه إلى زميل سابق له في الدراسة وهو الأستاذ يوهان دافيد ميخائيليس من مدينة جوتنجن (1717 ـ 1791)، دون أن يدري في غربته الدنيوية وجهل الإنسان، أنّه وضع مصيره في يد أناني بارد الطبع يحسب لكل شيء ألف حساب. فقد وصف له مقدار حاجته، ونهى إليه أن من واجب حكومة سكسونيا أن تفعل شيئاً من أجله، كأن تستدعيه إلى جوتنجن (حتى لو كان ذلك من قبيل الشكل). وبإخلاص لا تشوبه شائبة أضاف: إن فقره فقط، هو الذي ثناه حتى الآن عن إنجاز المزيد للأدب العربي. فلو أن ظرفه المالي كان أفضل، لأقدم على طبع كتب عربية وبخاصة معجماً للجيب، وإذا لم تدركه العناية الإلهية في أقرب وقت، ضاع فداءً للغة العربية. غير أن ميخائيليس لم يفكر لحظة في استعمال نفوذه الواسع من أجل رجل كان يتفوق عليه كثيراً في اللغة العربية.

وأيضاً هو، الرجلُ الذي لم يكن يملك الأصالة، بل الموهبة لاختصار نتائج بحوث الآخرين وترويجها، درس العربية، ولكن في الإطار المعتاد للغة المقدسة. لم يكن يفهم غير القليل من طموحات تحرير الدراسات الشرقية من ربق اللاهوت، كما فهم بشكل أقل أنه أصبح طاعناً في السن حين بدأت رياح الرومانسية تهب بقوة، فهم، ورأى أن الاستشراق يقبل مع نهاية اللغة المقدسة.

إن الأسئلة المثيرة الكثيرة التي أحالها كمهمة على الحملة المرسلة إلى العربية السعودية من قبل فريدريك الرابع ملك الدانمارك بحافز منه، تقع تماماً في مسار شرح الكتاب المقدس، وكان تعسفاً من الرحالة كارستن نيبور أن يكون هذا هو عضو الحملة الوحيد الذي عاد من الرحلة. كانت معرفته

بالعربية قليلة، وقد عدَّ الإعراب بدعة من اختراع النحاة، وربما رجع السبب إلى النموذج الغربي. وقد أقر بعدم مقدرته على نطق الجمل العربية، ولم يكن أحسن حالاً في جرأته على نصوص ديوان الحماسة لشولتنز. ولقد أراد، بدافع حب الشهرة والسيطرة، كما كان دائماً، الحؤول في هذا المجال أيضاً دون وصول أحد لمرتبته. ولهذا السبب فقد استشاط غيظاً من الطلب الذي تقدم به رايسكه إليه، فأرسل خطابه، وأوصى في ملاحظة إلى وزير (مونشهاوس) بأنه لا يخامره شك في أن يكون محطاً للثقة. ثم سلّم الإشعار الرسمي برفض رايسكه بالصيغة الرسمية. وهكذا فقد تلاشت آمال رايسكه في الحصول على كرسي للتدريس. واضطر لأن يقدم طلباً للحصول على وظيفة في مدرسة، وبهذا أصبح في سنة 1758 مديراً لمدرسة نيقولا. وأوشك قرار تعيينه أن يلغى بسبب (خيانة صديق) له. لكنه ولحسن الطالع في سنة 1758، وبعدما حدّد النقود العربية بإيعاز من ناظر مكتب سك النقود في مدينة درسدن، مستشار البلاط، رشتر، حوّل اهتمام الوزير النبيل (فاكربارت) لفائدته. وكانت توصية الوزير كافية لإبطال كل التحفظات التي أبرزها رجال الكنيسة ضد اختيار رايسكه لهذا المنصب. ولذلك تمَّ له أخيراً وبعد سنوات طويلة من الحاجة والعوز الحصول على مكان. وبالقدر الذي ترك له فيه التزامه الوظيفي وقتاً، انصرف مستأنفاً مشاغله في الآداب العربية واليونانية. لكنه لم يعثر على ناشرين واضطر إلى طبعها على نفقته الخاصة. وهكذا صدر له في سنة 1745 المجلد الأول من ترجمته اللاتينية (تاريخ أبي الفداء). وبالنظر إلى أنه عجز عن بيع ثلاثين نسخة من هذه الطبعة، فقد اضطر إلى التوقف عن مواصلة الطبع. ومنذ ذلك اكتفى، مضطراً لا مختاراً، بإصدار الطبعات الصغيرة: ففي سنة 1755 أصدر (رسالة ابن زيدون إلى ابن عبدوس) القيمة، وذلك لما تتضمنه من إشارات ورموز تاريخية. وفي سنة 1756 نشر ترجمة ألمانية للامية الطغرائي وذلك ككتاب تهنئة. وحين باشر مهام عمله في المدرسة، هنأه صديق له بقصيدة لاتينية، وأشار فيها إلى منصب العمل ـ رايسكه. وردَّ رايسكه على التهنئة بالشكر في (كتاب ـ مناسبة) وكان في صورة سبعة أقوال مأثورة مقتطفة من تصنيف الميداني،

وتأتي على ذكر المناصب والرتب. وفي السنة التي تلتْ، عالج في برنامج مدرسي، وعَوْداً على كتاب الميداني، لأكثم بن صيفي، (قاضياً) من عصر الجاهلية، لكن عمله لم يُقابل بتفهم يذكر، الشيء الذي اضطره إلى التوقف عن البرامج الأخرى. ومرة أخرى، في سنة 1765، طلع على جمهور القراء بتجربة للشعر العربي من ديوان المتنبي، وكانت كناية عن اثني عشر بيتاً أو دون ذلك من أبيات النسيب، بالإضافة إلى قصيدتين كاملتين في الرثاء. وقد أهدى تلك الباقة المنورة من شعر النسيب العربي لزوجته[1] التي تمكن رايسكه أخيراً من إحضارها لبيت الزوجية في سنة 1764. وحبّاً فيها صرف النظر في الشرح عن كل الملحقات الفرعية التعليمية، واكتفى بمفردات الشاعر وأشيائه الكفيلة بجعل بعض مشاعر العالم الغريبة مفهومة للإنسان الأوروبي ومقيّمةً جمالياً. وإن رغبته الصريحة التي وردت في إهدائه، بأن يبقى اسم زوجته في الآخرة متحداً باسمه قد تحقق. وتفسير ذلك أنه ما دام اسم رايسكه يعيش، فسوف يفكر المرء في رفيقة حياته التي لم تتخل عنه ووقفتْ إلى جانبه في السراء والضراء. وحين توفي في سنة 1774 تقل قليلاً عن الثامنة والخمسين بمرض الدوار، اجتهدتْ في أن لا تقع تركاته الأدبية الثمينة في يد المستشرق إرنستي. وهكذا فقد ائتمنتْ عليها (ليسنغ)، وكان واحداً ممّن قدروا رايسكه في حياته حق قدره. واحتفظ هذا الأخير بها إلى حين قيام رئيس الفرقة الدانماركي النبيل سوم بطلبها، وآلتْ بعد وفاته إلى مكتبة كوبنهاجن. ولقد نشرت زوجته وصفاً يهز المشاعر لسيرته، ولم تتورع عن نشر دناءات خصومه الذين اختلف معهم على الملأ. وفي سنة 1779، نشرت تنقيحات رايسكه المدونة على هيوب وحُكم سليمان، بالإضافة إلى المحاضرة التي ألقاها بتاريخ 21 أغسطس 1748 لمناسبة دخوله. وبارتياح عارم قُدر لها أن تعيش لحظات اعتراف الآخرين التدريجي بزوجها الراحل، وهو ما لم يتمتع به أثناء حياته. وللمرة الثانية طبع جرونر في سنة 1776

---

(1) زوجته كريستينا التي قامت بنشر أعماله بعد وفاته.

أطروحة رايسكه لنيل شهادة الدكتوراه. وقام ي.ج. آيشهورن سنة 1781 بنشر (الرسائل حول طبيعة النقود العربية) التي كان قد بعث بها رايسكه إلى مستشار البلاط ريشتر الذي سبقت الإشارة إليه وذلك في سنة 1757.

لقد رفع رايسكه من منزلة فقه اللغة العربية إلى مصاف علم مستقل. ولم يكن أحد مثله على بينةٍ من خصوصية قواعدها واستقلاليتها، كما لم يتصدَّ أحد مثله عن وعي لأصحاب (اللغة المقدسة) التي كانت سائدة في ذلك الوقت، والتي لم تستخدم العربية إلا لأغراضها التي أَمْنَتْ بها نفسها في شرح التوراة، والتي عادة ما اكتفت منها بضرب المثيل العربي للكلمة العبرية في معجم جوليوس، واختيار المعاني الأقرب ملاءمة من بين تلك الموجودة هناك. وعلى النقيض من موسوعيي عصره، فقد تمتع بنظرة نافذة في مكنونات الطبيعة البشرية. وكما تخلى عن تعامله مع (شيشرو) بسبب عدم قوامة العمل، والنقص في أدوات البحث المساعدة، وبسبب ميله الفائق للغة اليونانية، فقد قدم لنفسه العربية كذلك في آخر المطاف، إذ رفض تبديد الوقت والجهد في دراسة اللهجات المقارنة. ولو أن رايسكه تمتع في عصره بنظرة أعمق في العلاقة المضادة للغة السامية، إذاً لأدركتْ نظرته الثاقبة بكل تأكيد الطريقة الظاهرة التي ينبغي بها أن تتحد تخصصات مستقلة في كلية متغايرة في ما يسمى باللغة السامية بسبب ما بينها من قرابة لغوية فقط، برغم عدم توفر رباط داخلي يحافظ على تماسكها. لكن الأمر كان يتوقف على الوحدة الداخلية لعمله. ولقد خُيل إليه بالتأكيد أن (فقه اللغة) كدراية باللغة هي الأساس. ولقد اعتقد بأن مجرد التعامل المديد الدؤوب مع الكتاب العرب يمكن أن يؤدي إلى معرفة حقيقية بلغتهم. وكان موقناً بأن المسلم متخلف عن التراث المسيحي ـ الإسلامي في كل مجال[1]. ولم يخفَ على رأيه الثاقب أن الطبعات العربية من الكتاب المقدس، إما أنها أنشئت من قبل مسيحيين شرقيين لم يكونوا يعرفون لا اللغة العبرية ولا اليونانية ولا العربية،

(1) عدم تطابق السلوك مع التعاليم.

أو أنهم كانوا مترجمين بربراً يسوعيين اقتصرت معرفتهم على الفولجاتا فقط[1].

وللسبب ذاته فقد بحث وعثر على المدخل إلى كنوز الآداب العربية الإسلامية ودلَّ غيره على الطريق كذلك. لكن دراسة اللغة لم تكن في حد ذاتها هدفاً لديه، بل اتخذ منها منطلقاً لبحوثه التاريخية. وبالنظر لإدراكه لأهمية الإسلام بالنسبة للتاريخ الأوروبي، فلم يقرأ نصوصه العربية كعلم لغة يُكتفى منها فقط بفهم القصد الذي يرمي إليه المؤلف، بل كمؤرخ يصنف التاريخ الإسلامي في إطار التاريخ البشري العام ويتخذ منها موقف المفسر، كالمشاهد في مسرح يحاول، في أثناء مشاهدته للوقائع على الشاشة، النفاذ إلى دوافع أفعال الشخصيات ونوايا الشاعر. وبذلك فإن رايسكه، وإن لم يسعفْه الحظ بإتمام كتابة تاريخ الإسلام الذي خطط له، فقد تحول إلى سبَّاقٍ في الدراسات الإسلامية التي قامت على أساس فقه اللغة العربية كعلم تاريخي. ولم يرغب معاصروه بالطبع في مجاراة أفكاره الجريئة. وقد أصبح شهيداً للأدب العربي، في ما تحولت حياته إلى تاريخ بائس تبرز سيرته عنها شهادة جدُّ مؤثرة. وبقدر ما كان من دواعي الخجل أن أحداً من ذوي الشأن لم يعترف بالمنزلة الفذة لهذا الرجل العبقري الذي كان واحداً من أكبر المستعربين، وأن الدراسات العربية التي أراد أن يقيم لها صرحاً، لم تجد لنفسها القبول الذي تستحق في ألمانيا، فإن من دواعي السلوى أن نعلم، بأنه في القرن الذي تلا وفي المدينة نفسها التي عانى فيها الكثير، تأسست مدرسة[2] تنظر إلى رايسكه على أنه والدها الروحي. فإذا ما رفعت مدرسة لايبزيغ، بوصفها الضمير الحي للدراسات العربية، صوتها محذِّرة من ذلك الحين، كلما وقع خرق للمنهج اللغوي، فهي إنما تتحدث أيضاً باسم رايسكه، وكمدافعة موضوعية عن تراثه.

---

(1) الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس.

(2) ليس المقصود بالمدرسة هنا أي مدرسة، بل أُسس في جامعة لايبزيغ معهد للدراسات العربية لا زال قائماً حتى يومنا هذا.

25 ـ الموارنة وفتيان اللغة

في الوقت الذي قاد فيه رايسكه المعركة من أجل تحرير الدراسات العربية من قيود اللاهوت، أظهرت الوقائع أن اللغة المقدسة لم تستطع تأكيد مكانتها المتنفذة على الدوام. ففي لايدن، حيث قاد آلبرت شولتنز جيلاً إثر جيل من اللاهوتيين لدراسة ما يسمى باللهجات العبرية ابتداء من منتصف القرن، تفرقت جموع المستمعين بعد وفاته، وثبت لحفيده هاينريش (1749 ـ 1793) الذي كان يجلس على كرسي اللغات الشرقية وكان عليلاً ومتعباً، ثبت له بما لا يقبل الشك بأنّ رجال اللاهوت يعتبرون الاختصاصات الأخرى أكثر أهمية من اللهجات، وأنهم أقلعوا عن فهم روح الدين من خلال كلمة الرب فحسب. وتوصل كذلك إلى أن الاستشراق في وضعه الذي وصل إليه في تلك الأثناء، لا يمكن أن يُمارس كدراسة تخصصية شاملة. وعرف كذلك بأن الدراسة الموسوعية الجوفاء لا تجلب سوى الضرر. لكنّ وجهة النظر هذه ظلت غير مقبولة بالطبع من قبل الممثلين الآخرين للغات الشرقية في البلدان البروتستانينة.

وفي غمرة تعلقهم الشديد باللاهوت، أهملوا ميدان اللغة العربية. لكن حالة الدراسات العربية في البلدان الكاثوليكية لم تكن أفضل حالاً. آيةُ ذلك أن أبرز إنجازاتهم المدرجة في الفهارس، هي التي وصف فيها المارونيون السوريون كنوز المخطوطات لبعض المكتبات. فقد وافانا جوزيف سيمون أسيّماني (1687 ـ 1768) بفهرس موجودات الفاتيكان الشرقية ذي الأهمية البالغة بالنسبة لتاريخ الآداب السورية. وكما قدّم ابن أخته خليفته المقدم لدى الفاتيكان، ستيفانوس إيفوديوس أسيّماني (1707 ـ 1821)، قدَّم وصفاً

للمخطوطات الشرقية في فلورنسا. وثمة عضو ثالث من الأسرة نفسها، سيمون السيماني (1752 ـ 1821)، وهو ابنٌ ليوسف اللويسيوس أسيّماني ناشر مخطوط العبادات، وابن الأخ الكبير ليوسف السيماني الذي اشتهر من خلال وصفه لمخطوطات ونقود نانيانا (روما القديمة) في البندقية. أما بالنسبة للدراسات العربية، فكان أهمَّها التراث العربي الهام في مكتبة الأسكوريال الإسبانية التي قام الماروني ميخائيل كاسيري أو الجزيري (1720 ـ 1791) بوصف مجموعة المخطوطات العربية القيمة في المكتبة المذكورة. وقد عثر القارىء فيها على مادة وفيرة حول تاريخ إسبانيا في ظل الحكم الإسلامي، وعلى قائمة بأسماء الشعراء الإسبان ـ العرب (19312 ـ 105)، وموجزاً للتاريخ الإسباني ـ الإسلامي بالإضافة إلى مقتطفات من كتاب (تكملة الصلة) (302 ـ 65) لابن الأبّار، ومساهمات (محاضرات ومقالات) حول (سير العلماء) من كتاب (الإحاطة في تاريخ غرناطة) لابن الخطيب في ترجمة لاتينية (712 ـ 111)، ومن ثمَّ سيرٌ لعلماء استناداً إلى تكملة ابن الأبّار (1212 ـ 133)، وبغيةُ الملتمس للضبي (1332 ـ 140)، وكتاب الصِلة لابن بشكوال (1402 ـ 150)، ولكن، وبشكل خاص، موجز لتاريخ الخلفاء والأسر الحاكمة في الغرب من كتاب (الحلل المرموقة)، ومرادفٍ مرفقٍ بمقتطفات مسهبة من النص وتعليقات مطنبة (1772 ـ 246)، ونظرةٍ إجمالية حول تاريخ غرناطة مستقاةٍ من كتاب ابن الخطيب (اللمحة البدرية في الدولة النصرية)، وذلك في شكل مقتطفات طويلة من النص (462 ـ 324). إن هذه المعلومات المستقاة من ميادين لم تكن معروفة حق المعرفة فيما مضى توشك أن تملأ المجلد الثاني كله بوصف المخطوطات الجغرافية والتاريخية. هذا في حين أن بقية الفروع أُعدت بشكل أقصر، وبخاصة كتب الإلهيات والشريعة والإسلامية التي يبدو أن (الجزيري) لم يُغرها كبير اهتمام. وكاستثناء فقد أَسَرته مراجع العلوم القديمة ككتاب ابن العوام في الزراعة، حيث تحدث عن مضمونه بإطناب (3231 ـ 338)، ويقدم من كتاب ابن القفطي (تاريخ الحكماء) صوراً من حياة كثير من فلاسفة وأطباء ورياضيين وعلماء طبيعة يونانيين ومسلمين.

أما في فرنسا، فقد انخفض مستوى الدراسات العربية منذ وفاة جالان

لأدنى مستوى. فمنذ سنة 1669 وحتى سنة 1779، لم يُطبع كتاب واحد بأحرف عربية. وكانت الحروف السافارية الرائعة (نسبة إلى صاحبها سافاري) قد لفَّها النسيان حين قرر د. هير بولت إصدار كتابه في (المكتبة العربية)، وأن الفرنسي (لي رو ـ هوتيسراي) كان لا بد أن يلجأ إلى الصور المحفورة في النحاس حين قرر إصدار كتابه في معالجة اللغات وعلم الخط الشرقيين سنة 1766. وكان كرسيا اللغة العربية في كلية رويال التي صار اسمها (الكلية الفرنسية) في ما بعد، كانا في القرن 18 مشغولَين في أغلب الأوقات من قبل رجالٍ برعوا في اللغة من خلال عملهم القنصلي، وأن عناية الدولة بالاستشراق خضعت في نهاية الأمر لاعتبار السياسة الفرنسية في شرق البحر الأبيض المتوسط وبالأخص لمواجهة الطلب على مترجمين متخصصين. وفي سنة 1670 كلّف كولبرت القساوسة الفرنسيسكان بإنشاء مدرسة للترجمة في (بيرا) مكان تجمعه الروحي. وقد تلقى فيها تلامذةٌ في سن التاسعة تقريباً وبمعدل 18 تلميذاً، تلقوا على حساب الدولة دروساً في الفرنسية، اللاتينية، والإيطالية، واللهجات اليونانية الدارجة. وكان (خوجا)[1] تركي يعلمهم اللغة التركية. ولم يجرِ فيها تعليم اللغتين العربية والفارسية. وبالنظر إلى أن القساوسة لم يكونوا أهلاً تماماً لمثل هذا العمل التربوي، بالإضافة إلى أنهم أخذوا طوائفهم الدينية أكثر مما أخذوا التلامذة بعين الاعتبار، فسرعان ما تبين لهم خطأ عملهم. ولهذا السبب، وبتحفيز من اليسوعيين الذين كانوا يعولون كثيراً على إعداد المبشرين للعمل في الشرق، فقد أوجد لودفيج السابع في سنة 1700 (كلية لويس الكبرى للغات) التي أشرف عليها بنفسه، وتلقى فيها 12 تلميذاً أرمنياً وشرقيون آخرون على نفقة الملك تربية فرنسية، هذا فضلاً عن تلقي الدروس بلغتهم الأم، بهدف إرسالهم مبشرين للكنيسة، أو مترجمين في خدمة الملك في ما بعد. وبعد العودة إلى أوطانهم، فقد

---

(1) كلمة تركية تعني معلم ومربي. وقد تعودتْ آذاننا سماع هذا الاسم ورؤيته أيضاً ذكراً كان (الخجا) أو أنثى في ثلاثينيات هذا القرن، لكننا كنا نجهل أن الاسم تركي ويكتب بالدال.

نسي معظم الأرمن والسوريون، والعرب واليونانيون من ضمنهم، نسوا الملك واليسوعيين ومضوا لشأنهم، ولم يحقق غير القليل منهم رغبات أساتذتهم ليصبحوا مبشرين. وكان منهم فئة أيضاً عادت لأحضان كنائسها الأولى وأصبحوا من ثم ألدّ خصوم الاتحاد مع روما. وقلّما أصبح أحدهم مترجماً، الشيءُ الذي حمل على إقامة مدارس الترجمات الشرق ـ أوسطية على أسس مختلفة كل الاختلاف. فعوضاً عن الفتيان الشرقيين أُخذ الآن فتيانٌ فرنسيون في سن الثامنة للمدرسة المذكورة، وتلقوا على يدي اليسوعيين تربية رفيعة وثقافة عامة تقوم على الإلمامة القوية باللاتينية. وإلى جانب ذلك تلقوا دروساً في اللغتين العربية والتركية على يد مترجمين أكفاء وكان منهم أساتذة في المدرسة نفسها (إيكول دي فرانس).

وبالنظر لما لعلوم التركية من أهمية، فقد أُضيف في سنة 1730 مدرس آخر لتدريس فن الخط التركي، وكان التشديد على التركية. لكن المحصلة، بسبب النقص في الوسائل التعليمية وعدم الانتظام في الدراسة، ظلت زهيدة، وكان حظهم من العربية أسوأ. وبعد ثماني سنوات تقريباً أوفد أصحاب المنح إلى بيرا حيث لم يُضَف الكثير إلى ثقافتهم، لأن المدرسة هناك كانت وظلتْ سيئة التمويل والإدارة. ولعل السبب في عدم فشلها الكلي كان يرجع بالذات إلى أن الفتية الذين تلقوا أساسهم في الكلية اليسوعية قد حضروا بثقافة متينة. وكان إخراج اليسوعيين من فرنسا في سنة 1762 بمنزلة ضربة قاصمة وُجهت إلى الكلية الفرنسية. وتراجعت الإنجازات، وأُهمل الانضباط، وتناقصت المعرفة باللغات الشرقية (في سنة 1765 دخلت الفارسية لغة تخصص).

وهبط عدد التلامذة، فيما ارتفعت أصوات تطالب بإغلاق المدرسة واقترحت تحويل مدارس اللغات الشرقية إلى مهن حرة. وبرغم ذلك فقد استأنفت المدرسة نشاطها، بل عاشت عواصف الثورة وكان عدد تلامذتها حين تفجرت لا يزيد على الاثنين[1].

---

(1) أُغلقت المدرسة في بيرا كما حدث لسائر التجمعات، وأعيد فتحها في سنة 1803 بعدما أُعيد تنظيمها جذرياً.

وبعد أن أُعيدت الحياة إلى (مدرسة التخصص في اللغات الشرقية)، التي أخذت على عاتقها أهدافاً مشابهة جداً في بداية الأمر، عاد التنافس بين وزارة الحربية التي كانت لها، وبين وزارة التعليم التي كانت تشرف على المدرسة المتخصصة بالتمويل. وبعد سنتين شهدت إصلاحاً جذرياً (تيريلان) أدّى إلى ازدهار تلك المؤسسة من جديد. وعلى غرار فرنسا، فقد امتلكت النمسا أيضاً مؤسسة خاصة للمترجمين وذلك بالأكاديمية الشرقية التي قامت بتأسيسها ماريا تيريزا سنة 1754. وهنا كذلك أُسندت الإدارة إلى اليسوعيين، فيما ظل الأعضاء السابقون لهذه الطائفة أصحاب الشأن فيها حتى بعد ترقيتها. كانت التربية فيها على قدم وساق. وقد اشتملت الدراسة على فصل في الفلسفة، فلسفة المنطق والرياضيات والفيزياء. وفصل في القانون، إلى جانب الفرنسية والتاريخ والجغرافيا. وفوق ذلك الرسمُ والرقصُ والفروسية.

ولقد تركزت دراسة اللغات الشرقية على اللغة التركية بشكل رئيس، وبرغم ذلك فقد كانت المحصلة متواضعة. وبعد الانتهاء من هذه الفصول الدراسية، أُطلق على التلاميذ اسم (فتيان اللغة) وأُرسلوا إلى إستانبول ليواصلوا تحصيلهم العملي في المدرسة البابوية هناك حيث يدرسهم التركية أستاذ تركي (خوجا). وكما في كلية اللغات الشرقية، كذلك في الأكاديمية الشرقية تسود روح الزمالة العالية. وكما هنالك، فإن مهنة الترجمة تظهر هنا أيضاً الميل لأن تكون وريثة. فقد تكون ما يشبه الأسر المالكة التي نظرت إلى حقائب العمل في الأكاديمية كامتيازات للأسر.

أما الفارق الجوهري، فقد كانت كل الوظائف القنصلية والدبلوماسية مفتوحة أمام طلبة الأكاديمية الشرقية، في حين أن الوظائف بالنسبة لخريجي الكلية اقتصرت على أعمال الترجمة. وهكذا، وعلى سبيل المثال، فقد ترقى أحد أوائل خريجي الأكاديمية، فرانس ماريا توجوت (1734 ـ 1818)، وكان ابناً لأب من التيرول يعمل جدّافاً ويدعى تونيكوتي، الذي استبدلت ماريا تيريزا اسمه بـ (أتونيشت الجيد)، حين ضمتْ الصبي إلى الأكاديمية، وأوفد إلى إستانبول ليصبح بعدها وزيراً للخارجية. وكان هناك فرق آخر، وهو أن

المشرفين في النمسا اجتهدوا في ابتكار أساليب تعليمية حديثة. وتُعدُّ الطبعة الجديدة لقاموس فينينسكي التي سبقت الإشارة إليها تذكاراً حياً لهذه التطلعات. أما في ميدان الدراسات العربية فلم يجدّ جديد بالطبع. وظل الأمر كذلك حتى القرن التاسع عشر، بانتظار أن يتوسع فتى الأكاديمية المعروف جوزيف فون هامر بورجشتال في هذا المجال.

26 ـ السير وليم جونس

وللمرّة الثانية انطلقت القوى التي حمتْ الدراسات العربية والاستشراقية بشكل عام من خطر التجمد الكامل التي كان يتهددها في منتصف القرن الثامن عشر. إن التوجه نحو ما هو طبيعي الذي يُعد السّمة المميزة له، أي ما تصدقه الحواس، والذي أثر في العلوم الطبيعية، والتجريبية، والوسائل الآلية الرياضية، هذا التوجه اكتشف في الشرق الآن الجمال الذي لم يصدقه أحد من الأوروبيين. ولقد تبدى هذا التوجه الجمالي على أشده بظهور وليم جونس. يرجع أصل وليم جونس (1746 ـ 1794) إلى ويلز من جهة الأم، وإلى والده الذي كان باحثاً في اللغات والآداب، يدٌ في موهبته الفنية الرفيعة لا سيما الموسيقية، بالإضافة إلى ملكته المتميزة في اللغات. وكان جونز يؤمن بأن في استطاعة الإنسان إتقان أي لغة في مدة لا تزيد على ستة أشهر. ولم يكن اهتمامه في حقيقة الأمر منصباً على الجانب اللغوي المحض، بل رأى في اللغة وسيلة للاستمتاع بالآداب الأجنبية. وإن محبته التي استيقظت في وقت مبكر وازدادت مع مطالعته لألف ليلة وليلة، جعلته يتعلم خلال فترة دراسته في جامعة أوكسفورد اللغات العربية والفارسية والتركية بدون أي عون خارجي. ومن ثمَّ استطاع العمل سوية ولبعض الوقت مع مسيحيين سوريين من مدينة حلب تعرف عليهم في لندن. ثم ألمَّ باللغة الصينية، وفهم من اللغات الأوروبية اللغة الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية.

وبعد تخرجه عمل مدرساً خصوصياً لدى عائلة نبيلة، الشيءُ الذي يسَّر

له الدخول إلى أوساط لندن الراقية التي سرعان ما وجد فيها مناسبة للاستفادة من لغته الفارسية. وكان الملك كريستيان السادس ملك الدانمارك قد أحضر بعد زيارة له إلى لندن، أحضر معه مخطوطاً فارسياً وعبّر عن رغبته في ترجمة ذلك المخطوط إلى اللغة الفرنسية. وقد احتوت تلك المخطوطة على قصة (نادر شاه) التي كتبها الروائي (مهدي شاه)، وتابعت أوروبا تطور أحداثها وخاتمتها بالإعجاب والإثارة. وقبل جونس التكليف وقدَّم خلال فترة قصيرة ترجمة لها ظهرت مطبوعة في سنة 1772، ثم صدرت في السنوات التي تلتْ باللغتين الإنجليزية والألمانية. ولم يملك عليه نفسه الجانب القصصي الخالص فيها، لأنه وجد في سرد الوقائع الحربية شيئاً يدخل السأم على النفس. ولقد كان إعجابه أشد بزخرف النثر الفني كما جاء في الأصل.

وتعرَّف في المجتمع اللندني كذلك على اللورد ريوسكي (1737 ـ 1793) وهو دبلوماسي من البلاط النمساوي، اهتم في إستانبول باللغات العربية والفارسية والتركية كما كان مولعاً ومعجباً بالشعر الشرقي. وتبادل الشابان الرسائل طويلاً، على مدى سنتين منذ 1768 وحتى 1770، حيث حلّق الاثنان بنشوة من الإعجاب بجمال شعر الشرق. وقد عرَّف (ريفيسكي) بكتابه (نماذج من الشعر الآسيوي) الذي صدر في سنة 1771، عرّف أوروبا عن قرب (بحافظ شيرازي) وكانت قد صدرت له حتى ذلك الحين أول قصيدة في النسيب، هذا في الوقت الذي أصدر 16 قصيدة بالنص الفارسي الأصلي، وأعادها باللاتينية نظماً، بالإضافة إلى إرفاقها بنظير لاتيني حرفي، وشرحها أخيراً بتهميشات استقى معظمها من مقجمة الصودي. وأصدر جونز في السنة نفسها كتاباً في قواعد الفارسية ما لبث أن ترجمه في سنة 1772 إلى الفرنسية، ثم أعاد ترجمته (كارسين دي تاسي) في سنة 1845. وفي سنة 1774 ظهر كتابه (المدخل إلى الشعر الآسيوي) الذي جعل منه شخصاً شهيراً بضربة واحدة، ثم جعله آيشهورن متداولاً في يد القارىء الألماني بعد ثلاث سنين من خلال طبعة ثانية. وقد بدأ جونس العمل حين كان عمره إحدى وعشرين سنة متأثراً بكتاب (الشعر العبري المقدس) للبطريرك لوث (1710 ـ 1787). وإن ما قدمه لوث للتوراة، قرر جونس أن يقوم بإنجازه لكل المحيط الشعري الآسيوي.

لقد رغب في أن يقرِّب للقارىء الغربي جمالهم الشعري. وبالطبع فقد كانت مثل هذه المحاولة في حد ذاتها جبارة على تعداد مواهبه، وإن كان في النظرة الشمولية العامة من الفصل، المُدخَلِ الأول، قد روى قصيدة صينية (الصفحة 6، 8)، وأشار علاوة على ذلك إلى الشعر الحبشي. وهكذا فلا يمثل هذا الكتاب بشكل رئيس سوى تصور العروض الإسلامي والشعر. وهو يعالج بحور الشعر الستة عشر، القصيدة، والغزل، ثم المجاز، وأضراب الأسلوب، وأغراض الشعر، ويورد بعض البيانات الضرورية حول شعراء، عرب، وفرس، وترك.

ويجرد في الختام فصلاً حول الأسلوب الرفيع والبسيط والجزل. وأغلب الأمثلة الشارحة مأخوذة من العربية والفارسية، بينما نصيبُ التركية منها أقل.

وإلى جانب ذلك يُستدل على الأسلوب الرفيع بآيات من الذكر الحكيم وإصحاحات من العهد القديم (التوراة). وهو، أي جونس، بوصفه ابناً عريقاً للتنوير ويرى منذ البدء وبصمت أن كل البشر متساوون بالفطرة أيضاً في قضايا التذوق الفني، فإنه يتبنى وبغير ما اكتراث نظرية شعر الأقدمين. ولا يُمثل لأبحر الشعر العربي بالطول كما هي الحال في التراث القديم، بل يُمثل لها بالتفعيلات اللاتينية.

وغالباً ما تُقرنُ المصطلحات العربية مع ما يقابلها من الشعر القديم (على سبيل المثال (قصيدة) (idylliun). وكثيراً ما يأتي على ذكر الصور البلاغية مقترنة بأمثلة موازية غزيرة من الشعر اليوناني واللاتيني. فإذا حدث أن كان التفاعل العاطفي ضعيفاً مع أسلوب ما بسبب خصوصية شعب أو فترة زمنية معينة، فمن غير النادر أن يلجأ إلى إعادة نظمها بأسلوب قديم كما في قصيدة ابن الفارض بتفعيلات رشيقة، وتراجيدية الشاهنامه بأسلوب شابه لبطل إينياس في قصيدة فيرجيل بست تفعيلات، وقصيدة الربيع للمسيحي على نمط قصيدة فيرجيل السباعية التقطيع. وقصيدة حافظ شيرازي على غرار إيبودة هوراز. (الإيبودة قصيدة من الشعر يعقب فيها بيت قصير بيتاً أطول منه).

ثم ترجم جونز قصيدتين من قصائد حافظ إلى اللغة اليونانية، الأولى على نمط الشعر اليوناني القديم، والأخرى على غرار قصيدة تيوكريت (النبوءات. . إله الشمس) وكان لهذا الكتاب لدى ظهوره وقْعٌ قوي كثمرة نموذجية لعصر التنوير. فلأول مرة قدم الكتاب نظرة شاملة عن الشعر الإسلامي، وأخبر عن المحاولات الأولى من شاهنامة الفردوسي، وأشار بالذات إلى حافظ، واتخذ في جزء خاص موقفاً مناهضاً للتفسير الفارسي حول شعر الحب والخمر. ومكّن كذلك من نظرة شاملة حول الإطار الكلي لشعر المعلقات وبانت سعاد وحول أبي نواس، وابن المعتز وأبي العلاء وصولاً إلى ابن الفارض وشعراء آخرين من العصر ما بعد القديم. وقدم الكتاب تقويماً جمالياً للشعر العربي الذي بلغ ذروته في العصر الرومانسي، ثم شهد تراجعه (الحديث هنا لمؤلف هذا الكتاب) في منتصف القرن التاسع عشر أولاً بيد الدارسين النحويين ثم من منظور المنهج التاريخي.

وبعد ظهور الشروح، بدأ جونس مساره على طريق القانون، وضيق دائرة بحثه في الدراسات الشرقية تضييقاً كبيراً. ولم يلتفتْ إليها إلا نزولاً عند ضرورات اختصاصه. وكثمرة لعمله ظهرت له ترجمة للمعلقات في سنة 1782. وقد مثلت رغبته، بوصفه رجلاً مستقلاً، في أن يتمكن من تحقيق كل طموحاته، وأمل في أن يجد الوسائل الضرورية لذلك في الهند. وفي سنة 1783، وبفضل توصيةٍ من ممولِه النبيل، فقد عُين قاضياً في قصر العدل في مدينة كالكوتا وحصل على لقب (سِيْر). وفي كالكوتا تعرّف على بعض الشخصيات من إداريين، وضباط أطباط في شركة الهند الشرقية الذين سرعان ما أدركوا ميله للغات والآداب الآسيوية. كما تعرف على شارلس فككنس أخصائي اللغة السنسكريتية الذي كان أول من ترجم (البهاجافا ندجيتا) في سنة 1785، والهيتو باديجا في سنة 1787، وتعرف على فرانسيس جلادوين الذي ترجم عن الفارسية، واكتسب شهرته بقواعد الفارسية في ما بعد، فضلاً عن أطروحته في البلاغة والعروض والسجع الفارسي، ومن ثمّ على د. شامبرز الذي عُني بالفن الهندي، وأخيراً ألكسندر هاملتون الذي كان معلم

فريدريك فون شليجل في اللغة السنسكريتية في ما بعد. مع هؤلاء أسس وليم جونز في شهر يناير من سنة 1784، ووفق النموذج الاجتماعي اللندني (جمعية البنغال الآسيوية)، وهي أول جمعية علمية وضعت لنفسها اكتشاف الشرق هدفاً. وفي ذات الوقت أخذت اهتماماته العلمية اتجاهاً جديداً. وبعد انتصار بلاسي عام 1757 ببضع سنوات، اكتسبت شركة الهند الشرقية حقوقاً بلدية كبيرة، كما أخذت على عاتقها دفع الرسوم الضريبية في البنغال (بيهار وأوريسا). وبسبب عدم أهليتهم في النظام الإداري المعقد لمملكة المغول، وعدم ثقافتهم كرجال أعمال لمثل هذه المهمة، فقد واجه موظفو الشركة أكبر الصعوبات في السيطرة على الوضع. والشيء نفسه كان بالنسبة لتطبيق القانون، فبدون إلمامةٍ كافية بلغة البلاد وقانون الهندوس والمسلمين، كان لا بد من اعتماد القاضي الإنجليزي على مساعدة مترجم محلي. وكلما قلّتْ معرفته بالبلاد والأهالي، كانت حاجته إليهم أكبر. في ضوء هذه المعطيات فقط، كان من الممكن أن تحقق دراسة اللغات المحلية الأساسية التحول تدريجياً. وهكذا فقد انكب جونس برغبة جامحة على دراسة اللغة السنسكريتية، واستطاع إنجاز الجانب الشفوي منها في ظرف قصير وإن لاكتْه الألسن الشريرة فوصفت نطقه لكل لغة آسيوية بالسيئة، وأن أحداً من السكان الأصليين لا يقدر على فهمه. في أثناء ذلك أقدم على ترجمة (وصايا ماني) وهيتو بادشا في سنة 1786. وعلاوة على ذلك فقد كان مقتنعاً بأن لا حديث عن خدمة القانون قبل أن يفهم القضاة الإنجليز القانون الهندوسي والشريعة الإسلامية. لهذا السبب فقد اقترح على الحاكم العام الجديد اللورد كورنوسليس إيجاد مجموعة قانونية تشبه مجموعة كوربوس للقانون الروماني، وتضم أحوال المسلمين والهندوس من واقع المصادر الهندوسية والإسلامية، وعرض خدماته لتسيير شؤونها بمساعدة من الbانديت والمانسيش (ألقاب). ووافق كورنواليس على الخطة لكن جونز لم يعش نهاية إنجاز هذا العمل.

وفي تتبعه لهذه الدراسة القانونية، فقد قدم في سنة 1792 (الفقه الحنفي في الإرث) كما قدم (سراجية الساجاوندي) باللغتين العربية والإنجليزية.

وإلى جانب ذلك فقد واصل دراسته الذهنية الجميلة، إذ ترجم في سنة 1788 أجمل دراما هندية (ساكونتالا لخاليداجا) التي تركتْ على الجمهور الأوروبي بعد ذيوعها انطباعاً عميقاً، وانتقلت بترجمتها السيالة إلى الألمانية عن الإنجليزية من قبل جورج فورستر وجوته إلى فتنة تحلق. وفي السنة نفسها ترجم الجيتا جوفندا، وفي سنة 1792 أصدر أول طبعة بأحرف سنسكريتية لخاليدا ساس ريتو ساماهارا. إلى جانب ذلك استأنف اهتمامه بالفارسية التي يعدّها أجمل لغة، وأسند لغة المغول أهمية قصوى لدورهم في الإدارة والقانون. وهكذا فقد اكتشف في سنة 1687 الدابشتان، التي، بتصويرها لأديان الهند في القرن السابع عشر واحتوائها على علوم غزيرة، ونوادر هادفة، وسباب للآلهة، ملكت عليه جوارجه، وفي السنة التي تلت صدر له (ليلى والمجنون) بالنص الفارسي الأصلي. وكان يُعد للقيام برحلة إلى فارس وفي جعبته كثير من الخطط التي لم يتيسر له تحقيقها. وقد ذهبتْ إقامته الطويلة في البنغال بصحته فتوفي في 27 أبريل 1794 بمدينة كالكوتا ولما يبلغ السابعة والأربعين بعد.

27 ـ كلية فورت وليام

إن الفعاليات الغزيرة والمتنوعة التي خرجت من جونس والجمعية الآسيوية البنغالية، عملت بالدرجة الأولى على انتعاش الدراسة التي ارتقت خلال فترة قصيرة إلى مرتبة العلم المستقل بذاته، ووجدت في ألمانيا أيضاً ابتداءً من العشرية الأولى للقرن التاسع عشر ممثلين متعطشين. ولم تخرج الدراسات العربية والإسلامية من هذا خالية الوفاض، وذلك لأن مملكة المغول كانت دولة إسلامية واللغة العربية هي لغة العبادة والعلم، في حين كانت الفارسية لغة الإدارة والوظائف العامة. وهكذا فقد اضطر الإنجليز في الهند لأخذ الإسلام ولغاته الحضارية بعين الاعتبار شأنه في ذلك شأن السنسكريتية والهندوسية. ولهذا السبب فقد اقترح الحاكم العام اللاحق للهند، فارن هاستنج، بعد بضع سنوات من الانتصار في معركة بلاسي سنة 1757، اقترح إنشاء كرسي للفارسية في جامعة أوكسفورد. غير أن رؤساء الشركة امتنعوا عن تقديم الوسائل. لكن اللورد ولزلي (الحاكم العام في الهند 1798 ـ 1805) عاد فشدد على الحاجة إلى مطالبة موظفي الشركة الذين لا يستمرون في العمل تجاراً فقط بل يمارسون الإدارة كذلك في البلاد، إن أرادوا التحدث والحكم بحق، بثقافة تخصصية أساسية. ونصح بتأسيس مدرسة متخصصة في مدينة كالكوتا يجري فيها إعداد الذين ترشحهم الشركة والذين حضروا إلى الهند وهم عادة في سنة (16 ـ 18 سنة)، وتلقوا في إنجلترا ثقافة تجارية فحسب، وذلك من أجل مستقبلهم المهني. واقترح خطة دراسية شاملة تُعطى فيها الأسبقية للتخصص في الأخلاق، والقانون الشعبي، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية الهندية، والشريعتين الهندوسية والإسلامية.

لكن الشركة عادت فوصمت الخطة للمرة الثانية بأنها لهوٌ مكلف. ولم يوافقوا، كارهين، إلا على اعتماد مدرسة للغات كوسيلة لتحقيق ذلك. وهكذا افتُتحت كلية (فورت وليام) سنة 1806 في كالكوتا، واستمرت قائمةً حتى سنة 1854، كما أنشأت الشركة في إنجلترا مدرسة لاستقبال مرشحيها وهي (كلية الهند الشرقية) في قلعة هيرتفورد، ونُقلت في سنة 1809 إلى هيلباري. وتضمنت الخطة الدراسية خلال سني الدراسة الثلاثة، الرياضيات، تاريخ الأدب القديم والعام، وتاريخ الحقوق، واقتصاد الدولة، كما عُقدت دورات تمهيدية للغات العربية والفارسية.

إن اللغات التي دُرست في كلية فورت في كالكوتا، كانت اللغات العربية، والفارسية، والسنسكريتية، والأوردية، والهندوكية، والبنغالية في الدرجة الأولى. وكان أول رئيس لها من سنة 1800 وحتى سنة 1804 هو (جوهن جيلشريست) (1759 ـ 1841)، طبيب سكوتلندي عمل لدى الشركة منذ سنة 1783. وقد أدرك في زمن مبكر أهمية اللهجات الهندية الشعبية، وأعار أهمية خاصة لمقتضيات الهندوستانية التي كانت تمثل العامية لدى طبقات المغول السابقين، كما فُهمت كلغة فرانكية في كل مكان في صيغتها المتدنية. وقد كلّف علماءَ محليين بترجمة الكتب الشهيرة وبخاصة كتب الأدب الفارسية بلغتها الأم، فأعطى بذلك الدفعة الحاسمة لنشوء الشعر الأوردي. وإلى جانب الطبيب كان هناك موظفون آخرون في الشركة وبعض الأوروبيين أحياناً ممن عملوا في التدريس. فعلى سبيل المثال، كان المبشر وليام كاري الذي قام بتدريس السنسكريتية، والبنغالية، والمهراتية، فيما درّس العربية، والفارسية، والشريعة الإسلامة جوهن بيللي، وهو ضابط يعمل في خدمة الشركة. وقد استند في محاضراته العربية على مناهج التعليم المقررة في المدارس، وأصدر كتب الجرجاني والمطرزي والغزنوي وابن حقيب، المصباحَ، وهداية النحو، والقافي مشروحةً[1].

(1) أورد المؤلف العبارة الآتية: (هذه مجموعة الكتب المتداولة لدرس النحو وقد تعهد تصحيحها وصونها عن الخطأ).

كذلك فإن ماثيو لامسدن (1777 ـ 1835) قد التزم تقريباً بتقاليد المدرسة الإسلامية، وقد عمل بادىء ذي بدء أستاذاً مساعداً ومنذ 1808 أستاذاً للعربية والفارسية في تلك المدرسة. وإنَّ (قواعد العربية) الذي لم يصدر له منه سوى مجلد واحد، كان وثيق الصلة بقواعد اللغة الفصحى. وتمثلت إنجازاته الرئيسة في مجال اللغة الفارسية، وكان يُنظر إليه على أنه أفضل فرسانها في عصره. وقد ألف كتاباً حاوياً في قواعد الفارسية. وبمؤلف (مختارات فارسية)، جعل النصيب الأوفر من كتب الأدب الفارسية القيمة متداولة بدرجة كبيرة. من ذلك، يوسف وزليخه، رسالة الإنشاء، وصحبة الأبرار، ومجنون ليلى، وغيرها. وشرع كذلك بطبع شاهنامة الفردوسي، لكنه لم يتمكن إلا من المجلد الأول. وجاء بعده، أي في سنة 1829، تورنرماكان، فقدم النص كاملاً بالاستناد إلى مراجع لامسدن. وقد أُسند الدرس اللغوي الميداني إلى البنديت والمنشيت (أساتذة هنود). وقد دُعوا، بالإضافة إلى ذلك، لجملة من الأعمال الأدبية كما كانوا أهلاً لتكليفهم بالترجمات والتأليف. وبذلك فقد صدرت سلسلة طويلة من المعاجم اللغوية، وغير اللغوية، وكتب النحو، ومنوعات من الترجمات. وقد تُرجم كتاب (الهداية في المذهب الحنفي) إلى الفارسية. كما صدرت طبعاتٌ غير منقوصة من مقامات الحريري وديوان المتنبي وحول الحريري وضع أحد الناشرين، خان علي، معجماً بالعربية والفارسية ظهر في سنة 1814. وكان خان علي قد نشر قبل سنة من ذلك بإشراف (لامسدن) الكتاب المدرسي (مختصر المعاني) للتفتازاني. وكان من أكثر الأشخاص إثارة في تلك المؤسسة التعليمية في سنة 1805 أحمد بن محمد السيرواني اليمني المتوفى في سنة 1840. وباستشارة من لامسدن، وضع في سنة 1811 كتاباً تعليمياً باللغة العربية سمّاه (نفحة اليمن). وفي سنة 1812 أعقبه بكتاب ابن عربشاه (تاريخ تيمور).

وفي سنة 1813 أصدر مجموعة من أساليب إنشاء الرسائل العربية تحت عنوان (العجب العُجاب)، وكتابَ مطالعة جديداً (حديقة الأفراح)، وإليه يرجع الفضل أيضاً في الإصدار الأول من (القاموس). ولم يكمل إصدار

(رسائل إخوان الصفا)، كما أن إصداره لألف ليلة وليلة بعد مجلدين (من ليلة 1 حتى الليلة 200) ظل متوقفاً، ولم يتم تحقيق النص العربي كاملاً إلاّ في سنة 1839 ـ 1842. وأخذت المعلقات طريقها إلى النشر في سنة 1823 من قبل عبدالرحيم بن عبدالكريم المتوفى في سنة 1851 الذي اعتمد في شرحه لها على الزوزني بالكامل. ونشير في الختام إلى أنه صدر في كالكوتا سنة 1811 أول كشاف للقرآن. وبذلك تكتمل أمامنا صورة الحياة الفكرية وأشكال العمل العلمي التي سادتْ مع بداية القرن الماضي في كالكوتا.

وبرغم هذا فلم تتفق النتائج التي دلّتْ عليها كلية فورت وليام، وبخاصة في النقطة الجوهرية وهي تكوين موظفي الشركة في تخصصاتهم، لم تتفق مع التوقعات المنتظرة.

وقد واظب الكتبة الشبان على المدرسة مدة تتراوح بين 12 إلى 15 شهراً.

وكان تقديم الامتحان النهائي إما باللغتين الفارسية والهندية، أو بالفارسية والبنغالية. وكانت مناهج التعليم متخلفةً والمطاليب ضئيلة. وكان يُقال: إن الطالب المجتهد يمكن أن يُعد نفسه للامتحان في مدة لا تزيد على الشهرين. وكان معظم الشبان يفضلون طيبات المدن الكبيرة على الدراسة الجدّية.

وبعد فترة ازدهار قصيرةٍ لم تزدْ على العشرين سنةً، أخذتْ المدرسة في التراجع. وكان السبب المباشر يكمن بالطبع في أنه ساد في أوساط الشركة منذ عشرينيات القرن تأرجح عام في النظرة إلى الجدوى من الدراسات الشرقية. فإذا ما نظر المرء إلى الهند حتى الآن في النور الباهر الذي رأى فيه الحماس للشرق بتأثير التنوير والرومانسية بكل ما هو أوروبي، فقط طرأ الآن تحت وطأة صحوة الحقيقة ردة فعل، فلم يعدْ الإنسان ينظر إلا إلى الجوانب المعتمة. ولقد اعتقد الأوروبي بالتفوق الحضاري الكامل لأوروبا. وحيث إن المرء كان مقتنعاً، بسبب التنوير، بالتساوي الأصلي بين

كل البشر واستعدادهم الفطري للثقافة، فقد أخذ الرأي يترسخ تدريجياً بأن كل تقدم للهند لن يُصار إلى بلوغه إلا على طريق التغريب. وإن الحوار الطويل بين المستشرقين الذين احتفظوا بالمدارس العلمية المحلية، وحرصوا على السنسكريتية، والفارسية، والعربية كلغات لحضارة البلاد الرفيعة من جهة، وبين المنحازين للإنجليزية، الذين يقفون إلى جانب نظام دراسي على النمط الإنجليزي، وإدخال اللغة الإنجليزية لغةً للتعليم من جهة أخرى، انتهى ذلك الحوار عبر اللورد (ماك كولي) (بأنجلزة) البنية الهندية التعليمية، وكان ذلك في سنة 1835.

28 ـ سيلفستر دي ساسي

وبقدر ما ثمن المطلعون أهمية إنجلترا للاستشراق في القرن 18 المنصرم والقرن التاسع عشر الذي بدأ، فقد آلتْ القيادة في مستهل القرن وفي هذا المجال إلى فرنسا بفضل الإنجازات الخارقة لأنطوان إسحاق سيلفستر دي ساسي (1758 ـ 1838) بدون منازع. وبفضل شجاعتها في خصوصية التفكير، وبالثقة المتزايدة بالعقل البشري، نجحت أفكار التنوير في هذا البلد في رفض كل معتقد غيبي، وفي تعليل التاريخ تعليلاً سببياً، وفي تحرير الفكر الأوروبي من معتقدات الكنيسة السلطوية، وبالتالي من وضع الشروط المسبقة لتحرير الدراسات العربية من كل قيود اللاهوت المكبلة لها. وعلى الجانب الآخر فقد جعلت الاهتمامات الاقتصادية والسياسية لفرنسا في الشرق، دراسة اللغات الشرقية والجمهورية الجديدة واجباً لا يُرد. ولقد كانت وجهات النظر التي صب (لويس ماتيو لانجليز) (1763 ـ 1824) اهتمامه عليها عملية حين نصح التجمع الوطني في رسالة التماس موجهة إليه بإنشاء ثلاثة كراسي للغات العربية والفارسية والتركية في كل من باريس ومارسيليا، وشغلها بأساتذة ذوي خبرة طويلة بالشرق. وكان (ماتيو) نفسه قد خطط في صباه للسفر إلى الهند ودراسة اللغتين الفارسية والعربية في الكلية الفرنسية. ثم انضم إلى الثورة وتراجع عن مخططات الهجرة بدون أن يفقد الميل إلى الدراسات الشرقية. ولم يلق التماسه الأول تجاوباً. وفي هذه الأثناء لم يجرؤ معظم المترجمين على الاعتراف بالجمهورية لا سيما المبرزين منهم الذين التحقوا بوظائف لدى حكومات أجنبية. وقد ترتب على ذلك أن وقع عجز في الشارحين المناسبين، بحيث أصبح علاج ذلك من الأمور الطارئة

الملحة. وهكذا فقد جدّد (لانجليز) الذي كان أميناً لقسم مخطوطات المكتبة الوطنية منذ سنة 1792، جدد اقتراحه بعد إدخال تعديل طفيف عليه. فمن بين التنويه بالفوائد العملية التي تعود بها معرفة اللغات الشرقية الحية (على العكس من اللغات الميتة والتخصصية) على التجارة والسياسة الفرنسيتين، نصح بتأسيس مدارس خاصة لدراستها، وبإلحاقها بجانب المكتبة الوطنية لما للمخطوطات والكتب من أهمية للدرس. وقد أفلح هذه المرّة: ففي 30 مارس من سنة 1795 صوّت التجمع بإنشاء كرسي للغة والآداب العربية في باريس، وكرسي آخر للتركية والكاروانية، وكرسي ثالث للفارسية والمالوية. وإلى جانب التعليم بهذه اللغات، افترض أن يتلقى الطلبة دروساً حول علاقات فرنسا السياسية والاقتصادية مع الدول الشرقية المعنية. وقد تولى لانجليز كرسيَّ الفارسية والمالوية فيما ظل كرسي اللغة التركية خالياً من حيث المبدأ. وقد عُين سيلفستر دي ساسي أستاذاً للغة العربية فيها.

ولد أنطوان إسحاق سيلفستر دي ساسي في سنة 1758 ثاني ابن لمحرر العقود أبراهام جاك سيلفستر المتوفى سنة 1765. وبالنظر لأنه لم يكن الإبن الأول، فقد نال، بحسب عادة أهل زمانه، العبارة المميزة (دي ساسي) إلى جانب لقب الأسرة التي ما لبث أن اشتهر بها. وقد تلقى على يد أستاذ خاص تربية متقنة وبخاصة في اللاتينية واليونانية.

وكانت مدرسة سانت جيرمان تقع مقابل بيت والده. وفي حديقتها قابل الصبيُّ الرجلَ الذي أيقظ فيه حبَّ الدراسات الشرقية أو أنه قد شجعه. كان ذلك الرجل هو (جورج فرانسوا بيرتيريو) (1732 ـ 1794)، أحد العارفين، بالآرامية، والعربية، وقد عمل بتكليف من طائفته على إعداد مجلد من كتاب (تاريخ فرنسا)، بالمصادر العربية لتاريخ الحروب الصليبية. وأخذ هذا العالم بيد دي ساسي لتعلم العبرية والعربية. ودرس بعد ذلك الحقوق والتحق في سنة 1781 بإدارة سك العملات. وخلال فترة دراسته لم تُتح له الفرصة للاستماع إلى محاضرات لي روس دسهو هوتس راي (1723 ـ 1795) أستاذ اللغة العربية، أو إلى كاردون (1720 ـ 1783) أستاذ اللغتين الفارسية والتركية.

لكنه كان على احتكاك (بأثيين لي جراند) (1710 ـ 1784) وذلك ابتداءً من سنة 1778 وحتى 1782، وكانت له تجربة غنية في الترجمة إلى جانب معرفته الجيدة باللغة التركية. في هذا الوقت بدأ دي ساسي أول أعماله الشرقية. فقد حقق من (فهرسة أيشهورن لمرجعيات التوراة والآداب الأوروبية) حقق منه رسائل السامريين لسكاليجه في نصها الأصلي مع ترجمة لاتينية. وفي سنة 1785 أصبح معاوناً حراً، وفي سنة 1792 أصبح عضواً منتظماً في أكاديمية الآثار. وفي السنة نفسها تخلى عن عمله في إدارة العُملات لأنه، كملكي وكاثوليكي متشدد، لم يستطع أن يبارك تطرف الثورة الفرنسية، وقضى فترة حكم الثورة المرعب مع أسرته في بيته الريفي. واستغل وقت فراغه في استكمال عمله الكبير الأول الذي ظهر إلى الوجود في سنة 1793 الذي وضع فيه حجر الأساس لحل النقوش والنقود الساسانية. وبذلك أصبح عالماً ذا شهرة معترف بها، حين استدعي من قبل (لانجليز) برغم ما عرف عنه من ميول ملكية ورفضه أداء القسم الذي طُلب منه بالولاء للثورة لشغل كرسي اللغات الشرقية. وبانضمامه إليها بدأ العصر الذهبي للمدرسة الجديدة. إن شخصيته الفذة هي التي أكسبت المدرسة طابعها ذاك. ولم تصبح، كما كان مخططاً لها في الأصل، مدرسة للغة يتحصل فيها التراجمة المستقبليون على نوع من الدربة (للتحدث والكتابة بلغة أجنبية) بل أصبحت مؤسسة تعليمية متشددةً علمياً. إنه وإن تضمن عقد استخدامه اللغة العربية الدارجة، فقد عدَّ الفصحى أرفع منزلة بحيث راعاها وقدرها حق قدرها في أثناء محاضراته. لقد حرص في الواقع على قيام أحد المسيحيين السوريين، ميخائيل صباح، بنسخ المخطوطات العربية، لكنه عدّ المطالعة بالعربية شيئاً سطحياً. وحين تم تأسيس كرسي آخر للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية المتخصصة في سنة 1803، وأسند إلى قبطي من القاهرة بأمرٍ من القنصل الأول، وكان تدريس العربية باللهجة العامية، اعترض دي ساسي على ذلك وإن ذهب احتجاجه أدراج الرياح بحجة أن مُدخل البحث العلمي إلى العامية العربية لا بد أن يمر عبر الفصحى فقط. غير أن دي ساسي كان يتقن الفصحى كما يبدو من المدخل الذي كتبه عن الحريري. ولقد ترجم مراراً

لوزارة الخارجية نصوصاً رسمية إلى العربية، منها على سبيل المثال المجلة العسكرية كما ترجم إلى العربية أيضاً العهد القديم للملك لودفيج، ثم طبعها في سنة 1820 مع النص الفرنسي الأصلي على أمل أن تشد من أزر المسيحيين الشرقيين وأن تكون عزاء لهم، فيما تكون للكفار (أي المسلمين) شاهداً على تسامح أهل الكتاب ودماثة خلقهم. ولم يعطِ وزناً لجانب اللغة الشفوي إذا لم يكن نطقه سليماً البتة، لا ولا ما تلقى من أستاذه (دوم بيرتيريو)، أو حاول تعليمه لتلامذته باللغة الفصحى. وفي عشرية القرن الأولى تمخض عن محاضراته كتابه الذي بدأ به عهداً جديداً بقواعد العربية حيث ظهرت طبعته الأولى في سنة 1810، وظهرت الطبعة الثانية المزيدة والمنقحة والمتوسعة في الشواهد على علم العروض والسجع. ونال الاستحقاق كذلك بسبب غزارة مضمونه، وبساطة تصنيفه، وبيان صياغته، وتبيان قواعده، وهو يمثل أول تقدم تحقق في مجال قواعد اللغة منذ عصر إربنيوس[1]. إن الآراء العلمية اللغوية التي اتُبعت فيه، هي من نفس عصر التنوير الفرنسي الذي ينطلق من أن كل البشر مؤهلون لأن يروا في اللغة خاصة وسيلةً لتبادل الآراء. واجتهد لأن يثبت السمات غير المتبدلة مطلقاً في قواعد أي لغة ترى في طرائق التعبير المختلفة في كل لغة النتائج العفوية، وابتكارات للعقل البشري في هدفها الواعي. وقد اعتمد دي ساسي في قواعده العامة من حيث الجوهر على مجموعة كتب فرنسية[2] بهدف تسهيل اللغة على ابنه الأكبر فيكتور المولود سنة (1791)، وتشخيص اللغة بما يلائم رصيده الطفولي من التعبير بقصد تهيئته لأول درس في اللاتينية. إن هذا الكتيب الفريد في جاذبية مزيجه، والموقف العقلي العلمي الخالص، والحب

(1) التحفة السنية في علم العربية.

(2) a - Grammair générale et raisonne de port Royal.

b - Grammaer générale BeauzeeÛ

c - Histoire Naturelle de la parole.

d - Graimmaere Universelle, court de Gébelin.

الأبوي الحاني على ولده، هذا الكتيب الذي كان له في نفس دي ساسي الحظوة دون ما سواه من كتبه، يحتوي، بغير عمد، تصويراً لصنوف القواعد، ومراحل تحدث لغات الحضارة الأوروبية، ويقدم الإرشاد في تحليل القواعد. وفي هذا الكتاب ينبه المؤلف قارىء قواعد العربية مراراً وتكراراً، كما أنه يقدم السمات الجوهرية المتشابهة: صرفُ النظر عن كل تأمل أو افتراض، والعقلانيةُ الموجهةُ إلى الحقائق الصرفة التي تتفحص بموضوعية الاستعمال اللغوي، وتصفه، ويصوغ المصطلحات المستعملة بعد تحديدها بدقة بحيث لا تحتمل المعنيين في قواعد واضحة وثابتة. إن هذه الإيجابية مكّنت دي ساسي من أن يتوسع في استعمال نتائج وملاحظات وتأكيدات النحويين العرب كما وضعوها في كتب النحو العربي، والمعجمية الشارحة، برغم ما بين (القواعد الفرنسية العامة)، والنظام اللغوي العربي من فروق جوهرية. وإن قيمة عمله لا تكمن آخر الأمر في غنى ووفرة تأملاته اللغوية من كل الأنواع التي يلفت إليها نظر القارىء.

أما عن الأهمية التي أعارها دي ساسي للشرح اللغوي العربي لفهم التعليقات، التعليمية منها والمعجمية، فذلك ظاهر في أنه عالج النحو من وجهين: مرةً بموجب (قواعد الفرنسية العامة) بشكل مسهب، وتارة، وبشكل رئيس من النصوص المستفادة من كتاب مارجليوث (التراكيب العربية) وفق ما أورده النحاة العرب. ومن جهة أخرى فليس ثمة خيط واحد في تصورات دي ساسي اللغوية يوصل إلى فلسفة اللغة كما حدث ذلك لدى فلهلهم فون هومبولدت (1767 ـ 1835) في الزمن نفسه تقريباً، حيث إن الأخير لم يجد في اللغة عملاً (موضوعياً) بقدر ما وجد فيها ممارسة (فلسفية). كما أن دراسة اللغة لم تكن تعني لدي ساسي وسيلة للبناء الشكلي بل تلاقياً مع عقل لشعب آخر. وقد تجنب عن عمد أسلوب الاشتقاق. وإنه وإن كان يلمُّ باللغات العبرية والآرامية، بالإضافة إلى أن اللغات السامرية والحبشية والمندائية لم تكن غريبة عنه، فقد تفادى الاستدلال بهذه اللغات في قواعده العربية بهدف الشرح. كذلك فإن تأسيس علم اللغة المقارن عبر العبقري

فرانس بوب (1791 ـ 1867)، الذي درس على يديه العربية والفارسية خلال إقامته في باريس، لم يحرك فيه ساكناً كما لم يستطع حمله على تغيير قناعاته العلمية اللغوية.

وكما أن دي ساسي كتب قواعد من أجل مستمعيه في البدء، فقد جمع مختاراته التعليمية من أجلهم أيضاً في بادىء الأمر. وفي بداية القرن 18 كانت مصادر مادة المطالعة بالعربية من أجل الدراسة الأكاديمية غير متوافرة إطلاقاً. والحق فإن كتاب شفورد (1742 ـ 1822) (المكتبة العربية) المُهدى إليه، الذي نجح بمشاركته الفاعلة ولم يكن خالياً من الثغرات، وإن كان يقدم بغير قصد أوصافاً تقوم على تشريح الكتب المرموز إليها في كتابه، يُظهر أن عدد النصوص العربية التي أمامنا وطبعت قديماً لم يكن صغيراً جداً، لكنها كانت باهظة الثمن. وكان يتعذر الحصول على بعضها كطبعات (كلية فورت وليام) بسبب عزلة القارات في بادىء الأمر. وفي سنة 1806 أيضاً جاء، بعد مفردات دي ساسي الخاصة لأغراض المحاضرات، جاء من حيث المبدأ القرآن، وأساطير لقمان، وتاريخ تيمور لابن عربشاه، وجزء طبعة قصص بيدبا[1]، فضلاً عن بعض الأشعار التي كانت قيد النظر، وذلك بسبب توافر عدد كبير وكافٍ من النسخ تحت التصرف. وكان من واجب كتابه (مختارات عربية) الذي ظهر في سنة 1806 أن يصلح من ذلك الفساد. لكنه ربط لفوره المهمة العلمية بالهدف العلمي، وذلك بأن عمل وجعل من كنوز مخطوطات مكتبة باريس نصوصاً قيمة معروفة. وهكذا فقد احتوت المختارات على كثير من المقاطع التي تعود لمؤرخين متأخرين (المقريزي)، وجغرافيين، ومن مقامات الحريري، ومن شريعة الدروز، وفلك القزويني، إضافة لبعض القصائد بدءاً بالنابغة وانتهاء بابن فريد، وفي الختام، ومراعاة لاحتياجات المترجمين في المستقبل مجموعةً من كتابة الدولة، وهذا كله

---

(1) قام دي ساسي بطبع النص كاملاً في سنة 1816، معتمداً في ذلك على مخطوط حديث حصل عليه.

بنصه الأصلي وترجمة فرنسية وحواشٍ كثيرة. وظهرت طبعة ثانية منه في سنة 1826، وكاستكمال لهذا فقد أصدر بعد ذلك بثلاث سنوات (مقتطفات لغوية مختارة)، تتضمن نصوصاً منتقاة من كتاب سيبويه في النحو وصولاً إلى (إعراب) ابن هشام، ونصوصاً من تفسير الزمخشري والبيضاوي، وأخيراً الجزء المتعلق بهذا الموضوع من مقدمة ابن خلدون. وفي هذه المجلدات تبلغ مهارة دي ساسي في فن التفسير ذروة اتساعها. وإنها لجديرة بأن يقال عنها: إن المقتطفات والمختارات الأدبية دلّت على حيوية أكبر بكثير مما كانت مألوفة في الأعمال المشابهة التي سرعان ما تدب فيها الشيخوخة نتيجة لتقدم المعرفة العلمية. فلقد مهدت الطريق أمام كثير من طلاب العلم نحو تراث العرب المكتوب، كما عرفتهم ببعض أهم الأعمال. وبعدما أصبحت النصوص القديمة معروفة وتمّ وضع أدواتٍ مساعدة أفضل من كتب في القواعد والمعاجم، أخذت تفقد أهميتها السامية للتدريس تدريجياً، في حين احتفظ جانب من شروحاته التي عالج بها أعماله المتأخرة على قيمته حتى يومنا هذا. ولم تكن طبعته المزودة بتعليق عربي مختار حول مقامات الحريري أقلَّ روعةً. فبهذه التحفة الفنية من النشر الفني العربي الذي شدّ إليه انتباه المستعربين الأوروبيين منذ زمن جوليوس، بدأ دي ساسي العمل بها وقت مبكر من سنة 1811، وأعلن عن طبعة كاملة يجري إعدادها لسنة 1813. وبرغم ذلك فلقد تعثرت هذه الخطة بسبب الأحداث السياسية التي استجدت في السنوات التي تلتْ بشكل كبير، كما أن ظهور بعض المخطوطات الجديدة في هذه الأثناء أفضى بالضرورة إلى إجراء تعديل في النص والشرح.

وعلم في ما بعد، أن النص الكامل نشر بين العامين 1809 ـ 1814 في مدينة كالكوتا. وأخيراً حضر إليه في سنة 1818 كوزان دي بريزيفال الأب (1759 ـ 1835) الذي شغل كرسي اللغة العربية في الكلية الفرنسية منذ سنة 1784 فجأة وبحوزته نسخة كاملة. ولحسن الحظ، فإن ذلك لم يبدل من خطة دي ساسي في شيء، بل إن طبعته طغت على سابقتها وألقتها في

الظلام إلى أن غشاها النسيان. ولقد وصل تأثيرها حتى إلى الشرق. وبوساطة القنصل الفرنسي في بيروت، وقعت هذه الطبعة في يد المسيحي السوري ناصيف اليازجي (1800 ـ 1870) الذي عكف على دراستها باهتمام، ثم كتب رسالة في سنة 1833 ضمنها كل ملاحظاته النقدية وعهد بها إلى المبشر الأمريكي إيللي سميث ليسلمها بدوره إلى دي ساسي. وحيث إن دي ساسي كان قد توفي قبل ذلك بوقت قصير، فقد عهد إيللي إلى المستشرق فلايشر بنشر تلك الرسائل، ثم أعطى هذا الأخير نسخة منها لأحد تلامذته (أ. ف. ميهرن)، الذي قام بترجمتها وزودها بملاحظات نقدية معارضة. واستناداً على ذلك فقد أولى اليازجي كتاب دي ساسي مراجعة جذرية، وقام (ميهرن) في سنة 1848 بطبعها بنصها الأصلي مع ترجمة لاتينية وشروح نقدية. إن هذا الصوت الأول الآتي من الشرق حول إنجاز يتعلق بالدراسات العربية في أوروبا، كان أكثر جدارة بالاهتمام حين صدر عن شرقي اشتهر بمعرفته العالية بالعربية الفصحى، وكان أهلاً للحوار بوصفه كاتباً من الدرجة الأولى. ولقد دلّت ملاحظاته على أنها احتوت، إلى جانب الصحة والقيمة، بعض العتاب غير المعلّل، أجل بل إنّ فكره النقدي اللاذع الذي رُبي تربية فلسفية (لاهوتية)، قد نبا في بعض الأحيان فطال الحريري نفسه، هذا في الوقت الذي ربما قصر فيه البحث الأوروبي فأهمل التنويه بهذا الصواب الزائد. وهكذا فقد اجتازت الدراسات العربية الأوروبية هذه التجربة المستعرة بنجاح وبرهنت على حقها الكامل في الوجود.

وفي سنة 1833 أصدر دي ساسي ألفية ابن مالك التي نشر منها عشرة أجزاء في مختاراته. وفي السنة التي توفي فيها صدر له كتابه الرائد حول الدروز. الذي اختتمه بدراسة وافية حول هذه الطائفة ووصفٍ مطول لتعاليمها رجوعاً إلى القرن الثامن عشر، فيما بقي هذا الكتاب المرجع الأول لهذا الفرع من التخصص لزمن طويل.

وفي سنة 1806 تولى دي ساسي أيضاً كرسي اللغة الفارسية الذي أُسس حديثاً في الكلية الفرنسية. وكان هذا التخصص قد خضع منذ سنة 1773

لأستاذ اللغة التركية بيير روفين (1742 ـ 1824)، لكنه غالباً ما أسند إلى تلميذه دانييل كيفر (1767 ـ 1833).

لكن (تاليران) وجد أن الأهمية العملية للغات الإسلام المهمة الثلاث بررث تأسيس كرسي لكل واحدة من اللغات الثلاث. هنا أشرف دي ساسي على طائفة من المتلقين (كانوا بصفة عامة من الدارسين في مدرسة اللغات الشرقية) في اللغة الفارسية الجديدة. فإلى جانب النصوص التي كان يشرحها لهم بإتقان فريد من حسه الفني المرهف، درّسهم مختارات فلكنس من كتاب ميرشون (أنوار السهيلي، البستان، وسعدي جولستان) وفي سنة 1819 أصدر دي ساسي (باندنامه العطار) مزوّدة بملاحظات غزيرة ممتازة.

لقد أصبح الآن أول مستشرق في عصره بغير منازع. وقد أنعم عليه نابليون بلقب بارون. وحين أُسست الجمعية الآسيوية في سنة 1821، أصبح أول وزير لها، لكنه ما لبث أن تخلى عن هذا المنصب في سنة 1825. وفي سنة 1832 تولى إدارة (الكلية الفرنسية)، وبعد موت أنجلنز تولى أيضاً إدارة (مدرسة اللغات الشرقية) وكان ذلك في سنة 1824. ثم اختارته الأكاديمية التي كان ينتسب إليها أميناً عاماً دائماً لها في سنة 1833. وبرغم الجهد الكبير الذي استنفدته مشاغله الجمة هذه بسبب تعدد المناصب والمراتب، فقد وجد الوقت لمواصلة العمل في شتى صنوف الأدب، والاهتمام بالبحث الذي نبع من شرح النصوص لأنها تحتل نقطة الوسط في فقه اللغة، وتوسعت بحيث شملت ميادين كثيرة من العالم الإسلامي، تاريخ دولها، وحياتها الأدبية، والدينية، والحضارية من بداياتها حتى التاريخ المعاصر، هذا إلى جانب أدوات البحث المساعدة، في الوثائق، والبردي، والنقود القديمة والنقوش.

ولقد مارس دي ساسي عبر أنشطته تلك تأثيراً قوياً على مسار الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا. هذا وإن استمراريته لا تُعزى إلى إنجازاته العلمية التي تجملت بفكره النيّر وعروضاته الشفافة، بقدر ما تعزى إلى تأثير شخصيته معاً، تلك التي صاغ منها (بورت رويال) الورع الحق، والإحساس الصادق بالواجب، والشجاعة الأدبية، وأفقاً واقعياً مستنيراً

كملامح مميزة. وإلى جانب ذلك فقد تحلَّى بروح المحبة والخلق الرفيع، من طيبة قلب، وحسن تعامل، عملت بدورها على تسامي حواره. إنه خلقه الشخصي الذي طبع به أستاذاً وباحثاً، مدرسة اللغات الشرقية. ولم تأخذ هذه المؤسسة التعليمية في الاتساع حتى وافاه الأجل في سنة 1838 من حيث الشكل الخارجي فقط، حين أُرفدت بكراسي دراسية جديدة إضافة إلى الثلاثة الأولى التي كانت موجودة فيها يوم افتُتحت في سنة 1795، حيث أُضيفت الأرمنية في سنة 1812، واليونانية الحديثة في سنة 1819، والعامية العربية[1] في سنة 1820، وأخيراً الهندوستانية في سنة 1830، بل لقد ظل هدف

---

(1) شغل كرسي العامية العربية في بادىء الأمر من قبل القبطي (إليوس بقطر) (1784 ـ 1821) الذي رافق جيش فرنسا الشرقي مترجماً، ثم حلّ محله بعد وفاته المبكرة (أرماند بيير كوسان دي بيرسيفال الابن) (1795 ـ 1871). وقد أصدر كوسان مفردات العامية المصرية التي جمعها بقطر في (المعجم الفرنسي العربي) 1828 ـ 1829، في مجلدين، الطبعة الرابعة في سنة 1868، وكتب (قواعد العامية العربية) كثيرة الاستعمال (باريس 1824، والطبعة الرابعة لسنة 1885)، التي كانت تعاني من كثرة الأخطاء، بحيث إن مختلف اللهجات فيها لم يُفرق بينها بصورة منتظمة، من جهة أخرى فقد تقيّد المترجم النمساوي فرانس. ف. دومباي (1758 ـ 1810) قبل ذلك بربع قرن في كتابه (قواعد اللغة العربية المغربية)، بلهجة سكان طنجه، وبذلك تكون اللهجة المغربية بالأحرف الأولى والمشاركة العلمية الأولية في بحوث اللهجات العربية قد تحققت. وقد تمكن جيسينيوس في سنة 1810 من إثبات أن المالطية هي لهجة عربية أيضاً. ومنذ عصر إمبروسيوس وبوستيلوس، كان بعض الباحثين في اللغة يتبنون الرأي الخطأ في أن اللغة البونية (لغة أهل قرطاجة) استأنفت حياتها في العربية المغربية. وقد ابتكر المالطي فرانك آجيوس دي سولدانيس في كتاب (قواعد المالطية) الذي صدر في سنة 1750 نظرية مغامرة حول روابطها الأسروية كما يستشف من مضمون عنوان الكتاب (حول تأثير الدارجة البونية في اللغة المالطية. .) كما أن المالطي ميشيل أنطونو فاسّالي (1764 ـ 1828)، الذي وضع للغته الأم كتابة ناطقة ثابتة بأحرف لاتينية وبعض الرموز المصطنعة، وابتكر بذلك الشروط المسبقة لاستعمالاتها الأدبية، ضم صوته أيضاً بقوة إلى الزاعمين بأصل اللغة البوني. وحين وقف (يوهان يوخيم بللرمان) (1754 ـ 1842) في سنة 1809 إلى الرأي نفسه في البرنامج الثانوي (حول البحث في صوتيات اللغة المالطية)، وأرجع الفضل في أحرفها الهجائية إلى كتاب آجيوس، =

الأساتذة العاملين، كلما طال الزمن وأصبح دي ساسي هو القدوة، يتمثل في توجيه طموحهم نحو البحث وتثقيف علماء المستقبل. وللواقع، فقد جوبهوا لهذا السبب من قبل أساتذة مدرسة اللغات التي تخرج فيها الآن أيضاً معظم المترجمين، بوصفهم أساتذة بالتثقيف الذاتي، ولا يتمتعون برؤية حيّة عن الشرق، ولم يتقنوا اللغات العامية الحديثة، لكنهم استطاعوا أن يعيِّروا لائميهم مقابل ذلك بالنقص في المنهج الفلسفي، والنقد التاريخي، وبعدم الأهلية في التحليل اللغوي. ولم يظهر تأثير دي ساسي في أي مكان أفضل مما ظهر على معظم تلامذته وإنجازاتهم.

وبفضله تحولت باريس في الثلث الأول من القرن التاسع عشر إلى مكة لكل من يريد أن يكرس نفسه لدراسة اللغات الشرقية. وحيث إن مفهوم الاستشراق الجديد قد تحرر من كل قيد لاهوتي، انضمتْ إلى ذلك السنسكريتية والهندية حتى الصينية. وهكذا فقد جلس المستشرقون على اختلاف توجهاتهم على أعتابه. ويُعد (إتين كواتريمير) (1782 ـ 1852)، وهو تلميذ له، أهم مستعربي فرنسا أهمية بعد دي ساسي. فمنذ 1808 شغل كراسي اللغات العبرية والكلدانية والسريانية في الكلية الفرنسية، ومنذ 1832 خلف (شيزير) بشغل منصب أستاذ للغة الفارسية في مدرسة اللغات الشرقية. وكان كواتريمير كأستاذه، إذ لم يتأثر بمنهج اللغات المقارن، كما لم يهتم اهتمام أستاذه بقواعد اللغة، وإنما اهتم على العكس منه، بتاريخ وجغرافية الشرق الأدنى. وكان يختلف عن أستاذه في النظرة إلى المنجزات الأجنبية التي لم ينشىء لها مدرسة. وقد عاش جاداً ومنغلقاً على نفسه في شبه عزلة كاملة واعتكاف وسط مكتبته العامرة متفرغاً للدراسة.

= وعمد إلى شرحها، اشتقاقياً، بمساعدة اللغة العبرية، ردّ عليه في السنة التالية جيسينيوس في كتابه بالألمانية (محاولات في اللغة المالطية)، وبرهن بطريقة معمول بها منهجياً على انتمائها إلى العربية، ولعل عدم عودة جستينيوس إلى طرق هذا المجال ثانية، بعدما انصرف إلى عمله التاريخي في قواعد العبرية وصناعة المعاجم، والتقديم للمفردات السامية الغريبة، يُعد خسارة للغة العربية.

وتُعدُّ ترجمته لكتاب المقريزي (تاريخ المماليك في مصر)، ومؤلفاته حول مقدمة ابن خلدون، وتاريخ الرشيديين المغول في فارس، تعدُّ بمنزلة نصب تذكارية لمتعلم يتمتع بسعة اطلاع غير عادية لكنه لا يملك القدرة على الصياغة.

وبالتعاون مع ي. ديرنبورغ، فقد أعدَّ جوزيف رينود (1795 ـ 1867)، وهو تلميذ آخر لدي ساسي وخليفته في مدرسة اللغات الشرقية، أعدّ الطبعة الثانية من مقامات الحريري، لكنه سرعان ما انصرف بجدية لدراسات كواتريمير التاريخية والجغرافية، وهكذا فقد أصدر مع (ماك جوكين دي سلان) جغرافية أبي الفدا، وصدّر الترجمة بمدخل عام للجغرافيا الشرقية فكان له بذلك قصب السبق، كما وجّه عناية للآثار الإسلامية، وهي الميدان الذي نادراً ما طرقه أحد. أمّا زميله (دي سلان)، الذي صنع لنفسه اسماً كناشر (لامرىء القيس) ومترجم (لابن خلكان)، فهو ينتمي إلى تلامذة دي ساسي الذين استغلوا معرفتهم باللغة العربية كمترجمين في الحياة العملية.

وكان من أقدم تلامذته اثنان، جان ـ جوزيف مارسيل (1776 ـ 1854)، الذي شارك في الحملة على مصر وأصبح في ما بعد رئيساً للمطبعة الحكومية في القاهرة، والآخر هو (آميدي جوبرت) المتوفى سنة 1847 الذي استخدمه نابليون مترجماً له منذ حصاره لمدينة عكا في سنة 1799، ثم أوفد في مهمات دبلوماسية إلى الشرق أكثر من مرة، وقام بالتدريس في مدرسة اللغة التركية منذ سنة 1801. وإلى هذا الأخير يُنسبُ الشرح والترجمة لكتاب روجر عن الإدريسي. غير أن أهم تلميذ من بينهم كان (لويس جاك بريسنيير) (1814 ـ 1869) الذي عمل في رصف حروف الطباعة في بادىء الأمر، ثم تابع من بعدُ دراسته، وأُوفد، باقتراح من دي ساسي، إلى الجزائر في سنة 1835، حيث طبق فيها طريقته لتعليم اللغة العربية وأعد طاقماً من المترجمين العسكريين الذين لعبوا دوراً فاعلاً لدى احتلال الجزائر.

ومن بين المترجمين أيضاً كان (كازيميرسكي) الذي شهدت ترجمته للقرآن الكريم انتشاراً. أما الآخرون فانصرفوا بقوة إلى اللغة التركية. وكان

(جوليوس موهل) (1800 ـ 1876) الألماني المولد (في شتوتغارت) الفرنسي الجنسية أحد هؤلاء على سبيل المثال. فقد شغل كرسي اللغة الفارسية في الكلية الفرنسية وذلك في سنة 1847. وكان له فضل تأمين أفضل الآثار التذكارية في سلسلة المجموعة الشرقية، وإنْ كانت طبعته لشاهنامة الفردوسي غير المستكملة لغوياً مليئةً بالمقدمات والترجمة الفرنسية. وإلى جانب هؤلاء كان (أنطوان ليونارد دي شيزي) (1773 ـ 1832) الطالب الأثير على قلب دي ساسي، الذي شغل منصب أستاذ اللغة الفارسية في مدرسة اللغات الشرقية بعد وفاة (لانجليز). لكن اختصاصه الأول كان في اللهجات الهندية. وبدفع من أستاذه فقد أُسس له في سنة 1814 أول كرسي فرنسي للغة الفرنسية في الكلية الفرنسية، وإليه انتمى آ. فلهلم فون شليجل في سنة 1816. أما الطالب الثاني الذي كان أيضاً أثيراً على قلب أستاذه دي ساسي فكان جوزيف هيليودور دي تاسي (1794 ـ 1878) الذي استهل مسيرته الأدبية بدراسة لا أهمية لها في التصوف، فأصدر كتاب (كشف الأسرار) لعز الدين المُقدّسي، الذي زوده، على غرار أسلوب أستاذه، بترجمة فرنسية وتعليقات مستفيضة. ثم توجه إلى دراسة الهندوستانية، ثم أُسند إليه بوساطة من أستاذه تدريس هذه اللغة في مدرسة اللغات الشرقية سنة 1828.

وبالقواعد، والمختارات التعليمية، وتاريخ الأدب، والتقارير السنوية لديوان الوالي، بالإضافة إلى ترجماته الكثيرة، بهذا كلّه برهن على عمل نشيط في مجال لم يحظ به إلا القليلون في أوروبا، ونحى فيه منحىً توسعياً وليس متعمقاً، فعجز عن إعطاء المكانة المناسبة لدراسة الإسلام في الهند ضمن الإطار العام للدراسات الإسلامية. وتحول إدوارد دوالورييه (1807 ـ 1881) عن دراسة العربية إلى دراسة المالوية واليابانية، ثم أصبح أستاذاً للغة الأرمنية في مدرسة اللغات الشرقية سنة 1862.

وعمل جوليوم بوتيير (1801 ـ 1873) أخيراً في عدة مجالات لا سيما اللغة الصينية. ولم يعمل دي ساسي على تكوين مستشرقين فرنسيين فقط، بل لقد اندفع نحوه سيل من الأوروبيين المتعطشين للعلم، الذين ما لبثوا أن

طبقوا في بلدانهم أسلوبه التعليمي. ولقد كان تفوقه إبان حياته جلياً ومعترفاً به من قبل الجميع، إلى درجة أن حكومات أجنبية كانت تستشيره لدى عزمها على تأسيس وحيازة كراسي الدراسات الشرقية، أو أنها كانت توفد له الطلبة الحاصلين على المنح الدراسية. وهكذا فقد اتجه إليه رجل الدولة الروسي (جراف أوفاروف)، حين قرر قيصر روسيا إسكندر الأول تأسيس كرسي للغة الفارسية في مدينة بطرسبرج.

وقد عمل كريستيان مارتين فريهْنْ (1782 ـ 1851) (من مدينة روستوك) الذي عمل بحكم تأهيله بعلم النقود الإسلامية منذ سنة 1807، وكان تلميذاً للمستشرق و. ج. تيشزنس، عمل أستاذاً للآداب الشرقية في جامعة كازان التي تأسست في سنة 1804. غير أن المصالح الروسية في آسيا اقتضت بحجم متزايد منذ مطلع القرن التاسع عشر إعارة اهتمام أكبر للغات الشرقية. وهكذا وبتوصية من دي ساسي، استُدعي في سنة 1817 اثنان من تلامذته (شارمون وديمانج) لشغل كرسيَّيْ الدراسات في المعهد العالي للتربية الذي أُسس حديثاً في مدينة بطرسبرج. وبعد افتتاح المعهد الشرقي في القسم الآسيوي من وزارة الشؤون الخارجية في سنة 1823 بهدف إعداد مترجمين، تولى شارمون تدريس الفارسية والتركية، في حين كان ديمانج مؤهلاً لتدريس العربية فيه.

ولعل من الأهمية بمكان، تعداد الذين تقاطروا على باريس من البلاد الأجنبية أملاً في التتلمذ على يد دي ساسي في اللغتين العربية والفارسية. وكان الإسباني (دون باسكوال دي جايانكوز) في عداد تلامذته، فقد درَّس في ما بعد العربية في مدريد، واشتهر بترجمته للأجزاء الخاصة بتاريخ المسلمين في الأندلس من كتاب (المقريزي) نفح الطيب. ومن هؤلاء أيضاً جان هومبرت (1792 ـ 1851) وهو من مدينة جنيف، وقد باشر فيما بعد عمله أستاذاً للعربية في مدينته. وقامت الدانمارك بإرسال جان لارسون راسموسون (1785 ـ 1826) وكان مستشرقاً في جامعة كوبنهاجن توفي في وقت مبكر. ومن النرويج حضر، ي. هـ. آ. هولمبو (1796 ـ 1882)،

وشغل فيما بعد كرسي اللغات الشرقية في كريستينا، ومن السويد حضر ك.ي. تورنبرج (7018 ـ 77)، ومن إنجلترا عالم السنسكريتية (جر يف شامني هوتون).

لكن أي بلد لم يقم بإرسال طلبة أكثر من ألمانيا إلى دي ساسي. وكان كثيرون منهم قد أوفدوا من قبل حكومتهم، ذلك أن ألمانيا أيضاً أدركتْ أهمية الدراسات الشرقية، فعملتْ لها أضعافاً مضاعفة، وأسست لها كراسي خاصة.

أرسلت بافاريا (بوب) وخِلَّه المنسيَّ (أوتمار فرانك). وأرسلت فوتمبورج اللاهوتي القديم (فريدريك شتويدل) وسابق الذكر موهل، الذي ترتّب على دخوله في خدمة الفرنسيين، أن ظل كرسي الدراسات الشرقية شاغراً إلى حين قدوم إيفالد في سنة 1838. وقامت بروسيا بإرسال (فولرز) الذي ما لبث حكومة (هسّن) أن استدعته في سنة 1833 إلى مدينة جيسن بوصفه أحد تلامذة دي ساسي.

وكان في عداد هؤلاء الطلبة على سبيل المثال أيضاً، فلهلم فريتاج (1788 ـ 1861) الذي ألَّف المعجم العربي اللاتيني، وتصوراً للعروض العربي الذي لم يجْرِ استبداله حتى الآن، كما أصدر ديوان الحماسة، وفي (الفعل العربي). ثم جوستاف فلوجل (1802 ـ 1870) وتميز بطبعته القرآنية، وهي كناية عن كشاف، وكثير من النصوص المهمة، والمعجم المفهرس لحاجي خليفة، وفهرست ابن النديم. ثم تلاه ماكسيميليان هابشت (1775 ـ 1839) الذي قضى عشر سنوات مستشاراً للبعثة البروسية في باريس، وكان يجيد التحدث بالعامية العربية، وهو الذي أصدر النص العربي لقصته (ألف ليلة وليلة). وهو من هؤلاء التلامذة أيضاً، ي.ج.ل. كوسيجارتن (1792 ـ 1850) وهو شخصية متعددة الجوانب، وقد حقق ديوان الهذليين، (وجوستاف شتيكل) (1805 ـ 1896)، الذي حثه الشاعر الألماني جوته على دراسة المسكوكات الإسلامية والأختام. ومن بين تلامذة دي ساسي أيضاً، الأيرانيّ (برنهارت دوزن) (1800 ـ 1881) الذي عمل لحساب الروس، وعالم

التوراة يوستوس أولهاوسن (1800 ـ 1882) الذي تتلمذ أيضاً على يد (أنلويتيل دي بيرون)، (وآيلهارد ميتشيرليش) (1794 ـ 1863)، الذي درس الفارسية، ثم تحول إلى دراسة الكيمياء وحصل على صيت وقدر كبيرين في هذا الميدان. وكان عدد رجال اللاهوت الذين أمضوا زمناً طويلاً أو قصيراً في باريس كبيراً. من ذلك على سبيل المثال أستاذ تفسير العهد القديم (من مدينة شتراسبورج الألمانية)، أي (رويس) (1804 ـ 1891)، الذي كوّن أيضاً شهرة بدراساته النقدية في أسفار موسى الأولى، (وهاينريش ميدلاومبروست)، (ودوم بروست) الذي اشتهر بترجماته للكتاب المقدس، (وي وس.ف ي. أليولي) (1793 ـ 1873). ونشير في الختام إلى اختصاصي الدراسات السورية (جورج، هـ. سي. هـ.). (وبير نشتاين) (1787 ـ 1870)، والباحث المتجول (ف. ي. شولز) 1799 ـ 1829) الذي اغتيل في كردستان، (وكونراد ديتريش هاسلز) (1803 ـ 1873) الأستاذ في ثانوية (أولم) الألمانية الذي رسم، أمام أعيننا برسائله المتواترة الصادرة في سنة 1826 حول تقدم الدراسات الآسيوية في باريس صورة حيّةً عن ذلك الزمان. لكن أهم شخصية بالنسبة للدراسات العربية بين هؤلاء مجتمعين هو (هانيريش ليبرخت فلايشر) (1801 ـ 1888) الذي نودي عليه ليكون وصياً على التركة العلمية لـ: دي ساسي.

29 ـ جوزيف فون هامر بورجشتال

وفي الوقت الذي أرسيت فيه الشروط المسبقة لدراسات عربية متحررة من هيمنة الكنيسة في فرنسا، من خلال مسار التطور السياسي في نهاية القرن الثامن عشر، ظل هذا الوضع في المعاهد الألمانية العليا في المرتبة الدنيا كما كان من قبل، حيث وجّهت (اللغة المقدسة) الدراسات الشرقية مجتمعةً. وكان من نتيجة ذلك أنَّ الصورة الحديثة التي كونتها حركة التنوير للشرق، لم يُعترف بها من لدن ممثلي العلم الذين نودي عليهم، بل في الأوساط غير المتخصصة من المواطنين المثقفين، وإن الذين تفرغوا للدراسات الشرقية كانوا من الهواة. ويُعد جوزيف فون هامر بورجشتال (1774 ـ 1756) واحداً منهم.

وُلد هامر لأب كان يعمل مستشاراً في مدينة جراتس (النمسا) سنة 1774. وتلقى علومه الأساسية بين عامي 1789 ـ 1799 في أكاديمية الدراسات الشرقية، ثم أوفد إلى المدرسة الداخلية للبلاط النمساوي لدى الباب العالي في القسطنطينية فتىً يدرس اللغة. وبفضل ما كان يتمتع به من موهبة خارقة في الاستيعاب وذاكرة قوية للكلمة، فسرعان ما تأهل بمعرفة لغات الإسلام الثلاث: فتحدث التركية بطلاقة، والعربية بقدر واف، أما الفارسية فأجادها إلى درجة أنه استطاع التفاوض مع رسل الشاه بلغتهم. وترجم تأملات (ماركوس أوريليوس أنطونينوس) إلى الفارسية. وفي سنة 1800 أرسل في مهمة خاصة إلى مصر، وتعرف قصة ألف ليلة وليلة ومثيلاتها من النتاج الأدبي الشعبي بعدما قرأ في إستانبول (رواية أنتار) مع حلبية علمته العربية.

ومن مصر سافر إلى إنجلترا، ومنها عاد في سنة 1802 إلى إستانبول أمين سر للبعثة الدبلوماسية. وفي سنة 1806 نُقل إلى (جاسي)، وعُين قنصلاً مفوضاً في (مولداو)، لكنه استدعي في السنوات التي تلتْ. ومنذ ذلك الحين عاش في فيينا، ونادراً ما استغرق عمله مترجماً في البلاط منذ سنة 1811 حتى سنة 1836 وقته، والفضل كلُّ الفضل في ذلك يرجع إلى رئيسه الذي وجد فيه تفهماً لأعماله الأدبية. ففي هذا المجال أظهر نشاطاً غير عادي وأعمالاً متنوعة. وخلال السنوات من (1809 حتى 1818) أعدّ، بمساعدة النبيل النمساوي (فنسز لوس فون رزفوسكي) (1765 ـ 1832) (أماكن الاكتشافات الشرقية) وقد أصدرها بالتعاون مع جمعية للهواة، وقدَّم لها بالآية الكريمة كدافع للعمل ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (2/ 142). وقد (افترض في هذه الدورية أن تتضمن كل ما يأتي من الشرق فقط أو ما يدور حوله) ولا ينبغي للاهوت أن يُستبعد تماماً لكن أحداً لم يلتفت إليه. ولم يبرز روح (اللغة المقدسة) إلا في مناسبتين: فقد اشتهر (شنورد) في ترجمة ألمانية على الصفحات من (438 ـ 448) من المجلد الأول نصَّ الخطاب الذي ردَّ به السامريون سنة 1808 على استفسارات القنصل الفرنسي في مدينة حلب. وعقب الباحث اللغوي (يوهان سيفيرت الأب) (1771 ـ 1826) على خبر أسفار يهود بخارى (المجلد الخامس) الصفحة (109)، والأمل الضعيف المعقود عليها بظهور نص الآلام التي تعرض لها هؤلاء. وعن سابق تصميم فقد قابلت مقدمة الجلد الثاني لسنة 1811 اللغات الثلاث، العربية، الفارسية، والتركية، وهي اللغات مثار الاهتمام في فيينا باللغات الثلاث، العربية والعبرية والكلدانية، التي كان قد طالب بها المجمع الكنسي الذي انعقد في فيينا. وبهذا يكون قد وُجد لأول مرة في ألمانيا جهاز يضع دراسة اللغات الرئيسة للعالم الإسلامي في نقطة الوسط، ويعطي للدراسات الإسلامية المستقبلية دفعة نحو الأمام. ولإيمانه بأن الأمر هنا يتعلق بمهمة أوروبية، فقد عمل (هامر) على إدخال الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والإسبانية واليونانية الحديثة إلى جانب اللغتين الألمانية واللاتينية، واختار معاونيه الخمسين من كل الأمم الأوروبية المثقفة. أما المجموعة الأكثر التي

تشكل الثلث، فقد كانت من المستشرقين النمساويين الذين كانوا، مثل هامر، تلامذة سابقين تخرجوا في كلية الدراسات الشرقية، وتعرفوا على الشرق من خلال خبرتهم العملية بمهنة الترجمة. وإلى جانب اهتمامهم باللغة التركية فقد استحوذ الشعر الفارسي على نصيب وافر من عنايتهم، وهكذا وعلى سبيل المثال، فقد كان الشاب (فنسنس فون روزنسافيج شفاناو) (1791 ـ 865) السباق إلى وضع بداية طبعة يوسف وزليخة المستقبلية الكاملة مصحوبة بترجمة ألمانية بالشعر المنثور وتعليقات شارحةٍ عليها المجلد الثاني (313 ـ 315) والمجلد الثالث (290 ـ 309) والمجلد الخامس (171 ـ 178)، ووقع اختيار (فانتين هوسارد) (1787 ـ 1865) أيضاً على تكرار نصوص مختارة من مثنوية جلال الدين الرومي، وأرفق بها النص الأصلي، المجلد الثاني (الصفحات 61 ـ 164) والمجلد الثالث (الصفحات 335 ـ 347)، والمجلد الرابع (الصفحات 87 ـ 92) والمجلد الخامس (99 ـ 101). وانتمى عدد آخر من العاملين معه إلى مقاطعات ألمانية أخرى، منهم علماء قدماء مثل رجل اللاهوت (يوهان جوتفريد أيشهورن) (1752 ـ 1827) الذي بدأ أستاذاً للغات الشرقية في مدينة (فيينا) خلال السنوات (1775 ـ 1788)، ثم عاد لتخصصه في صباه فألّف (حول مملكتي الحيرة وغسان)، المجلد الثاني (الصفحات 359 ـ 374) والمجلد الثالث(الصفحات 21 ـ 40) والمجلد الرابع (21 ـ 40)، ومنهم من كان من الجيل الجديد، كالواعظ ف. ي. ت هـ. كانيك من مدينة دانسيك الذي لم يطل به الأجل فتوفي باكراً (1770 ـ 1811)، وهو صاحب السؤال: ما الذي ستتمخض عنه الدراسات النقدية للقرآن؟ المجلد الأول (129 ـ 141)، كما كتب سيرة للبخاري معتمداً في ذلك على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، المجلد الثاني (201 ـ 205). وقد شارك معه عالمان ألمانيان آخران تلقيا تعليمهما على يد دي ساسي: فريتاج، وقد شارك بنص ركيك يغصُّ بالأخطاء انتزعه من كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان حول ياقوت، المجلد الخامس (258 ـ 260)، وكوسيجارتن الذي قدَّم محاولات من قصائد البطولات الفارسية مع ترجمة نثرية لها في المجلد الرابع (309 ـ 330). وقد قدَّم (لودفيج إديلر) الفلكي لدى الأكاديمية البروسية

للعلوم، الذي كان قد حقق وترجم وشرح سنة 1810 بدقة فائقة (أصل ومعنى أسماء الكواكب) في الجزء المتعلق بهذا الموضوع من كتاب القزويني (عجائب المخلوقات)، وقدم ملاحق وتصحيحات حول هذا الكتاب الثمين نُشرت في المجلد الثاني الصفحة (239 ـ 268) من مجلة (أماكن الاكتشافات)، كما قدم في مقال آخر في المجلد الخامس (الصفحة 299 ـ 308) عرضاً واضحاً للتقويم الإسلامي، بينما قام مستشار البعثة الساكسونية ج. د. س. بايجل في الختام بشرح موضوعي على الفقرة الخاصة بعلم التنجيم في كتاب أبي الفدا. وقد نشر الحَبْرُ (هـ. سي. هـ. فريدريك فون دبيس) (1751 ـ 1817) الذي أصبح معروفاً في المحافل الأخرى بسبب علاقته بالشاعر جوته، ثم تولى منصب سفير لبروسيا لدى الباب العالي، نشر نص (العويصي) التركي (تحذير لإسلامبول) المجلد الأول (397 ـ 399). وقد أضاف هامر على المشاركتيْن تعليقات ساخرةً أدّت إلى خصومة طويلة لا تسامح فيها مع دييزر. ومن بين الدول الأوروبية، باستثناء ألمانيا، قدمت فرنسا معظم المتعاونين.

وعلى النقيض من مستشرقي فيينا، الذين أخضعوا ترجماتهم الألمانية للقصائد الشرقية للقافية، حتى إن هامر في ترجمته لبعض سور القرآن الكريم، المجلد الثاني (الصفحات 25 ـ 41، 336 ـ 358)، والمجلد الثالث (231 ـ 261) جعل الترجمة في نثر فني، فقد اكتفى الفرنسيون بالنثر وصرفوا النظر عن تقديم النص الشعري بصيغته الأصلية. وقد نشر دي ساسي ترجمته (لبندنامه العطّار) المجلد الثاني (1 ـ 24، 211 ـ 233، 455 ـ 469)، كما ترجم قصيدة الأعشى (ودع هريرة) المجلد الرابع (الصفحات 1 ـ 16)، ثم نشر في المجلد الأول (321 ـ 348) دراسة تاريخية جغرافية وافية لطبيعة جرجستان وخوزستان، وأسهم كواترمير بثلاث دراسات علمية حول علاء الدين الجويني المجلد الأول (220 ـ 234)، والإسماعيلية المجلد الخامس (339 ـ 376)، وفضل الله رشيد الدين المجلد الرابع (265 ـ 272)، وأصدر جرانجيريت دي لاجرانج بالنص والترجمة قصيدة الصفدي المجلد الثالث

(207 ـ 211) وقصيدة في الرثاء للمتنبي، المجلد السادس (179 ـ 185)، ومقامة الحريري الرابعة والثلاثين المجلد الرابع (164 ـ 174)، بعدما عمل آخرون بإعداد المقامة الثامنة، والثانية عشرة، والتاسعة والأربعين (المجلدات الأول والثاني والرابع). وفي الختام كان من جملة المشاركة ما أسهم به خصم دي ساسي الكبير (آبل دي ريموسات) (1788 ـ 1832) الذي كان موظفاً لدى الحكومة البروسية (المجلدات: 1، 2، 3، 4) (الصفحات 428، 167، 195، 41 ـ 46). وكانت مساهمات البلدان الأجنبية الأخرى ضئيلة جداً. وأصدر المترجم الخامس (الصفحات: 38، 67، 127 ـ 153، 253 ـ 277) تقويماً تركياً دائماً (روزنامة).

وتناول (جوزيف أنطونيو كوندي) مؤرخ العرب في الأندلس، مقدمة ابن خلدون. المجلد الرابع (442 ـ 444)، وبذل السفير الروسي في نابولي، آ. ي؟ إيطالنسكي (1743 ـ 1827) الذي تعرّف على بورجشتال في إستانبول، لفك رموز مثوى ميمونة المالطي، المجلد الأول (الصفحات 393 ـ 397). وقد شارك أسقف سيلاند المولود في جوتا، فريدريك، كريستيان مونتر، في بعض الترجمات الإيطالية من الهندوستانية المجلد الثاني (الصفحات 319 ـ 335) الثالث (308 ـ 317) الرابع (71 ـ 80) (197 ـ 88)، وتُعد هذه الترجمات الوحيدة التي قدمتْ للمجلة في هذا المجال ووُضعتْ تحت تصرف ف هامر. وقد أولى هامر أهمية خاصة لمراسلاته مع الشرق، فبها كان القراء يطلعون أولاً بأول على أحدث الرحلات والاكتشافات إلى الشرق. على سبيل ذلك أن (أولريش جاسبر سيتزن) (1868 ـ 1811)، الذي تعرّف عليه هامر في إستانبول سنة 1802، وعاش في القاهرة بين سنتي 1807 ـ 1809، من حيث سلك طريقه في موسم الحج بالزي الإسلامي وتوفي بعدها في اليمن. وفي رسائله التي بعث بها إلى هامر، تناول شتى القضايا: رحلته إلى الفيوم، ومخطوطاته التي جمعها للمكتبة الأميرية في جوتا، والآثار المصرية، والخيول العربية، والبربر، وقدم محاولات لألغاز عربية، كما بعث برسوم للجزء الجنوبي من شبه جزيرة العرب ونقوشاً من سيناء:

المجلدات، 1، 2، 3، الصفحات (58، 275 ـ 282، 99، 75، 282، 474). وقد تحدث عن رجال قابلوه، منهم على سبيل المثال المؤرخ المصري الجبرتي (1754 ـ 1822)، والمترجم الفرنسي (آسيلين دي شيرفيل) (1772 ـ 1822)، الذي كان بانطباعه حول نشوء قصة ألف ليلة وليلة المتأخر، سبباً لتسجيل سبق القصب في الإشارة إلى الموضع الشهير من كتاب المسعودي (مروج الذهب) (1/ 54). وهكذا، فإن المقاطع الطويلة من رسائل (سيتزن) (1/ 43 ـ 79، 211 ـ 127، 2/ 275 ـ 284، 3/ 99 ـ 104)، قدمت للقراءة مشورةً متنوعة وآسرة. ولقد قدَّم الألماني (إدوارد روبل) (1794 ـ 1884) تقريراً حول رحلته الاستكشافية التي قام بها إلى مصر والبتراء وشبه الجزيرة العربية وأرسل صوراً لنقوش سيناء (4/ 427 ـ 433). ويرجع الفضل في التقارير الغنية التي نشرتها المجلة إلى القنصل الفرنسي العام (جوزيف روسو) (1786 ـ 1831) حول الوهابيين مثلاً (نسبة إلى محمد بن عبدالوهاب) (1/ 191 ـ 198، 2/ 155 ـ 160)، وحول تربية الخيول العربية. وكتب (رزفوسكي) حول الموضوع نفسه أيضاً (3/ 49 ـ 60، 333 ـ 345)، إضافة إلى وصف لبلاشوية حلب. (5/ 1 ـ 25، 93 ـ 99). وأرسل القائم بأعمال شركة الهند الشرقية في بغداد، كلاوديوس جيمس ريتش من جهة أخرى وصفاً لأطلال بابل (3/ 129 ـ 162، 197 ـ 200) مع خارطة وصور لقطع المكتشفات، ومن بينها صفحة عليها مكبسٌ لمطبعة بابلية وخلافه (5/ 86)، حاول قراءتها عبثاً جروتفند (6/ 331 ـ 338، 5/ 143 ـ 162) الذي أصبح معروفاً بعد حَلّه لرموز الكتاب الفارسية المسمارية القديمة. وقد ترجم ريتش إلى الإنجليزية أيضاً نصاً عربياً لقصة أهل الكهف (3/ 347 ـ 381)، وقدّم جداول مختصرة لثلاثمائة واثنين وتسعين مخطوطاً عربياً، فارسياً وتركياً قام بجمعها (3/ 328 ـ 334)، (5/ 3 ـ 136، 455 ـ 458). هذا في حين نوّه مراسلون آخرون بالظواهر الجديدة المتعلقة بالموضوع ذاته في سوق الكتب الإنجليزية (1/ 274 ـ 276)، وبخاصة حول منشورات كلية فورت ويليام في كالكوتا (1/ 195، 3/ 277ف، 5/ 178 ـ 181)، وقد علّق عليها هامر أهمية أكبر مما علّق على أي تاريخ كان غريباً بالنسبة إليه، الذي أراد أن يعترف

بالماضي فقط كشيء جدي جدير بالكشف. ولقد شملت نظرته حياة الشرق الحافلة العامرة منذ عصور الظلمة حتى عصره الحاضر. ولم يتردد في إيثار مستشرقي عصره على نفسه بالحديث. كما لم يكتف بتقديم نماذج من الشاهنشاهنامه للصبا، شاعر البلاط الفارسي (6/ 341 ـ 348، 417 ـ 402) بل أضاف إليها أشعار المناسبات كقصيد الشكوى للسلطان سليم الالث الذي خلع عن العرش سنة 1807 (2/ 268 ف)،د وقصيدة عربية في مبايعة نابليون للصباغ، وأشعار فارسية وبو طالب خان ناشر طبعة حافظ شيرازي الهندية (كالكوتا) الذي تعرف عليه في أثناء رحلته الأوروبية (3/ 40، 5/ 459). كذلك فقد حرص هامر على نشر كلمات الترحيب التي قيلت في حفل استقبال أحد سفراء إيران في فيينا، وتوزيع دبلومات التخرج للطوائف والفرق الدينية، والتوقيع على المعاهدات وقصائد المناسبات (6/ 213 ـ 220). وبقدر ما أثارت اهتمامه وثيقة ترجع إلى سنة 800/ 1397 كُتبت بخط أوجوري، فقد أثارها خط الظريف الحديث (1/ 435 ـ 437) (6/ 359 ـ 362). وإذا كان قد عمل على جمع آيات القرآن الكريم التي وجدها في الغالب منقوشة على أحجار مشطورة اسماً وصورة، فإن جمع مثل هذه (التمائم) كان تقليعة في ذلك العصر المتأنق.

ولم يأخذ من كتاب قراءةٍ حجري فارسي يرجع تاريخه إلى القرن السابع الهجري، الثالث عشر للميلاد، سوى البيانات المتعلقة بالأوصاف الخارجية المرئية وأماكن وجود الأحجار الكريمة، فيما صرف النظر عن البيانات التميمية وتعداد الصفات الميتافيزيقة، لأن أقصى ما يمكن لهذه المعلومات أن تقدمه هو المسرّةُ غير النافعة لحب استطلاع الهواة، في حين أن هذه لا تقدم أي فائدة للعلم الحقيقي، فضلاً عن أنها قد لا تجلب غير الضرر في عصرنا هذا الذي يتدخل فيه التصوف وحتى الغيبيات في العلوم الطبيعية. وبالرغم من توافر عدد كبير من المساعدين، فقد كانت مشاركات هامر الخاصة شاملة لدرجة أنها كانت تشكل ثلث المجلة مجتمعة. وإلى جانب ذلك، فإن تعاونه اتسع ليشمل مجلات أخرى، كالدورية الأدبية

النمساوية السنوية التي تأسست في سنة 1817 والأعمال الأدبية الخاصة التي جاوز عددها مئة مجلد. وكما يحدث في مثل هذه الأحوال عادة، فلم يتفق المضمون الداخلي لهذه الأعمال مع حجمها الخارجي. ولم يكن هامر لغوياً. كان ذكياً خفيف الروح، وكانت له أفكاره الخاصة التي كان طموحاً لتحقيقها بنشاط. لكنه كان يفتقر إلى المنهجية، والدقة والعناية في البحث، وفوق ذلك فقد كانت تنقصه الجرأة في النقد. وحين جرّد المعجم الفارسي (معجم ريشاردسون) من معجم مينسيك بإهمال التركية وارتكب أخطاء فادحة، وذلك بهدف استعماله من قبل موظفي شركة الهند الشرقية، تخبط وعلّق على ذلك بقوله: «إن قراءة القواميس بالنسبة للأشخاص الذين يريدون أن يتعلموا اللغة في محيطها الواسع، أمرٌ لا مهرب منه».

وهذا الأمر يكشف عن الثقة الساذجة التي عادة ما كان يستعمل بها مراجعه المشكوك في صحتها قبل التأكد منها. لكنّ العجز في تمكنه اللغوي كان لا بد أن يفتضح أمره في يوم من الأيام. وحين أصدر في سنة 1835 كتاب الزمخشري (أطواق الذهب) باللغتين الألمانية والعربية، أماط المستشرق فلايشر بعمله المضاد الذي صدر في السنة نفسها، اللثامَ عن ضعف العمل الذي أنجزه هامر. واليوم أيضاً فقد تهافت كتابه (تاريخ العرب الأدبي) الذي صدر في سبعة مجلدات، ومساهماته حول علم اللغة الفارسية. ولم يكتب الدوام نوعاً ما إلا لأعماله في مجال التاريخ العثماني واتفاقيات الدولة التي قامت على أسس أقوى. وبناءً على ما تقدم، فإن قيمة هامر بسبب تخطي الدراسات العربية لمؤلفاته في القرن التاسع عشر، تظل بلا حراك. وفي الوقت الذي أوشكت فيه الدراسات العربية في ألمانيا على الدخول في طريق مسدودة، يرجع إليه الفضل في إنعاشها بجدية وحزم.

وقد اعترف جوته وقرر في تعليقاته ومناقشاته للديوان الغربي بفخر، أن ترجمته لحافظ، هي التي حملته، من خلال النتاج الخاص، على إقامة علاقة مع الشاعر الفارسي.

وجوزيف فون هامر هو الذي أخذ بيد شاعر ألمانيا (روكرت) نحو

اللغة الفارسية. وأي حظ يناله إنسان أكبر من أن يؤثر بهذه الطريقة المثمرة في أهل زمانه. إن آلهة اللغة التي وجدت إنجاز هامر الفريد خفيفاً جداً في ميزانها السليم، لا بد أن تعترف له رغم ذلك بمنزلته الرفيعة التي تسنمها في تاريخ الفكر الألماني.

30 ـ جورج فلهلم فريتاج

نودي على جورج فيلهلم فريتاج (1788 ـ 1861)، الذي سبق لنا أن تقابلنا معه بين تلامذة دي ساسي في سنة 1819 للعمل أستاذاً للغات الشرقية في جامعة بون التي أسست قبل سنة من ذلك التاريخ، ومارس هنا مهنة التدريس التي عادت بالنفع العميم على فقه اللغة العربية. وسهر على مستلزمات الدرس بكل حصافة وموضوعية. ويعد معجمه (العربي ـ اللاتيني) (هاله 1830 ـ 1837) بمجلداته الأربعة، ومختصره الذي صدر سنة 1837 في مجلد واحد مجرد نسخة منقحة ومزيدة لكتاب جوليوس الذي قصد به الاستعاضة عنه. واستطاع برغم ما يعتريه من هنات أن يثبت وجوده حتى يومنا هذا، وذلك لعدم وجود أي مؤلف آخر يمكن أن يقدم الثروة اللفظية العربية بالقدر نفسه مع الترجمة اللاتينية كما قدمها هذا المعجم. وقدم ديوان الحماسة الذي صدّره بترجمة لاتينية مضافاً إليه شرح التبريزي (في مجلدين 1828 ـ 1847)، قدم ببياناته وإضافاته الأخرى، أول مدخل لكثير من المستشرقين إلى الشعر العربي وذلك لحين صدور كتاب نولدكه في هذا الخصوص. كذلك فإن كتاب فريتاج (الأمثال العربية) (دون 1838 ـ 1843) الذي صدر في ثلاثة مجلدات، يحتوي، إضافة إلى النص والترجمة، على مجموعة أمثال الميداني والكثير مما تجدر معرفته. وهو برغم صدور الطبعة المحسنة للنص (طبعة بولاق 1284هـ)، فإن استعماله لا زال ممكناً. وفي عرضه لفن بيت الشعر العربي (1830)، يضم صوته عن وعي إلى نظرية العروضيين المحليين، ومن لا يرغب في استعمال الكتب المحلية، سوف يجد عرضاً كاملاً لنظام عملهم الذي يؤديه بلغة أوروبية.

31 ـ هاينريش إيفالد

أما إيفالد (1803 ـ 1875) فقد كان يختلف كل الاختلاف عن سابقه، وهو واحد من باحثي مدينة جوتنجن السبعة. كان هاينريش إيفالد رجل لاهوت. وقد وجّه اهتمامه الأول لدراسة العهد القديم، وبشكل أخص لأنبياء وتاريخ إسرائيل. وقد خصصت بحوثه القديمة لوضع العهد الجديد في المواجهة الحامية مع مدرسة توبنجن. وبوصفه باحثاً في اللغات، فقد تجاوزت اهتماماته دائرة اللغات السامية. ولم تكن اللغات: الفارسية، الأرمنية، التركية، القبطية، السنسكريتية وحتى السيامية غريبة عنه. وبتأثير من و. ف. هومبولدت وبوب، فقد سعى إلى تفسير صيغ اللغة بمساعدة القوانين العامة عقلانياً عبر المنهج التركيبي، التأملي. وقد أعدَّ لعلم اللغات السامية، متسلحاً بالمعرفة الغزيرة، والذكاء، من خلال المقارنة لما يربط هذه اللغات من أواصر قربى. وقد كان كتابه (دراسة نقدية لقواعد اللغة العربية) الذي صدر في مدينة لايبزيغ سنة (1831 ـ 1833) في مجلدين، كان محاولة جادة منه لوضع تفسير منطقي جديد لصيغ اللغة مكان نظام قواعد العربية الفصحى. وفي عمله حول (علم العروض العربي)، في عمَلَيْه، الأول الذي صدر في مدينة براونشفايج تحت عنوان (حول العروض العربي) سنة 1825، وفي الملحق الذي يحمل الاسم نفسه تقريباً، (المجلد 2/ الصفحة 323 ـ 343)، وبرهن فيه على طبيعتها النوعية، منتهكاً بذلك حركة (قواعد الفصحى) الذي قام فريتاج بعرضه مجدداً. وبدءاً بمصداقية آرائه وانتهاءً بغوصه الذي لا يكاد يُحتمل، بموضوعية متشددة وجنوح إلى الخيال غير مرّة، فقد قدم إيفالد دفعاً قوياً للدراسات العربية. ولعل مما يضفي عليه أهمية خاصة، أن المستشرقين نولْدكه وفلهاوزن عادة ما قدما نفسيهما بصفتهما تلميذين لإيفالد.

32 ـ فريدريش روكرت

وفي الوقت الذي أُقحم فقه اللغة التأملي في الدراسات العربية على يد المستشرق إيفالد، فقد أُدخلت فيه الروح الرومانسية بشخصية فريدريك روكرت (1788 ـ 1866) كأشد ما يكون. فبعد الانتهاء من دراسة موسعة، حصل في (يينا) سنة 1811 على إجازة التدريس باللغات القديمة، ثم قضى بضع سنوات كاتباً حراً قبل أن يتمكن من اللغة والشعر الفارسيين في فيينا على يد جوزيف فون هامر بورجشتال بعد عودته من إيطاليا في سنة 1818.

وبتوصية من هامر، أصبح في سنة 1826 أستاذاً للغات الشرقية في جامعة إيرلانجن. واستدعي في سنة 1840 إلى جامعة برلين، وعاش منذ سنة 1838 في مزرعة له بمدينة كوبورج. إن انشغاله بآداب الشرق المختلفة، وافق في النهاية فنّها الشعري، من حيث إنه أدرك بالحدس طبيعتها من خلال غريزة لا تخطىء لرومانسي أصيل، ثم قدمها في قوافٍ ألمانية بتمكن لغوي لا يُضاهى. هذا وتُعدُّ ترجمته لديوان الحماسة الذي أصدره فريتاج وترجمته الرفيعة لمقامات الحريري بشكل خاص من صلب الأدب الألماني.

33 ـ إدوارد وليام لين

لقد تخلّف اللاهوت عن الاتصال بدراسة اللغات الشرقية في إنجلترا مدة تزيد عما هي عليه في القارة الأوروبية. وسواء كان في أوكسفورد أو في كامبردج، فإن الدراسات العربية لم تلاق خدمة تذكر حتى منتصف القرن التاسع عشر. ولقد عملت المؤسسة الشرقية للترجمة التي أُسست في سنة 1828 لا على طبع ترجمات الكتب الشرقية وحدها، بل على نصوص مثل طبعة دي ساسي لألفية ابن مالك بترجمة فرنسية في سنة 1833، والمجلدات السبعة الضخمة لفلوجل (حاجي خليفة) (1835 ـ 1858)، والجزء الأول المحقق من ديوان الهذليين لكوسيجارتن سنة 1854. لكن الإنجاز الأهم للاستشراق الإنجليزي يرجع لعالم زاول تحصيله بعيداً عن الجامعة، وكان هذا هو إدوارد وليام لين (1801 ـ 1876). سافر في خريف سنة 1825 إلى مصر وهو معتل الصحة، وانتقل باتجاه النيل الأعلى إلى أن وصل إلى المسقط المائي الثاني، وهناك تعمق في معرفة الناس والبلاد، بحيث إنه، بُعيد إقامته الثانية في القاهرة (1833 ـ 1835)، تمكن من تقديم عرض رائع لعاداتهم وتقاليدهم. وأتبع ذلك بترجمته لقصة ألف ليلة وليلة (1838 ـ 1840) وذلك وفق طبعة بولاق لسنة 1835. وبعد مقارنتها بطبعة برسلاو مع حواشٍ غزيرة وقيمة تقدم صورة كاملة عن المجتمع الإسلامي في عصر المماليك، ونشرت تحت عنوان (المجتمع العربي في العصر الوسيط) سنة 1883 بطبعة إضافية، وكان قراره الأخير هو مشروع معجم للكلمات. ولم تفُتْ لين الهناتُ التي أظهرها معجم فريتاج الذي استُكمل في سنة 1837 ولا مؤلف جوليوس القديم فكلا العملين كانا مليئين بالأخطاء. فلم يراعيا الدقة الكاملة

دائماً في إعطاء الدلالات اللفظية وفي بيانات المصادر، وكان من نتيجة جهلهما بالطبيعة الشرقية أن وجَّها القارىء المستعمل توجيهاً خاطئاً. وهكذا فقد قرر (لين) أن يجعل أفضل صناعة عربية معجمية وبأدق البيانات التي يتم التوصل إليها بما يخص المعنى قيد التداول لدى الأوروبيين بإعداد إنجليزي. ولأجل هذا الغرض فقد اختار تاج العروس للمرتضى الزبيدي، ولأجل ضبطه واستكماله فقد اختار (الصحاح وترجمته الفارسية) (القاموس)، وترجمته التركية (القاموس العربي الفارسي) لابن معروف، وتعريفات الجرجاني، وكلِّيات أبي البقاء، ومقدمة الأدب للزمخشري، هذا بالإضافة إلى عدد من كتب النحو واللغة. وقد عمل في هذا المشروع الضخم من سنة 1839 حتى سنة 1842 في بادىء الأمر في القاهرة ثم في إنجلترا. لكنه أساء تقدير سعة وصعوبة هذا العمل، وهكذا فقد التمس العون عمداً في المفردات النادرة وشائعة الاستعمال وأشار إليها في الملحق أي المفردات التي لم يتوصل إلى معرفتها. لكن العمل في المفردات المتداولة صعَّد من الجهد الفردي وتوفي (لين) قبل أن يستكمل الحرف (Q)، وبذلك ظل عمله ناقصاً. ولكن بالرغم من أنه غير كامل وأنه لم يتقدم بمنهجيته على عمليْ جوليوس وفريتاج، بالنظر لكونه صرف النظر بشكل أساس عن استدعاء الاستعمال اللغوي الفعلي كما نعرفه في المؤلفات الأدبية، برغم كل ما تقدم، فقد فاق سابقيه بمسافة من خلال دقته التي يؤسف لها، وبإعطاء معاني كل كلمة بحسب بيانات علماء اللغة المحليين. وإن هذا العمل وحده كفيل بأن يعطي (لين) لقب مستعرب كبير.

34 ـ هانيريش ليبرشت فلايشر

إنه من خلال عمل هانيريش فلايشر (1801 ـ 1888) أستاذاً للغات الشرقية منذ سنة 1835، في كلية اللاهوت أولاً، ومن ثم في كلية الفلسفة منذ عام 1840، فقد حصلت لايبزيغ على المركز الطليعي في الدراسات العربية.

درس فلايشر اللاهوت أولاً، لكنه عاد فدرس اللغات العربية والتركية والفارسية في الفترة من 1824 حتى 1828، وتلقى على يد دي ساسي هنا الدفع الحاسم اللازم من أجل العلم والبحث. وكما كان دي ساسي، فقد أعرض فلايشر عن كل ما هو تأملي ونظري، ووجَّه اهتمامه نحو الوقائع الإيجابية للاستعمال اللغوي الملموسة عقلانياً، التي أنعم فيها النظر جيداً ثم قام بوصفها. وبعقلانية وإعراض عن كل ما هو صوفي، وجد في العقل البشري المعيار الأسمى من أجل تبيان تحليل النص الشرقي. على أنه وإن كان يملك إلماماً موضوعياً شاملاً بالوقائع أيضاً، فإنه عوّل على الصيغة الظاهرية للغة، وعالج بشكل خاص شتى المعضلات النحوية، سواء للثروة اللفظية أو استعمال اللغة. وإن هذا الميل إلى التحليل الذي بدا جلياً في أول عمل له (ملاحظات نقدية حول المجلد الأول لكتاب هابشت (ألف ليلة وليلة)، فجذبته تعليقاته حول أجرومية (ترومبس)، (وحول العربية) في كتاب جايجر الذي نال به مرتبة الشرف، وفي الدوريات السنوية مقالاته (حول إعادة تركيب الجمل) لأبي المحاسن، والتصحيحات الشاملة للنصوص في (تاريخ المقريزي). ومن خلال هذه، وضع بتواضع جمّ بين يدي معاصريه

درايته الممتازة، كما أرفق مع عدد كبير من أعماله تعليقات نقدية. من ذلك (ياقوت منذ سنة 1866 وحتى 1873، وفهرست ابن النديم) (1871 ـ 1872)، الكامل لرايت، ابن الأثير (1851 ـ 1876) لتورنبرج وغيره.

وأجرى التصحيح في بعضها على القراءات، وصوّب سهو الناشرين. لكنه تناول بشكل خاص في مساهماته التي نشرت تحت عنوان (مساهمات في علم اللغة العربية) قواعد العربية لدي ساسي سنة 1831 وهي سبر نقدي جذري، كما قدَّم في موضوعاته (دراسات حول ملاحق دوزي لقواميس العربية) تصويبات كثيرة واستكمالات لهذا الكتاب. إن هذه الأعمال، مجتمعةً، تتضمن ملاحظات جوهرية مسهبة حول قواعد اللغة، واستعمالها، وتعدد مفرداتها، وإن كانت البنية الخارجية لا تسمح بتفريغ الغنى اللفظي لها، لكن فلايشر كان يفتقر إلى القدرة على التركيب. وهو وإن كان يرى مع دي ساسي في أعمال النحويين العرب الأسسَ التي تقوم عليها اللغة العربية، فقد تفهَّم تعارض نظرياتهم النحوية مع الرؤى العلمية اللغوية الحديثة، كما أدرك أفضال المستشرق إيفالد حول تحسين قواعد النحو العربي بدون أي تحفظ. لكنّ فلايشر نفسه لم يحركه تقدم اللغة العلمي العام لا سيما الإندو ـ جرماني منه كما يُستدل على ذلك من محاولات الاشتقاق في مساهماته التي كتبها حول المعجم الكلداني، والعبرية الحديثة لياكوب فيللي. وقد يكشف هذا النقاب عن أنه لم يقم بكتابة تصور شامل عن قواعد النحو العربي وإن كان يُعد أكبر مستعربي عصره بغير منازع. ولم يكن كذلك على يقين من فن طبع اللغويين القدامى. وتعد طبعته للبيضاوي (1846 ـ 1849) نموذجاً يحتذى في الدقة، وشهادة وضّاءة على تمكنه من اللغة العربية إضافة إلى الإلهيات الإسلامية، لكنها تفتقر لآلية النقد، ولا تحتوي على أي بيانات حول المخطوطات المستعملة، والأسس المتبعة لدى تركيب النص. ولقد مارس فلايشر، بوصفه أستاذاً أكاديمياً، تأثيراً لم يظفر به غير القليل من المستشرقين.

واجتذب اسمه عدداً غير قليل من المستمعين من داخل البلاد وخارجها. وبعدما تخرج على يديه كل من (جولدزيهر وفكتور روزن) توزع

المستمعون إليه على ست أمم. وكان من تلامذته الدانماركي آ. و. ف ميهرن، والنرويجي ج. ب. بروخ، والتشيكي جارمير كوجوت (1854 ـ 1880). ولا يعرف عدد تلامذته الألمان على وجه الدقة. وكان من بينهم ي. بارث، ك. ب كاسباري، ف. ي. ديتريشي، فيناند فيل، مارتين هارتمان، آ. هوبر، ج. ياهن، لودولف كريهل (1825 ـ 1901)، أو. لوث، آ. موللر، ب. بريتوريوس، إدوارد شاو، ف. ي. و. شفارسلوسه، آ. سوسين، ز. سبينت، هـ توربيكي، ي. ج. فيتزشتاين، م. وولف. وكان من تلامذة فلايشر أيضاً جورج روزن (1820 ـ 1891)، هيرمان إيثي (1844 ـ 1917)، كارل هانيريش جراف (1815 ـ 1869)، وكان لهؤلاء فضل كبير على الحركة الأدبية الأوروبية الحديثة. ثم يأتي في هذه القائمة، فريدريك بيرناور المتخصص باللغة والآداب التركية (1827 ـ 1890)، وعالم السريانيات فريدريك ديليتش (1850 ـ 1922)، وفرتيز هومل (1854 ـ 1936)، والمؤرخ إدوارد ماير (1855 ـ 1930)، وجوستاف جيرتزبرج. هذا وإن عدد اللاهوتيين الذين كانوا يواظبون على محاضرات فلايشر لم يكن قليلاً كذلك.

فمن هؤلاء مثلاً كان صهره، ف. موهلاو، وو.ف. باوديسين (1841 ـ 1910)، وألفريد راهلفس، وبرنهاردت شتادي (1848 ـ 1916). ولقد اعتمد تأثير فلايشر بوصفه مدرساً في خاتمة المطاف على سحر شخصيته الكبير، وعلى أسلوب حياته المحبب الواضح، ومشاركته الوجدانية التي تعامل بها مع تلامذته.

ولعل صورة فلايشر لن تكتمل ما لم نُشرْ إلى أن فلايشر كان عضواً في جمعية المستشرقين الألمان. هذا وإن فكرة انضمام المستشرقين الألمان في جمعية على غرار (الجمعية الآسيوية) في باريس، (والجمعية الآسيوية الملكية) في لندن، قد وجدت طريقها إلى التنفيذ في خريف سنة 1845 بمشاركة فلايشر الحاسمة، ولقد وجدت موهبته التنظيمية فيها مجالاً خصباً للعمل. ولعل تأثيره الأشد كان على وسائل الإعلام الاجتماعية. ومن بينها، فضلاً عن مجلتهم ونشراتهم العلمية المخصصة للزبائن الأوروبيين، نشير إلى المطبوعات التي كانوا يصدرونها على نفقتهم الخاصة التي كان من ضمنها

الكثير في مجال الدراسات العربية، (كالمكتبة العربية) للعمري، (وتاريخ مدينة مكة) لفوستنفلد وياقوت، و(الكامل) لرايت، و(ابن يعيش) لجاهن.

وخلف شخصية فلايشر، يختفي مستعربو القرن التاسع عشر الألمان باستثناء المؤلف النشيط الذي سبقت الإشارة إليه. أما مآثر تلميذ جيستينيوس، إميل روديجر (1801 ـ 1874) الذي قام بتدريس اللغات الشرقية في (هاله) وفي برلين منذ سنة 1860، فقد كانت في مجال اللغة العبرية. وقد أعدّ زميله في (هاله) فريدريك أرنولد (المتوفى سنة 1869)، أعدَّ الطبعة المتداولة جداً للمعلقات السبع (1850)، ومختارات (1853). وقدّم تيودور هاربروكر المتوفى سنة (880) الذي درس في مدينة (هاله) أولاً ثم برلين، قدم ترجمة ضعيفة لكنها لم تُعوض بعدُ لكتاب الشهرستاني (الفرق الدينية والمدارس الفلسفية) (1850 ـ 1851). وحقق فريدريك ديتريشي (1821 ـ 1903) وهو تلميذ لروديجر، حقق المتنبي مع الواحدي ؛1858 ـ 1861)، وابن مالك مع ابن عقيل بالعربية سنة (1851)، وإلهيات أرسطو مع الترجمة (1883)، وإخوان الصفا (1883 ـ 1886)، وكتاب الفارابي (مناظرات فلسفية) (1890 ـ 1892)، والمدينة الفاضلة (1895). وحاول عرض فلسفة العرب في القرن الميلادي العاشر من واقع إخوان الصفا وذلك في ثمانية مجلدات، ووصف تطورها، بالنظر إلى أنه رأى في مرحلتها الأولى الممثلة بإخوان الصفا من حيث الجوهر أفلاطونية حديثة، وأراد ردّها إلى الأرسطوطاليسية في عصر متأخر. وكان (يوحنا جلدمايستر) (1812 ـ 1890) تلميذ فريتاج وخليفته في بون، كان أحد المتأخرين الذين قاموا بتعليم اللغات السنسكريتية والسامية، وأثبت مقدرته في كلا التخصصين في رسالة دراسية له حول المخطوطات العربية (3838). وكان ماكسيميليان إنجر (المولود سنة 1823) أيضاً تلميذاً لفريتاج، وقد قدم في سنة 1853 طبعة مبتورة من كتاب الماوردي (الأحكام السلطانية). ومثّل ماركوس جوزيف مولر (1809 ـ 1874) الدراسات الشرقية في ميونيخ. وإليه يرجع الفضل في فهرس المخطوطات العربية في ميونيخ.

35 ـ بدايات التاريخ في الدراسات العربية

من بين تيارات القرن التاسع عشر الفكرية، لم تحظ واحدة بتأثير أشد على الدراسات العربية كما حظيت به الدراسات التاريخية. لكن الأمر تطلب زمناً طويلاً قبل أن يتمكن من فرض نفسه في مواجهة الاتجاهات الأخرى. ولقد وقف الخيال وما يثيره من عواطف جياشة تلائم الرومانسية حجر عثرة في طريق مناهج البحث التي بذلت جهداً فائقاً لوضع الوقائع التاريخية من خلال النقد المتروي للمصادر في حقيقتها الفريدة، وفهم تلك الوقائع فهماً صحياً كحلقات في سلسلة التطور. وكان أبراهام جايجر (1810 ـ 1874) أحد رواد هذا الاتجاه. فقد ترعرع في المذهب اليهودي المتطرف، وتلقى ثقافة تلمودية قبل أن يواصل دراسته في هايدلبرج وبون حيث أخذ فريتاج بيده لدراسة اللغة العربية. وقد شهد تحرير اليهود الألمان، وتحصل من خلال الرؤية المباشرة لعملية التحول العميقة هذه تفهماً حديثاً لطبيعة المجريات التاريخية. وبوصفه رائداً لحركة إصلاح اليهودية الألمانية، فقد ابتكر، بعد معرفة الروابط التاريخية، لاهوتاً يهودياً أسند إليه مهمة تدريس وتصوير فكرة اليهودية التي تم اكتشافها كأصل من قبله. وفي مؤلفه الرئيس (النص الأصلي وترجمات التوراة في ارتباطها بالتطور الداخلي لليهودية) (1857، الطبعة الثانية مع مقدمة كتبها باول كاهله، فرانكفورت 1928)، قدم عرضاً غنياً بالأفكار الحديثة حول تاريخ النص التوراتي في القرن الثامن وإلى خاتمة التلمود. في هذا السياق فقط اكتسب عمله الشهير الذي نال به الجائزة مكانته. وكان هذا حافزاً لأحسن عمل عرضته كلية الفلسفة في جامعة بون حول المصادر اليهودية في القرآن، ونشر باللغة الألمانية في سنة 1833 تحت عنوان (ماذا اقتبس محمد من اليهودية؟).

وبخبرة واسعة بالمخطوطات اليهودية، وبالتتلمذ اللغوي، وبذكاء وروح ناقدة، ناقش جايجر في النص الرئيس من هذا الكتاب كل ما في القرآن، وما اعتقد أنه مأخوذ من التوراة: ألفاظ، تصورات في العقيدة، تعاليم دينية، ولكن وبشكل خاصٍ القصص التوراتي. وعلى مدى قرن كامل، طبع هذا الكتاب الاحتكاكات القائمة بين القرآن واليهودية بتأثيره الحاسم. ولعل ميزته الرئيسة الأولى تكمن في أنه لم يستعمل للمقارنة في هذا الكتاب سوى المصادر العبرية التي يرجع تاريخها إلى ما قبل ظهور البعثة النبوية، وكان هذا أساساً منهجياً مهماً، لم يُعره أحدٌ اهتماماً فيما بعد.

ومثل جايجر، فقد تلقى جوستاف فايل (1808 ـ 1889) أيضاً ثقافة تلمودية قبل أن يلتحق بجامعة هايدلبرج لدراسة التاريخ. وقد تتلمذ فايل بالعربية على يد رجل اللاهوت، ف. ى. و. ك. أُمباريت (1795 ـ 1860)، ومن بعده في باريس. آ. بيرون. ثم قضى خمس سنوات في الجزائر والقاهرة وإستانبول قبل أن يحصل على إجازة التدريس في هايدلبرج سنة 1836. ومن خلال النقد الذي وجهه إلى بورجشتال في ترجمته لكتاب الزمخشري (أطواق الذهب) (1836)، أثقل عبء تقدمه، بحيث أصبح أستاذاً غير أصيل (سنة 1848)، وأستاذاً أصيلاً (سنة 1861) بعد عمل طويل في خدمة المكتبة. كما أن عمله الكبير الأول، بترجمته قصة (ألف ليلة وليلة إلى الألمانية) التي لم تُنشر إلا في سنة 1842 بمدينة شتوتغارت، والتي شهدت عدة طبعات بعدها وأوشكتْ أن تزاحمها ترجمة (هابشت)، طبعته تلك لم تكن في مستوى الآمال التي علقها عليها. ففي الوقت الذي أراد فيه أن يقدم ترجمة موثوقة لغوياً، عهد الناشر إلى الكاتب (أوجست ليوالد) بإعادة النظر وغربلة المخطوط، وهو تقليد كان لا يتمشى مع القيم الأخلاقية السائدة في ذلك الزمن. ومن بعدها طرق فايل ميدان التاريخ الإسلامي. ولأول مرّة استخدم فايل معلومات القرآن، منهجاً في كتابته التاريخ، كما يبدو ذلك جلياً من كتابه (حياة محمد)، كما استدل في كتابه (المدخل التاريخي النقدي للقرآن) (1844) (الطبعة الثانية 1870)، استدل بأوائل السور المكية في

مجموعات ثلاث، وهو شيء معمول به الآن أيضاً. وعن ذلك تمخض تاريخه (تاريخ الخلفاء) في ثلاثة مجلدات (1846 ـ 1851) والمكمل له (تاريخ الخلافة العباسية في مصر) (1860 ـ 1862)، وكانت تلك محاولته الأولى التي لم يعقبها منذ ذلك التاريخ بمحاولة أخرى لعرض التاريخ الإسلامي بين عامي (632 ـ 1517) مستنداً على التعامل المستقل مع المصادر العربية، وفي الوقت الذي لم يحلّ أي عمل محلّ (تاريخ الخلافة) في طبيعته حتى يومنا هذا، فإن كتابه (سيرة محمد) سرعان ما تجاوزه الزمن. وإلى مجهودات آ. شبرنجر يرجع الفضل في تأمين مصادر إسلامية، أقدم، وأفضل، وأغزر عن التاريخ المبكر من تلك التي كانت تحت تصرف فايل.

36 ـ ألويس شبرنجر

قرر ألويس شبرنجر (1813 ـ 1893) منذ صباه أن يَهَبَ نفسه للدراسات الآسيوية، وأن يؤدي زيارة إلى الشرق، ويسهم في نشر الحضارة الأوروبية. وبالمقابل أن يعود بمعرفة حقّة عن الشرق وآدابه إلى أوروبا. وقد نجح في تنفيذ هذه الخطة لما كان يتحلى به من شجاعة وإقبال ولباقة وموضوعية. ففي سنة 1840 نجده في لايدن لدراسة المخطوطات العربية. وهناك حصل أيضاً على درجة الدكتوراه في الطب. وفي سنة 1842 ذهب إلى الهند. ولكونه مديراً للمدرسة في نيودلهي أتيح له الاطلاع على طبيعة الثقافة الإسلامية وتخصصاتها من واقع انطباعاته الخاصة. وسرعان ما انهمك في دراسة الوثائق الإسلامية التي وُضعت تحت تصرفه في فن الطباعة الحجرية، والمطبوعات بغزارة. وكان من دواعي الارتياح لعمله أن انضم السير هنري م. إليوت (1808 ـ 1857) إلى الحكومة الهندية في ذلك الوقت، وكان إليوت رجلاً شديد الاهتمام بتاريخ الإسلام في الهند، وناقش في سنة 1847 مع شبرنجر في الهند خطة جعل أهم المصادر حول تاريخ الهند تحت السيادة الإسلامية بالطباعة الحجرية. ولم تجد خطته المبيتة طريقها إلى التنفيذ لأن رؤساء شركة الهند الشرقية في لندن لم يوفروا الوسائل اللازمة. إلا أن شبرنجر طبع بمساعدة أحد العلماء المحليين (العطبي اليميني) في دلهي سنة 1847. وقضى بين عامي (1848 ـ 1849) أحد عشر شهراً في لوكناو لفهرسة مجموعة المخطوطات الخاصة بآخر ملك (لاوده). وفي سنة 1850 أصبح رئيساً لجامعة كالكوتا. وحيث إنه شغل منصب سكرتير الشركة الآسيوية في البنغال منذ عام 1848، فقد اكتسب نفوذاً على مكتبة إنديكا التي

نشأت في سنة 1848. وبالتعاون مع عدد من العلماء المحليين، حقق فهرس كتب الشيعة للإمام الطوسي، وبعده (الاتقان في علوم القرآن) للسيوطي. وبالتعاون مع وليام ناساوليز (1825 ـ 1889) أشرف على طباعة (قاموس المصطلحات الفنية المستعملة في علوم المسلمين)، وهو (الجامع) المستقى في القرن 18 من المراجع الحسنة والأكثر استعمالاً من قبل الخريجين المسلمين. وكملحق له كرر شبرنجر في عام 1854 مختصر المنطق لنجم الدين الكاتبي الذي كان يرغبه الناس وطبع مراراً مع ترجمة إنجليزية. فلو أنه استطاع استعمال نسختين من المخطوطات الأصلية للقاموس السابق الذكر، فقد وضع تحت تصرفه وتصرف معاونيه مخطوطان كاملان ولكن مليئان بالأخطاء، وإضافة لذلك، لكل من الربع الأول والربع الرابع نسخة أفضل. لكنه لم يفرغ من إصدار طبعة عن ذلك (المجلد الأول 1856، وتبعه المجلدان الثاني والثالث في سنة 1893)، وجعل هذا الكتاب المهم متداولاً. وبالتعاون مع علماء محليين آخرين، قدم و. ن. ليز على سبيل المثال القرآن الكريم مع كشاف الزمخشري (1856 ـ 1862)، لكن استحقاقه الرئيس يأتي من نشر الكتب الفارسية حول التاريخ الهندي العربي. وبالرغم مما اعترى هذه الأعمال من هنات لغوية هي من مستلزمات العمل الجماهيري للدراسة العربية، إلا أنها استطاعت شق طريقها. وبسبب إقبال هـ. هـ. ولسون، فقد أوصى رؤساء شركة الهند الشرقية (1856) بعدم قبول أي كتاب في المكتبة الهندية مستقبلاً ما لم يكن يدور حول الهند. وقد اضطر شبرنجر في عام 1854 بسبب تدهور حالته الصحية لأن يأخذ إجازة طويلة استعملها في رحلات إلى الشرق الأوسط. وزار كلاً من مصر، وسورية، وما بين الرافدين، والعراق، وجزر كِشْم ومسقط. وكما فعل في الهند فقد بحث هنا أيضاً عن الكتب النادرة. واشترى المخطوطات أو صوَّر نسخاً عنها، كما توصل إلى إمكانية الحصول على الكتب حتى من الأماكن المقدسة عن طريق السماسرة. وحين عاد في نهاية (1856) إلى أوروبا نهائياً، أحضر معه حوالى (2000) رزمة من بينها (1140) مخطوطاً عربياً عمل بها لفائدة مكتبة برلين في سنة (1858).

ولقد حقق شبرنجر نجاحاً متميزاً في جميع المصادر الخاصة بالتاريخ الإسلامي المبكر. فكان في حوزته سيرة ابن هشام مع تعليق السهيلي. واكتشف وجود المجلد الأول من كتاب الطبقات لابن سعد في مكتبة خاصة بكاونبور، ووجود بقية المجلدات في دمشق. وقد حث آ. ف. كريمر على السماح بإصدار كتاب (الواقدي) من قبل المكتبة الهندية. وكان في عهدته أجزاء من تاريخ الطبري. وقد عرف (موطأ) مالك، وكُتُبَ الحديث الستة، ومشكاة المصابيح، وسير أصحاب رسول ﷺ لابن عبدالبر، ابن الأثير، وابن حَجَر، وعدداً كبيراً من تفاسير القرآن. وبهذه المصادر الغنية شرع بكتابة سيرة نبوية جديدة في الهند، لكنه لم يصل في كتابه إلا إلى الهجرة النبوية. وقد ناقش في مقالات عِدّة نشرت في مجلة الجمعية الآسيوية البنغالية مضمون السنّة، وعرض في سياق ذلك إلى الحديث عن قوة المصادر المحلية. وفي سنة 1861 صدر له كتاب (حياة محمد) باللغة الألمانية.

وقد استهدف شبرنجر من وراء عمله الرئيس هذا، الذي اتخذ فيه من ابن خلدون مرجعاً له، إثبات النواميس العامة التي أسهمت في نشوء الإسلام وذلك من خلال تأمل تاريخي فلسفي. ورفض التأملات المثالية كما وضعها هيرديس كما رفض تعظيم رومانسية القرن الوسيط ومثالياته الدينية، وشريعة الأبطال التي تحدث فيها توماس كارليل 1841 عن محمد ﷺ في كتابه. غير أن شبرنجر وجد في الإسلام خلقاً من روح العصر، ولذلك فقد عمل على الحط من شأن دور محمد، الذي لم يكن يعرف في حقيقة الأمر غير القليل عن طبيعة دينه، ما وسعه ذلك حتى غدا ﷺ في نظره مجرد رسم ساخر. وبرغم ذلك فإن كتاب شبرنجر، من فيض ما احتوى عليه من مراجع جديدة ومنهجية عقلانية وناقدة في التناول قامت على رؤية معرفية خاصة به، أثرث بعمق في معرفة الشرق ونمط حياته كما سيطرت على صورة الإسلام في الأوساط الألمانية المثقفة على مدى نصف قرن. هنا قُدم الإسلام على أنه معضلة تاريخية عالمية. وهنا أيضاً استدلّ القارىء على التأثير العميق الذي

مارسته الحضارة الإسلامية على القرن الوسيط وفلسفته ولاهوته وعلومه وطرز معيشته (هذا برغم ما كانت تتمتع به مثالية العصر القديم من حظوة غير نادرة في أوساط المجتمعات الشرقية).

وإنه في الوقت الذي تنبأ فيه بعض المطلعين الأوروبيين بنهاية عاجلة للإسلام في حينه، أمل شبرنجر من وراء لقاء الشرق مع أوروبا تحولاً لفائدة الدين الإسلامي على النحو الذي أدخلته مدرسة توبنجن في اللاهوت المسيحي. إن مثل هذه التأملات كانت بعيدةً عن الشرح اللغوي (القواعدي) الذي كان يحتل موقعاً متقدماً من الدراسات العربية في المعاهد الألمانية. وإن شبرنجر، الذي قليلاً ما عُني بالشرح الدقيق المفصل لنصوصه وكثيراً ما ارتكب أخطاء فاحشة، ووجه أغلب اهتمامه إلى مضامين النصوص، أوجد معادلاً مقابل الصياغة الزائدة للغة العربية. كذلك، فإن أعمال شبرنجر أيقظت اهتماماً مماثلاً في الطليعيين صوب الجغرافيا التاريخية للشرق الأدنى وبخاصة منها كتاباه (الجغرافيا القديمة لشبه الجزيرة العربية) (1875) و(وبريد ومسالك الرحلات) (1864).

37 ـ وليام موير

قبل كتاب (محمد) بوقت قصير لمؤلفه شبرنجر، ظهر في إنجلترا كتاب منهجي لا يختلف من حيث مضمونه عن الكتاب السابق ألا وهو كتاب: (حياة محمد وتاريخ الإسلام) في لندن 1856 ـ 1861) في أربعة مجلدات لمؤلفه وليام موير (1819 ـ 1906) الذي تقلد في الحكومة الهندية مناصب رفيعة لأكثر من مرة وكان على رأس عمله في (أجرا) منذ سنة 1847. وقد كان على علم بالمستشرق شبرنجر وبأعماله، لكنه كان من عقلية مختلفة بشكل جوهري. وكان مقتنعاً بحكم منبته في المسيحية الأرثوذكسية بأن الرسول ﷺ خرَّ صريع غوايات الشيطان كما كان بعيداً كل البعد عن تثمين الحضارة الإسلامية وأهميتها بالنسبة لأوروبا. وواظب على الحضور لدى البعثة التبشيرية في (أجرا) التي كانت تابعة (لشارل جوتليب بفاندر) الذي عرف بنشاطه المتميز وذلك منذ سنة 1848، وقام بنفسه بكتابة نبذة أراد من ورائها البرهنة على أن المسلمين يؤمنون بارتباطهم بالكتاب المقدس وذلك من خلال القرآن.

وبإيحاء من المستشرق بفاندر خطرت فكرة تجميع سيرة للرسول من المصادر التي قام شبرنجر بجمعها وأصبحت معروفة. وقد أمل بفاندر من هذه الدراسة التي ترجمت إلى اللغة الأوردية في توظيف مناهجه في الدعوة إلى المسيحية. لكن موير تعمق، بما عرف عن الأسكتلدنيين من دقة في المراجع، ونشر في مجلة كالكوتا 1863 ـ 1864 سلسلة من المقالات عالج فيها بدراية وشمولية تاريخ الجزيرة وتجارتها في عصر الجاهلية، ومصادر

السيرة وحياة محمد حتى الهجرة النبوية آخر المطاف. هذا في الوقت الذي لم يهمل فيه التصدي لعقيدة محمد استناداً على القرآن على أساس من وجهة النظر المسيحية. وأفرزت هذه الدراسة العمل الذي سبقت الإشارة إليه هنا المتضمن مدخلاً واسعاً حول المصادر وجزيرة العرب قبل الإسلام (المجلد الأول). وقد لوحظ من طبيعة المواد المناقشة أن موير كان في نصه شديد التعلق بشبرنجر من حيث الجوهر، في حين أنه نأى بنفسه تماماً عنه في العرض وقدم أحكاماً أكثر حصافة وموضوعية وصحة من سلفه العقلاني. ويُعد كتابه حول (تاريخ الخلفاء) الذي تدور أحداثه حتى سقوط الدولة الأموية، والذي صدر في سنة 1853، يُعد استكمالاً لسيرة محمد. وفي الطبعة الثانية التي صدرت تحت عنوان (الخلافة، ظهورها انحطاطها، وسقوطها) (لندن 1891)، اختصر موير محتوى الأحداث التاريخية، لكنه استمر في عرضه حتى نهاية الخلافة العباسية في مصر سنة 1520. وقد استقى مصادره من الطبري وابن الأثير في إطار العودة الدائمة إلى (تاريخ الخلفاء) لمؤلفه (فايل) (1846 ـ 1862). وقد قدم المجلدان الأخيران للمستشرق فايل المادة المرجعية لكتابه(المماليك أو أسرة الرقيق الحاكمة في مصر 1260هـ الموافق 1557 للميلاد) الذي اختتم فيه سلسلة تصوراته للتاريخ الإسلامي.

وهذه الأعمال مجتمعةً تشكل نقيضاً لمؤلفات شبرنجر وفايل (محمد وتاريخ الخلفاء). وقد شهد في العالم الأنجلو ساكسوني انتشاراً واسعاً بحكم غناه في الوثائق واتزانه الموضوعي وموقفه الملتزم مسيحياً.

38 ـ راينهارت. ب. دوزي

في هولندا، شهدت الدراسات العربية التي انحط مستواها إثر الاضطرابات الناشئة عن الثورة الفرنسية، شهدت بعد سقوط نابليون واسترداد الحرية انعطافاً جديداً. وكان كلٌ من هندريك آنت هاماكر (1789 ـ 1835) الذي كان يشغل منصب الأستاذية في مدينة لايدن منذ سنة 1817، وتلميذه المتوفى وخلفه هندريك إنجيلين فاييرز (1805 ـ 1844) قد أرسيا دراسة العربية على أساس قواعدي رصين. وفي مدرستهما تخرج تيودور فيللم جان جوينبول (1802 ـ 1861) الذي أصبح خليفة لفاييرز وأصدر (المعجم الجغرافي)[1]، والأجزاء الثلاثة الأولى من تاريخ مصر لأبي المحاسن (12855 ـ 1861) بالتعاون مع ب. ف. ماثيس. وفضلاً عن ذلك فقد نال الاستحقاق على عمله حول السامريين من خلال النسخة العربية (تاريخ السامريين) وذلك في سنة 1848. على أنه انضم بإيحاء من بفايرز راينهارت دوزي (1820 ـ 1883) للدراسات العربية وتاريخ آداب العرب في الأندلس ففي هذا المجال من الدراسة سادت في ذلك الوقت روح الرومانسية الحالمة التي ظهرت من خلال الأعمال (العصور العربية القديمة في إسبانيا) لآيرن ميرفي (1832)، (ومغامرات شاتوبريان) (1826)، وكتاب واشنطن إيرفنغ (الحمراء) لسنة 1832. ولكن صورة التاريخ العربي في إسبانيا توضحت من خلال الترجمات الألمانية والفرنسية المتوافرة في (تاريخ العرب في الأندلس) (1820) التي لم

(1) اقتصر معجمه المذكور على المادة الجغرافية لياقوت ابتداء من سنة 1852 حتى 1864.

يكن واضعها خوسيه أنطونيو كوندي (1766 ـ 1820) يلِمُّ إلماماً أساسياً باللغة والمتطلبات الموضوعية فضلاً عن النقد التاريخي اللازم.

وهكذا فقد وجد دوزي الفرصة سانحة لبحث تاريخي نقدي. وبتتلمذه في قواعد اللغة وموهبته فيها، وإلمامة لا بأس بها بالإسبانية وآدابها، فضلاً عن فطنته واجتهاده، فقد جمع بين ميزات اللغويين والباحثين في التاريخ. وتُعد سلسلة الطبعات الطويلة خير شاهد على موهبته اللغوية: كشرح ابن بدرون لبكائية ابن عبدون على زوال حكم الأفتاسيديين (1846)، المجلدات الثلاثة من المخطوط العربي للعباديين (1846 ـ 1863)، المعجم لعبد الواحد المراكشي (1847، الطبعة الثانية 1881)، كتاب البيان المُغرب لابن الحضري (في مجلدين 1848 ـ 1851)، هوامش حول المخطوطات العربية (1847 ـ 1851)، (تقويم قرطبة) (1873). وبالاشتراك مع تلميذه دي جويه قام بنشر الجزء الخاص من كتاب روجر للإدريسي عن إفريقيا وإسبانيا مترجماً ومعجماً (1866)، واشترك في نشر المخطوط العربي الشامل عن العرب في إسبانيا، الجزء الأول من نفح الطيب للمقريزي، مع جوستاف دوجات، لودولف كريهل، ووليام رايت. وقد أورد فلايشر عدداً كبيراً من الاقتراحات للتصحيح أُخذ بالبعض منها في الإصدار، في حين أن القسم المتبقي من دوزي ومعاونيه نشر من قبل فلايشر في تقارير جلسات الجمعية السكسونية للعلوم بين عامي (1868 ـ 1869). وقد دفع ذلك دوزي لعمل مضاد قلّب فيها تصحيحات فلايشر ناقداً. وقد برهن على مهارته في النقد التاريخي بصفة خاصة في كتابه بالفرنسية (حول التاريخ السياسي والأدبي لإسبانيا في العصر الوسيط) (1849، الطبعة الثالثة سنة 1881)، وخاض فيه حواراً ناقداً وهجومياً على من سبقه، وتفحص سلسلة من المعضلات بتحليل مصادرها كما في عرضه الوجيز لتاريخ إسبانيا منذ سنة 711 حتى 1110. وبهذه الأعمال أقيم الكشف عن الأندلس على أسس موثوقة، وكوفىء دوزي بأن اعترف بفضله في إسبانيا أيضاً. ولم يستطع، بسبب تقيده الشديد بأفكاره عصره، من تقدير فضل سابقيه، وكان لا بد له بجانب ذلك من تحميل منهج النقد التاريخي

الكثير، فخرج منه بالنتيجة القائلة: إن الدراسات الإسبانية التاريخية الحديثة، لا بدّ أن تأخذ على عاتقها في بعض وجهات النظر، التصحيح كما في طبيعته (سيد)[1] أو انتشار اللهجات الرومانسية.»

إن الجمع بين الملكتين التاريخية واللغوية اللتين تميز بهما دوزي يظهر أشد ما يكون في صناعته المعجمية. ولعل معجمه (المعجم المفصل) الذي نال به مرتبة الشرف والذي صدر في سنة (1845) يكشف عن اطلاع واسع لا في الأحرف المطبعية والمخطوطات وحدها، بل في أدب الرحلات الأوروبي إلى المشرق أيضاً، فضلاً عن تفهم للمفردات والموضوعات وحكم سليم في المسائل اللغوية. وهكذا، وعلى سبيل المثال، فإن صيغ الكلمة المدرجة للنصوص المتأخرة مقابل الاستعمال القديم، لم تُصحح بحسب قواعد اللغة. وتتضمن المقدمة تمهيداً مرشداً لنظرية صنع المعاجم. فكان إعداد قاموس عربي يتتبع تاريخ كل مفردة على حدة وتأييدها بشواهد من الأدب، والفصل بين الاستعمال الشعري والنثري، ووجوب تدوين كلّ المصطلحات حولها، كان على ما يبدو أحد أهدافه البعيدة في موقف الدراسات العربية. وقد ارتأى أن تعطى الأولوية للمعاجم على النصوص المختلفة كما كانت مألوفة من ذي قبل، ومن ثمّ المعاجم المتخصصة كما في عمله الذي خُصص لأسماء الملبوسات، وبالدرجة الثالثة معاجم إضافية تتولى عرض الذخيرة اللفظية لضرب لغوي واحد أو حقبة لغوية. ونزولاً عند هذه المتطلبات فقد قام دوزي بإرفاق كتبه بمعاجم على الدوام. ويُعد عمله المُسمى (ملحق قاموس العربية 1881 ـ الطبعة الثانية غير المنقحة 1927) العمل الرئيس له، الذي دون فيه كل المفردات، والمعاني الناقصة لدى (لين وفريتاج)، التي قابلته خلال مدة أربع سنوات متواصلة من الجمع. إن الأسس التي قام عليها هذا المعجم الذي يُعد من الوسائل التي لا غنى للمستعربين عن التسلح بها

(1) سيد (215)، راجعنا معجم الأعلام والمفردات الدخلية على اللغة فلم نجد شيئاً تحت هذا الترتيب الأبجدي.

منذ الحين، هي عبارة عن ثلاثة معاجم إسبانية: (المعجم اللاتيني العربي، المعجم العربي، ومعجم پيدرو دي ألكالا) التي اقتبس دوزي معظم ثروتها اللفظية منها.

وقدم دوزي مقابلها حشداً من معاجم اللغة العربية الحديثة التي استمر في ثروتها اللفظية الكثير من الغنى اللغوي. واستقى من أوصاف مصادر الرحالة الأوروبيين كذلك الكثير من الشروح. لكن مصادره الأساسية تكونت من نصوص عربية قروسطية كثيرة ولا سيما التي ترجع إلى الحقبة الأندلسية بشكل خاص. ولعل الفضل يعود في بعض العمل إلى مشاركة د. رايت، وسيمونيت، وآماري ودوجرتي.

وكان دوزي نفسه على بينةٍ من نقصان عمله، فهو يحتوي على مستندات من كل الحقب اللغوية وأنواع الأدب ابتداء من الشعر العربي القديم حتى اللهجات المعاصرة. وبرغم ذلك فإن عمله يُعد متقدماً على عصره. وفي الوقت الذي استند فيه معجم فريتاج ولين، وغيره مثل معجم آ. كازيميير سكي دي بيرشتاين 1860 كلُه على منجزات المعاجم المحلية، أصبحت كل صيغة ومعنى مدونةٍ هنا موثقة من النصب اللغوية التذكارية الموثقة التي انتهت إلينا. وحيث إن الثروة اللفظية القديمة المنقولة عن كل من فريتاج ولين ظلتْ غير مكترث بها بشكل عام، فإن العصر ما بعد القديم قفز إلى المقدمة، بحيث وجدت المنطقة المغربية بشكل خاص من يعيرها الاهتمام. لكنه في الوقت الذي تأكد فيه الاستعمال اللغوي ودُوِّن بالفعل، تم التغلب نهائياً على مشكلة الفصاحة العربية وأصبحت الطريق ممهدة أمام الرؤى اللغوية التاريخية.

39 ـ ميخائيل أماري

إن ما أنجزه دوزي لفائدة الحقبة العربية من تاريخ الأندلس، قام به ميخائيل أماري (1806 ـ 1889) لصالح تاريخ صقلية تحت السيادة العربية. لكنه في الوقت الذي انصرف فيه دوزي إلى دراسة الأدب العربي الأندلسي بدافع علمي محض، فجّر اهتمام أماري بتاريخ وطنه وطنيةً متأججة.

كان أماري ابناً لأحد الصقليين الذين حكم عليهم بالسجن مدى الحياة بسبب مشاركتهم في الثورة عام 1820. وقد صودر تصوره المفعم بصلاة المساء الصقليانية فتفادى القبض عليه بالفرار إلى باريس. هنا أثارت كتابات ابن خلدون حول إفريقية وصقلية تحت السيادة العربية، التي قام بإصدارها آ. نويل (1805 ـ 1867) مترجمةً إلى الفرنسية وبالتعليق عليها، أثارتْ في نفس أماري الرغبة في قراءة المصادر العربية الخاصة بوطنه في نصها الأصلي. وتعلّم العربية على يَديْ (رانيود دي سلان) وشرع في جمع كل ما يتعلق بتاريخ وجغرافية صقلية وشعرائها وكتابها وعلمائها من الكتب العربية المطبوعة والمخطوطات. وقد تمخض عن ذلك صدور (المكتبة العربية الصقلية) مطبوعاً على نفقة جمعية المستشرقين الألمان بمدينة لايبزيغ في سنة 1857، وهو الكتاب الذي تطوع فيه فلايشر بإجراء تصحيحات كثيرة على النص. ولكن سرعان ما صدر في سنة 1854 المجلد الأول من كتاب (تاريخ المسلمين في إسبانيا) الذي يُعد متقدماً على عصره، واستغرق استكمال الكتاب وقتاً استمر حتى سنة 1872. ولأنه مؤرخ بارع انصرف إلى تاريخ صقلية ابتداءً من العصر البيزنطي ووصولاً إلى عصر شتاوفن، وبالجغرافيا إلى

جانب المخطوطات والنقود الأثرية، إلى أن بدأ بجمع المخطوطات والنقود العربية في الجزيرة تحت اسم (المسكوكات العربية في صقلية) في ثلاثة مجلدات.

واستعادته ثورة 1848 مجدداً إلى باليرمو حيث تولى فيها أولاً منصب وزير المال، ثم أوفد إلى باريس ولندن في مهمة خاصة إلى أن وضع انتصار (التجديد) نهاية لنفيه في سنة 1859. وفي سنة 1860 عُهد إليه بمنصب الأستاذية للغة العربية وآدابها التي شغلها حتى سنة 1873. ويُعد شيلستينوك شياباريللي (1841 ـ 1919) أحد تلامذته الذي أصدر بالتعاون معه ترجمة الجزء الخاص بإيطاليا من كتاب روجر ـ الإدريسي في نصه الأصلي بالإيطالية وذلك في سنة 1878. وبدوره فقد أصدر شياباريللي في سنة 1871 قاموس العربية الذي اكتشفه أماري في فلورنسا، وقدم في سنة 1897 طبعة ممتازة لديوان ابن حمديس وترجمة إيطالية لرحلة ابن جبير في سنة 1906.

من جانب آخر فقد كان هناك عالمان آخران يقرّ لهما بالفضل في اكتشاف صقلية، ولم يكونا على صلة مع أماري بأية حال من الأحوال: الأول هو سالفاتورى كيوسا (1822 ـ 1893) الذي كان أستاذاً للعربية في باليرمو. ولم يجاوز عمله الرئيس الذي نشر تحت عنوان: (الأكاديميون اليونان والعرب في صقلية نصّاً وترجمة) المجلدين اللذين صدرا في سنتي (1868 و1882)، ولا يفتقر بحكم ذلك إلى الترجمة والشرح المعلن عنهما فقط، بل إلى آلية النقد التي لزم أن تبرر افتراضاته غير المميزة في النصوص. أما الآخر فكان بارتولوميد لاجومينا (المولود سنة 850 والمتوفى سنة 1931 كأسقف لأجرتجنت) وهو تلميذ لكيوسا، وقد برز بارتولوميو في مجال النقوش والعملات.

40 ـ ألفريد فون كريمر

عندما كان نولدكه في مدينة فيينا بين عامي 1856 ـ 1857، بدا له أن النمسا أصبحت خالية من المستشرقين بعد موت جوزيف هامر بورجشتال.

والواقع أن الاستشراق لم يلق في فيينا إلا عناية محدودة ولمجرد العلاقات مع الباب العالي بشكل رئيس من قبل الأكاديمية الشرقية بسبب الحاجة الملحة، كما أن (دليل العربية الحديثة لسنة 1861 والطبعة الثانية لسنة 1886) ومعجم الجيب للمفردات العربية الحديثة والألمانية (1874 ـ 1877) والطبعة الثالثة لسنة 1798 لمؤلفه أدولف فاهر مود (1827 ـ 1913)، الذي عمل أميناً للمكتبة الملكية منذ سنة 1853، ورئيساً للأكاديمية الشرقية منذ سنة 1885، كانا كافيين لتلبية الاحتياجات المطلوبة في الميدان العلمي. ومع ذلك فقد كان للنمسا في سنة 1856 رجل يشغل منصب مترجم أول في قنصليتها العامة في الإسكندرية، عُدَّت أعماله في ما بعد متقدمة على عصرها بشهادة المستشرق الألماني تيودور نولدكه[1]. وكان فون كريمر قد ارتحل في ربيع عام 1849، وبمساعدة أكاديمية فيينا للعلوم في إستانبول التي أُسست في سنة 1846، ارتحل إلى سوريا في زي شرقي حيث أقام ثلاثة أشهر في مدينة حلب ثم قضى بعدها زهاء السنة في دمشق، وتعرَّف طبيعة البلاد وأهلها طولاً وعرضاً، أثبت ذلك في كتابه (سورية الوسطى ودمشق) الذي صدر في سنة 1853 كشاهد عليه. وبعد عودته إلى فيينا، قام بتدريس العامية العربية

---

(1) مجلة .W.Z.V.M، العدد 8، الصفحة 98.

في المعهد العالي للتقنية، لكنه انقطع بسبب نقله إلى الإسكندرية في سنة 1852 حيث قضى فيها سبع سنوات. وفي سنة 1870 أصبح قنصلاً عاماً في بيروت وفي سنة 1876 عضواً في لجنة الديون الحكومية المصرية. وبعد عودته من الشرق تولى منصب وزير التجارة وكان ذلك في سنة 1880، لكنه ما لبث أن تخلى عن هذا المنصب.

وفي أثناء رحلاته إلى الشرق، جمع فون كريمر عدداً كبيراً من المخطوطات، قسمٌ منها لمكتبة فيينا العامة وقسم آخر لنفسه. وهكذا فقد اكتشف في دمشق سنة 1851 مخطوطاً احتوى على الثلث الأول من كتاب مغازي الواقدي، وقام بتحقيقه في مكتبة إنديكا سنة 1856. ولم يكن معنياً بالأعمال اللغوية الصغيرة، فقد انصرف اهتمامه لكتابة عمل يتناول تاريخ الإسلام الحضاري، يسمح بدوره بفلسفة تاريخية مستقبلية من خلال مقارنة الإسلام بغيره من الحضارات، بهدف معرفة القوانين الراسمة لمسار التاريخ. وبوحي من ابن خلدون الذي عالج فلسفته للتاريخ سنة 1879 في دراسة متعمقة وكان ذلك تحت عنوان: (ابن خلدون وكتابه تاريخ الدولة الإسلامية الحضاري) من ص (581 ـ 640) معتمداً على الأصل العربي وليس على ترجمة سلان غير الدقيقة. ينظر فون كريمر إلى الدولة على أنها ظاهرة اجتماعية يخضع نشوؤها وتطورها واضمحلالها لقوانين خاصة، ترتبط ارتباطاً وثيقاً لا ينفصم مع سائر الصيغ الحضارية الظاهرة. وفوق أرضية من الفلسفة المثالية، يكتشف فون كريمر القوى الدافعة التي تقرر طبيعة الدولة انطلاقاً من الأفراد، في الأفكار التي تظهر في تأثيراتها في السياسة والدستور، والإدارة والتشريع كما في الدين حضارةً ومعتقداً. إن الحياة الروحية يُرمز لها من خلال التصادم الدائم بين الأفكار المتصارعة الطموحة، وبفتور همتها (الأفكار) تنحط الحضارة وتتردى في العلاقات الدينية والاجتماعية التي توقعها فون كريمر في الإسلام المعاصر. إن المسار الفكري هذا يبيّن لنا أن فون كريمر كتب أولاً (تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام، مفهوم الألوهية، والنبوة، وفكرة الدولة في سنة 1868) قبل أن يُقدم في مؤلفه (تاريخ الشرق

الحضاري في ظل الخلفاء) (المجلد 2/ 1875 ـ 1877) على إعطاء عرض حول إسلام العصر الوسيط وإنجازاته الروحية والمادية، معبرٍ وغني بالآراء والملاحظات. وعلى جانب آخر نلاحظ تنوعاً غير عادي في المحتوى، من سياسة ونظريات في الدولة، وفي الإدارة والتشريعات الضريبية، والدين الإسلامي والإلهيات فيه ومدارس الحقوق، وتحديد لملامح تطور تاريخ الأدب العربي بروح مرحة، كما يجري التعريف بالشعر العربي في نطاق ممثليه الكبار بإحساس غامر، وإبراز أهمية ما بنى العرب من علوم على تراث القدماء. إن غزارة هذه الموضوعات لا تسبب أي ضيق للقارى، لأنها تلتقي تحت مظلة تأمل تاريخي فلسفي واحد. ويُعد عمله حول: (ميزان دخل الدولة العباسية منذ سنة 406هـ)، الذي يعالج فيه بموضوعية الوثائق المستفادة من هلال الشابي، يعد واحداً من أعماله المتأخرة بالغة الأثر.

41 ـ مجموعات المخطوطات العربية

إن التقدم الذي حققته الدراسات العربية في القرن الماضي، لم يتمّ بسبب السيل العارم من المصادر الجديدة التي كثيراً ما غمرته. فالنفوذ المتزايد على مصر في سنة 1798، وعدد الأوروبيين الكبير، الذين عاشوا مدة طويلة في الشرق ممثلين لدولهم أو كانوا في خدمة الحكومات الشرقية، أو تعرفوه وهم مسافرون، أسهموا في توسيع دائرة المعرفة بالشرق. وكان من الأهمية بمكان للمستعربين أن ازداد عدد المخطوطات العربية في مكتبات أوروبا الكبرى بشكل كبير. هذا ولو قُدر لمكتبة باريس أن تحصل حتى سنة 1800 على بضع مئات فقط من موجودات مكتبات الأديرة المصادرة أثناء الثورة ومن سلائب الحملة الفرنسية على مصر، إضافة لما يسمى (الموجودات المتسلسلة)، لازداد رصيدها من المخطوطات ذات الغالبية العربية حتى سنة 1835 بحوالى 1500 خلفها وراءه القنصل الفرنسي العام في مصر أسيلين دي شيرفيل، وسجلت الفهرسة التي تعود إلى سلان حتى نهاية القرن، رقماً لا يقل عن 4665.

ولم يكن ما يملكه المتحف البريطاني حوالي سنة 1800 على 250 مخطوطاً عربياً. وبواسطة 163 صفحة من مكتبة كلوديوس جيمس ريتش (1787 ـ 1821) وقد استكمل الحصول عليها، وكان ممثلاً لشركة الهند الشرقية في بغداد زمناً طويلاً، ارتفع عددها إلى حوالى 390. وفي سنة 1837 أسندت الفهرسة لأحد رجال اللاهوت الذي يرجع الفضل إليه وليام كيورتون (1808 ـ 1864) الذي أتم التفويض المناط به خلال مدة استغرقت 15 سنة.

أما في ألمانيا فقد كان الإعجاب الذي أزكته الرومانسية لصالح الدراسات العربية أيضاً في أوروبا كبيراً. ونخص بالذكر هنا الملك فريدريك فلهلم الرابع ملك بروسيا الذي كان شديد الولع بالرومانسية حيث دعا إلى الدراسات الشرقية. وهكذا فقد وجه الدعوة مع بداية حكمه إلى الشاعر الألماني فريدريك روكرت للتدريس في جامعة برلين.

وفي سنة 1842 حثّه كريستيان فون بونس (1791 ـ 1860) وكان موضع ثقته ويقيم في لندن على شراء مجموعة المخطوطات السنسكريتية الثمينة التي كان جمعها في الهند السير روبرت شامبر المتوفى سنة 1803. وبناء على تكليفه فقد نظم عالم الآثار المصرية ريتشارد ليبسيوس (1842 ـ 1846) حملة على مصر، وكانت محصلات تلك الحملة النصب التذكارية المجلوبة من مصر التي عُرضت منذ عام 1859. وقد نشطت الدراسات العربية بصفة أخص من خلال شراء مجموعات المخطوطات الثمينة، من ذلك مكتبة شبرنجر 1857 التي سبق الإشارة إليها، بحيث إن مكتبة برلين بزّت كل المكتبات الألمانية الأخرى في هذا المجال على نحو كبير. وقد أوفد هاينريش بيتر ـ مان (1801 1876) في سنة 1852 خصيصاً لشراء مخطوطات شرقية، ولم يقم فقط بجلب مجموعتين هامتين، بل عاد بتقارير قيمة حول فئات دينية مختلفة كالسامرية، والمارونية، واليزيدية، وغيرها من الفئات الدينية. وكان المدعو جوهان جوتفريد فيتر شتاين (1815 ـ 1905) أكثر نجاحاً. وقد درس اللاهوت والاستشراق وتخصص في علم العربية، وشغل في الفترة ما بين (1848 ـ 1862) منصب قنصل في دمشق، ثم أعدَّ هناك بدراسة واسعة أربع مجموعات من المخطوطات، أُرسلت منها مجموعتان إلى برلين والثالثة إلى لايبزيغ، أما الرابعة فكانت من نصيب مكتبة توبنجن. وكان فيتشتاين خبيراً ممتازاً بكل من سورية وفلسطين. غير أن مقالاته لم تُقابل بالاهتمام الواجب وذلك بسبب ظهورها في أماكن متفرقة في معظم الأحيان.

42 ـ فلهلم آهلفارت

مع تعاظم أعداد المخطوطات العربية في برلين، سرعان ما اشتدت الرغبة في فهرستها، وقد عُهد إلى فلهلم آهلفارت (1828 ـ 1909) للقيام بهذا العمل في سنة 1863. وكان يوجد قديماً سلسلة من الفهارس أدرجت فيها في قليل أو كثير مخطوطات عربية بأوصاف كاملة. غير أن آهلفارت أراد بهذه الفهرسة الإعداد لتاريخ أدبي مستقبلي، لا يأخذ على عاتقه رسم صورة حياتية جامعة مضيئة عن كل شخصية كاتبة فقط، بل عرض مسار التطور الداخلي لكل نوع أدبي في سياق التغيرات السياسية والاجتماعية أيضاً كتعبير عن الأفكار المحركة للعصر. ولهذا السبب فقد قدم حول كل موضوع مألوف في الفهرسات وصفاً عن كل مخطوط، ومن كل عمل بياناً دقيقاً عن المحتوى. وضحى لهذا العمل بعشرين سنة من زهرة شبابه. ولكن ما إن انتهى العمل من طبع المجلدات العشرة للعمل في سنة 1899، حتى خرج بعمل ذي قيمة خالدة لتاريخ الآداب العربية بفضل غزارته وأمانة محتواه. أما هو نفسه فلم تكفه فكرة التشجيع على أهمية العرب ودراسة أدبهم، إذا أمل أيضاً، من وراء هذا العمل، إعطاء دفع للاشتغال بالشعر العربي. فكما فعل في شبابه آنفاً: (حول الشعر والشعراء العرب) حيث أصدر مرثيات أبي نواس في سنة (1861) والدواوين الستة في سنة (1870)، فقد عاد بعد (فخري) لسنة 1860، (ومرادفات التاريخ العربي) (1883)، عاد في شيخوخته إلى الشعر مجدداً، إذ حقق مجموعات (قدامى الشعراء العرب) (ثلاثة أجزاء 1902 ـ 1903)، وختم أعماله في سنة 1904 بترجمة لديوان رؤية بغير وزن، وقد عبر فيه، بوصفه آخر رومانسي في الدراسات العربية، عن أمله ورغبته بأن يتعرف الشعراء انطلاقاً من تخصصهم فن زملائهم العرب وأسلوبهم.

43 ـ شارل ريو

بين جملة الفهارس التي وُصفت فيها مخطوطات فيينا العربية في ذات الوقت[1]، لم يستطع أحد إضافة المزيد لأعمال اهلضارت. واستثنى من ذلك المتحف الإنجليزي الذي كان تحت مظلته منذ سنة 1847 شارل يو (1802 ـ 1902)، وهو العالم الذي تُعد فهارسه للمخطوطات العربية والفارسية والتركية نموذجاً حقيقياً في الدقة. وكان ريو قد تتلمذ في بون على يد فريتاج، لاسن، وجلد مايستر (1812 ـ 1891) وقد عمل أولاً على تأمين الرزمة الثالثة من فهرسة المخطوطات العربية التي شرع فيها كيورتون في سنة 1871، ووصف المخطوطات العربية البالغة 247 التي جمعها روبرت تيلور ممثل شركة الهند الشرقية في بغداد بين عام 1828، 1843. وخلال العشريتين التاليتين أخذ عدد المخطوطات العربية في الازدياد، ولم يكن عددها يزيد على 2000 في سنة 1880، وأُضيفت إليها في سنة 1886 المجموعة المشار إليها أعلاه التابعة (لأفريد فون كريمر)، وفي سنة 1889 المجموعة الثالثة لجلاسر، وفي سنتي 1891 و1893 مخطوطات لينز. ومن هذه، مجتمعة، أي 1300، قدم ريو عام 1894 في مؤلفه: (الملحق لفهرسة المخطوطات العربية في المتحف البريطاني)، قدم وصفاً دقيقاً أورد فيه بعد تحريات أمنية حول

(1) مخطوطات جوستاف فلوجل، مضافاً إليها المخطوطات الفارسية والتركية، 3 مجلدات (1865 ـ 1867) ميونيخ، ومخطوطات (جوزيف أومر، 1866) خوتا، ومخطوطات (فلهلم بيرتش في 5 مجلدات 1878 ـ 1892)، ومخطوطات مكتب الهند في لندن (لأوتولوث 1877) ومكتبة باريس (لسلان 1887 ـ 1893).

المؤلفين، أسمائهم وفترات حياتهم، بالإضافة إلى عناوين مؤلفاتهم، أورد مشاركات قيمة حول تاريخ الأدب العربي. وكان استدعاؤه إلى كامبردج خلفاً للمستشرق و. روبرتسون سميث في سنة 1894، بمنزلة اعتراف بفضل إنجازاته.

44 ـ فيرديناند فوستنفلد

ونتيجة للزيادة الشديدة التي شهدتها المخطوطات العربية في المكتبات الأوروبية الكبيرة خلال القرن الماضي، وُجدت أيضاً ممارسة نشطة للطباعة سرعان ما جعلت الأعمال العربية ذات المحتوى المختلف متداولة بشكل عام.

ومن بين الذين استحقوا التقدير جزاء اهتمامهم بالدراسات العربية، كان فرديناند فوستنفلد (1808 ـ 1899)، وهو أحد تلامذة اللغوي الألماني إيفالد ممن احتل منزلة مشرفة. ومكتبة الاستشراق تدين لجهده في نشر عدد كبير من المطبوعات بالغة الأهمية لمؤرخين وجغرافيين عرب:

لابن خلكان (1835 ـ 1850)، وابن هشام (1858 ـ 1860) تآريخ مدينة مكة (1857 ـ 1861)، لابن قتيبة مرجع التاريخ (1850)، والمرجع في الأنساب والأصول (1854)، ومعجم السير للنوري (1843 ـ 1847)، ومعجم البلدان لياقوت (1848 ـ 1873) والبكري (1876 ـ 1877)، ووصف العالم القزويني (1848 ـ 1849).

وتقديراً منه لاحتياجات القارىء، فقد زود فوستنفلد معظم طبعاته بالبيانات المفيدة، وهكذا فإن فهرسته حول ياقوت لم تسجل 12,000 شخصية فقط، بل يقدم لكثير منهم إرشادات جغرافية أخرى. وهذا وتُعد مؤلفاته: (جداول أنساب القبائل والأسر العربية) لسنة 1852 إلى جانب الفهرسة لسنة 1853، وجداوله المقارنة للتقاويم الإسلامية والمسيحية (1854)، تُعد من وسائل البحث التي لا يستغني عنها مستعرب حتى يومنا هذا.

كما أن (ترجماته من العربية إلى اللاتينية) (1877) و(المؤرخون العرب ومؤلفاتهم) (1882 ـ 1883)، (والشافعي) (1890) وأعمال أخرى عُدت من الأعمال الأكثر تداولاً بغير منازع لوقت طويل.

وإنجازات فوستنفلد الهائلة تدعو للدهشة أكثر، حيث نعلم أنه إلى جانب واجباته الوظيفية كان يدير المكتبة العامة التي كانت تستبقيه حتى الساعة الثالثة أو الرابعة من بعد الظهر في أثناء الفصول الدراسية. لكنه كان نشيطاً وعملياً إلى درجة تدعو للإعجاب. ولم يكن يتمتع بنظرة أكيدة لما هو ضروري فقط بل لما هو قابل للتحقيق أيضاً. ولقد توصل إلى أن قيمة إصداراته ترتبط ارتباطاً وثيقاً بجودة ما كان تحت تصرفه من مخطوطات.

فإذا بدا له فساد كبير في خلال السطور التي لا أهمية لها كما في ياقوت (على سبيل المثال)، لم يصبه الرعب ذلك بأية حال من الأحوال، وإن التعصب المبدئي وحده يمكن أن يحمله على كيل الاتهام نتيجة له. وحيث إن اختياره للطبع وقع على مثل تلك الأعمال التي كان معترفاً بها بشكل عام وخضعت لكثير من المراجعات، فإن النص المنتزع من المخطوطات التي كان يستعملها هو، قدم غير مرّة معضلات تاريخية، كما أن الأسلوب الذي اتبعه كما في ابن قتيبة، القزويني أو ياقوت، لم يطابق الأسس التي استعملها دي جويه في الدراسات العربية. وإن النقد الذي لم يُشنه، تقبله برحابة صدر، واستأنف طريقه، بأسلوبه نفسه، لخدمة العلم بفاعلية وبطريقة غير ملفتة للنظر ولا مقصودة.

45 ـ الدراسات العربية في روسيا منذ سنة 1850 حتى 1880

بتأسيس كلية اللغات الشرقية في جامعة سانت بطرسبرج سنة 1855، بدأ عهد جديد بالنسبة للدارسات العربية الروسية. وقد عهد بها إلى دانييل[1] شفولسون (1819 ـ 1911) وكان مكلفاً بالقيام بمهام اللغة والأدب العبريين. ويرجع أصله إلى ليتوانيا، وتلقى ثقافة تلمودية قبل أن يذهب إلى برسلاو في سنة 1841 حيث اتخذ منه أبراهام جايجر قدوة له. وقد تعلم اللاتينية واليونانية ودرس بين سنتي 1844 ـ 1848 في الجامعة على يد رجل اللاهوت فرانس موفر الذي اشتهر ببحوثه حول الفينيقيين. وقد شد الانتباه بوساطة عمله (دليل غير الحائرين إلى سبأ)، وجمع بنشاط كبير كل ما انتهى إليه من أخبار لكتاب عرب حول سبأ حران، وقدم عنهم شرحاً بنظر ثاقب، وحصل بهذا العمل على اللقب العلمي لدى فلايشر في سنة 1850 الذي صرح بدوره قائلاً: «إنه لم يسبق أن قدمت له أطروحة أكثر علماً منها». وبرغم ذلك فإن شفولسون يفتقر إلى النقد. وقد بدا ذلك أكثر وضوحاً حين تصور أنه اكتشف في كتاب النبات لابن وحشيّة بقايا لأدب بابلي في ترجمات عربية (1859)، ثم قدم بالاعتماد عليها الإله الهوميري تموز كبشر مؤلّه. أما أن كتابات ابن وحشية تنطوي على تزوير، فقد أثبتها رينان فيما بعد ومن قبل آ.ف. جوتشميت بصورة مستقلة، وبعد ذلك أكّدها نولدكه (مجلة جمعية

---

(1) كان اسمه في الأساس دافيد شفولسوهن. ولم يحل أي عمل آخر محل عمله الغني بالمصادر: (سابير والسابيرية)، المجلد الثاني، (1856).

المستشرقين الألمان 29، 445 ـ 455). وفي سنة 1869 أصدر شفولسون المقاطع الخاصة بأوروبا الشرقية من كتب ابن روسته الجغرافي بترجمة وتعليق. وكان من تلامذته دافيد. ف. جونزبورج (1857 ـ 1910) الذي أصدر في سنة 1896 ديوان ابن قزمان في نسخته الأصلية، وباول كوكوفكوف (1861 ـ 1942) الذي عدّت أعماله بصفة خاصة من الأدب اليهودي العربي.

ومثّل العربية في الكلية الشرقية المصري محمد عياد الطنطاوي (1810 ـ 1861) في بادىء الأمر. وقدم الأخير كتاب (المدخل إلى اللغة العربية العامية) وهو عبارة عن مجموعة من الحوارات العربية باللهجة العامية. ودرّس الفارسية ميرزا الإسكندر كاظم بك (1803 ـ 1870) ومن بين مخطوطاته الغزيرة مخطوط (كشاف كامل للقرآن الكريم) (1859)، وفيه رُتبتْ الكلمات بحسب التسلسل الأبجدي وليس بحسب أصل الكلمة. كذلك فقد برهن على عدم صحة سورة (النورين) الشيعية التي ورد ذكرها في مذاهب الدابستاني، وعنها أخذ جارسين دي تاسي (مجلة ي.آ.، المجلد الأول 431 ف ف).

ويُعد فلاديمير جيرجاس (1835 ـ 1887) أحد أقدم تلامذة كلية الدراسات الشرقية، قضى عدة سنوات في الشرق بعد أن تخرج في باريس وأنهى دراسته على يد ريناود وكوسان دي بيرسيفال. إن أهم إنجاز له هو إصداره (للأخبار الطوال) للدينوري، مستنداً في ذلك على مخطوطة من مكتبة لايدن ومكتبة لينينجراد. وقد ظهرت في سنة 1888 ناقصة ولا تحتوي إلا على النص مع التعديلات في قاع كل صفحة. والمدخل إليه، ومن ثمَّ قراءات مخطوط آخر من مكتبة لايدن ما لبث أن أصبح فيما بعد معروفاً، وتصحيحات وستة فهارس ساقها ي. ج. كراتشكوفسكي في سنة 1912.

46 ـ الرحالة الأوروبيون

إحدى أكبر المعوقات التي عانت منها الدراسات العربية والإسلامية بقدر سواء، هي الجهل بالبلدان وسكانها نتيجة انطواء (عزلة) شبه الجزيرة العربية على نفسها. وفي ضوء هذه الظروف الاستثنائية، فإن أخبار الرحالة الأوروبيين إلى البلدان العربية اكتست أهمية خاصة. وقد قام الجغرافي كارل ريتر في كتابه الجغرافي (المجلد 17 لسنة 1846 حتى سنة 1847) بجمع المصادر الأكثر قدماً. وبرز من بينهم الرحالة المستكشف ريتشارد بيرتون (1821 ـ 1890)، فخلال السنوات 1876، 1878، 1879 زار مدين[1]. وقد عادت معرفته بالشرق الإسلامي ابتداءً من الهند وحتى غرب إفريقيا، عادت بالفائدة على حواشيه التي أرفق بها ترجمته لكتاب ألف ليلة وليلة. وفي سنة 1860 نجح الرحالة هاينريش فون مالزان في الدخول إلى مكة. وفي الفترة الواقعة بين عامي 1870 ـ 1871، قدم المعلومات الدقيقة الأولى حول (المهري)[2]. وكان الاعتراف الأهم الذي استحق في الختام جزاءً عملُهُ القيم بنشره لكتاب (رحلة في حضرموت) من مخلفات أدولف. ف. ريدينز (1807 ـ 1865)، بوصفه أول من توغل في أعماق هذا البلد في سنة 1843. أما الشخص الثاني الذي قام بزيارة مكة فكان الإنجليزي ي. ف. كياني[3]. وجاء بعده الهولندي سنوك هورجرونيه 1885 الذي تفوق على من سبقه

---

(1) كتابه (بلاد مدين، المجلد الثاني لسنة 1879).

(2) نشر في مجلة جمعية المستشرقين الألمان، المجلد 25، (196 ـ 214).

(3) J.F. Keane; Six months in mecca, 1881.

بموضوعيته ومعرفته اللغوية بدرجة كبيرة. وإنه وإنْ لم يطلع على أحداث الحج، فقد قدم في كتابه (مكة) (مجلدين، وأطلس 1888 ـ 1889) وصفاً صادقاً للمدينة وتاريخها.

غير أن أحداً لم يقدم للدراسات العربية فائدة أكبر من بين الرحلات الاستشكافية كما قدمها شارلز م. دوتي (1843 ـ 1926) خلال السنوات (1876 ـ 1878)، وقد قام أولاً بزيارة مدائن صالح (الحجر). ثم رافق شخصية حاكم البدو في تنقلهم، ورأى تيماء، وذهب إلى حائل من حيث قام برحلة قصيرة إلى خيبر، ومن ثم من حائل إلى بريدة وغيرها في ريف القصيم خلافاً لإرادته، من حيث تمكن للذهاب إلى الحجاز أخيراً في ركب قافلة مكية. وبنشاط وشجاعة، وتخصص بعلم طبقات الأرض، ومشاهدة ثاقبة، يضاف إليها ثقافة عامة شاملة، قدم روتي في كتابه (رحلات في الصحراء العربية) مشاهداته بدقة متناهية. وقدم معلومات حول طبيعة البلاد وبنيتها الجيولوجية، حول صحاريها وحرارتها البركانية، حول المناخ والحيوان والنبات وكذلك حول السكان. وتعرض في الوصف للبدو بشكل كامل، العلاقات القبلية، وطراز المعيشة ونظرتهم إلى الحياة. واعتمد في ذلك اعتماداً كلياً على ملاحظاته ولم يقتبس أي ملاحظات من الأخبار التي قدمها والسن، وبالجرافيس، وجوانانيس، الذين قاموا بزيارة حائل وتيماء قبله. على أنه تلقى المشورة على أيدي خبراء متخصصين مثل، شبرنجر روبرتسون سميث، ورايت، ف لاسينيو، باجر وشاد. وقد عبر في مقدمة المجلد الأول عن انطباعات مختلف العلماء عن اكتشافات (الحِجر). وكان رينان قد قدم ترجمة المنقوش، في ما أسهم ميليكور دي فوج[1] في المنحوتات والتماثيل. وكان لمساعدة دي جوييه أثرها الطيب عليه حيث عمل على تقديم المفردات العربية في النص المنقول سماعياً في الفهرس

(1) شارلز جان ميليكور دي فوجو (1829 ـ 1916)، كان له فضل كبير في تاريخ الفن في سوريا.

المحيط والمعجم (11، 543 ـ 690) مصححةً بكتابة صوتية وفي حالات الاضطرار بمقابلها القديم. وسرعان ما أدرك المهتمون الأهمية البالغة لإنجاز دوتي، حتى إن المستشرق فلهاوزن المعروف بكونه ناقداً يصعب استرضاؤه، أوضح في رأي له نشر في مجلة جمعية المستشرقين الألمان، بأنه نادراً ما قرأ كتاباً تعلم منه أكثر، وذكر سلفاً بأنه لن يصبح قديماً أبداً. كما أن ت. ي. لورانس أعرب عن إعجابه به غاية الإعجاب. ومن الرحالة المتأخرين إلى شبه الجزيرة يمكن اعتبار آ. ميوسيل متعاطفاً بفهمه للبدو مع دوتي. والخلاصة إن كتب (الرحلات في البلدان العربية) القديمة تحتل منزلة عالية كل الأوقات في الأدب الجغرافي.

47 ـ الدراسات العربية في شمال أوروبا ابتداءً من عام 1850 حتى 1900

لم تخرج الدراسات العربية في السويد عن إطار خدمة (اللغة المقدس) منذ وجدت. وقد عادت العلاقات السياسية والاقتصادية مع الامبراطورية العثمانية بالنفع على الدراسات التركية. لكن يوهان تورنبرج (1807 ـ 1877) الذي كان في عداد تلامذة دي ساسي وقام بتدريس اللغات الشرقية في (لوند)، يمكن وصفه بأنه كان مستعرباً، وكتابُ ابن الأثير (851 ـ 1876)، في 14 مجلداً وملاحق، يُعد العمل الرئيس له. وكان للنروج في الوقت نفسه تقريباً مستعربها، كارل باول كاسباري (1814 ـ 1892) الذي اعتنق المسيحية في سنة 1838، وعمل منذ سنة 1847 محاضراً في جامعة كريستيأنيا ثم أصبح أستاذاً للاهوت بعد عشر سنوات من ذلك التاريخ. وكان مجال تخصصه الرئيس في تفسير العهد القديم (التوراة) وبصفة خاصة تاريخ الكنيسة، لكن تتلمذه على يد المستشرق فلايشر جعله متمكناً من العربية. وقد احتفظ مؤلفه في قواعد العربية الذي نشر باللاتينية أولاً والذي تراوح بين مدخل ابتدائي وهيكل تعليمي شامل، احتفظ بالتوازن، وتوسط بفطنة بين أنظمة دي ساسي وإيفالد. وقد لقي هذا العمل نجاحاً منقطع النظير وأعيد طبعه أربع مرات باللغة الألمانية كما ترجم إلى اللغة الفرنسية. ولعل الشيء الأهم من هذا أن المستشرق رايت قد أعد من طبعته الثانية المنقحة ترجمة بالإنجليزية.

كذلك الحال فقد كان (أوجست فريناند ميهرن 1822 ـ 1907) أحد تلامذة فلايشر، وقد عمل منذ سنة 1854 أستاذاً للغات السامية في جامعة

كوبنهاجن. وكما يظهر من كتابه الذي اتخذ له عنواناً من رسائل ناصيف اليازجي التي يدور موضوعها حول مقامات الحريري لسنة 1848، فقد انصرف بادىء الأمر لدراسة الشعر والنظم. وكان قد تغلب على الفكرة الرومانسية القائلة بوجود شعر بشري عام موغل في القدم، وخلُص إلى أن الحكم على الشعر العربي لا يقاس بالمعايير الجمالية في أوروبا بل بالقوالب النقدية التي ابتكرها نقاد الفن المحليون. وقد أورد في كتابه (بلاغة العرب) الذي صدر في سنة 1853، أورد خطوطاً عريضة موجزة يمكن الاعتماد عليها حول علمي الفصاحة والبلاغة، والدلالات، وقدم مختارات وافية من كتاب (تلخيص المفتاح) لخطيب دمشق وكتاب البلاغة في الشعر (عقود الجمان) لخطيب دمشق وملاحظات عليها، وملحقٍ أدبي تاريخي. وبالإضافة إلى هذا العمل الرئيس الذي لم يعوض حتى يومنا هذا برغم قدم مصادره المعروفة، فقد أصدر ميهرن كتاب الدمشقي (في وصف البلدان) بنصه العربي الأصلي عام 1866 وبترجمة ألمانية عام 1864. ومن ثم فقد تحول إلى دراسة الفلسفة الإسلامية. وكان آخر أكبر عمل صدر له هو نشر وشرح بعض المسائل في التصوف لابن سينا (المجلد الرابع لسنة 1889 ـ 1899).

48 ـ الدراسات العربية في فرنسا منذ عام 1840 حتى العام 1870

آرنست رينان (1833 ـ 1892) أول من مثّل الاتجاه النقدي التاريخي من بين كل المستشرقين الفرنسيين. وتحت تأثير مؤلفات مدرسة توبنجن، أقلع عن خطته في أن يصبح رجل دين وانبرى لدراسة الشرق وتاريخ الكنيسة.

وقد وضع في مدخل رسالته الشهيرة (ابن رشد وفلسفته) (1855) وضع النقد التاريخي. وفي الانتصار على أسلوب التأمل العقائدي من خلال المنهج النقدي تكشفت له سمة عصره. وبذلك حلّتْ الصيرورة والحركة والنسبية محلّ الكائن والجامد والمطلق. ولم تعُدْ الفلسفة، والحقوق، والسياسة هي الشيء موضوع البحث من حيث المبدأ وإنما تطورها. إن مهمة تاريخ الفلسفة تتمثل في رسم تطور صورة العقل البشري، وإن تاريخ العقل البشري هو أكبر حقيقة ينبغي الكشف عنها. وفي العام 1853 صدر عمله الأشد إثارة (التاريخ العام وقواعد مقارنة اللغات السامية) (الطبعة الثالثة سنة 1863)، الذي حقق بأسلوبه السَّلِسِ وطرافته نجاحاً باهراً، وإنْ اعتمد في أغلب الأحيان نتائج تستند على تعميمات من التأملات المختلفة التي لا يُركن إليها. وهكذا فقد منح الساميين استعداداً متميزاً للتوحيد، وانساق، على عادة الكثير من معاصريه بسبب الأحوال السائدة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت، خلف الاعتقاد بأن الإسلام لا مستقبل له.

ورأس في سنة 1860 البعثة الفينيقية التي قامت الأكاديمية الفرنسية

بإرسالها. وكان في سنة 1867 وراء قرارها بإصدار (النقوش السامية) في (الجامع الكبير للكتابات السامية)، وكذلك لجمع مصادر جديدة وإيفاد جوزيف هاليفي (1827 ـ 1917) إلى جنوب شبه جزيرة العرب. أما رينان نفسه فقد التفت في هذه الأثناء إلى دراسة المسيحية ونشوئها وتولى في ما بعد منصب الأستاذية لتدريس اللغة العبرية في الكلية الفرنسية. وقد كلفه كتابه (حياة المسيح) (1863) وظيفته إلى أن أعادته الجمهورية لعمله في عام 1871 وعرضت عليه فرصة للعمل السياسي الثقافي من أوسع أبوابه. لكنه لم يعد للدراسات العربية التي باشرها في صباه بعد ذلك أبداً.

على جانب آخر فلم يُوجد من بين المستعربين الفرنسيين في ذلك الوقت أي عالم على شاكلة رينان. وسواء المستشرق كواترمير أو راينود، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، فقد كان اهتمامها منصباً على تاريخ الشرق وجغرافيته في المقام الأول، كما أنه كان من نتائج اهتمامات فرنسا الاقتصادية والسياسية في الشرق الإسلامي أن احتفظت طلائع البحث بمركز الثقل. وبصفته واحداً من الذين تتلمذوا في الشرق لغوياً بين عام (1795 ـ 1871) فقد درّس العامية العربية في كلية اللغات الشرقية، قبل أن يتقلد أرماند بيير كوسان دي بيير سيفال (1814 ـ 1821) مهام والده في تدريس العربية الفصحى في الكلية الفرنسية عام 1833.

أما عمله الرئيس فكان: Essai sur L'histoire des Arabes avant L'islamisme, pendant l'époque de Mahomet, et jusqu'à la réduction de toutes les tribus sous la loi musulmane[1].

وصدر في ثلاثة مجلدات لسنة 1847 وقد قدّم فيه تاريخ العصر الجاهلي العربي استناداً إلى روايات ابن هشام في كتاب الأغاني حرفياً تقريباً وبدون أي نقد تاريخي. ونتيجة لغنى مصادره فقد فرض هذا العرض نفسه لوقت طويل وأعيد طبعه سنة 1902 دون أن يشهد أي تغيير.

(1)عيس في تاريخ العرب قبل الإسلام وبعده في عهد محمد.

وكان خلفه شارل ديفريمري (1822 ـ 1883) تلميذاً (لرينود)، واهتم كسلفه بالتاريخ والجغرافيا الإسلاميين بشكل رئيس. وصحبة تلميذ آخر لريناود وهو بنيامين ـ رفائيل ـ إنجويتيتي (1811 ـ 1883) أنجز من رحلة ابن بطوطة نصاً مترجماً غير مستوفئ فلسفياً أُعيد طبعه مراراً ولم يتم إعداد بديل له حتى يومنا هذا، وقد صدر في أربعة مجلدات بين عامي 1853 ـ 1859.

ولهذه الحلقة أيضاً ينتمي أدريان باربير دي مينارد (1826 ـ 1908) وهو تلميذ لراينود، وإن كان تولّى في عام 1885 كرسي الأستاذية لتدريس اللغة العربية في الكلية الفرنسية بعد موت (جويارد). وبوصفه واحداً من عصبة اللغة فقد تعرف على الشرق في زمن مبكر، ورافق النبيل جوبنيو في رحلته إلى فارس عام 1855، وشغل منذ سنة 1863 منصب الأستاذية للغة التركية في كلية اللغات الشرقية. واعتماداً على ما اقتبسه من معجم ياقوت الجغرافي من موضوعات تخص إيران، فقد وضع مؤلّفه: (معجم فارس الجغرافي والتاريخي والأدبي... لسنة 1861). ولعل أهم عمل بين أعماله العديدة في الدراسات العربية ترجمةٌ فرنسية ملحقة (بمروج الذهب) للمسعودي استهلها (أبل، يافت دي كوتييل (1821 ـ 1889) (في ثلاثة مجلدات) ثم أتمها بمفرده حتى النهاية. إنه، وإن كانت الأصول الكتابية غير كافية، وأن هيئة النص والترجمة تفتقران للكثير، فإن هذا الإصدار مما لا يستغني عنه باحث بسبب فهارسه بشكل خاص.

ولا بد أن موضوع البحث ألصقُ بالرجال الذين كانوا يعملون في المستعمرات الفرنسية في شمال إفريقيا، والذين كان تحت تصرفهم منذ سنة 1856 جهاز جيد في المجلة الإفريقية. من هؤلاء جاك أوجست شيرونيية (1813 ـ 1882) وكان تلميذاً (لرينو) الذي كان أستاذاً للعربية في قسنطينة بادىء الأمر ومن ثمّ مديراً للعربية في الكلية الفرنسية في الجزائر، وقام ببحوث جغرافية في البلاد إلى جانب اهتمامه بالعامية. وكان آ. بيرون المتوفى عام 1876 متعدد الجوانب جداً.

وبوصفه مديراً للمدرسة الطبية في القاهرة، فقد أوعز للمدعو (محمد

بن عمر التونسي) بتدوين (خبراته) التي اكتسبها من خلال رحلاته التي قام بها إلى (درفور) و(داي)، ثم أصدر العملين مترجمين إلى الفرنسية إضافة إلى النص العربي الأصلي للرحلة إلى دارفور.

وحول الترجمتين كتب فرانسوا جومار (1777 ـ 1862) الذي أصبح شهيراً بمساهماته الممتازة حول (وصف مصر) ومجهوداته من أجل توسيع دائرة المعارف الجغرافية، كتب مقدمة زودها بالكثير من ملاحظاته. وحين كان رئيساً للمعهد العالي في الجزائر وعضواً للجنة العلمية تركز اهتمام (بيرون) على دراسة الشرع الإسلامي وقدَّم لمختصر (خليل بن إسحاق) ترجمة كاملة زودها بشروح من المقدمة. وقد ظهر الكتاب بين عامي 1848 ـ 1854 في 10 ـ 16 جزءاً، كما ظهر له (الاكتشافات العلمية في الجزائر) و(تاريخ العلوم) الطبعة الثانية سنة 1877). ثم ترجماته د.ك. الناصري، وهو موجز حول أمراض الخيل (1852 ـ 1860)، و(طب النبي) للسيوطي (1860)، وكتابه (سحر العربية) (1858)، ومخطوطه الذي خلفه (المسلمون) (1877). كل هذه الأعمال تشكل الإطار العام لأنشطته المتعددة. هذا وقد لقي تاريخ الفلك والرياضيات العربيان في فرنسا عناية أيضاً. فقد استأنف (إيميل سيديلوت) (1808 ـ 1876) وكان سكرتيراً لكلية اللغات الفرنسية منذ عام 1831، استأنف أعمال والده (جان ـ جاك سيديلوت) (1777 ـ 1832) وهو أحد تلامذة (دي ساسي)، وقدم ترجمة لكتاب المراكشي (جامع المبادىء) (1834 ـ 1835). وحقق بين عامي 1847 ـ 1853 مقدمة (أولوج بيك) بنصها الفارسي ومترجمة ومشروحة وكتب كتابه (تاريخ العلوم الرياضية عند اليونان والشرق) (في مجلدين 1845 ـ 1849). وفي مجال الرياضيات العربية أنجز فرانس فوبكه (1826 ـ 1864) من ديساو عملاً متميزاً، وبعد الانتهاء من دراسته تلقى على يدي المستشرق (جيلدمايستر) في بون العربية.

---

(1) لم يُعرف عمر الخيام في أوروبا حتى هذا الوقت شاعراً نظّم الرباعيات بل عالماً رياضياً ذا شأن.

وعاش معظم حياته بعدئذ في باريس. وقد أصدر في عام 1851 الجبر لعُمر الخيام[1] في النص العربي الأصلي والترجمة والتعليق. وترجم بإيجاز (الفخري) وهو نبذة جبرية للكراجي[2]؟. وبعدما اكتشف الأمير (بالتازار بونكا مباجني) (1821 ـ 1894) عدة مخطوطات تعود (لليوناردو بيزانو)[3]، وبدأ بنشرها ابتداءً من سنة 1857، زودها (فوبكه) بدراسة مرجعية ناقدة.

أما في مجال العلوم التطبيقية فيبرز اسم جاك كليمنت مولي (1796 ـ 1869) الذي تعلم العربية على يد (كوزان دي بيرسيفال وريناود). وتُعد ترجمة كتاب (الفلاحة) لابن العوام في مجلدين بين عامي (1864 ـ 1867) مؤلفه الرئيس. ويجدر بالذكر أنه اعتمد على نسخة مهلهلة جداً كان (جوزيف أنطونيو باوكويري المتوفى عام 1818، وهو تلميذ لكاسيري، قد أصدرها كذلك بترجمة إسبانية مليئة بالأخطاء في مدريد سنة 1802 في مجلدين، لكنها أُعدتْ بموضوعية فائقة. ومن بين أعماله الإضافية فقد أبرزت المجلة الآسيوية عمله: (مقالات حول البحوث والدراسات العربية) الذي صدر في العام 1868.

ولقد وجدت الدراسات اليهودية ـ العربية في شخص (سالومون مونك 1805 ـ 1867) عارفاً فذاً. وكان هذا قد درس العربية في بون على يد فريتاج، وتتلمذ من بعد في باريس. وقد اطلع على الشرق سنة 1840 مرافقاً (لأدولف كريميوكس) في رحلته إليه. وفي سنة 1865 أصبح أستاذاً للغة العبرية في الكلية الفرنسية لكنه توفي عام 1867. وأعدَّ من مؤلَّف مايمونيدس الرئيس في علوم الدين (دلالات الحائرين) نسخة ممتازة بترجمة وتهميشات شارحة في ثلاثة مجلدات صدرت بين عامي (1856 ـ 1866). ولقد جرى هنا استعمال أول إعجام في كتابة العربية بأحرف عبرية لأول مرة. وقام مونك بضبط النص شكلاً معتمداً في ذلك على قواعد اللغة المدرسية. ولعل

---

(1) هذه هي صيغة الاسم كما أوردها (الفيدا) وليس (الكرجي) كما جاء.

(2) بدىء العمل باستعمال الأرقام العربية بفضل مؤلف بيزانو.

المخطوطات التي كتبها المؤلف بنفسه هي التي تكشف عن مقدار نسبة المصطلحات العلمية إليه. وكتب مونك بالإضافة إلى ذلك عدداً من المقالات حول الفلسفة الدينية اليهودية في العصر الوسيط. ويحتوي كتابه الذي صدر عام 1859 على بحوث جوهرية حول ابن جابيرول.

والفضل يرجع إلى جان جوزيف لياندر بارجز (1810 ـ 1896) أستاذ اللغة العبرية في كلية لاهوت باريس، في بحوث الشعائر اليهودية الشرقية من خلال إصداراته للتفاسير العربية للشروح التوراتية الكبرى للطائفة الشرقية (ليفيث بن علي) حول المزامير عام 1861 وحول المزامير الكبرى سنة 1884.

وبالتعاون مع (بيير جولدبرج) حقق بارجز في سنة 1857 رسالة (يهودا بن قريش) المهمة لبدايات اللغة العبرية الموجهة إلى الجالية اليهودية في (فيس)، من جانب آخر فإن مؤلفات بارجز حول تاريخ المغرب تكاد تكون اليوم منسية.

49 ـ وليم رايت

مع وليم رايت (1830 ـ 1889) مؤسس مدرسة كامبردج الذي سبق لنا أن قابلناه زميل عمل في (مقري دوزي)، تشهد الدراسات العربية الحديثة في بريطانيا تحسناً. ولكونه ابناً لأب سكوتلندي كان يعمل في شركة الهند الشرقية وأم هولندية، درس اللغة الفصحى في جامعة سانت أندرو، ثم ذهب إلى مدينة هاله (شرقي ألمانيا)، واستماله المستشرق روديجر هنا للدراسات السامية. وقد دفعه حبه للعربية للذهاب إلى دوزي في مدينة لايدن الهولندية. وفي سنة 1852 أصدر كتاب رحلة (ابن جبير) عن النسخة الوحيدة، وكان ذلك إنجازاً ناضجاً مستغرباً على شاب في الثانية والعشرين من عمره، امتاز بمعرفة لغوية موضوعية ومتماسكة، وبحكم نقدي أكيد. وقد انصرف كل ميله نحو الأدب العربي وشعره الجميل. وقد أعدَّ أولاً المجلدات الخمس الأولى للمقري (المجلد الأول 1 ـ 462) للطباعة. وعمل منذ سنة 1855 في كلية الجامعة لندن ومنذ عام 1856 في كلية الثالوث في دبلن. وتمكن عام 1859 من إصدار كتاب (الأدب العربي) والمجلد الأول من كتاب: (قواعد اللغة العربية) وأعقبه الجزء الثاني في سنة 1832. وحسبما جاء في عنوان الغلاف فإنه ترجمةٌ لقواعد كاسبار، لكن هذا الكتاب يمثل في الواقع عملاً مستقلاً يمتاز بوصف واضح للقواعد وأمثلة أحسن اختيارها. وبين عامي 1874 ـ 1875 صدرت طبعة أخرى ثم طبعة ثالثة أعدها (ف. روبرتسون سميث ودي جويه) بعد موت رايت ولم تطبع بعد ذلك أبداً. وبرغم هذا الإنجاز فإن رايت لم يُستدع إلى أكسفورد حين أصبح كرسي اللغة العربية شاغراً في سنة 1862. وهكذا فقد عمل محافظاً مساعداً في قسم مخطوطات

المتحف البريطاني. وقد قدم من المخطوطات السورية التي تم الحصول عليها عام 1838، ومعظمها يعود إلى دير السريان في البادية، قدّم في الفهرس الذي ظهر بين عامي 1870 ـ 1872 وضم ثلاثة مجلدات، وبدقة متناهية في اللغة والموضوع، وصفاً مثالياً رائعاً. وبعد اقتحام حصن مجدالا الحبشي الجبلي، عمل في تنظيم المخطوطات الحبشية بعد وقوعها في يد الجيش البريطاني في سنة 1868. وإلى جانب عمله الوظيفي فقد شرع في إعداد طبعة مفيدة، وبخاصة بعدما استدعي لشغل كرسي اللغة العربية في كامبردج سنة 1870. وكان يتمتع بنظرة لا تخطىء في قراءة ونسخ المخطوطات كما كتب بيد مدربة على كنوز مكتبة لايدن والمتحف البريطاني. لقد كان نساخاً متفوقاً للقديم وأصدر بتفويض من جمعية النسخ السلسة الشرقية. ولهذا السبب، فإن طبعاته تعد أنموذجاً في الدقة والأمانة السياسية. وفي عام 1865 نشر من المخطوطات السورية اللندنية: (مقالات حول الأسفار المشكوك في صحتها في العهد الجديد من الكتاب المقدس)، ومواعظ أفرات، وفي سنة 1871 أسفار الرسل غير الموثوقة بترجمة إنجليزية. وأعقب ذلك (1882) (تاريخ مُستعمد يوشوعا) (الناسك الذي عاش على رأس عمود)، والسورية الشابة عن الترجمة العربية الشائعة (كليلة ودمنة). وبعد وفاته فقط ظهر عام 1898 إصداره للترجمة السريانية لتاريخ الكنيسة لأويزبيوس تحت إشراف تلميذه (ماك لين). وخلال السنوات الأخيرة من حياته فهرس المخطوطات السريانية التابعة لجامعة كامبردج. وقد شرع آ. آ. بيفن في الطبع، واستكمله س.ت.آ. كوك حتى نهايته في سنة 1901.

ولفائدة دائرة المعارف البريطانية (المجلد 22، 824 ـ 1856) كتب رايت نظرة شاملة ذات محتوى غزير حول الأدب السرياني ظهر عام 1895 في صورة كتاب. وبرغم عظم التزاماته كان استعداده كبيراً لتقديم يد العون في الإدلاء بالمعلومات حول المخطوطات السريانية في لندن، وتأمين النسخ، ومقارنة النصوص المختارة، والمساعدة في قراءة المستشكل. وهكذا فقد قرأ على سبيل المثال بعضاً من مواد المجموعة الثالثة لطبعة كتاب (الكنوز

السورية) القديمة التي سمح زميله في كامبردج، رجل اللاهوت (روبرت بينه سميث 1819 ـ 1895) بنشرها منذ سنة 1868.

كذلك فإنه ساعد (أدولف نويباور) (1831 ـ 1907) لدى قيامه بتصحيح طبعته الخاصة لكتاب (الأصول) لمؤلفه أبو الوليد ابن عناس. ولقد سبقت الإشارة إلى مساهمات رايت حول ملحق دوزي التي تنتمي إلى هذا الكتاب، وإلى بينسميث في (معجم البار علي)، ومن امرىء القيس (لدي سلين)، وديوان ا لهذيل (لكوسيجارتن) ومن المفصل (لبروخ) والكتب التي أصدرها رايت بنفسه.

وتُعد الطبعة الممتازة لكتاب المبرد (الكامل) أنضج إنجاز للمستشرق رايت في مجال الدراسات العربية. وكان قد بدأ في مدينة لايدن (هولندا) بالعمل في هذا الكتاب المهم الذي يعد واحداً من أمهات الكتب. وقد طبع الكتاب، مضبوطاً بالشكل، على نفقة جمعية المستشرقين الألمان في مجلد ضخم من عشرة أجزاء بين عام (1864 ـ 1874). وفي عام 1882 ألحقت ثمانية أضعاف من الفهارس (الصفحات 797 ـ 998). ولقد عقد (رايت) العزم على كتابة مدخل يتناول حياة وأعمال المبرد، ومخطوطات الكتاب وعلاقته بغيره، إلا أن أمنيته لم تتحقق في تنفيذ هذا العمل الأثير على قلبه.

ومن أجل الملحق النقدي قارن نصه بالمخطوطات المبعثرة التي تم التعرف عليها في ما بعد في مكتبي (جوتا، ج) و(لايدن، هـ)، (وبطبعة إسطنبول ف) التي صدرت في سنة 1870، في حين أن مخطوط الإسكوريال القديم لم يكن في متناوله. وعن مطابقات النصوص هذه، ومن تصحيحات فلايشر ونولدكه التي أجريت على النصوص بشكل خاص، فضلاً عن ملاحظاته الشخصية، فقد جمع (دي جويه) (الملاحظات النقدية) ليختتم بجزئها الثاني عشر سنة 1892 هذا الكتاب الأثر.

وفي الثمانينيّات انصرف رايت إلى العناية بشعراء العصر الأموي الثلاثة الكبار: الأخطل، وجرير، والفرزدق. وقام بنسخ المخطوطات، وأفاد مما

خلفه ريتشارد باوخر (1843 ـ 1886) الذي تعد نسخة إستانبول من ديوان الفرزدق أصلاً لها. لكن إصابته بمرض فقر الدم الشديد التي قضى عليه في سنة 1889، لم تمكنه من مواصلة مسيرته، وما لبث أن استعملها بيفان.

كان رايت أستاذاً فذاً، فمن أجل مقتضيات الدرس الأكاديمي، أورد سنة 1870 في الجزء الأول الوحيد من (كتاب المطالعة بالعربية) مقتطفات أضرَّ بها أنها لم تجد لطبع الجزء الثاني والمعجم من يقبل به من الناشرين. ومن خلال محاضراته التي ألقاها حول علم نطق ورسم اللغات العبرية، والسريانية، والعربية على طلبة اللاهوت، سعى بمؤلفه (محاضرات حول قواعد اللغات السامية المقارنة) إلى خلق فهم لمنهج البحث المقارن. وأراد خدمة الغرض نفسه من كتابه (يونا) بالمقاطع الكلدانية والسريانية والحبشية الذي أصدره في سنة 1875.

من طبيعة مختلفة كل الاختلاف عن توماس رايت كان إدوارد هنري بالمر (1840 ـ 1882) الذي قام بالتدريس سنوات طويلة إلى جانب المستشرق رايت قبل أن ينصرف لمهنة الصحافة التي لم يطقها زمناً طويلاً. وحين انفجرت ثورة عرابي باشا، أُرسل بالمر سنة 1882 في مهمة سرية إلى مصر، ومن هناك ذهب بمبالغ مالية وفيرة إلى بَدْو سيناء التي تعرف عليها في رحلتين قام بهما إليها خلال الأعوام، (1868 ـ 1869) و(1869 ـ 1870)، وكانت فيها نهايته المأساوية في شهر أغسطس من سنة 1882.

إن (بالمر) الذي تتلمذ في العامية على يد (رزق الله حسون)، وأجاد إجادة تامة الفارسية والهندوستانية، كان كاتباً متعدد الجوانب. وكان من ثمار إقامته في القاهرة صدور الطبعة الفاخرة لديوان بهاء الدين زهير. ونقل الأوزان الشعرية (المجلد الثاني 1876 ـ 1877). وقد أعدَّ في المجلدين الخامس والسابع لسلسلة ماكس موللر (كتب الشرق المقدسة) ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم التزم فيها تفسير البيضاوي بشكل جوهري.

50 ـ وليم روبرتسون سميث

وأعقب بالمر الذي عرف بالعربية باسم اللورد قارىء العربية منذ 1881 ورايت وقد عرف باسم توماس آدم أستاذ العربية منذ عام 1889، أعقبهما الأسكتلندي وليم روبرتسون سميث (846 ـ 1894). كان منذ نشأته رجل لاهوت، وعمل أستاذاً للعبرية في معهد عالٍ للكنيسة بمدينة أبردين، واضطر للتخلي عن وظيفته لأنه أيد نتائج نقد الكتاب المقدس التي تعلم طرائقها في ألمانيا. وقد اكتسب الخبرة لبضع سنين لكونه ناشراً متعاوناً لدائرة المعارف البريطانية[1] إلى أن عثر لنفسه على مستقر في جامعة كامبردج. وبحسٍ نقدي فُطر عليه، وحصافة، وإعراضٍ عن كل أنواع التصوف والاسترخاء الروحي، ولكن بتشبع بحقيقة العقيدة الدينية، ضرب النطاق حول بحثه النقدي التاريخي للديانة اليهودية (في العهد القديم) التي لم يتزعزع إيمانه برسالتها. وقد تعزز ذلك بأن كسب تفهماً من قبل العالم الاجتماعي ي.ف. ماكميلان للدور الذي تلعبه مختلف المجتمعات في تاريخ تطور البشرية. وهكذا فكان أول من تنبه إلى أثر الحق الأمومي التاريخي العتيق للجنس السامي. وعن طريق مناهج علم الاجتماع المقارن وبصلة وثيقة بسلسلة تطور الحياة الزوجية البشرية التي عرضها في كتابه دراسات في التاريخ القديم الذي صدر عام 1876، أعاد عام 1885 في كتابه (القربى والزواج) في صورة التدرج التي قطعها ـ حسب رأيه ـ المجتمع العربي ابتداءً من بداياته وصولاً إلى علاقاته الأسرية والقبلية المعاصرة. ونتيجة النقص في المصادر فإن تحقيق مثل هذه

(1) يستفاد من هذا بداية أنه كان وراء فكرة الإعداد لدائرة المعارف الإسلامية.

الإعادة بات قسرياً بسبب تطابق النتائج الجدير بالسؤال.

وبرغم ما تقدم، فإن هذا الكتاب الطريف كان مثيراً بسبب جدة الأسلوب في طرح السؤال، وإن تيودور نولدكه الذي تحفظ في مقاله المسهب المنشور في مجلة جمعية المستشرقين (40، 148 ـ 187) تحفظاً شديداً تجاه تقديم الأدلة، لم يغبْ عنه الرفع من القدر الدائم لهذا العالم الأسكوتلندي المستنير في الكشف عن الأحوال الاجتماعية في العصر السامي بكل ما تستحق.

لقد أراد سميث إهداء تطور الدين كتاباً أكبر يقوم على أسس تاريخية نقدية.

ولم يظهر من هذا المؤلف سوى المجلد الذي تناول المدخل (دين الساميين 1889، الطبعة الثانية 1894، والطبعة الثالثة من إعداد س ت. آ. كوك 1937، والطبعة الألمانية معدة أعدها ر. ستويه 1899)، الذي يشير إلى المحسنات والهنات نفسها كما في أعمال سميث المتأخرة. هنا أيضاً تسترعي المعالجة الاجتماعية الدينية، وبخاصة في البرهان على التأثير الذي مارسته المجتمعات العقائدية المتوحدة على تطور الديانات القديمة، الانتباه في المجموعات الدينية التي تدين بمآدب القرابين.

51 ـ ميخائيل جان دي جويه

إذا كان الاستشراق قد شهد منعطفاً كبيراً في عصر دوزي، فقد شهد في ظل تلميذه ميخائيل دي جويه (1836 ـ 1909) تشجيعاً شديداً. فقد استعمل دي جويه المنهج المعتاد لدى فقه اللغة القديم الذي كان قد تلقاه على يدي عالم اللغة اليونانية القديمة الهولندية كارل كابرييل كوبيت، استعمله في نقد النصوص العربية. وقد قدَّم، بعدما أخذ دوزي بيده على مسار المنهج التاريخي، قدَّم أول ما قدَّم كتابه (Specimene Literis Orienta Libus) الذي صدر سنة 1860 وأخذ جزءه الخاص بالمغرب من كتاب ياقوت[1] (معجم البلدان) بالنص الأصلي مترجماً ومشروحاً، كما برهن على أهليته في معالجة القضايا التاريخية في كتابه (المذكرات الشرقية التاريخية والجغرافية). وفي المذكرات الأولى عالج نشأة الحركة الكرماتية ومسارها. وبرهن في الثانية على عدم صحة ما ذكره (ناساوليز) حول فتح سوريا.

وتعقيباً على الجزء الخاص الصادر حول (جغرافية الإدريسي) (ما يتناول إفريقيا) لسنة 1877، خصص نصاً وترجمة مع الشرح. وفي الوقت نفسه شرع في نشر عمله القدوة (فتوح البلدان) للبلاذري سنة 1866، ثم مجلدين من أجزاء (تاريخ العرب) (1868 ـ 1871) الذي شارك في جزئه الأول (باول دي يونغ المتوفى عام 1890)، وأعقب ذلك خلال عامي (1870 ـ 1894) صدور (المكتبة الجغرافية العربية) في عشرة أجزاء للإصطخري، وابن

---

(1) لُمعٌ من الآداب الشرقية.

حوقل، والمقدسي (طُبع منه جزء ثان سنة 1906، ومقتطف من الهمذاني استناداً على الإعداد السابق لأوتو لوث)، ابن خروبيه، ومختارات من كتاب (الخراج) لقدامه وابن رسته، و(كتاب البلدان) لليعقوبي (طبع طبعة ثانية)، (وكتاب التنبيه والإشراف) للمسعودي. وبمناسبة الذكرى المئوية الثالثة لتأسيس جامعة لايدن صدر ديوان مسلم بن الوليد (حوالى 1900)، وتبعه في سنة 1904 (كتاب الشعراء) لابن قتيبة اعتماداً على نسخة نموذجية. لكن أزهى قطعة من هذه الطبعات كانت طبعة (تاريخ الطبري) في 15 مجلداً جنّد دي جويه نفسه بالتعاون مع مجموعة من المتخصصين من مختلف الأقطار الأوروبية حتى تمكن من إخراجها خلال الفترة الواقعة بين عام 1879 و1901.

ولقد قصَّ دي جويه بنفسه حكاية هذا العمل التذكاري في المقدمة.

وكان كوسيجارتن قد حقق جزءاً من مخطوط هذا الكتاب اعتماداً على نسخة برلينية تغطي الفترة منذ سنة 71 وحتى 159 للهجرة. ومن ثمَّ تمَّ التعرف على مخطوطات أخرى. وقد عثر دي جويه نفسه على أجزاء من هذا العمل. وقد أثبت آ. د. مورتمان (1811 ـ 1879) وجود عشر مخطوطات في إستانبول. وقد عرض التوراتي ي.ي. شتيهلِنْ (1797 ـ 1875) على دي جويه مساعدته المالية لهذا الغرض، بأن يقوم بتحقيق التاريخ المذكور ونال موافقته أما المعونات الأخرى، الرسمي منها والخاص، فقد جاءت في ما بعد من هولندا، وألمانيا وأقطار أخرى. وقد اكتسب للعمل معه ياكوب بارث حيث أسند إليه تاريخ العصر الجاهلي الخرافي (المجلد 1 ص 1 ـ 812)، في ما عمل تيودور نولدكه في تاريخ الساسانيين (1 ص 813 ـ 1072). وقد فرغ كلا الرجلين من تكليفهما في زمن قصير بحيث صدر الجزآن الأولان من السلسلة بين عامي 1879 ـ 1882.

وكان الاختيار قد وقع على (أوتولوث) من أجل كتابة السيرة النبوية (ومن أجل حياة الخلفاء الراشدين في الأصل)، لكنه ما إن شرع في تجميع النص بعد ترتيبه حتى وافته المنية فتوفي سنة 1881. وحل ب. دي يونغ محله في كتابة حياة الرسول (ص 1073 ـ 2015). وأعقب ذلك أي بين عامي

1890 و1898 ما أنجزه (أويجن بريم من تاريخ عن الفترة من سنة 12 إلى 40 هجرية (ص 2015 ـ 3476). وفي ذات الوقت، مع السلسلة الأولى، بوشر بالسلسلتين الأخريتين الأقصر، اللتين خُصصتا للعصرين الأموي والعباسي. وقد اقتسم كلٌ من (هـ. سي. هـ. توربيك) و(سيجموند فرينكل) العمل في المجلدات الثلاثة من السلسلة الثانية (1881 ـ 1889)، بحيث كان نصيب الأول (المجلد الثاني ص 1 ـ 295 من 40 ـ 60 للهجرة)، والثاني أي فرينكل (المجلد الثاني ص 295 ـ 580 من 61 ـ 65 للهجرة)، ونصيب قويدي (المجلد ا لثاني ص 850 ـ 14340 أي من 65 ـ 99 للهجرة)، ونصيب د. هـ. موللر (المجلد الثاني 1340 إلى 1640 أي من 9 ـ 120هـ) فيما كان نصيب الناشر دي جويه (المجلد الثاني 1641 حتى 2017 أي س 120 ـ 130 للهجرة) عوضاً عن (ماكس جرونرت) الذي كان مرشحاً في الأصل للقيام بهذا العمل. وبالعكس فقد أعدَّ دي جويه فقط السنوات من 218 ـ 231هـ (المجلد الثالث 1164 ـ 1367) و255 ـ 302هـ (المجلد الثالث 1742 ـ 2294) من السلسلة الثالثة التي كان قد احتفظ لنفسه بها أصلاً، في حين أن السنوات من 131 ـ 158هـ (المجلد الثالث 1 ـ 459) أعدها م. ت. هـ. هاتسما، وأعد ستانيسلاس جايارد السنوات من 232 للهجرة ـ 255) و(فكتور روزن) من 232 ـ 255هـ (المجلد الثالث 1368 ـ 1742).

ويُختتم النص التاريخي أي (المجلد الثالث 2295 ـ 2561) بالنص المأخوذ من كتاب الطبري في السيرة (ذيل الذيل) الذي أراد (لوث) العمل به استناداً على نسخة (فون كريمر) الوحيدة. وبعد موته وُضع ب. دي يونغ في الصورة، وكان على معرفة وثيقة باسم الواضع بوصفه ـ أي يونغ ـ ناشر (المُشْتبه) للذهبي سنة 1881. وبعد وفاته سنة 1890 تولى دي جويه العمل في النص. وتكفل دي جويه أيضاً من حيث الجوهر بالمجلدين الختاميين اللذين تبعا عام 1901 النصوص الثلاثة عشر. ويحتوي مدخل المجلد 14 مقالة تتناول الطبري وكتابه. وكملحق بالنص حياة الطبري مأخوذة من (تاريخ دمشق) لابن عساكر إلى جانب بعض النصوص وثيقة الصلة بالموضوع. ومن

ثمّ التاريخ المشار إليه في الطبعة مع القواعد العامة المتبعة لإصدار الطبري هذا. كذلك البيانات الخاصة لمختلف المساهمين في العمل كلٌ بحسب مخطوطاته المستعملة. وبعد المدخل مباشرة يأتي فهرس المفردات الشامل والقائمة الطويلة المتجاهلة للملاحق والتصحيحات كثيرة الاستعمال في الطبعة، التي أسهم فيها كل من بارث، فرينكل، لوث، نولدكه وآخرون من العاملين، وسواهم مثل ف. هانين، ف. كريمر، فان فلوتن، الإيراني يوسف ماركارت. وقد راعى دي جويه كذلك مقترحات فلهاوزن بالتصحيح (التصاميم والترتيبات الأولية المجلد 6، 146 ـ 160)، لكنه رفض القسم الأكبر منها بطبيعة الحال. وفي الختام يورد المجلد الخامس عشر الملاحق التاريخية واستكمالاتها المضافة حول عارب الطبري، كما أصدرها دي جويه في العام 1897. وإلى جانب هذا العمل الكبير فقد بقي لدى دي جويه متسع من الوقت للوقوف إلى جانب طلبته لمساعدتهم في مناهجهم الدراسية. وهكذا فقد شارك بنصيب وافر في طبعة كتاب (عجائب الهند) لبوزوروك بن شهريار التي أشرف عليها ب.آ. فان دير ليث في العام 883 ـ 1886، والكتاب عبارة عن مجموعة مهمةٍ حضارياً وتاريخياً لقصص البحارة في المحيط الهندي والأقطار المشرفة عليه. وبسبب اللغة العامية للكتاب فقد زوده (دي جويه) بمعجم مفهرس وزاد عليه (مارسيل ديفيس) ترجمة فرنسية. كما أن (مارتين تيودور هوتسما) سرّه العمل مع دي جويه ذي العزم حين حقق كتاب (الأضداد) لابن الأنباري سنة 1881 والكتاب القصصي سيِّىء القراءة لابن واضح اليعقوبي (في مجلدين 1883). وقد ترك لتلميذه الأثير على قلبه (جيرولف فان فلوتن) المتوفى سنة (1903) المخطوطات المقارنة لكتاب (مفاتيح العلوم) للخوارزمي (1895)، وقرأ معه من كتاب (البخلاء) للجاحظ التنقيح، ومن مخلفات (فان فلوتن) قدم ثلاثة كتب صغيرة للجاحظ سنة 1903. كذلك فقد أحيا طبعة د. هـ. موللر للهمذاني (1884 ـ 1891) وقدم لصناعة النص مشاركاتٍ ذات أهمية بالغة. ومن (ابن جبير لوليم رايت) قدم طبعة منقحة ثانية في السلسلة الرابعة لإحياء ذكرى المستشرق جيب. حتى تجاه أعمال ب. دي كونتغ الذي نشر من المصادر الطبية في سنة 1896

نصوصاً حول الكليتين وأحجار المثانة وفي سنة 1902 ثلاثة موضوعات في التشريح بترجمة فرنسية، أظهر دي جويه تجاهها اهتماماً ودياً.

وقد عُني عناية فائقة بمراجعات وتنقيحات النص. ولم يتوقف عن إحاطة القارىء دوماً بأنماط القراءات التي تقدمها المخطوطات والتي أعاد تقديم كلماتها في حالات اليأس المطبق بدون تنقيط. وقدم آلية النقد في أسفل صفحة النص المناسبة، حيث ثبت بالتجربة أن التعديلات التي تدرج في ملحق، نادراً ما يكترث بها أحد. وقد حرص دوماً على قرن كتبه بالفهارس. فقرر بعد تردد يسير جعلها في جزأين، بحيث جعل الشخصيات وأنساب الأسماء على جانب، وعلى جانب آخر أسماء الشعوب والبلدان، ووحدها بآلية واحدة. أما معاجم المفردات المفهرسة التي خصَّ بها معظم كتبه التي أصدرها، فتُعد في أيامنا هذه أيضاً من أهم الوسائل في الصناعة المعجمية. فإذا لم يُعزْ في كتاب (البلاذري) الاهتمام اللازم لقواعد اللغة الفصحى بشكل دائم، بحيث تضخمت قائمة (الخطأ والصواب) على نحو ملفت للنظر (ص111 ـ 128)، فقد أهلته معرفته اللغوية الممتازة فيما بعد لأن يُعد من كتاب رايت في قواعد العربية طبعة جديدة احتلت منزلة كأفضل ما يكون في مجال اللغة الفصحى.

ولعل دي جويه قد أثّر تأثيراً مباشراً أكبر بفضل محتوى الكتب التي أعدها في مسار البحث مما أثر بمنهجيته التي تُعد مثالاً يُحتذى. وإن كتاب الطبري الذي صدر في مدينة لايدن لم يقدم فقط مادة أغنى من حيث المبدأ بل قدم عرضاً أكثر واقعية من كتاب (الكامل) لابن الأثير، حيث كفل من خلال طبيعة التصرف بالمصادر نظرة في كتابة التاريخ الإسلامي القديم واتجاهاته، وأعطى بذلك دفعة نحو الاكتشافات الأدبية والتاريخية النقدية التي أسهم فيها أولاً دي جويه نفسه وتلامذته (ج، فان فلوتن وهـ. فان جلدر)، وكلٌّ من (نولدكه وتلامذته رودولف برونوف وكارل بروكلمان). لكن البحوث الرائدة للمستشرق (فلهاوزن) انطلقت من دراسة الطبري. وقبل صدور النص ترجم تيودور نولدكه في كتابه (تاريخ الفرس والعرب في العصر

الساساني 1879) والجزء التاريخي الذي تولاه للعمل به (يمسح ثلاثة أسداس النص الكلي). ولكن من دواعي الأسف أن أحداً لم يقتف أثره، وأن تاريخ الطبري لا يزال حتى يومنا هذا غير متداول من قبل المؤرخين غير العرب تقريباً. كما أن مشروع دي جويه لترجمة الجغرافيين العرب إلى الألمانية لم تر النور أيضاً. وفي هذه الأثناء فقد ظهرت مخطوطات جغرافية بالغة الأهمية، بات معها تحديث (المكتبة الجغرافية العربية) بما يتفق مع روح العصر، على غرار ما فعل يوحنا هندريك كرامر (1891 ـ 1951) بنص ابن حوقل، بات من المهمات الأكثر إلحاحاً في مجال الدراسات العربية. وربما كان مثل هذا التحديث أسمى وسيلة في الوقت ذاته لإحياء ذكرى المستشرق الكبير دي جويه.

52 ـ تيودور نولدكه

وفي الوقت الذي قصر فيه دي جويه جهوده على العربية عمداً ووظفها لطباعة النصوص بشكل خاص، لم يكتف معاصره وصديقه (تيودور نولدكه) (1836 ـ 1930) بحقل الدراسات السامية الواسع، بل تناول بالبحث أيضاً الدراسات الإيرانية والتركية التي كانت قديماً مهملة غاية الإهمال. وكان قد وقف من الدراسات السريانية التي سرعان ما ازدهرت منذ منتصف القرن الماضي، وهو الرجل المفطور على الشك، وقف منها موقف غير الموافق، بحيث لم يقدم على الاستفادة من نتائجها إلاّ لماماً.

وبألمعيةٍ وفكر ثاقب، وذاكرة قوية سريعة الالتقاط سمحت له بشق طريقه بسرعة في كل ميدان، في استجلاء ما هو جوهري وعرضه بدقة ووضوح، أنجز نولدكه في هذه المجالات الواسعة، كلغوي وباحث في اللغة، ومؤلف، ومترجم، ونحوي وناقد، أنجز هذا القدر من العمل القيم، بحيث يمكن وصفه أعظم مستشرقي عصره الألمان. وإلى جانب ما سلف من ذكر، وهو شيء غير متوافر بكثرة في سائر العلماء، فقد رُزق بالموهبة الإلهية، وعرف الفن الرفيع في إظهار التواضع. وبوصفه ناقداً تاريخياً بنّاء للعصر، فلم يكن ينفر من الرومانسية، والتصوف، ومن كل أشكال التحليق الشاعري غير الواضح فحسب، بل كان ضد كل ما هو تأملي، سواء كان عقائدياً أو فلسفياً، خواطر تاريخية أو نظريات علمية. ويُضاف إلى ما تقدم أيضاً طهارة قلبه واستقامة خلقه كما يستطلع من خطابه الوداعي إلى أستاذه إيفالد. وإن أطروحته (حول نشوء وتركيب السور القرآنية) التي نالها نولدكه

سنة 1856 بمرتبة الشرف الأولى في جامعة جوتنجن تبشر بأستاذ المستقبل هذا. ودون سابق علم بهذا العمل، فقد خصصت الأكاديمية الفرنسية للمخطوطات والرسائل العلمية مكافأة حول الموضوع نفسه، وإن نولدكه الذي جمع في هذه الأثناء مراجع جديدة في مكتبات فيينا، ولايدن، وجوتا، وبرلين واستطاع بذلك التوسيع جلياً في أطروحته، نال الجائزة عن عمله هذا بالتضامن مع معاونيه (شبرنجر وأماري). وعند إعادة تأليفه باللغة الألمانية أحدث كتابه تحت (تاريخ القرآن) (1860) هزة كبرى. وفي هذه الرسالة عولجت مسائل نشوء القرآن وجمعه ووصوله بحصافة، وفي معرض المناقشة النقدية للسُّور حقق لسائر مباحث القرآن التاريخية أساساً متيناً.

ولقد شهد العمل بالوثائق العربية الذي اتسعت دائرته إلى جانب القرآن ليشمل الشعر العربي القديم بشكل خاص (قصائد عروة بن الورد 1863، مساهمات حول معرفة شعر قدماء العرب 1864) شهد تراجعاً بعد استدعاء نولدكه عام 1864 إلى مدينة كيل، حيث كان ملتزماً بإلقاء محاضرات توراتية كسلفه ديلمان، ودرّس اللغة السنسكريتية إلى جانب اللغات السامية. والتفت أكثر إلى الدراسات اللغوية وبخاصة في مجال الدراسات الآرامية، بحيث إن موجودات مكتبة كيل التي كانت في الأصل ملكاً للمستشرق أدلر كانت تحت تصرفه. وقد تمخض عن تلك البحوث التي واصلها بعد استدعائه إلى مدينة شتراسبورج عام 1872 القواعد المانديه لسنة 1875 والسريانية لسنة (1880، الطبعة الثانية 1898) التي تعد من الأعمال الخارقة، وكلا العملين يتميز بالوصف الدقيق والترتيب المطرد للاستعمال اللغوي، إضافة إلى الاكتراث الدائم بوجهات النظر اللغوية التاريخية. ومما يعجز المرء عن الفخر به حق الفخر، وهو شيء طالما أُهمل، أنه عالج النحو معالجة كاملة.

وبناءً على ذلك فقد استردته المشاركة في تاريخ الطبري - طبعة لايدن منذ سنة 1874 - للعمل مرة أخرى في الدراسات العربية. ولم يكتف من المقطع الخاص بالساسانيين بإعداد النص، بل قدم منه، بوصفه المشارك الوحيد في هذا المشروع، ترجمة مثالية سنة 1879 وذات مردود أيضاً بالنسبة للدراسات الإيرانية. وإلى جانب ذلك أسرته المعضلات اللغوية العلمية

مجدداً. وإن الخطة التي وضعها في سنوات خلت لكتابة قواعد العربية تخلى عنها بالطبع في ما بعد. إلا أن دراسته (حول قواعد العربية الفصحى 1896) مهدت الطريق أمام تأمل تاريخي جاد. وقد ضمَّن انطباعاته حول لغة قدماء العرب في مقالتين تناولتا العربية الفصحى إلى جانب اللهجات الدارجة في (مساهمات حول علم اللغات السامية 1404 ص 1 ـ 14) وحول (القرآن والعربية) و(مساهمات جديدة حول اللغات السامية 1910 ص 1 ـ 5) وكلا المقالتين يُعدُّ قدوة تحتذى من حيث مثالية المنهج المتبع[1]. وعادت ترجماته وشروحه على المعلقات الخمس بالنفع العميم على اللغة التي كتبت بها المعلقات. وتتجلى مهارته في الشرح أيضاً في محاضراته التي جُمعت لمقتضيات الدرس الأكاديمي باللاتينية ونشرت عام 1890، وهي مختارات غزيرة من الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، وإلى أن وضع أوجست موللر معجمه. ويحتوي كل من الإسهامات الجديدة في تاريخ اللغات السامية بحوثاً تُعد مهمة أيضاً بالنسبة لتاريخ اللغة العربية، ذلك أن نولدكه التزم الموضوعية في مقارناته اللغوية، وقد أدرك بنظرته العلمية الثاقبة عدم ثبات المعتقد اللغوي الحديث من عدم الاستثناء في القواعد العامة، وعالج في (اللغات السامية) (في دائرة المعارف البريطانية أولاً، الطبعة 9، ظهرت باللغة الإنجليزية، وباللغة الألمانية عام 1887، الطبعة الثانية لسنة 1899) عالج مسألة السامية القديمة مع المرادف المعروض ورفع صوته في شيخوخته محذراً من التأملات الجوفاء والاشتقاق التعسفي. وتتضمن مراجعات نولدكه حول استشكاف الكلمة العربية بشكل أخص ملاحظات متفرقة غنية أيضاً، وهي فرع من فروع نشاطه الذي يستحق الإشارة بسبب نموذجيته، ذلك أن هذا الكتاب الذي كثر الحديث من حوله هنا لم يتميز بصغره ودقته فقط من حيث محتواه وقيمته، بل اتخذ على الأغلب نقطة انطلاق للشرح الذي نقل إلى موضوع الكتاب الجديد والجوهري.

---

(1) تجدر الإشارة هنا إلى أن الموضوعين موجهان إلى البحث المقدم من المستشرق كارل فولر (1857 ـ 1909)، ومضمونه أن القرآن كتب في الأصل بعامية مكية.

لقد اكتشف نولدكه ما لم يكتشفه غيره. وتنبه إلى ما شدّه من موقف الاستشراق في ذلك الوقت وإلى طبيعة المراجع المتوافرة لديه بما يتفق مع أهليته.

إن هذا التدبر جعل من بحوثه في المجال المنهجي قدوة ستجد في ما بعد المزيد من المعجبين، وذلك حين تصبح المعارف والانطباعات المكتسبة عن طريق هذا المنهج من رصيد الشرق العلمي منذ زمن بعيد.

53 ـ إجنازيو قويدي

ما كانه نولدكه بالنسبة لألمانيا، وذلك ما كان يعنيه إجنازيو قويدي (1844 ـ 1935) بالنسبة لإيطاليا. وكان هذا مثل الآخر أيضاً، بناءً، ألمعياً، ويلتزم الشك تجاه التأملات والافتراضات. ومجالات العمل بالنسبة للاثنين تجاوزت أيضاً حدود الدراسات السامية. لكنه بينما ترعرع نولدكه في التقاليد الإنسانية للبروتستانية الألمانية واهتم بالعلاقات المتبادلة بين القديم والشرق وعرّج على الإيرانية عن طريقها، كانت دراسة الكنائس الشرقية ونصبها التذكارية الأدبية، سواء ما كان منها قبطياً، سوريانياً، عربياً أو حبشياً أقرب بالنسبة (لقويدي) الذي كان معجباً بالكرسي الروماني. وبالتعاون مع جان ـ بابتيسته كابوت، هنري هيفرنات المولود عام 1858، وبرنارد كارادي فو المولود عام 1867، أصدر منذ العام 1903 (المجموعة الكاملة المسيحية المقدسة الشرقية). وقد استكمل أهم إنجازاته في ميدان الدراسات الحبشية التي لقيت في إيطاليا عناية فائقة بسبب المصالح الاستعمارية فيها. وقد تمخض التكليف الرسمي له أيضاً عن ترجمة الجزء الأول الخاص بالعبادات سنة 1919 من كتاب المختصر في الفقه المالكي للخليل الذي كان قويدي قد أصدره. ومن النصوص العربية حقق من موجودات المخطوطات الإيطالية شرح (جمال الدين بن هشام) على بانت سعاد 1871، في ما قدم فلايشر بعض التنقيحات، ومن بعده تذييل الزبيدي (الاستدراك) حول سيبويه 1890، وأخيراً كتاب الأفعال لابن القوطية 1894. وأنجز من كتاب الطبري ـ لايدن، السنوات من 65 ـ 99 هجرية، النص الكامل (المجلد الثاني 580 ـ 1345).

على الصعيد الشخصي، كان قويدي مثل نولدكه محبوباً قنوعاً. وكان مثل رايت على استعداد دائم لتقديم المعلومات حول المخطوطات وأعمال النسخ التي تبدد الوقت، ولإعداد النصوص المختارة أو لإجراء المطابقات بين النصوص. وعمل على طباعة الشعراء المندرجين في (خزانة الأدب) سنة 1887 لغرض وضعها في خدمة الاستعمال العام. ويستحق الشكر بصفة أخص على المسرد الأبجدي لكتاب الأغاني (1895 ـ 900) الذي وضعه مع طاقم من المتعاونين (برونوف، جيرجاس، كلين، فان جلدر، فان فلوتن وسيبولد). هنا يعثر المطلع على فهرس للشعراء (ص 1 ـ 38) وعلى فهرس قافية (ص 39 ـ 194)، وعلى مسرد بأسماء الأماكن من القنصل الفرنسي ي. هيلوئيس، وكجزء رئيس على (ص 195 ـ 720) ثبت تاريخي بأسماء الرجال الذين ورد ذكرهم في الأسانيد، وما جاء بخصوصهم مشروحاً بعبارة مختصرة. وقد راودتْ قويدي أيضاً فكرة تأليف معجم يجمع بين دفتيه الملاحظات المبعثرة حول الصناعة المعجمية العربية في الكتب التي سبق نشرها، سواء منها البحوث أو الفهارس، وذلك بالتعاون مع غيره. وإن المرء ليحزن أشد الحزن أن هذه الخطة المهمة لم يقيَّضْ لها النجاح عقب قيام الحرب العالمية الأولى.

54 ـ فيكتور روزن

إن التأرجح الذي شهدته الدراسات العربية في روسيا منذ سنة 1870، أشد ما يكون صلة باسم البارون (فيكتور رومانو فيك روزن) (1849 ـ 1908).

التحق المذكور عام 1766 بكلية الدراسات الشرقية في سانت بطرسبرج وواصل دراسته في الفترة الواقعة بين عام (1870 ـ 1871) لدى المستشرق فلايشر في مدينة لايبزغ. وفي هذا المكان عقد صداقة عمر مع المستشرق جولدزيهر.

وفي سنة 1873 شد الرحال إلى (أهلفاردت) في جرايسفالد. وقام بعدة سفرات وأقام علاقات صداقة مع طلائع المستشرقين مثل قويدي، وشارلز شيفر، و، ي. ج. براوني. وقد شارك روزن في إنجاح مؤتمر المستشرقين الدولي الثالث في بطرسبرج. وابتداءً من العام 1872 قام بالتدريس في الكلية الشرقية، أولاً بصفة محاضر ومن ثم بصفة أستاذ. وفي العام 1886 أوجد في الصحف الأثرية التابعة للقسم الشرقي من جمعية الأثريين الروس المجلة الروسية المتخصصة في الاستشراق بدءاً وانتهاءً، ونشر فيها أعمالاً مهمة كثيرة.

وقدم من المخطوطات العربية والفارسية الموجودة في معهد اللغات الشرقية التابع للقسم الآسيوي في وزارة الخارجية منذ العام 1823، قدم فهرساً نقدياً لا يتميز بدقته الكبيرة فقط، بل بتحليلاته المدروسة التي تُعد مهمة بالنسبة لتاريخ الأدب أيضاً.

كذلك فقد شرع في العام 1881 بكتابة المخطوطات العربية لسنة 1818 التابعة لأكاديمية العلوم القائمة في المتحف الآسيوي في مؤلفه (1 ملاحظات سومرية). وفي بحث جامع عالج المخطوطات التي جمعها ل. ق. مارسيجلي المتوفى سنة 1730 من مكتبتي بلغراد وبودابست، وهي تعطي فكرة طيبة عن طبيعة التعليم العالي في الدولة العثمانية خلال القرنين السادس والسابع عشر.

وبوصفه واحداً من الذين أسهموا في طبعة الطبري لايدن التي نظمها دي جويه، فقد عمل روزن في الأجزاء التابعة للسنوات من (222 ـ 255هـ). أحدُ معاصري روزن كان (فالديمار فون يتزنهاوزن) المتوفى سنة 1902 الذي كان موظفاً في الإدارة الروسية. وكان خبيراً ممتازاً في العملات الإسلامية والآثار. والشيء الذي تجدر الإشارة إليه من بين مؤلفاته كتابة (تاريخ العقيليين 1859. وفي سنة 1873 قدم وصفاً للزوميات الخليفة الشرقي. وقد استهل بحثه بجمع الأخبار المتعلقة بالقبيلة الذهبية (المجلد الأول سنة 1884). وعمل فيما بعد بإعداد فهرسة ناقدة للآثار الشرقية، أصدرها بعد وفاته ك. آ. أنوستراد نسيف (و) ي.ي. سميرنوف سنة 1906، وذلك في الفترة الواقعة بين سنتي (1876 ـ 1941).

55 ـ يوليوس فلهاوزن

إن ظهور كتاب الطبري في العام 1879 لم يجعل مصادر البحث العلمي المؤدية إلى التاريخ الإسلامي القديمة متوافرة فقط، بل ضمن كذلك في البقية الواسعة لكتابة التاريخ القديم إطلالة على الاتجاهات التي كانت محكومة بها. وكان كل من دي جويه ونولدكه قد بدأ العمل بالدراسة الناقدة للمصادر الجديدة.

ولكن بقي في جعبتنا يوليوس فلهاوزن (1844 ـ 1918) ليعرض التاريخ الإسلامي منذ بداياته وحتى سقوط الدولة العربية في رواية جديدة، وليتغلب بذلك على كل المفاهيم السائدة حتى تلك اللحظة، وبخاصة منها ما يتعلق بابن الأثير، وذلك من خلال جمع مدهش لتحليل المصادر الأدبية والنقد التاريخي.

لقد انتهى فلهاوزن إلى هذه الاكتشافات عبر طرق متشعبة. فقد بدأ حياته رجل دين. ومن خلال نقده للأسفار الخمسة الأولى، مارس تأثيراً ثورياً على بحوث العهد القديم قبل أن يبدأ بفهم العرب وقد عقد العزم، كما ذكر، للتعرف على (المتوحش بعدما جفت الأقلام ورفعت الصحف). وقد قاده هذا إلى دراسة الإسلام، والذي لولاه ما عرفنا شيئاً عن حياة العرب الوثنية. لكنه عثر على تلك الآثار في الشعر العربي القديم الذي لم يكن يعني بالنسبة إليه وإلى نولدكه أكثر من مرجع تاريخي ولغوي والذي يشبه في هذا السياق النقوش اليونانية واللاتينية في العصر القديم. كذلك فإن كتابه البقايا الوثنية (1887، الطبعة الثانية 1897) الذي جمعه من المصادر

الإسلامية، يظهر بوضوح تطلعه نحو إظهار ما يملكه العبريون والعرب من تراث مشترك في الحضارة والدين دون أن يتجاهل الاختلافات.

ولقد دخل فلهاوزن حقل التاريخ السياسي الإسلامي بكتابه (محمد في المدينة) وهو كتاب المغازي (للواقدي) بنص ألماني مختزل (برلين 1882). ومن أجل ذلك استعمل طبعة كريمر التي كانت تحتوي على الثلث الأول منه فقط، وأما الباقي فقد استعمل له مخطوط المتحف البريطاني (ور 1617). وإضافة لذلك فقد استعمل مخطوطاً لندنياً آخر: (المتحف البريطاني آدر 20737) الذي لا يحتوي إلا على النصف الأول فقط. وقد بدا لفلهاوزن أن هذا المصدر لا يكفي لإصدار غير منقوص (وأن تقوم عليه ترجمة)، بل يكفي المضمون لإصدار طبعة مختصرة، وهكذا فقد خطر على باله مؤلف (دي برسيفال) الذي سبق ذكره (حول تاريخ العرب). وأمل من غير طائل أن يجد كتابه اهتماماً في الأوساط المتخصصة وأن يزاحم مؤلف (شبرنجر) الضخم حول محمد. واشتد الإقبال عليه من المتخصصين بدلاً من النص الأصلي الذي لم ينشر حتى اليوم. وفي العام 1884 حقق فلهاوزن في عمله (مقدمات وخطط) (الجزء الأول ص 103 ـ 107، وبالعربية من ص 1 ـ 129) كاستكمال لطبعة كوسيجارتن (الجزء الأخير من أغاني الهديليين) وذلك استناداً إلى مخطوطات لايدن (رقم 139 ـ 280) وباريس (رقم 175 ـ 270) مع ترجمة ألمانية للأناشيد (رقم 139 ـ 241).

وفي الجزء الرابع من نفس (مقدمات وخطط) أعقبت في العام 1889 البحوث الأساسية حول (المدينة قبل الإسلام) (ومجمع الرسول المدني) وكذلك النص وترجمته من كتاب ابن سعد (مكاتبات محمد..). إلى جانب هذا استمر العمل بكتاب الطبري ـ طبعة لايدن منذ سنة 1887، الذي تمخض في العام 1899 عن المدخل لتاريخ الإسلام المبكر (مقدمات ومخططات، المجلد الخامس ص 1 ـ 170). وحين أقدم على مقارنة عرض (سيف بن عمر) بمجمل ما تبقى من سيرة الطبري وبرهن على ما أُدخل من تحريف عليها، تحصل على الأساس لنقد تاريخي لعصر الفتح الإسلامي.

وفي العام 1901 نشر مقالتيه حول فرق المعارضة الدينية السياسية في فجر الإسلام، وحول: (حملات الأمويين ضد الرومان). وقد توّج بحوثه هذه بعمله (الدولة العربية واضمحلاها 1902). وقد تميز هذا العمل النوعي أيضاً بجمع لا يُجارى لنقد المصادر التي تعدَّت التصنيف الشكلي للمصدر إلى ترسيخ قيمته بنقد تاريخي، يدري كيف يتتبع التوجهات السياسية السائدة للشخصيات الفاعلة بحدس لا يخطىء.

ولقد ترك هذا الكاتب على الأجيال الشابة انطباعاً عميقاً وراسخاً. ومنذ ظهوره، وطرقُ البحث الجديدة التي تناقش القضايا الدينية والاجتماعية والاقتصادية، تجد نفسها مضطرة للعودة إلى الصورة التي رسمها فلهاوزن. لكن كتاب فلهاوزن لا زال، في ضخامة حجمه، العرضَ الأشد وقعاً الذي نملكه حول التاريخ السياسي للإسلام حتى اضمحلال الدولة الأموية.

56 ـ إجناس جولد تسيهر

وفي الوقت الذي انصبت فيه أعمال نولدكه وفلهاوزن، وبالقدر الذي تناولت فيه الإسلام، على القرآن، وحياة محمد، وتاريخ الدولة العربية السياسي في المقام الأول، فقد بقي على إجناس جولد تسيهر[1] (1850 ـ 1921) أن يطبق مناهج البحث التاريخي على الإسلام بمجموعه، وأن يفهمه كظاهرة تاريخية حضارية، رسمت تطوره الأفكار الدينية بشكل أساس. في هذا التفسير ارتبط جولد تسيهر بفون كريمر الذي لم يعترف صاحبه بسعة معارفه ومناهجه فقط، بل، وبشكل خاص، بحدسه تجاه القوى الدافعة للإسلام[2]. وقد أعانته كثيراً على ذلك معرفته المتنامية بالتراث اليهودي المتشددة وتقاليده التي استقاها بالمعايشة المباشرة. فهل أزكتْ معضلات الديانة اليهودية في عصر الانعتاق جذوة الاهتمام في نفس جولد تسيهر الذي

---

(1) للاطلاع على نشأة جولد تسيهر، يُرجع إلى مقالة يوليوس (نيميث) في دورية (إكتا أورينت) هونغ (1950 ـ 1951)، ص 7 ـ 25، بالنظر لأهميته ولوجود مصادر أخرى. يضاف إلى ذلك الترجمة العبرية الحديثة التي كتبها م. بلسنر لمحاضرات جولد تسيهر (محاضرات عن الإسلام)، القدس 1951، ص (289 ـ 309) وفيها عرض لحياة جولد تسيهر وعمله العلمي.

(2) ما يخص هذه الفقرة، فقد جاء في رسالة من جولد تسيهر إلى ف. روزن، ونشرت في العدد (6) (1922) من الأزفستيا ـ روسيا تعلم بارتولد وجاء فيها: (في شخص كريمر فقدت الرجل الذي حثتني أعماله في كل ما كتب حول تخصصي لمتابعة البحث. لقد أدخل هواء نقياً على حياتنا الدراسية، ولن يحكم أحد على رجل بدل سحنتنا الدراسية من خلال أخطاء متفرقة. وبكتبه بدأت مرحلة جديدة في معالجة الإسلام).

درس الثانوية العامة في مدينته الأم (شتوهلفا يسنبرج) وتلقى إلى جانبها ثقافة تلمودية؟! لقد دخل حلبة الصراع، وقد نضج وكان ذا موهبة وسنُّه لم يتجاوز الاثني عشر ربيعاً ليدلي برأيه في الجانب العملي من مسألة الطقوس الدينية، وذلك حين نشر عملاً سيكون من وجهة نظر التلمودي (نيميست)، هادياً لمسار بحث علماء المستقبل في مناقشتهم التاريخية للمشكلة. وبعد هجرة الأب إلى (بيست)، كان جولد تسيهر الشاب أول تلميذ لهيرمان بامبرجر (1832 ـ 1913) الذي استدعي في العام 1865 لجامعة بودابست وتنكر في زي (درويش) حين قام برحلته لآسيا الوسطى.

تلقى جولد تسيهر الفارسية والتركية على يديه دون أن يحثه أحد على ذلك، علماً بأن اهتماماته كانت منصبة على الموضوعات اليهودية بشكل رئيس. غير أنه تلقى منحة للدراسة في الخارج بتوصية من (بامبرجر) ووزير التعليم جوزيف فون أيوتفوس 1868، حيث ذهب في بادىء الأمر إلى برلين ودرس اللغات السامية على يد أساتذة هم على التوالي: ي. روديجر، ف.ي. ديتريشي. وبإشراف هيمان شتاينتهال (1832 ـ 1894) الذي كان يمثل العلوم اللغوية عامة، تعلم مناهج نفسية الشعوب وما يسمى بعلم (البليونتولوجيا) (أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السابقة). وأقام علاقة مع شتاينشنايدر. بعد سنة من ذلك ذهب إلى لايبريغ حيث فلايشر وأعد سنة 1870 بإشرافه البحث (دراسة حول تانشوم يروشالمي) (نسبة إلى القدس).
كانت البدايات في برلين أيام وجوده فيها ثم أضاف إليها عدداً من الرحلات العلمية إلى لايدن وفيينا، وفي سنة 1872 تحصل على إجازة التدريس (الأستاذية) في بوادبست، وقام في السنوات من سبتمبر 1873 أبريل 1874 برحلات تتويجية إلى سوريا، وفلسطين، ومصر. وقد تلقى على فلايشر القواعد المدرسية الراسخة كما تعلم فن تفسير النص الذي منح أعماله الرئيسة الأساس اللغوي الراسخ. وبالطبع، فإن تركيز فلايشر الأحادي على الجانب اللغوي الشكلي لم يلق لديه قبولاً. فلقد أسره تاريخ التطور العقلي البشري كما جاء في أعمال فون كريمر، كما وجد في كل نص أقدم على

شرحه شاهداً تاريخياً حضارياً. وتحت إشراف فلايشر كتب بادىء الأمر (مساهمات حول تاريخ علم اللغة لدى العرب) (س. و. آ 1861 ـ 1873) كما نشر في الدورية نفسها (السيوطي لسنة 1871). وبها، وبالذات بمقالاته: (مساهمات في تاريخ الأدب الشيعي) التي نُشرت في الدورية نفسها سنة 1874، برز الميل نحو تاريخ الأفكار. وبظهور عمله (تاريخ علم اللغة عند ا العرب) في المجر، تكون هذه المرحلة من إنجاز جولد تسيهر قد انتهت. وفي الوقت ذاته وصلت دراساته العبرية في كتابه الذي نشر في سنة 1871 تحت عنوان: (الأسطورة وتطورها التاريخي عند العبرانيين) إلى نهايتها. في هذه الدراسات (حول الأسطورة والدين)، أراد أن يثبت، على العكس من رينان، أن الساميين لا الهندو ـ جرمان وحدهم عرفوا الأسطورة. واستعان في النهاية ببحث الأسطورة المقارن الذي ألّفه (شتاينهال) وأخرجه كل من (آ. د. البرت كوهن وماكس موللر)، التي ـ أي الأسطورة ـ تنفتح من خلال مقارنة أساطير الشعوب الأندو ـ جرمانية المتفرقة على مثيلاتها الموجودة لدى الشعوب القديمة، ووجدت في هيكلها تجسيداً لقوى الطبيعة. وهكذا يبين جولد تسيهر الرابطة الأخوية بين (كايل وآبل) باستبدال الليل والنهار، وفي إبراهيم يجد سماء الليل شديدة السواد، وفي سارة القمر كمرة أخرى وهكذا. وبذلك فقد فرّق تفريقاً شديداً بين المكونات الأسطورية والمكونات الدينية ونشأتها الكونية والأخلاق. لكنه إذا توقع أن يُحييَ المرء كما في دراسته: (خطوة على طريق التقدم نحو المثالية السامية) التوحيد الخالص، فقد أُصيب بخيبة أمل كبرى. لقد كان المنهج الذي اتبعه في زمنه ذاك محط خلاف شديد وإنْ تمّ التغلب عليه أخيراً بوساطة جيمس فريزر. وحتى لو شهد الكتاب ترجمة إنجليزية في سنة 1877، فإنه ـ أي الكتاب ـ لم يلاقِ قبولاً حسناً بصفة عامة. غير أن هذا الكتاب أثار عاصفة من الاستياء الشديد في أوساط الجالية اليهودية في بودابست. ولقد كان هذا أشدَّ إيلاماً لجولد تسيهر حين تولى منصب الأمانة العامة لهذه الجالية في السنة نفسها، ذلك أنه لم تكن لديه تطلعات لشغل منصب الأستاذية في جامعتها بعد وفاة سلفه إيوتفوس عام 1871.

بهذه السنة العاصفة تبدأ المرحلة الثانية من حياة جولد تسيهر الأدبية التي امتدت حتى سنة 1910. في هذه الأثناء انصرف إلى البحوث الإسلامية. ولقد كان عمله (سكرتير للجالية اليهودية) الذي خصّه بست ساعات من وقته يومياً عبئاً ثقيلاً عليه، وما لبث أن تخلى عنه حين عُين أستاذاً بكرسي في الجامعة سنة 1905. ولكن برغم عدم الارتياح الذي كانت تسببه العلاقات الخارجية، فقد ألّف في السنوات الثلاث عشرة هذه كبريات أعماله ابتداء من (الظاهريين وانتهاء بمحاضرات حول الإسلام) (1884). وعادة ما كانت محاضراته تلقى باللغة المجرية. وهكذا فإن كتابه (دراسات إسلامية من آ. إلى الياء، 1881) يحتوي على بحوث أُعيد تكرارها بعد إدخال تعديل عليها في كتابه (دراسات محمدية)، ولم تستطع المقالة التي كتبها صديقه باخر في مجلة جمعية المستشرقين الألمان (36، 720 ـ 724) حول مضمون وأهمية العمل، لم تستطع تقديم تصور كاف. ولقد كان كتابه (الظاهريون: نظام تعلمهم وتاريخهم 1884) هو الذي أكسبه شهرته بصفته باحثاً في الشؤون الإسلامية. ولم يقدم جولد تسيهر هنا مدخلاً نظامياً متماسكاً بل مدخلاً موجهاً تاريخياً في الشريعة الإسلامية، دفع فيه النزاع المبدئي لمدرسة الشريعة السلفية إلى دائرة الضوء، وفتح بذلك الطريق أمام فهم وجهة نظر (داود الظاهري)، ثم بيَّن المكانة الاستثنائية التي تمثلها مدرسته من واقع تفسير القرآن والحديث واستعمالهم لأضراب التشريع، وناقش تاريخ هذه المدرسة حتى زوالها، وخصَّ بالذكر ممثل المدرسة ابن حزم الأندلسي الذي أقام أسس المدرسة على العقيدة. وكملحق كله، قدم جولد تسيهر نصوصاً شتّى تعويضاً عن مقتطفات ناقصة (الأمس كما اليوم) من المصادر التشريعية الإسلامية. إن هذا الكتاب الذي رُمز إليه بعنوان فرعي هو (مساهمات حول تاريخ الشريعة المحمدية)، خُطط له لأن يكون فاتحة لسلسلة من الدراسة التي تتناول تاريخ تطور (الديانة المحمدية)[1] تعين على فهم الفكر

(1) حرصنا على ترجمة العبارة كما وردت في الأصل الألماني.

الإسلامي. هذا وقد استؤنفت هذه السلسلة في عمله النوعي (دراسات محمدية) (المجلد الثاني 1889 ـ 1890). ومن مجموع هذه المناقشات كان بحثه (حول تطور الحديث) أهمها في حجمه ومحتواه (المجلد الثاني من ص 1 ـ 274). وفيه برهن جولد تسيهر بفطنة وعقلانية طبيعة الدور الذي لعبه الحديث، وهو في الأصل للبناء والحوار ومن جهد العلماء النشطين في الجمع والدرس، في الصراعات على السلطة بين الأمويين والعباسيين، وفي خصومات الأحزاب السياسية الدينية والفرق، وأظهر من خلال طائفة كبيرة من الأمثلة المستقاة من كتب الحديث الاتجاهات المختلفة التي وُضعت قيد العمل لدى نشوء وتنميق وتوسع الحديث، وخرج بخلاصة مفادها: أنه لا بد من النظر إلى القسم الأعظم من الحديث على أنه نتاج التطور الاجتماعي والديني للإسلام خلال القرنين الأولين. ولقد تبين الباحثون أصحاب البصيرة أن من غير الجائز استعمال الأحاديث مصدراً تاريخياً عن مقولات محمد وتصاريفه من غير ما تحفظ. إلا أن جولد تسيهر، بدل الشك القسري، وضع نقداً منهجياً مبتكراً تنبع مبادئه من النقد التاريخي. وهكذا فقد أصبح من مهمة البحث النظر في تاريخ تطور الدين الإسلامي مجدداً، وهي المهمة التي أسهم بها جولد تسيهر نفسه بأعمال علمية عديدة. هذا ولا يمكن إنكار أعماله اللغوية والتاريخية والأدبية، فقد حقق ديوان الحطيئة ليوضح من خلاله مقاومة الوثنية للدين الجديد، وخصص القسم الأعظم من المجلد الأول من مؤلفه: (مناظرات حول اللغة العربية) للحديث حول هذا الموضوع.

لقد كمنتْ قوة جولد تسيهر في تخصصه العلمي. كذلك فإنه في (محاضراته القديمة حول الإسلام) (1910) لم يقدم عرضاً تلقائياً[1]. بل توخى من إهمال التاريخ السياسي معالجة أهم الجوانب في التطور التاريخي الديني: محمد، تطور الشريعة، التطور العقدي، الزهد والتصوف، طبيعة

(1) المقصود من عبارة (تلقائي) هنا وفي صفحات سبقت، أنه لم يقدم دراسة وصفية للإسلام كما يفعل معظم المؤلفين.

الفرق، وفي الختام أشكالها المتأخرة. وفي الفترة الثالثة الممتدة من (1911 ـ 1921)، فإلى جانب النشر وإعداد (رد الغزالي على الباطنية (1916) يأتي كتابه القديم (مذاهب التفسير الإسلامي) (1920). هنا أيضاً قدم: تفسير النصوص العربية الديني، المستقى من كتب التفسير، الأساس اللغوي لنظرة شمولية على تاريخ تفسير القرآن منذ بداياته الأولى وحتى عصر التحديث الإسلامي في زمننا الحاضر، بحيث إن كثيراً من التأملات والانطباعات التي عبّر عنها جولد تسيهر في أعماله سابقة، صُهرت جميعها في بوتقة واحدة مفيدة.

وبعد عام من صدور هذا الكتاب الذي وصفه جولد تسيهر بأنه (فلذة كبده)، توفي بسبب إصابته بالتهاب رئوي وسط حزن عميق من الكثيرين الذين لم يفقدوا فيه عالماً فحسب، بل إنساناً نبيلاً وصديقاً صدوقاً.

لقد مارس على درب الدراسات الإسلامية تأثيراً عظيماً أكثر مما أثر أي معاصر له، كما رسم مسار وتطور البحث العلمي بصورة حاسمة.

57 ـ كريستيان سنوك هورجرونيه

لقد استُكملت أعمال جولد تسيهر الرائدة في مجال الدراسات الإسلامية كأسعد ما يكون بالهولندي كريستيان سنوك هورجرونيه (1857 ـ 1936). فإذا كان جولد تسيهر قد تمكن من إبراز الصراعات الحزبية الطائشة خلال القرن الهجري الأول خلف صورة الإسلام الهادئة غير المتحركة الظاهرة للحديث، التي يصدر عنها اليسار الإسلامي، فإن سنوك هورجرونيه يكشف النقاب عن أن فتاوي الفقه الجافة كانت مجرد واجهة جرى خلفها التنافس المرن بين القواعد الشرعية الإلهية المثلى مع القانون العرفي النابع من العادات والتقاليد.

بهذه العبارة استهل طريقة الفهم الدينية ـ الشرعية ـ والتاريخية الحضارية لكتب الفقه العربية التي تعامل المرء معها في هولندا وأنحاء أخرى حتى ذلك التاريخ لمجرد أسباب سياسية استعمارية من الناحية العملية. وكان على هورجرونيه أن يخوض في ما كان في حوزته من مراجع وبخاصة منها تلك التي تعود إلى ل. و. سي. فان دن بيرج حول المذهب القديم الذي كان يرى بأن مسلمي جزر الهند الشرقية اتبعوا، برغم بعض الاستثناءات، شريعة دينهم، وأن الإدارة الاستعمارية التزمت هي الأخرى بالعمل بهذا القانون.

تتلمذ سنوك هورجرونيه على دي جويه وحاز على مرتبة الشرف سنة 1880 بأطروحته التي قدمها بالهولندية حول (الشعائر المكية)، التي ناقش فيها نشوء شعيرة الحج في الإسلام، وشرح مغزى الآيات القرآنية المتعلقة (بدين إبراهيم) من وجهة النظر التاريخية. وفي نهاية دراسته سافر إلى نولدكه في

شتراسبورج. ولقد شجعه الحوار الدائر مع جولد تسيهر من خلال المراسلات، بالرغم من تحذيرات أستاذه، شجعه على ملازمة الدراسات الفقهية. ولقد لعبت اهتماماته بالإسلام في ذلك الوقت والسياسة الهولندية الاستعمارية دورها المشجع أيضاً. وهكذا فقد تولى في العام 1882 وظيفة في المعهد الذي كان يعد الموظفين للعمل في الخدمة الاستعمارية.

في سنة 1884 سافر إلى شبه الجزيرة العربية وقضى في مكة ستة أشهر من سنة 1885، وتوجب عليه مغادرة المدينة المقدسة قبل الحج مباشرة[1]. وفي كتابه الذي ألّفه حول معايشاته هناك قدّم عن المدينة وأشرافها، وعن سكانها (ومن ضمنهم مسلمو جزر الهند الشرقية) وحياتهم اليومية، عاداتهم وتقاليدهم، علمائها ودراساتهم وصفاً شيقاً ذا قيمة خالدة بوصفه وثيقة معاصرة (ذلك الوقت). وفي العام 1889 أرسل إلى جزيرة جاوا لدراسة الإسلام. ثم انخرط أخيراً للعمل في الخدمة الاستعمارية سنة 1891، وأرسل في بادىء الأمر إلى مملكة (أيته) السابقة التي لم تتمكن الدولة الهولندية من إخضاعها كلياً برغم جهودها الكبيرة. وبعد مضي سنتين من إقامته فيها، قدم هورجرونيه في مؤلفه (الأتييريين) (في مجلدين 1893 ـ 1894) عن هذه المنطقة التي لم تكن قد اكتشفت حتى ذلك الوقت تماماً وعن سكانها عرضاً رائعاً حول هيكلها الاجتماعي، وإدارتها، وقانونها، واقتصادها، وأعيادها، ثم عن عاداتها وتقاليدها، والعلم فيها، وآدابها ودينها. وقد فرَّق هورجرونيه في عرضه هذا جيداً بين القاعدة والتطبيق في الإسلام، ولم يقدم لقرائه عبر هذا فقط نظرة في عالم مسلم لم يُلتفت إليه تقريباً، بل وضع في أيديهم كذلك المفتاح لفهم تاريخي للفروقات غير المعتادة التي يكشف عنها إسلام اليوم. وبوصفه مستشاراً للإدارة الاستعمارية فقد شرح وجهة نظره حول السياسة التي يجب أن تتبناها دولته تجاه المسلمين. وبرغم ذلك، فإن

(1) حول الأسباب المباشرة لترحيله من مكة المكرمة كتبها سنوك بنفسه في كتاب له بالألمانية تحت عنوان (مكة) (في مجلدين وأطلس للصور 1888 ـ 1889).

توصياته هذه لا تحظى في عصرنا هذا إلا بقيمة تاريخية فقط. بعد هذا فقد تعلم سنوك من خلال رحلات العمل التي قام بها في قلب شمال سومطره، وقدم وصفاً للبلاد والسكان في آخر عمل له (1903). وفي سنة 1907 استدعي لشغل كرسي الدراسات العربية في جامعة لايدن ليخلف بذلك دي جويه، فانفصل عن الخدمة الاستعمارية بعد عمل استغرق سبعة عشر عاماً. وبوصفه مستشاراً للدولة، فقد استمر في ممارسة نفوذه على سياسة بلاده الإسلامية، وتعرض في أعماله الكتابية لقضايا الساعة ولمعضلات الإسلام المعاصرة. وبوصفه أستاذاً أكاديمياً فقد كان ناجحاً في عمله أبعد حدود النجاح وذلك حتى سنة 1927. ولا يفوتنا كذلك أنه جنَّد نفسه بجدية من أجل مشروعَيْ مكتبة لايدن الكبيرين، دائرة المعارف الإسلامية وكشاف الحديث.

58 ـ إدوارد ساخاو

إدوارد ساخاو (1845 ـ 1930)، الأستاذ في جامعة برلين ورئيس حلقة البحث للغات الشرقية التي أسست سنة 1887 والممثل الرسمي للاستشراق من بين المستعربين الألمان في الإمبراطورية الألمانية. فبفطنة وموهبة وإلمامة أدبية متنوعة، وباهتمامات ونظرة واثقة للمعطيات الفعلية، تمكن من إيجاد الحلول للمهمات العملية المعروضة عليه والتماس البحث عن طريق الأعمال الخاصة في الوقت ذاته. وكان ساخاو قد بدأ دراسته في مدينة كيل بإشراف الأستاذين (ديلمان ونولدكه سنة 1864). غير أنه سرعان ما تراشق التهم مع نولدكه ليذهب بعدها في سنة 1865 إلى فلايشر في لايبزيغ حيث قدم أطروحته في العام 1867. وعن رسالته التي ناقشها تمخض كتابه (المعرّب) للجواليقي في السنة نفسها. ولم يأت العام 1869 إلا أصبح ساخاو أستاذاً زائراً في فيينا، ثم نال كرسي الأستاذية في العام 1872، واستدعي في السنة 1876 إلى برلين. كانت فاتحة عهده بالشرق في الفترة من 1879 ـ 1880 وذلك من خلال رحلة قام بها بتكليف من الحكومة البروسية إلى بلاد ما بين الرافدين، حيث وصفها في كتابه الذي أصدره سنة 1883 والذي يحمل الاسم نفسه. وكان قد حقق في أثناء إقامته في فيينا الشذرات السورية لتيودور فون موبسويستيا (1869) والترجمات السريانية للأدب اليوناني العاري سنة 1870 تحت عنوان (السوريات غير المطبوعة). ثم أصدر بالتعاون مع المؤرخ القانوني (كارل جورج برونر) (القانون السوري الروماني) من القرن الخامس نصاً وترجمة وذلك في العام 1880، وتبعه في الفترة من عام 1907 ـ 1914 (مجموعة القوانين السورية في ثلاثة مجلدات). وتمثل حصاد رحلته الأولى

إلى الشرق في مجموعة مخطوطات سورية آلت إلى مكتبة برلين، قام بفهرستها في العام 1899 مع الموجودات المخطوطية السورية القديمة، وذلك إلى جانب المصادر اللغوية والنقوش. وبتكليف من متحف برلين أصدر في طبعة ممتازة (بايري وأوستراكا) سنة 1911 اللتين عثر عليهما في (أليفانتاين) في العام 1906 ـ 1908. ولحساب (المؤسسة الشرقية اللندنية للترجمة)، تولى ساخاو في سنة 1869 نقل كتاب (تاريخ الشعوب القديمة) للبيروني إلى اللغة الإنجيلزية. وقد قام أولاً بإعداد طبعة عن النص العربي (1876 ـ 1878)، أعانه المستشرق فوستنفلد على تصحيحها، في حين طلب المشورة من مختصين رياضيين وفلكيين في ما يخص أجزاء الكتاب الفنية. وتبعت ذلك الترجمة الإنجليزية في العام 1879.

وبناءً على ما تقدم وعلى إلحاح (دي سلان)، أبدى ساخاو استعداده لترجمة كتاب البيروني (الهند) الذي كان كل من (دي سلان وفوبكه) قد وضعاه نصب أعينهما أصلاً. وقد تمكن من إصدار الكتاب بعد مضي 15 سنة في العام 1887 استناداً على مخطوط جيد من مقتنيات شارلز شيفر. وجاءت الترجمة الإنجليزية بعد ذلك أي في سنة 1888. وبهذه الأعمال ذات الوزن اشتهر ساخاو بوصفه واحداً من أكبر علماء العصر الوسيط في أوروبا. ولن يقلل من فضله توافر مخطوطات أفضل وأكثر وضوحاً للتاريخ في وقتنا هذا، وإن تقدم الدراسات الهندية تسمح بفهم أفضل من كتاب الهند.

وفي العام 1897 قدم ساخاو في كتب الحلقة الدراسية التي أصدرها للدراسات الشرقية، قدم عرضاً للفقه الإسلامي على المذهب الشافعي لقي نقداً جذرياً منه.

بعد ذلك بوقت قصير وضع زاخاو خطة لإنجازه الكبير في مجال اللغة العربية، وهو كتاب طبقات ابن سعد الذي أصدره خلال الفترة من (1904 ـ 1918) بالتعاون مع كارل بروكلمان، ي. ليبرت، باي مايسز، ي. وميتفوخ، ف. ي. شفاللي، وك. ف. سيترستين. وبذلك أصبح أحد الكتب قيد التداول. وكان مشهوراً بقيمته بوصفه مصدراً لحياة محمد ومعاصريه، وأقدم

جامع للسنة القولية من خلال أعمال شبرنجر، موير، ونولدكه، لدرجة أن المستشرق فوستنفلد رجع إليه في كتابة شجرة الأنساب. وقد خصص ساخاو في المجلد الثالث الذي بدىء به الصدور دراسةً مهمة كمدخل إلى تاريخ ابن سعد. وأُتبع النص الذي يحتوي على عشرة مجلدات، والذي لم توضع فيه الهوامش في أسفل الصفحة بل في ملحق، بالفهارس والملاحق والتصحيحات ومعجم مفردات مفهرس ومرشد عام على غرار الطبري. وبسبب عدم ملاءمة الظروف، فلم يستطع ساخاو إلا طبع الفهرس الذي جمعه أحمد والي الذي عُرف بالمجلد 4، 1، لسنة 1920، ومن ثمَّ أردفه بعد ثماني سنوات بالمجلد 4، 2. متضمناً ما وضعه شخصياً من ملاحق بأسماء الشعوب شرقاً وغرباً، وبأحاديث الرسول، وسجع آيات القرآن الكريم.

وتواصل جهده بهذا العمل حتى أدركته المنية في سنة 1930. وأخيراً صدر كمجلد 4، 3 ملحق آخر بأسماء الشخصيات المذكورة في الكتاب، التي قدمت الشروح عليها للأسف كل مرة في صيغة، بحيث إنه يتعذر على القارىء أن يستجمع المواضع التي أُشير فيها إلى شخص بعينه من بين صيغ الأسماء المختلفة.

إن هذه الطبعة الكبيرة التي ارتبط بها اسم ساخاو دائماً، تظل من مهام المستقبل للوصول بها إلى نهاية قيمة من خلال فهرس كامل للرجال، وملاحق وتصحيحات.

59 ـ أوجوست موللر

إلى جانب نولدكه، فلهاوزن، وساخاو، فقد كان في الجامعات والمعاهد الألمانية العليا خلال الثلث الأخير من القرن الماضي عدد من المستعربين وقف الموت حائلاً دون تقديمهم كل ثمار عملهم العلمي. من بين هؤلاء كان أوجوست موللر (1848 ـ 1892) في المقام الأول. ولكونه تلميذاً لفلايشر فقد تلقى ثقافة لغوية راسخة، لكن عقله المتوقد أبى عليه إلا أن يوظف معرفته اللغوية في خدمة الدارسات التاريخية، فعاد إلى الشعر العربي الذي خصّه بأطروحته حول معلقة امرىء القيس مرة أخرى وأخيرة، حين قدم بمساعدة (معجم نولدكه اللاتيني) معجم المفردات المفهرس. وقد أرشده ي. جروشيه إلى (سير الأطباء) لابن أبي أصيبعة الذي لم يحقق بعد، كما أن طبعة فلوجل (لفهرست ابن النديم) التي أشرف موللر على مجلدها الثاني (هوامش فلوجل والملاحق) طباعة. كل ذلك أنضج فيه فكرة تقديم نصوص (بيوجرافية وبيبلوجرافية) (الأولى تتناول الحيوانات والنبات والأخرى فهرسة) حول تاريخ العلوم الطبيعية الدقيق في الإسلام في دراسة نقدية.

وفي الكتاب التذكاري إلى ج. برنهاردي لسنة 1872، ترجم وعلق على النص المتعلق (بالفلاسفة اليونان في المصادر العربية) كما أعد من كتاب فلايشر التذكاري (البحوث الأوروبية) مقتدياً (بابن القفطي) فهرس أرسطوطاليس العربي.

وبسبب كلفة الطباعة الأقل، فقد قرر إسناد طباعة كتاب ابن أبي أصيبعة إلى مصطفى وهبي في القاهرة حيث يسهر (سبيتا) على طباعته. لكن هذا

الأخير سرعان ما اضطر لمغادرة القاهرة، وأغرى وهبي بإدخال تعديلات حسبما يرى على النص، فأهمل الضبط بالحركات، وعدد الأسطر، والفواصل المميزة للزائد والناقص. ولعل أسوأ ما كان منه أنه اقتصر، في كلا الملحقين الخاصين بالرجال وأسماء المواضع اللذين بدا له أنهما سطحيان، اقتصر كل موضوع جوهرياً على امتداد سطر واحد، بحيث لم تُقدم من الأسماء كثيرة التردد سوى مواضع الاستشهاد الأولى. ولهذا فإن النص الذي صدر في مجلدين وبمقدمة عربية من إعداد (بيتا) في العام 1882 الموافق 1299 للهجرة حول امرىء القيس - ابن الطحان، قلما يختلف (بغض النظر عن الفهرس) عن طبعة من الطبعات الشرقية، بحيث لم يتبق لموللر إلا أن يزوّد نفس دار النشر (كوينجسبرج 1884) بملحق يحتوي على التذييل على الفهارس، والقراءات كجزء رئيس (ص 1 - 60)، والمقارنة بين مراجعات النصوص غير المتجانسة المصدر (ص 16 - 70)، وفي الختام الخطأ والصواب (ص 71 - 80)، ومقدمة تتحدث عن مصير الطبعات، المخطوطات وشكل النص، وحول المصدر المتعلق بابن أبي أصيبعة، ثم قراءة أخيرة للخطأ والصواب، وفي الختام أنواع القراءات لمخطوط مستعمل منسوخ. إن كل هذه العوامل تجعل من استعمال كتاب موللر الذي لم يُعوض حتى اليوم قراءةً غير مريحة بتاتاً. وقد قدّم آ. موللر دراسة رائعة حول النص والاستعمال اللغوي لتاريخ الأطباء في تقارير جلسات أكاديمية ميونيخ سنة 1884.

وبعد كتاب الأطباء، أصدر موللر بين سنتي (1885 - 1887) عمله (الإسلام في أوروبا والبلاد الإسلامية) في مجلدين ضخمين، وهو عرض متفرق للتاريخ العام (مجلد 2، 4). وإن مهمة هذا الكتاب المتمثلة في إعطاء جمهور القراء غير المتخصص عرضاً عاماً مفهوماً، أصولياً علمياً عن تاريخ الإسلام السياسي، لم يكن ليحُلّ محل غيره مع تراجع البحث في هذا المجال بطريقة مرضية. وإن دار النشر التي تجاوبت في بادىء الأمر مع نولدكه، عادت فرفضت العقد. كما أن صاحب موللر وهو صاحب الاقتراح

الذي أبدى موافقته، سرعان ما لاحظ بأن ما وضع تحت تصرفه من الأعمال التمهيدية في هذا الخصوص لا تكفي إلا لتغطية ثلث المطلوب، وبالأخص منها أعمال فايل، فون كريمر، دوزي، بالإضافة إلى ما دونه صديقه أو. لوث حول شخصية محمد ﷺ. والفضل في وصف الإسلام يرجع كذلك إلى كتب ل. فون رانكس، لكنه وجد نفسه بسببها أيضاً عرضة للتناقض. وقد حاول تجاوز الثغرات من خلال مبررات خاصة، لكن اللهجة التي استعملها لا يمكن أن تخدع القارىء عن حقيقة أن المؤلف لم يكن واثقاً من نفسه. وقد تقبل هذا الكتاب النقد بروح رياضية، فيما ظل الكتاب القياسي عن الإسلام بالنسبة لجمهور القراء الألمان حتى وقت متأخر جداً من هذا القرن. وفي العام 1887 صدرت الطبعة الخامسة من قواعد كاسباري التي قام موللر بإعداد الطبعة الرابعة منها اعتماداً على النسخة الإنجليزية الممتازة (لرايت)، وبمساعدة من فلايشر، نولدكه ولوث. وموللر نفسه وجد أن من غير الكمال عدم الفصل في القواعد بين الكتابة والنطق، هذا فضلاً عن الافتقار لكل معالجة علمية، لكن العمل في كتابه (الإسلام) لم يترك له الوقت لإدخال التعديل.

ولم تقتصر أنشطة موللر على العمل في نطاق العربية، بل أقبل بشغف وسعادة على كل عمل اقتضاه منه واجبه. وهكذا فقد كتب قواعد مدرسية عبرية في العام 1878، وقواعد تركية، وتولى من إنجيل قوس قزح الذي أصدره باول هاوبت في السنة (1858 ـ 1936) الأمثال. وخطط لوضع نبذة من قواعد السامية. وفي الختام فقد استحق دوام الشكر على المؤلف (الفهرس الشرقي) الذي أصدره بالتعاون مع مجموعة من المستشرقين منذ العام 1887 والذي، بفضل إدارته الحصيفة الجادة، يقدم المعلومات حول الإصدارات الجديدة بسرعة وانتظام ويقين.

60 ـ الدراسات العربية في ألمانيا منذ العام 1870 وحتى 1900

يُعد أوتولوث (1884 ـ 1881) أحد التلامذة الذين استكملوا دراستهم على يد المستشرق فلايشر في زمن مبكر. وكان حظه من الكتب التي أصدرها متواضعاً نسبياً. فقد أصدر أطروحته (حول ابن المعتز في العام 1866، ودراسة حول ابن سعد حصل بها على إجازة التدريس سنة 1869 في لايبزيغ، والفهرس الخاص للعربية) في مكتبة المكتب الهندي الذي جمعه في لندن في الفترة من (1870 ـ 1872). ولفائدة طبعة لايدن من كتاب الطبري، قابل في خريف سنة 1879 المخطوطات الاستنبولية، وتكشف العبارات الحارة التي قالها دي جويه في إحياء ذكرى وفاته في السنة 1885 عن الآمال التي ماتت بموته. وفي هذه المناسبة أيضاً أهدى دي جويه في السنة 1885 نسخة كتاب (ابن الفقيه) التي نظمها بمساعدة النص الذي نسخه لوث.

ولعل الأكثر مأساوية كان مصير صديقه فلهلم سبيتا (1853 ـ 1883)، وهو ابن للشاعر (بسالتر وهارفه). فبعدما ناقش أطروحته على فلايشر بعمله (حول تاريخ أبو الحسن) (1875)، استدعي في صيف السنة نفسها أميناً لمكتبة خيديال في القاهرة حيث قام بفهرسة المخطوطات العربية فيها. وبعد قيام ثورة عرابي باشا أُعفي من منصبه في السنة 1882 وعاد إلى ألمانيا مريضاً بالرئتين حيث توفي في خريف سنة 1883. ومن ثمار إقامته في مصر، كانت قواعد العامية العربية في مصر في السنة 1880 أول عرض علمي للهجة واستكمالاً لهذا العمل قام بجمع (المعجم العربي الحديث) (1882) الذي يعد

صورة من أعمال لغوية أدبية أخرى. وقد أعيد اليوم طبع كلا العملين. ويكمن نقص العملين في المعالجة الصوتية من جانب، وفي عدم التفريق الدقيق بين مختلف الأماكن واللهجات الاجتماعية، ولكن بصفة أخص، في العرض الأساسي المتخلف منهجياً مع العامية، الذي استهدف من ورائه الارتفاع لمستوى لغة الأدب والحلول محل العربية الفصحى من جانب آخر.

أما خليفة شبيتا في القاهرة فكان كارل فوللر (1857 ـ 1909)، فأقام فيها منذ العام 1886 وحتى استدعائه إلى يينا في العام 1896. وعن هذا الأخير صدرت السلسلة المنتظمة لابن دقماق، وابن سعيد والمتلمس. ولكنه اكتسب شهرته الكبيرة من خلال فرضيته القائلة إن القرآن نظم بادىء الأمر بعامية مكية ثم أعيدت صياغته بحسب قواعد الفصحى، وهو زعم ما لبث نولدكه أن أثبت بطلانه.

أما تلميذ فلايشر الذي اتخذ من دراسة اللغة العربية وتاريخها مهمة له لدى الحياة ابتداء من الشعر القديم حتى اللهجات المعاصرة، فهو (هانيريش توربيك) (1837 ـ 1890). فكان ذا إلمامة واسعة بالشعر القديم كما يكشف عن ذلك كتابه غير المكتمل (للمفضليات) لسنة 1885. وقد أصدر من (درة الغواص) للحريري طبعة ممتازة في العام 1871. وأسهم في طبعة لايدن ـ الطبري في إعداد الصفحات من (1 ـ 295 من المجلد الثاني وهي تغطي السنوات من 40 ـ 60 للهجرة). وعن اهتمامه باللهجات العربية الدارجة صدر عمله لمحمد صباغ (قواعد اللهجات العربية الدارجة في كل من مصر وسورية) (1886). وبعد وفاته لإصابته بنوبة قلبية إثر مرض قصير، ترك مدونات كثيرة: منسوخات لمخطوطات وبخاصة مجموعة كبيرة من الجذاذات الورقية لمعجم عربي مستقبلي لم تجد من يوليها العناية لشديد الأسف.

وكان فلايشر يرى بأن البحث في قواعد الفصحى يجب أن يتواصل على يد القيمين المتأخرين عليها. ولهذا السبب فقد أهاب بجوستاف ياهن (1837 ـ 1917)، الذي أخذ بيده المستشرق روديجر في برلين لدراسة (مفصل الزمخشري)، أهاب به لإصدار (شرح ابن يعيش). وقد صدرت الطبعة التي قام فلايشر بتصحيحها، وراجعها فوستنفلد، وأسهم في آياتها آهلفاردت و،

ف. روزن وتوربكه، صدرت بدون أي هامش نقدي في مجلدين ضخمين في الفترة من (1882 ـ 1886). ومن ثم قدم ياهن خلال الفترة من (1894 ـ 1900) ترجمة لسيبويه متأسياً بطبعة ديرينبورج وبشرح السيرافي التي أوقعته في مشاحنات طويلة مع بريتوريوس.

أما آخر عمل له فكان حول (مفهوم الربوبية لدى قدماء العبريين وكتابة تاريخهم). وحين شغر كرسي فلايشر شغله في السنة 1890 ألبرت سوسين (1844 ـ 1899) وهو من مدينة بال وكان قد عمل منذ العام 1873 في مدينة توبنجن. أما من حيث الأهمية فلا سبيل لقياسه (بتوربكه) أو (بلوث). وناقش أطروحته التي كان موضوعها (علقمة) في السنة 1867 على المستشرق (جوشه) التي كشف المستشرق آهلفاردت ضعفها في كتابه (ملاحظات حول أصالة الشعر الجاهلي) 1872. وقد قام في الفترة الواقعة بين عامي (1868 ـ 1870) وفي العام 1873 بزيارة لكل من القاهرة، وفلسطين، وسورية والعراق. وفي رحلته الأولى أحضر معه مراجع لغوية مهمة حول العربية الحديثة، والآرامية الحديثة، والكردية، أصدرها بالنص والترجمة أو مترجمة فقط. ولعل أكثر هذه النصوص أهمية كانت النصوص الآرامية المكتوبة بالآرامية الحديثة التي جلبها من (معلولا) ونشرها بيرجشترسر في العام 1915. أما الأوسع نطاقاً والأهم محتوى في المصادر العربية فكان ديوان قلب الجزيرة الذي نشره تلميذه هانز شتومه بين عامي (1900 ـ 1901).

ولم تقتصر اهتمامات سوسين على اللهجات الدارجة اليوم. فلقد كتب (المدخل للغات الشرقية)، قواعد العربية التي سرعان ما انتشرت، وأعاد بروكلمان النظر فيها عام 1904، وتعد اليوم أيضاً أحبّ كتاب تعليمي للمبتدئين. وكان كثير الاشتغال بجغرافية فلسطين، وفي العام 1876 كشف النقاب مع إميل كاوتش عن زيف قدماء الساميين، وكان أحد مؤسسي الاتحاد الألماني الفلسطيني الذي عُدّ واحداً من أخلص العاملين فيه.

وفي الختام فهناك ياكوب بارث (1851 ـ 1914) وكان تلميذاً لكل من فلايشر ونولدكه، درّس منذ 1874 في الحلقة الدراسية التلمودية لليهودية المتشددة في برلين كما عمل في الجامعة من بعد. وكان بارث ذا معرفة

ممتازة بالعربية فقدم كتاب الطبري، وانصرف عن الجانب الموضوعي فيه إلى التركيز على الجانب اللغوي للنص حيث قام بالتصحيح وبالذات لدى الشعراء الأول. أما المجال الآخر الذي طرقه بشغف شديد فكان في الدراسات السامية المقارنة. لكنه لم يقف إلى جانب تطور علم اللغة العام، وبخاصة الهندوجرمانية، وآمن في إمكانية تفسير التطور اللغوي التاريخي عبر إعادة التركيب المنطقي. وكان من نتيجة ذلك أن كتبه اللغوية، وخاصة الغنية منها بتركيب الأسماء، يمكن النظر إليها على أنها مجرد جمع للمراجع.

وفي العام 1881 أصدر بارث شرح ميمون بالعربية على موجز شرح التوراة مفتتحاً بذلك السلسلة الطويلة من الإصدارات المجزأة، حيث وفر هذا بالتدريج نصاً قيماً للمعجم العربي الوسيط.

تلميذ آخر لنولدكه لم يكن ينتمي إلى مدرسة لايبزيغ وهو سيجموند فرينكل (1855 ـ 1909) ما لبث أن عُين أستاذاً في جامعة برسلاو. فبعدما أثبت موهبته من خلال عمله الذي قدمه أطروحة (حول معجم ألفاظ القرآن) المفردات الآرامية في اللغة العربية، تستند على معرفة جذرية بالأدب العربي والآرامية، وعلى الوثائق التلمودية بخاصة، في حين أنه لم تراع محصلات السريانية، والسبئية، والنقوش، والآثار السامية بشكل خاص. وتمثل إسهامه في تاريخ الطبري طبعة لايدن في تاريخ الفترة من 61 ـ 65 للهجرة.

ولم تلاق الدراسات العربية لدى المستشرقين الآخرين في ذلك الوقت خدمة تُذكر. وهكذا فقد حقق جورج هوفمان (1845 ـ 1933) وهو خليفة نولدكه في كيل، حقق في معاجمه السريانية العربية الألفاظ المفهرسة (1884) النصف الأول من معجم بارعلي وقدّم في شروحه المسهبة على النصوص المأخوذة من الملفات السريانية للشهداء الفرس (1880) مساهمات قيمة للعلوم الإسلامية وللطوبوغرافيا التاريخية. وفي صلاة الفراسة لماكس فروستر، أصدر ترجمة الكتاب المقدس (البوليمو) بترجمة لاتينية.

وفيما عدا ذلك فقد عمل رجال الدين بشكل رئيس في المصادر المسيحية العربية. وهكذا فإن باول لاجارد (1827 ـ 1891) الذي تقلد كرسي

الدراسات الشرقية في كلية الفلسفة في جوتنجن عوضاً عن إيفالد في العام 1869، لم يهمل في مجهوداته الرامية لنقل النص الإنجيلي النصوص العربية المتأخرة كما لم يتسلح بمناهج النقد اللغوي التاريخي، كي يصحح النص بعقلية ناقدة. وهكذا فقد حقق في السنة 1864 الأناجيل العربية الأربعة عن مخطوط نمساوي، وأخرج في السنة 1867 من مخطوطات هولندية من درجة ثانية (مراجع حول تاريخ نقد الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس)، وكرر المزامير السبعة باستثناء المترجم منها إلى العربية في زمن مبكر. وقد انتهى به عمله بمقامات اليهودي الإسباني هاروزي التي أصدرها في السنة 1881، انتهت به إلى مخطوطات (بيدرودي ألكالا) التي أعد منها في السنة 1884 كذلك طبعة. وأصدر في الختام (نظرة إجمالية على بناء الاسم في الآرامية، والعربية، والعبرية)، بإيحاء من فلسفة اللغة الرومانسية، وبحسب المعايير اللغوية الإيجابية التي تم إحرازها قديماً بهدف السيطرة على مجال اللغات الإندوجرمانية.

إنه وإن أظهرت أعمال لاجارد عدم اهتمامه بإخضاع دراسة اللغات السامية لوجهات النظر الدينية، فقد عُهد لواحد من أنشط أتباعه (إيبرهارد نستله) (1581 ـ 1913) تخرج في معهد توبنجن، عهد إليه بتكليف من وزارة الثقافة في فوتنبرج بشغل كرسي التدريس الشاغر في لايبزيغ الذي كان يشغله سوسين فيكجانغ. وقد قام (نستله) هنا بتدريس اللغات السامية بقصد اللغة المقدسة، كما شملها بتدريس العربية والإسلام. إلا أن تكليفه انتهى بعد انقضاء خمسة فصول دراسية. وعوضاً عنه كُلف أحد تلامذة سوسين كريستيان فرديريك سيبولد (1859 ـ 1921)، الذي حقق في العام 1886 مخطوطاً في قواعد اللغة لابن الأنباري، كما أظهر براعة في العمل في هذا الميدان فيما بعد. أما نستله فقد أصبح أستاذاً في حلقة مولبورن الدراسية للمذهب البروتستانتي في العام 1894، وسرعان ما تمتع بسمعة طيبة للطبعات اليونانية من العهد الجديد التي وجدت صدى واسعاً.

61 ـ الفهارس

في منتصف القرن التاسع عشر لوحظ أن النقص على أشده في وسائل الفهرسة، ليس في مجال الدراسات العربية وحدها بل في الدراسات الشرقية بعامة. ما إن سجل شنورد في تصنيفه (المكتبة العربية) كل شيء تقريباً، وبلغ الرقم 500 وهو ما كان مطبوعاً من النصوص العربية في أوروبا حتى العام 1810، حتى ارتفع عدد النصوص وما يتصل بالأدب في هذه الأثناء بنحو كبير. والفضل في ذلك يعود إلى المطبوعات الشرقية التي لم تفتر. وفي محاولة استهدفت تسجيل كل الكتب الصادرة، أو التي لا تزال تحت الطبع، العربية، والفارسية والتركية، قام تيودور سنكر الذي اشتهر بوجه خاص من خلال عمله المعجمي (للشخصيات التركية والعربية) (في مجلدين بين عامي 1866 ـ 1876) بوضع (المكتبة العربية) في مجلد واحد لسنة 1840 الذي لم يصنف بحسب الحروف الأبجدية للمؤلفين بل بحسب تخصصاتهم، وبالمجلد الأول من مؤلفه(المكتبة الشرقية) لسنة 1846. وحيث إن العناوين كانت من الدرجة الثانية بالنسبة إليه، فقد افتقرت إصداراته بالذات إلى الدقة والثقة اللتين لا يمكن الاستغناء عنهما.

وقد انضمت أعمال سنكر فيما بعد إلى بعض المشروعات التي ترمز إلى الإصدارات الجديدة خلال العام نفسه. في مقدمتها (المكتبة الشرقية) لكارل فريدريش، التي احتوت على سجل بالنتاج المطبوع لألمانيا، وفرنسا، إضافة إلى إنجلترا ومستعمراتها في مجالات اللغات والأديان والآداب والتاريخ وجغرافية الشرق خلال الفترة من (1875 ـ 1882)، ومن ثم

(الصحيفة الأدبية لعلم اللغة الشرقية) التي تغطي الفترة من (1846 ـ 1920) لعالم الدراسات الهندية آرنست كوهن (في 4 مجلدات مع المسرد)، وأخيراً (البيليوغرافيا الشرقية) عن الفترة من (1888 ـ 1911) التي قام بإدارتها موللر أولاً، وتولاها بعد موته ي. كوهن ثم لوسيان شيرمان منذ العام 1893، ثم قضت عليها الحرب العالمية الأولى. وقد أخفقت محاولة إحيائها في العام 1926، وذلك لاستحالة جمع كل الوثائق المتعلقة بالموضوع وإعدادها.

وكان فلايشر ومعاونوه هم الذين اختاروا مخرج التقرير السنوي على كمال الفهرسة وذلك حين جعلوا من تقديم تقرير سنوي حول حالة الدراسات الشرقية إلى مجلس جمعية المستشرقين أمراً ملزماً. لكن الخطة سرعان ما أثبتت عدم صلاحيتها للتنفيذ، ولم يستطع فرد واحد إنجاز العمل بصورة مرضية، كما أن تنفيذه من قبل مجموعة أدى إلى تقرير غير متجانس وغير منتظم ومليء بالثغرات.

وفي مجال قواعد اللغة، أراد فكتور شوفان الذي شغل كرسي الدراسات الشرقية في جامعة (لوتيش) منذ العام 1872، أراد بعمله البيبلوجرافي استكمال العمل الذي بدأنه شنورر. وقد صرف شوفان النظر كلية عن الأعمال المطبوعة في الشرق لأن معظمها لم يكن متيسراً للتداول وأنه أولى القيمة للتشريح. (وبرغم ذلك فإن الإشارة (*) التي ترمز إلى (لم أشاهد) كثيراً ما تظهر في كتابه. وبعد عمل تمهيدي استغرق عشرين سنة، وحوالي 7000 مجلد للصحف، بدأت الطباعة في سنة 1892. وفي المجلدات التسعة الأولى عالج من حيث الجوهر كتب أدب السمر الشعبي العربية. (الأمثال المجلد الأول)، كليلة ودمنة مع معالجاتها (المجلد 2)، الأساطير وروايات الفروسية (المجلد 3)، ألف ليلة وليلة (المجلد 4 و 5)، سندباد، والدراسات من حوله (المجلد 6)، وأخيراً عدة مجموعات من الحكم والأقوال المأثورة. وهو في هذا لم يكتف بالبيانات الجافة حول السير، بل أرفقها ببعض الإشارات النافعة. وهكذا نجد أن المجلدين الرابع والخامس احتويا على مضامين مختلفة من قصص ألف ليلة وليلة في تسلسل أبجدي

ومرشد للمخطوطات، الإصدارات والتراجم مع النظائر والمرشد إلى الموضوعات. وقد تمثلت قوة شوفان في درايته بتاريخ الأدب المقارن، الأساطير والخرافات المقارنة وغيرها من النتاج الشعبي. وإن المجلدات الثلاثة الأخيرة من كتابه حول القرآن والحديث (المجلد الرابع)، ومحمد (المجلد الثامن)، والإسلام (المجلد التاسع) لسنة 1922، تبين أن العلوم الإسلامية بعيدة عن متناوله. ولم يفرغ من العمل فيما جمع من مراجع حول الحقوق، والفلسفة، والطب، والعلوم الطبيعية، وهكذا فقد ظلت فهرسته مجدوعة.

وقصر علماء آخرون نشاطهم في سياق الفهرسة على نطاق أضيق. وهكذا اعتمد (يوهان جورج فنريش) (1787 ـ 1847) في الكتاب الأكثر قراءة الحائز على جائزة الشرف (حول النص اليوناني للكتاب المقدس والشروح السريانية والعربية والأرمنية والفارسية) لسنة 1842، الذي أملى فريشر تنقيحه، اعتمد بشكل رئيس على فهرس ابن النديم (في المراجعة المختصرة)، وابن القفطي، وابن أبي أصيبعة، وحاجي خليفة التي تمكن من استعمالها في مخطوطات فيينا.

ومن أجل معرفة الأطباء العرب الذين تتوافر الوثائق عنهم في ترجمات لاتينية، فثم الجزء الثالث من كتاب الجيب حول معرفة الكتب الخاصة والطب القديم لسنة (1828، طبعة ثانية مزيدة 1841، وطبعة 1926) قيد الاستعمال. وقد جمعها لودفيج كولانت (1791 ـ 1861) الذي كان في بادىء الأمر أستاذاً في الأكاديمية الطبية الجراحية في درسدن ومن ثم رئيساً لها في العام 1842. ومن بين مؤلفات فوستنفلد هناك شيء من هذا كعمله (تاريخ الأطباء العرب) و (المؤرخون العرب)، وهو أكثر من مجرد فهرسة للمصادر. هذا ويُعد كتاب موريتش شتاينشنايدر (1816 ـ 1907) الذي استغرق منه عمره كله من المؤلفات الغنية بأعمال الفهرسة من هذا النوع. وعلى غرار صديقه ليوبولد سونز، فقد كان واحداً من أبرز رواد التراث اليهودي وحقق لنفسه استحقاقاً دائماً من خلال فهارسه المثالية للمخطوطات

العبرية في أكسفورد، لايدن، ميونيخ، هامبورج وبرلين. وبروح منفتحة على العالم، وعزوف عن كل إصرار أعمى، تطلع نحو تأمل علمي مجرد لتاريخ اليهودية، حيث أسرته مشاركة اليهود في حضارة العالم المحيط بهم. وقد بدأ بدراسة العربية سنة 1838 في مدينة فيينا واستأنفها في لايبزيغ، حيث تلقى كل المؤثرات من أجل دراسة العلاقة بين العرب واليهود.

وقد سخر عمله في بودلاينا (1852 ـ 1860) وفي مكتبة برلين منذ العام 1869 للجمع الوثائقي الحثيث الذي سجل ثماره في العديد من المقالات وبعض الكتب الضخمة. وهكذا فقد عالج في العام 1871 العلاقات بين اليهودية والإسلام في كتابه (المصادر الهجومية والدفاعية باللغة العربية بين المسلمين واليهود والمسيحيين). وفي العام 1880 نال الجائزة التي خصصتها الأكاديمية الفرنسية بعمله (الترجمات العبرية في العصر الوسيط واليهود كمترجمين، مشاركة في تاريخ آداب العصر الوسيط). وأغلبها من مصادر مخطوطة، وذلك في مجلد ضخم يربو عدد صفحاته على الألف. وفي استحقاق آخر لجائزة الأكاديمية الفرنسية هذه عن السنة 1886، تمخضت (الترجمات العربية عن اليونانية) التي لم تظهر للأسف في صورة كتاب، بل نشرت على حلقات في صحف مختلفة بين العامين (1889 ـ 1896) وتُعد هذه الوثائق من المصادر التي لا يُستغنى عنها حتى يومنا هذا.

62 ـ الدراسات العربية في فرنسا منذ 1870 حتى 1914

كما سبق القول: فقد تسلّم ديفريميري في العام 1870 كرسي الدراسات العربية في الكلية الفرنسية. خلفه في العام 1884 الشاب الموهوب ستانيسلاوس جويار الذي توفي بعد أشهر قليلة فقط. وبوصفه أستاذاً سابقاً وقام بتدريس العربية والفارسية، فقد كان لغوياً قديراً. وقد شارك في إعداد كتاب الطبري ـ طبعة لايدن، وأعد المجلد الأخير من الترجمة الفرنسية من جغرافية أبي الفداء. كما وضع نظرية طريفة تقوم على الأسس الموسيقية للعروض العربي (الإيقاع)، أثرت بدورها تأثيراً مثيراً على البحث العلمي.

وبعد وفاته المبكرة تولى باربيردي فينار الذي سبق ذكره كرسي التدريس خلال الفترة من 1884 ـ 1908.

وفي السنة 1877 تقلد جوزيف ديرنبورج (1811 ـ 1895) مهمة تدريس الساميات في مدرسة (إتيوديه). وكما كانت الحال بالنسبة للمستشرق مونك، فقد ترعرع هذا أيضاً في بيئة يهودية ألمانية، وتتلمذ على فريتاج وعاد من بعد إلى باريس حيث عمل مصححاً في المطبعة الحكومية وللمطبوعات الشرقية بخاصة، وذلك خلال الفترة من 1847 ـ 1851. وقد أعد بالتعاون مع رينو الطبعة الثانية من مقامات الحريري للمستشرق دي ساسي بين عامي 1847 ـ 1851. وبوصفه واحداً من المتعاونين في (مجموعة الآثار السامية)، فقد قام بتجهيز أول مجموعتين للمجلد الأول من النقوش الحميرية في العامين 1889 و 1892.

لكن اهتمامه الأول انصب على الآداب اليهودية ـ العربية. وبالتعاون مع ابنه هارتفيج ديرنبورج، حقق لنحوي العصر الوسيط الشهير اليهودي أبو الوليد مروان بن جنّه المخطوطات الصغيرة في السنة 1880، وفي العام 1886 (كتاب اللُمى). وخلال الفترة 1887 ـ 1889 تبع ذلك شرح ميمون على المنتظم السادس للمشنا (الشروح اليهودية للتوراة) بالنص العربي الأصلي.

وفي الختام فقد خطط لسائر طبعة كتاب (جاؤن سعاديا) وأصدر منه مجلدين. وعمل ابنه على إصدار ثلاثة مجلدات أخرى، وبعدها تعطل هذا المشروع الضخم. وأعطى اهتمامه أيضاً لنسخة كليلة ودمنة المعدة يهودياً، وحقق في العام 1881 الكتاب سواء منه الترجمتين العبريتين أو النسخة المترجمة إلى اللاتينية المنبثقة عنه في السنة 1887.

وكان ابنه هارتفيج (1844 ـ 1908) الذي ورد ذكره قبل قليل قد درس على فلايشر وإيفالد وعمل بعد حصوله على شهادة الدكتوراه في مكتبة باريس، ثم في حلقة الدراسات اليهودية، وتقلد كرسي تدريس العربية الفصحى في (مدرسة اللغات الشرقية)، وفي العام 1885 في مدرسة (الإتيوديه) حيث عُهد إليه بكرسي العلوم الإسلامية الذي تأسس حديثاً. وتنوعت اهتماماته، فحقق ديوان النابغة مع ملحق تكميلي، ومختصر الجواليقي في المصطلحات العامية (1875)، وكتاب سيبويه في قواعد اللغة (1881 ـ 1889)، ومذكرات أسامة بن منقذ 1886 التي اكتشفها في مكتبة الأسكوريال سنة 1880، بالإضافة إلى عدد من قصائده بين عامي (1889 ـ 1893)، والفخري صحيح 1895. وقد ساعد أباه في الأعمال المشار إليها أعلاه، كما استأنف بعد وفاة والده العمل على إصدار سلسلة النقوش الحميرية. إلا أنه كان يفتقر إلى الدقة والموضوعية. كما أنه لم يفهم كيف يجد لنفسه موطىء قدم مع تطور العلوم الإسلامية.

ومن تلامذة إيفالد أيضاً، كان روبين دوفال (1839 ـ 1911) الذي أسند إليه كرسي الآرامية في الكلية الفرنسية، وإليه يرجع فضل الضبط في المعجم السرياني العربي (لبار بهلول) وإن لم تكن الطبعة مستكملة.

وتفحص هيرمان زوتنبرج الذي كان يعمل في المكتبة الوطنية، تفحص مخطوطات ألف ليلة وليلة الباريسية، واكتشف وحقق النص العربي لقصة (علاء الدين والفانوس السحري)، وكتب حول تاريخ النص دراسة خارقة. وفي السنة 1886 درس بتعمق نص قصة تنتمي إلى كليلة ودمنة، وقدم في العام 1888 الكتاب (بارلام ويوأساف) دراسة مفيدة. وفي العام 1900 حقق بترجمة فرنسية بعض أجزاء (غرر الثعالبي) (تاريخ نهوض الفرس).

ومن النقود الإسلامية للمكتبة الوطنية قدم هنري لافوا المتوفى سنة 1892 فهرسة ممتازة في ثلاثة مجلدات وذلك خلال الأعوام 1887 ـ 1891.

وكان تأسيس كلية للغات في الجزائر في العام 1879، وتلقي المدارس في كل من قسنطينة ووهران كراسي للغة العربية ذا أهمية كبرى للدراسات العربية. وفي هذه المدرسة عمل رينيه باسيه (1855 ـ 1924) منذ العام 1882 أستاذاً في بادىء الأمر ومن ثم مديراً لها. وبتنوع ثقافي، وبخبرة الناس والبلاد جراء القيام برحلات واسعة النطاق في شمال إفريقيا، ونظرية في مجال اللغة البربرية، سرعان ما انتزع زمام القيادة للعمليات الاستكشافية في المستعمرات الفرنسية انطلاقاً من الجزائر. إن هذا العمل الاستكشافي، الذي سجل معظمه في عدد من الدوريات، وجاء نشره بقرار من مؤتمر المستشرقين السادس عشر في مدينة الجزائر في: (البعثة العلمية إلى تونس لعام 1905)، ضاعف في المقام الأول من معرفة الطلائعيين، لكن علم اللغة والأدب لم يخرجا منها خاليي الوفاض أيضاً.

وفي مجال العامية العربية أسهم وليام ماركيز بعرضه الخاص باللهجة التلمسانية بشكل لم يسبق له نظير. وبنشر المصادر غير المعروفة حتى الآن حول شمال إفريقية، فقد استحق كل من ألفريد بيك (1873 ـ 1935)، وموريس ديلافو (المتوفى 1926)، وبالأخص أوكتاف هوداس (1860 ـ 1917) الشكر.

وقد قدم هوداس بالتعاون مع ف.ي. مارتل ترجمة مشروحة (لتحفة

الحكام) لابن عاصم بين عامي (1886 ـ 1893)، كما قدم بالتعاون مع و. ماركيز ترجمة مقبولة لحدٍ ما لصحيح البخاري (في أربعة مجلدات) وذلك خلال الفترة من (1903 ـ 1914). ولفائدة (مارسيلين بيرتيلوت) أعدّ وترجم النصوص العربية فيما قام ي. دوفال الذي سبق ذكره نصوص الكيميائيين السريان استناداً على مخطوطات بارسي ولايدن. وكلا الشخصين مهد بعمله لظهور مؤلف بيرتولت الخارق للعادة، الذي توجد في المجلد الثالث منه المختصرات آنفة الذكر بترجمتها ونصها الأصلي.

أما في مجال العمل اللغوي فقد أسهم في بعض الأحيان رجال لم يكونوا قد مارسوا هذا التخصص في حياتهم العملية. وهكذا فقد زاول ل. ليكريك، الذي كان يشغل وظيفة طبيب عسكري في الجيش الإفريقي بعد إحالته على التقاعد دراسة تاريخ الطب بنشاط وقدم من معجم الأدوية البسيطة لابن البيطار، (كان قد سبق إلى ترجمتها إلى الألمانية ترجمة سيئة نسبياً طبيب رئيس هيئة أركان الجيش جوزيف زونتهايمر) (1840 ـ 1842)، قدم ترجمة فرنسية أفضل من سابقتها بكثير في الفترة (1877 ـ 1883). هذا في حين أن كتابه (تاريخ الطب العربي) (في مجلدين 1876) على جانب آخر قد نُسق تنسيقاً سيئاً وحفل بأخطاء كثيرة.

ومن الأهمية بمكان كانت أعمال بعض الرجال ممن انخرطوا في خدمة الجيوش الاستعمارية الفرنسية. وقد عمل كليمنت هوارت (1854 ـ 1919) في شتى الميادين، لكن بحثه مال نحو التوسع أكثر من التعمق، وكان يعوزه الأساس اللغوي الراسخ كما يبدو من كتابه (البدء والتاريخ). وقد أضاف بكتابه حول (الخط والزخرفة في الشرق الإسلامي) لسنة 1908 ميداناً ندر طرقه في البحث.

وكان جبرييل فيراند (1864 ـ 1935)، وهو تلميذ ل. ي. باسي، يعمل في مدغشقر بادىء الأمر وانهمك في التعامل مع مسلمي الجزيرة. وبعدما تعرّف على سيام (1896 ـ 1898)، وفارس (1898 ـ 1900)، تحول ببصره نحو الجغرافية التاريخية للمحيط الهندي وشرق آسيا. وفي صلة بأعمال

رانودس، وضع في كتابه: (قصص الرحلات والنصوص الجغرافية العربية والفارسية والتركية. . .) النصوص المتعلقة بالموضوع مترجمة وزودها بتعليق مسهب. وأخيراً كتب مدخلاً قيماً لعلم الفلك الملاحي لدى المسلمين، وعمل على تأمين إصدار طبق الأصل من كتاب ابن ماجد وسليمان المهري (مراجع الإبحار). إلا أن خطته لترجمة هذه النصوص وشرحها لم تجد طريقها للأسف إلى التنفيذ.

بيد أنه وإن حقق الاهتمام المتأجج، الذي أظهره الباحثون في فرنسا مع مطلع القرن تجاه أقطار شمال إفريقيا، والانشغال بالإسلام ودوره التاريخي دفعة قوية، فقد استغرقت نتائج البحوث الإسلامية النقدية، كما هي الحال في ألمانيا وغيرها منذ نصف قرن، زمناً طويلاً في فرنسا حتى شقت طريقها.

إن (بيرنارد كاردي فو) (المولود سنة 1867) والذي تمتع بتأثير كبير من خلال كتبه حول الغزالي 1902، والإسلام (خمسة مجلدات) (1921 - 1926)، بنى تصوره الجماهيري (الإسلام، العبقرية السامية والعبقرية الآرية) (1899)، وكما يظهر من العنوان، على فرضية أن التشيع، كما عبر عنه جوبينار، هو ردة فعل آرية ضد الإسلام السامي، دون أن يقتبس من نتائج بحوث فلهاوزن شيئاً.

من جانب آخر فإن البحث الفرنسي، خطا خطوة حاسمة، ذلك أنه في الوقت الذي وجه في الباحثون المنهج التاريخي النقدي وجهة مغايرة لمعاينة أفكار الإسلام الدينية والسياسية وتاريخها، وجه الباحثون الفرنسيون عنايتهم بقوة أشد نحو الظواهر الاجتماعية، نحو القبائل، والتجمعات البشرية، والفرق، والجماعات، والطوائف، والمتآخين، وتطلعوا من وراء ذلك إلى مصادر مهمة وفيرة من أجل مجتمع مستقلبي للإسلام. ومثل هذا التطور كمن في طبيعة التاريخ. فإذا ساد الرأي مرة بأن كل ظاهرة تاريخية هي محتمة في نظر التاريخ المعاصر ولا حق لها في التعميم، فقد أصبح لزاماً على عين الباحث الرقيب، لدى معاينة هذه الحتمية، إن آجلاً أو عاجلاً، أن تنصرف عن الظاهرة وتلتفت إلى المحيط الذي ينتمي إليها. وأضيف إلى

ذلك أن علم الاجتماع في فرنسا بلد (كومتيس)، حصل في زمن مبكر جداً على حق المواطنة. وهكذا فقد أسس في السوربون في العام 1902 كرسي لعلم الاجتماع الإسلامي. وقد برهن أول أستاذ شغله وهو آ. لي شاتالبير (1855 ـ 1929) من أعماله وبخاصة عمله (الإسلام في القارة الإفريقية) (1889) أنه ذو اطلاع واسع وملاحظ حاذق، كما أظهر بالطبع أيضاً أنه لم يتلق في المدرسة دروساً في اللغة. وفي العام 1905 انتقلت إليه قيادة البعثة العلمية إلى المغرب. وضمن هذا السياق أصدر منذ العام 1907 (مجلة العالم الإسلامي)، وهي أول مجلة تتخصص في الدراسات الإسلامية، واستمر صدورها حتى العام 1926، وعملت على مد البحث بقدر كبير من المصادر المهمة لدراسة الإسلام في وقتنا الحاضر، وقد استأنفت المجلة عملها من خلال (المجلة الإسلامية).

63 ـ الدراسات العربية في النمسا منذ العام 1870 حتى 1914

يشكل جوزيف فون كاراباكي (1845 ـ 1918) أهم ظاهرة بين مستشرقي فيينا في مطلع القرن. بيد أنه وإن اجتاز المنافسة في تدرجه الأكاديمي من خلال تأهيله بنجاح، حيث بدأ أستاذاً مساعداً في 1874، ثم أستاذاً في 1884، ثم عضواً في 1888، ثم سكرتيراً دائماً للأكاديمية في العام 1898، ثم أميناً لمكتبة القصر، إلا أنه نال من عمله من كونه دبلوماسياً طاف العالم أكثر من عائده وهو أستاذ جامعي. وبفن تاريخي، واهتمام بالغ، وبثقافة عالية، وتمسك بالاطلاع على كل مكتشف جديد دائماً، تحرك بولع بعيداً عن الطرق العسكرية، في ميادين الآثار الإسلامية الشاسعة، وتاريخ الفن، وعلم النقود[1]، والنقوش، وبخاصة البحث في أوراق البردي العربية التي عرض عليه منها مادة وفيرة من مجموعة الدوق رانير 1884 التي حصل عليها. وقد عرف كيف يسلسل كل موضوع بشكل آسر وفير في سياق تاريخي ضخم، برغم أنه وقع غير مرة في أخطاء القراءة والشرح بسبب استسلامه لخيال أطلق له العنان.

إن أول من قام بتدريس العربية بطريقة منهجية متشددة في جامعة فيينا كان إدوارد ساخاو. وقد مثل منذ العام 1869 الدراسات السامية بتكليف خاص ومنذ العام 1872 بصفته أستاذاً دائماً، لكنه ذهب في العام 1876 إلى برلين بعد استدعائه إليها. وقد تخرج في مدرسة (دافيد هانيريش موللر)

(1) أسس بالتعاون مع كارل هوبر (المجلة النقدية في العام 1869).

(1846 ـ 1912) الذي آتى عمله أكله كأحسن ما يكون خليفة لساخاو.

وينحدر موللر من بوكزاكس في بلاد الغال وتلقى ثقافة يهودية سلفية. لكنه بتأثير من الجالية اليهودية الغالية، ذهب إلى برسلاو لينضم إلى الحلقة الدراسية الدينية اليهودية التي تأسست في العام 1854، ومن هناك توجه إلى جامعة فيينا حيث انصرف إلى الدراسات السامية بوجه خاص. وفي العام 1873 ذهب إلى فلايشر في لايبزيغ ومن هناك إلى نولدكه في شتراسبورج. وفي العام 1875 حصل على اللقب العلمي في فيينا ثم على حق ممارسة المهنة في العام 1876. ثم انتقل إلى لندن، فباريس، وإستانبول لدراسة المخطوطات فيها، وفي العام 1881 أصبح أستاذاً غير منتظم ثم أستاذاً نظامياً للغات السامية في العام 1885.

وقد استهل موللر عمله العلمي بدراسة معجمية (كتاب الفرق 1875)، ثم نودي للمشاركة في طبعة الطبري ـ لايدن. وفي استانبول أعدّ مقارنة بين المخطوطات وأعد تاريخ الفترة من 99 ـ 120 للهجرة (صدرت بين عامي 1885 ـ 1889). وقد الوقت ذاته شُغل بوصف الهمداني لشبه الجزيرة العربية الذي أشار إليه شبرنجر مراراً وتكراراً بالنظر لأهميته. وقد وضع النص في طبعة اعتمدت على ثلاث مخطوطات متوسطة في العام 1881. وأعقبه بالحواشي النقدية التي تحتوي على قراءات لمخطوط لم يستعمل في رزمة النص، وعلى ملاحظات لتبيان طائفة كبيرة من القضايا، إلى جانب الفهارس التي أولاها عناية فائقة. وقد حفزه الهمداني على الاشتغال بجنوب الجزيرة العربية. وتشجع على دراسة البيئة من خلال عمله بالكتابات التي جمعها (سيجفريد لانجر) (1847 ـ 1882) في أثناء رحلته التي انتهت نهاية مأساوية (عبر الآثار العربية الجنوبية في متحف البلاط الفني التاريخي)، ومن خلال (النصب التذكارية السبئية) الذي أصدره بالتعاون مع ي. هـ. مورتمان وإسهاماته المتفرقة العديدة. ومن النصب التذكارية المحفورة المجلوبة من الحبشة 1894، انصرف للعمل في أقدم نقوش ملكية. ولكونه محاضراً غير متفرغ، تمكن من إيقاظ الرغبة في (إدوادر جلاسر) نحو جنوب جزيرة

العرب، ثم اجتهد في الحصول على الأسلاب الكثيرة من نسخ النقوش وصورها بالإضافة إلى يومياته عن رحلاته الأربع خلال الفترة من (1882 حتى 1894) من أكاديمية فيينا. وقد ترأس موللر نفسه حملة جنوب الجزيرة التي أوفدتها أكاديمية فيينا خلال العامين (1888 ـ 1889) إلى عدن، سوقطرة وساحل مهرة. على أنه وإن لم تتمكن الحملة من التوغل داخل البلاد بسبب خلاف دبّ بين موللر والنبيل كارلو لاندبيرج ـ هالبيرجر الذي ارتؤي قائداً للرحلات في تلك البلاد، فقد تمكنت من جلب صور لنصوص من اللغات التي لا زالت حية في جنوب الجزيرة حتى وقتنا الحاضر كالأمهرية، والسوهرية، واللغة الصومالية.

وقد شارك موللر أيضاً بالعمل في هذه المواد بمجلداته الثلاثة حول اللغتين الأمهرية والسوقطرية، وأصدر مما جمع تلميذه فلهلهم هاين (1861 ـ 1903) من نصوص أمهرية وحضرمية على ساحل مهرة بين العامين (1861 ـ 1903) بعد موته المبكر. وبعد افتتاح المؤسسة الإسرائيلية التعليمية اللاهوتية عام 1893 على غرار حلقة بحث برسلاو، ألقى فيها موللر محاضرات في تفسير التوراة والفلسفة الدينية.

وفي محاضرة له حول (إيسيشيل)[1]، حاول تسليط الضوء على التطابق الفكري والشكلي في البنية التركيبية للإصحاح 14 الصفحة (12 ـ 23) من خلال افتراض مقطع وترنيمة. ولقد وجد الظواهر نفسها لدى الأنبياء الآخرين أيضاً وفي الكتابات المسمارية فاستنتج من ذلك أن الشعر السامي القديم يشير لكونه الملامح الجوهرية المكونة للمقطوعة والترديدة. أجل بل أراد اقتفاء أثر بقايا شعر سامي في أناشيد جوقات الأعمال المأساوية اليونانية. وقد ضمن كتابه (الأنبياء في هيئتهم الأصلية) (1896) هذه النظرية. وقد احتوى المجلد الثاني نص 18 سورة إلى جانب مواضع الأنبياء في العهد القديم، وأصيب بخيبة أمل كبرى حين لم تقابل بأي استحسان. ولم يكن

---

(1) موطن أقدم الشعوب السامية.

سعيداً كذلك لدى مناقشة القضايا الحقوقية التاريخية التي فرضها قانون حمورابي الذي اكتشفته أعمال التنقيب الفرنسية في سوسه سنة 1902 على البحث. ففي كتابه: (قوانين حمورابي وصلتها بالتشريع الموسوي والوصايا الاثنتي عشرة) تبنى الرأي القائل بأن قانوناً وضعياً قديماً نقله إبراهيم من خرائب بابل إلى كنعان، ما لبث أن أصبح في وقت لاحق دستوراً للبشرية في الوصايا الموسوية العشر.

وقد كمنت قوة موللر في اللغة التي تعلم منهجها في مدرسة ساخاو، فلايشر ونولدكه. وقد عالج في محاضراته كل اللغات السامية وشرح نصوصاً أدبية، نقوشاً ووثائق. وقد جذبت سمعته الكثير من المستمعين حتى في البلدان الأجنبية.

وفي مدرسته تخرج جميع النمساويين المتخصصين بالدراسات السامية فيما بعد.

ومن رهطهم بدأ خليفته التالي رودولف جيير (1861 - 1929) مسيرته العلمية كأستاذه بإصدار دراسة معجمية لكتاب الوحوش (الأصمعي). ثم عمل بعدئذٍ بهمة في حقل الشعر العربي، حيث قام في هذا السبيل بحشد مجموعات ضخمة من المصادر المخطوطة والمطبوعة. وقد أخفقت محاولته لإعادة نظم القصائد المستفادة من ابن حجر في العام 1892 بسبب حالة البحث وطبيعة الأوضاع. من جانب آخر فقد استطاع تقديم إضافات وملاحق جمة إلى طبعة (أهلفاردت) حول (رؤبة) في كتاب له لسنة 1908، وكتابه (مساهمات في ديوان رؤبة). وبرغم ذلك فقد ظل (الأعشى) الذي سبق أن خطط توربيكه لإصدار ديوانه بمنزلة العمل الذي استغرق عمره. ففي بادىء الأمر أصدر (جيير) في العامين 1905 و 1919 قصيدتين من ديوان الأعشى مع الترجمة والشرح، بحيث أورد إلى جانب كل موضع يستدعي الانتباه طائفة كبيرة من المقابلات من كل الشعر العربي القديم. وعلاوة على ذلك عالج في ست نقاط، استدراكاً للمجلد الأول، عدة مصطلحات وموضوعات تتعلق بشعر الخمر. وبذلك أصبح كلا المجلدين مرجعاً علمياً للتعابير النموذجية

في الشعر القديم بالقدر الذي وردت في القصيدتين اللتين عالجهما. وفي العام 1928 صدرت الطبعة الكاملة لشعر الأعشى التي تضمنت، عدا الديوان، وغيره من أشعار الأعشى الشهير، قيس بن ميمون، مخلفات عمه المسيب بن علس الشعرية، والمتفرقات الشعرية للشعراء الآخرين عدا الأعشى. والملاحظات التي احتلت مساحة أكبر من النص نفسه بسبب الأخذ بسائر الروايات ومعظم تعديلاتها التي لا وزن لها من الناحية النقدية في النص، فصلت في ملحق خاص آخر. وقد حال الموت دون تمكن جيير من الحصول على مقارنة مخطوط رامبور الذي لم يعرف به إلا بعد الانتهاء من الطبع، وعلى ترجمة للديوان طالما تمناها المرء. ومع ذلك يظل عمله برغم عدم استكماله شهادة ناطقة على سعيه الذي لا يفتر. وتحت إدارة (جيير) أثبت بعض تلامذة موللر الشباب أيضاً جدارتهم العلمية في حقل الشعر العربي القديم: فقد تناول بيرنهارد جايجر بالعمل معلقة طرفة في العام 1905، وانصرف فيما بعد إلى الدراسات الإيرانية. لكن تجدر الإشارة بشكل خاص هنا إلى (تادويس كوفالسكي) المتوفى في العام 1948 والذي تلقى علومه في جامعة وارسو في وقت متأخر. فقد قدم في العام 1914 طبعة ممتازة من ديوان قيس بن الحاتم مع الترجمة، والشرح، ومدخل عرض فيه لحياة الشاعر على خلفية العلاقات السياسية والاجتماعية في المدينة حوالى القرن السادس نقدياً. وفيما بعد وجه كوفالسكي عنايته للعمل في حقل الدراسات التركية. وحيث إنه لم ينس حبه في صباه، فقد افتضح ذلك في طبعة ديوان كعب بن زهير التي صدرت بمقدمة كتبها بعد وفاته (فريتز كريكوف) في مجلة أكاديمية العلوم البولونية.

وقد أصدر أوجوست هافنز (1869 ـ 1914) أستاذ اللغات السامية السابق في جامعة إنسبورك، أصدر في العام 1894 كتاب (الخيل) للأصمعي، ومن ثم كتاب (الساعة) وثلاث دراسات أخرى نشرت بادىء الأمر في مجلة (المشرق)، ومن ثم في (مجلة اللغة العربية) التي أصدرها بالفرنسية كل من (هافنز وشيخو). وفي العام 1905 تبعت في عمل متقن مماثل (متون المعاجم

العربية)، وأخيراً في العام 1913 (ثلاث كتب مصادر عربية حول الضاد) وبمشاركة من ب.آ. صالحاني. أما رسالة (قطرب) حول المفردات وأضدادها فقد أصدرها تلميذه (هانز كوفلس) بين عامي (1896 ـ 1947).

وقدم (نيقولاس رودوكاناكيس) (1876 ـ 1945) أول ما قدم طبعة ممتازة لديوان (عبيد الله بن قيس الرقيات) أرفقها بترجمة ومدخل يحتوي على تحليل لشعره الذي يكتسي أهمية تاريخية فضلاً عن دراسة نقدية حول قدر الشاعر. كذلك من حيث تقنية الطبع، فقد كانت نموذجية ولو أنها استندت على نسخ لمخطوطة من مخطوطات استانبول لم يتمكن الناشر من الإدلاء بشيء حول طبيعة قراءتها إلا في الدراسات والتقارير المسهبة (الصفحات من 326 ـ 340). أما من الناحية المنهجية، فقد اكتست مقالاته الأدبية التاريخية حول الخنساء وقصائدها في الرثاء (1904) التي تمثل المحاولة الأولى لتحليل نقدي للأسلوب في مجال الشعر العربي القديم، اكتست أهمية خاصة. وفي السنة نفسها اقتبس عن واحد من جنوب الجزيرة بطريق المشافهة كان قد حضر مع (هاين) إلى فيينا، اقتبس نصوصاً نثرية (سجع) وشعرية بلهجة ظفار الدارجة، وقام في العام 1908 بنشرها مع الترجمة (الحملة إلى جنوب شبه جزيرة العرب المجلد 8). وقد أصدر المعجم والقواعد في العام 1911 (المجلد العاشر). ثم اتجه رودوكاناكيس إلى العمل في مخلفات جلاسر. وبعدما فرغ من فرز الموضوعات وتجميعها بحسب موضوعها، نجح في طلب معرفة حضارة جنوب الجزيرة بشكل حاسم وذلك إلى جانب الشروح اللغوية المتفرقة.

وقدم ماكسيميليان بتنر (المتوفى 1918 من شعر الحجاج عملاً قياسياً)، ثم التفت إلى التركية والفارسية، وفي الختام إلى العمل في ميدان اللغات الأمهرية بنجاح فائق. (اللهجتين السقطرية والشادرية). وعلى غراره، فقد وهب فرريدريش كريلتز نفسه لدراسة التركية والوثائق العثمانية بشكل خاص.. توجه تلامذة موللر الآخرون نحو الشرق القديم، من ذلك أن (بدريش هروزني) (1879 ـ 1952) الذي عثر في العام 1915 على حل لمسألة الحثيين ودرّس منذ العام 1919 في جامعة براغ.

64 ـ ألويس موسيل

إنّه وإن كان (ألويس موسيل) (868 ـ 1944) قد قام بأبحاثه الطوبوغرافية التاريخية في شمال شبه الجزيرة العربية، سوريا وبلاد ما بين الرافدين بدعم من أكاديمية العلوم في فيينا وسواها من الجهات الرسمية النمساوية، فإنه لا يعد، برغم ذلك، من المنتمين لمدرسة فيينا. فقد صمم منذ أن كان طالباً في حلقة الكهنة الدراسية بمدينة (أولـم) أن يرى مدن الكتاب المقدس التاريخية بأم عينيه كي يفهم من طبيعة البلاد، ومن النمط العقلي لسكانها الذين لم يتبدلوا منذ عهد موسى عليه السلام ـ كما ذكر ـ الكتاب، ولكي يقف على السبب الذي جعل الوحي السماوي وقفاً على الساميين. وبرغم فقره وعدم مقدرته اللغوية، فقد مضى خلف هذا الهدف بعزم لا يلين. وأخيراً وبعدما حصل في العام 1895 على إجازة للدراسة في المدرسة الدومينكانية التي كانت قد أسست حديثاً في القدس، سرعان ما تنبه إلى أن الرحلات العادية لم تقدم له ما كان يبحث عنه. ودون أن يخشى الدخول في نزاع مع الدومينيكان، ارتحل من تلقاء نفسه عبر الأردن إلى مؤاب وإيدوم ولكن دون أن يقوم بجمع البيانات المتوافرة لديه من المصادر الطوبوغرافية. بعد ذلك، وبدعم من رابطة العلماء التشيك وتشجيع من دفوركس، توجه إلى اليسوعيين في بيروت، ومنها أدى زيارة قصيرة أخرى في العام 1897، حملته من غزة إلى البتراء وتدمر، وهناك سمع بالقصور شرقي مأدبة التي بنتها الجن لسليمان بحسب معتقدات سكانها. وبمبادرة من د. هـ. موللر، وتأييد من أكاديمية فيينا للعلوم، تمكن موسيل من القيام برحلة جديدة في العام 1898 وتأدية زيارة خاطة مع أصدقائه البدو إلى (قصرة عَمرة) المزين

باللوحات والذي كان يسكنه الخليفة الوليد الثاني، وسط مخاوف من غزو معادٍ قد يتعرض له في كل حين. ولقد كان اكتشافاً مفاجئاً أن تقرير موسيل قد اصطدم بالريبة والرفض بادىء الأمر. ثم استخدم من قبل رئيسه مدرساً لدى الدولة في مدرسة إعدادية بمدينة (أولم)، ثم التمس من وزارة الشعائر الدينية في فيينا أن تمنحه الوسائل للقيام برحلة استكشافية جديدة. ولقد وطد نفسه لهذه الرحلة في مكتبات لندن وكامبردج وفي جامعة برلين، حيث تلقى على ديليتش، ساخاو، فنكلر وجنكل، فضلاً عن تعلم رسم الخرائط. وهكذا فقد زار في العام 1900 قصر عمرة مرة ثانية، واستطاع قياس وتصوير البناء في شروط أكثر راحة، ونسخ الكتابات ووصف النقوش. ولقد أثار تقريره اهتماماً مبيناً. وأكاديمية فيينا للعلوم، وقد اقتنعت بأهمية هذه الاكتشافات، أوفدته في العام 1901 إلى قصر عمرة مرة أخرى بصحبة الرسام آ. ل. ميليش الذي قام بنسخ اللوحات. وقد قبلت الأكاديمية الآن أيضاً نتائج أبحاث موسيل، وكانت قد رفضت اقتراحاً سابقاً قدمه (برونوس) بنشر اكتشافاته واكتشافات موسيل معاً. وهكذا فقد أرسل في السنة 1902 إلى البتراء لجمع آخر بيانات تتعلق بوضع خارطة لهذه المنطقة ظهرت إلى الوجود في العام 1907.

وأخيراً استطاع في السنة 1904 أيضاً، بعد استقالة تيودور كوهل رئيس أساقفة أولم الذي كان يناصبه العداء، استطاع الانتقال إلى فيينا حيث وضعت تحت تصرفه نفائس مكتبة البلاط الغزيرة للنشر. وفي العام 1907 صدر كتابه الرائع (قصر عمره) الذي احتوى نصه على تقرير لموسيل حول اكتشاف القصر، ومقالة (حول طوبوغرافيا وتاريخ إقليم عمرة حتى سقوط الدولة الأموية) كما احتوى على عدد من مساهمات المتخصصين على اختلافهم. وقد حاول (كاراباكيك) في مشاركة أخرى له أن يثبت بأن المبنى (الذي قرر موسيل فوراً بأنه قصر لبني أمية) لم يشيد إلا في السنة 850 بعد الميلاد، لكن هذا التأريخ سرعان ما نفاه نولدكه (المجلد 61 من مجلة جمعية المستشرقين ص 224). وفي السنة نفسها بدأ صدور كتابه (البتراء العربية)

(في أربعة مجلدات وعلى نفقة أكاديمية العلوم بين عامي 1907 ـ 1908)، حيث قدم فيه، في صيغة تقرير طوبوغرافي لرحلة، قدم بيانات دقيقة وموثوقة عن البلاد، طرقها، آثارها ومنازلها الحالية، وفوق ذلك، في تقرير تناول الجنس البشري، قدم وصفاً يستند على دراية دقيقة، للسكان، وعاداتهم، وتقاليدهم. ولقد تبين له منذ زمن بعيد أن سيناء اليوم لا يمكن أن تكون مطابقة لسيناء كما جاء ذكرها في التوراة، وأن الآراء المتداولة بين الناس حول موسى وبدايات الديانة الموسوية لم تكن صحيحة. لكنه عرف الآن أيضاً أنه لا يمكن العثور على الأحفاد الساميين الفعليين لا المزورين في شعوب البتراء العربية المختلطة. لقد أمل الآن في العثور عليهم بين بدو شمالي الجزيرة العربية الذين يرعون الإبل. ولهذا السبب فقد عقد العزم على أن يشد الرحال في الرحلة القادمة (1908 ـ 1909) إلى إحدى القبائل الأصيلة (قبيلة الرولة من العنزة) ورافقها سنة كاملة في تنقلاتها. ومكافأة له على مشقة أسلوب حياة تحملها قد لا يتصورها أحد، فقد درت عليه هذه الإقامة غنائم علمية غزيرة. فقد وضع من منطقة الصحراء العربية خارطة متقنة، وعاد بعدد كبير من الأهازيج والأشعار، وكسب، وهذا هو الشيء الأهم، نظرة في حياة وأسلوب تفكير البدوي الأصيل كما لم يعرفها قبله أي مسافر إلى جزيرة العرب.

أما الرحلة الثانية فقد قادته في العام 1900 إلى شمال الحجاز (من معن إلى العلا). وفي رحلته الثالثة تعرف على التدمريين وبلاد ما بين الرافدين الوسيط. أما رحلته الأخيرة فكانت بين عامي (1914 ـ 1915) من تدمر عبر الصحراء إلى النفود ثم إلى الفرات شمالاً إلى ما بين النهرين ثم غرباً وأخيراً إلى تدمر في طريق العودة، مستكملاً بذلك الحلقة الدائرية لمنطقة الصحارى العربية الشمالية ـ السورية ـ وما بين الرافدين. وفي العام 1917 أرسل مرة أخرى إلى الشرق لرعاية مصالح الرعايا النمساويين فيه.

وبعد الحرب العالمية الأولى استدعي موسيل، الذي تولى منذ العام 1909 منصب أستاذ لعلوم الكتاب المقدس المساعدة واللغة العربية في كلية

لاهوت فيينا، استدعي بمبادرة من (دفوراكس) إلى براغ لتدريس العلوم المساعدة الشرقية والعربية الحديثة.

وكان شغله الشاغل حينئذٍ نشر أخبار رحلاته التي قام بها خلال الفترة من 1908 ـ 1915. وقد صدرت، بالنظر إلى استحالة الطباعة في براغ بسبب حالة ما بعد الحرب، بمساعدة أمريكية باللغة الإنجليزية في ستة مجلدات رسمية بين عامي 1926 ـ 1928. أما الخمسة الأولى التي كانت تحت عنوان: (شمال الحجاز، الصحراء العربية، الفرات الأوسط، تدمر وشمالي نجد) فلا تعطي تقرير الرحلة الطوبوغرافي في تعاقب زمني للرحلات المتفرقة بل في ترتيب جغرافي. كما أنها لا تتضمن مثل المجلدات السابقة حول البتراء العربية مجرد عدد كبير من أسماء الأماكن، بل مساهمات قيمة أيضاً حول الجغرافية التاريخية، بحيث يكشف موسيل مرة أخرى عن اطلاع شامل في المصادر الأوروبية والشرقية المتعلقة بالموضوع ابتداء من الكتابة المسمارية والكتاب المقدس وانتهاءً بالوقت الحاضر. وإن عدداً كبيراً من هذه المساهمات من الاتساع بحيث أحيلت على الملاحق، كالموضوعات التي تتناول جغرافية العهد القديم، كحالة (تابساكوس)، وأسواق الصحراء العربية، ومسيرة جوليان أبو ستاتا سنة 363 بعد الميلاد وهكذا. وحول قنوات ما بين الرافدين، وطريق الحج التي تنطلق من الكوفة، وقصور الأمويين، وحول الرصافة. ويستمر العرض غالباً حتى وقتنا الحاضر. وحيث إن موسيل قد عقد صداقات مع رجال دواخل شبه الجزيرة العربية الأسبقين شخصياً، فإن كتابه يتمتع بقيمة المصدر الذي يؤرخ لزمنه. ويستعرض المؤلف في ملحقين كبيرين تاريخ أسرتي ابن رشيد وابن سعود بإسهاب. وإلى جانب المجلدات الطوبوغرافية الخمسة هذه، ينضم المجلد السادس الذي يسلط الضوء على الحياة البدوية في كل العصور: (عادات وتقاليد بدو الرَوَلَه). وهو يحتوي على مادة لغوية غزيرة وبخاصة في صورة الأهازيج والأشعار التي سبق التنويه بها والتي يظل بحثها الدقيق إحدى مهمات المستقبل.

كان موسيل على يقين بأن ديانة بدو الجزيرة الرحل، الذين يؤمنون بإله

واحد، موجود، غير منظور لكنهم لا يعرفون كهنة ولا هيكلاً، لا قرباناً ولا طقوساً، لا بد أنه يتفقون والمحتوى الداخلي للتوحيد في العصر الأبوي[1]، في حين أن من مكملات الإيمان بالله في أديان الشعوب المستقرة، يأتي تقديس الأماكن المقدسة وما يصحبها من طقوس متشددة. وبتقديس الأشخاص كوسيلة بين المؤمن وشفيعه. وبدون محاولة للاستفادة من البحوث الإسلامية النقدية التاريخية، فقد حاول موسيل الوقوف على تطور تاريخ الدين الإسلامي من خلال تناقض هذين المذهبين، إذ وجد في ظواهر عودة ابن حنبل وصولاً إلى الوهابية محاولات لصناعة الأصل. ولقد كانت هذه التأملات موجودة من حيث المبدأ في الآراء المستخلصة دينياً من منشأ التصور الإلهي وكما عبر عنها الباحثون الكاثوليك بوجه خاص. وحيث إنه لم يعترف لهم (أي للجهات النمساوية) بسلطة على تقارير رحلاته، فإن قيمتها العلمية ظلت مطروقة كلياً من قبل التساؤلات المبدئية تلك. وفي تقارير الرحلات هذه يكون كتاب العمر للمستشرق موسيل قد اختتم. فلقد وضع فيها طوبوغرافية المناطق الصحراوية لشمالي الجزيرة، وسوريا، وما بين الرافدين على أسس جديدة، كما قدم أول معلومات يعول عليها عن المناطق البعيدة.

ففي تلك الأصقاع وقع جانب كبير من تاريخ الشرق والإسلام بالذات. وإن من يصرف عنايته لهذا التاريخ، يجد في شخص موسيل الذي عرف البلاد والعباد أيما معرفة، رائداً من نوع فريد.

(1) العصر الأبوي أو النظام الأبوي، نظام اجتماعي يتميز بسلطة الأب المطلقة على العشيرة أو الأسرة بانتساب الأبناء إليه لا إلى أمهم.

65 ـ الدراسات العربية في إسبانيا

نمت الدراسات العربية في إسبانيا بطريقة تختلف عما هي عليه في البلدان الأوروبية الأخرى، بدافع الاهتمام بماضي البلاد والمشاركة بدافع الحماس غالباً في الصراع الدائر حول طبيعة القرون الثمانية للسيادة الإسلامية وقيمتها. إذ تعد العمارة والنقوش، والعملات، والوثائق المحفوظة شاهداً ناطقاً على سطوة التأثير العربي في الألفاظ الإسبانية والأسماء الجغرافية لشبه الجزيرة. لكن الاهتمامات التاريخية القطرية والجغرافيا الوطنية نادراً ما ترافقت مع الإتقان اللغوي، حتى إن (دون باسكوال دي جايانجوس) (1809 ـ 1897) الذي درس على يد ساسي في باريس وأسهم بوصفه أستاذاً للدراسات العربية في جامعة مدريد في إحياء الدراسات العربية، لم يهبها (أي الدراسات) سوى القليل من وقته. فقد حقق على سبيل المثال كثيراً من النصوص الإسبانية في (مكتبة المؤلفين الإسبان)، وفهرس المخطوطات الإسبانية التابعة للمتحف البريطاني (في أربع مجلدات خلال الفترة من 1875 ـ 1893) وترجم جزءاً من كتاب المقريزي (تاريخ الأسر الإسلامية الحاكمة في الأندلس) (في مجلدين، 1829، 1843) وهي ترجمة ضعيفة لغوياً. وكذلك كان الوضع بالنسبة (لفرانشيسكو جافيير سيمونت) (1829 ـ 1897) الذي عرفناه زميل عمل للمستشرق دوزي، والذي كان يعمل منذ العام 1862 أستاذاً للعربية في جامعة غرناطة. فقد استغل معرفته بهذه اللغة من حيث المبدأ بوصفها أداة بحث مساعدة في مجال بحوثه التاريخية، حيث بالغ، بدافع الوقوف ضد تمجيد رومانسية العرب الأندلسيين، في تمجيد أهمية العناصر المسيحية الإسبانية في الحضارة العربية بصورة مستهجنة. وبنشاط

فائق جمع من المصادر العربية المسيحية المادة الخاصة (بتاريخه الحضاري حول إسبانيا)، (صدرت بين عامي 1897 ـ 1903 كمجلد ثالث عن الأكاديمية التاريخية). وقد وضع حصاد دراساته المعجمية في معجمه (الإسباني ـ اللاتيني الذي صدر في العام 1888). وهكذا فقد احتفظ الهولندي ي. دوزي بتطبيق منهج النقد التاريخي في دراسة الحقبة الإسلامية من تاريخ إسبانيا وإعطائه أرضية صلبة من خلال الإصدارات الموثوقة.

وفي إسبانيا نفسها أسس (فرانشيسكو كوديرازيدين) (1836 ـ 1917) الدراسة النقدية لفترة العرب التاريخية. وقد كان في الرابعة والعشرين من عمره حين راودته الرغبة في اكتشاف تاريخ موطنه وبمساعدة قواعد أربينوس في اللغة لتعلم العربية.

وفي الفترة الواقعة بين عامي (1861 ـ 1863) درس على جايانجوس في مدريد، بعدها عمل في جامعتي غرناطة وساراكونرا، وخلف أستاذه حين تولى كرسي اللغة العربية في مدريد. وبعد أن اقتنع بضرورة النشر، فقد أعد في العام 1868 بالتعاون مع ي. سافيدرا الطبعة التي عجل بها دي جايانجوس لكتاب ابن القوطية (تاريخ فتح الأندلس)، كما جعل كتابه (المكتبة العربية الإسبانية) في عشرة مجلدات، وإن كانت بغير هوامش ولا تخلو من أخطاء، جعله حافلاً بالمصادر الواسعة والمهمة للتداول حول تاريخ علماء مسلمي الأندلس. لكن اهتمامه الرئيس انحصر في التاريخ، كما أن جدارته كمنت في المناقشات الدراسية لمختلف قضايا بلده التاريخية، بحيث أقبل أيضاً تلقائياً على النصب التذكارية، والنقود، والنقوش، والوثائق، فألف أول مرجع عربي ـ إسباني لعلم النقود الأثرية مرتب منهجياً صدر في العام 1879 في المجلة التي أسسها تلميذه ي. ريبرا في العام (1903 ـ 1917) (المجلد 7 ـ 9، ساراكوستا 1903 ـ 1917)[1]. وبهاتين الشخصيتين، تلميذ كوديراس وخلفه يوليان ريبرا تاراجو (1858 ـ 1934)، اكتسبت الدارسات

---

(1) Estudios de historia arabe-espanola.

العربية في إسبانيا سمعة عالمية ولم يكن متخصصاً، ولا خريجاً، بل شارك في كل القضايا اليومية الحيوية العامة ونزل بصفة ناشر بكتابي (عودة الأرجوان) و (حضارة إسبانيا) لإصلاح البنية التعليمية ومن أجل التقدم الاجتماعي والسياسي. ولكونه مؤرخاً وجد أن المغزى من الحقبة الإسبانية العربية يتمثل في الرسالة الحضارية التي أدتها إسبانيا المسيحية كوسيط بين الشرق وأوروبا. وإن الرأي القائل بأن شعر تروبادور[1] نهج نهج الشعر العربي، وجد في عصر الرومانسية الوسيط صدى واسعاً لكنه أهمل من قبل المستعربين والروائيين، وبخاصة منذ أن رفض دوزي الأخذ بهذا الرأي. لكنه جُدد في العام 1912 من قبل ريبيرا في محاضرته حول (ابن قزمان) على نحو أوسع بكثير. ولم يكتف بإثبات التطابق الشكلي بين زجل ابن قزمان، من خلال التحليل النقدي للديوان الذي صدر في العام 1896 عن دار فاكسيميليان، وبين أقدم موشحات التروبادور، بل استبعد أسلوب الزجل اللغوي من شعر شعبي في لهجة شعبية رومانسية ازدهرت في الأندلس مع بداية القرن العاشر على أبعد تقدير. وعلى أساس من هذه الشروط المسبقة وضع نظريته بأن الشعر الأندلسي الوجداني الذي ينتمي إليه كتاب أغاني ابن قزمان، يقدم المفتاح لفهم خصوصية تفعيلات وتقنية سجع مختلف أنظمة الشعر الوجداني في العصر الوسيط، وبهذه النظرية التي لامست القضايا الأساسية لتاريخ الفكر الأوروبي، أعطى ريبيرا البحث دفعة قوية لا زال تأثيرها قائماً حتى اليوم. ولم تكن محاضرته الثانية[2] التي ألقاها في العام 1915 أقل تأثيراً والتي سعى فيها لإثبات فن قصصي إسباني قديم استمد من الأخبار العربية، ونفى الافتراض القائل بتأثير فن الغناء الفرنسي على الإسباني.

(1) التروبادور: واحد من طبقة الشعراء الغنائيين والشعراء الموسيقيين، الذين اشتهروا في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا من القرن الحادي عشر وحتى القرن الثالث عشر بعد الميلاد.

(2) Collection de estudios.

ولم تقتصر اهتمامات ريبيرا على تاريخ الأدب، فقد افتتح (كلية الدراسات العربية) بكتاب حول الأصول الشرعية للأراجون في العام 1897. وشارك في مجموعة نصوص بابلوجيلي جيل، وحقق في العام 1914 كتاب (الحسني) حول قضاة قرطبة بالعربية مع ترجمة إسبانية. وقد أوقف نفسه من أجل عناية أقوى بالعربية في إسبانيا، وعبر عن رضاه لمشاهدة تأسيس مدرستين للدراسات العربية في كل من مدريد وغرناطة وجريدة الأندلس.

ومن بين تلامذة ريبيرا كان أعلاهم رتبة خلفه (ميخويل آسين بالاسيوس) (1871 ـ 1944). وخلافاً لأستاذه فقد وهب نفسه لدراسة الأفكار الدينية في الإسلام بخاصة. فبالإضافة إلى الغزالي الذي التقى معه في كتاب أصدره في العام 1901 وفي عدة مقالات، شدّه بشكل خاص المفكرون المسلمون في إسبانيا. قد أعاد هيكلة النظام الفلسفي لأقدم تصوف في إسبانيا من خلال أخبارهم المتأخرة. وقد قدم عدة دراسات لأهم متصوفي إسبانيا المسلمة وهو ابن عربي وذلك في مجلة (أكاديمية العلوم التاريخية 1925 ـ 1928). لكنه أكثر ما توسع في دراسة ابن حزم. وعن دراسته لابن عربي، الذي فسّر كما فسّر غيره من المتصوفين (أسطورة) معراج الرسول وتنقله بين الجنة وجهنم رمزاً لصعود الروح البشرية للتعرف على الله، نبع أشهر كتاب لآسين في العام 1919، والقول بأن دانتي سبق له استعمال مصادر شرقية كان تنبأ به المهتمون. والآن قدّم آسين بالاسيوس من مؤلفات ابن عربي ومن مصادر كتب الحديث نظائر غزيرة على شعر دانتي واستخلص من ذلك أن الشاعر الإيطالي كان متأثراً (بأساطير) الرحلات السماوية هذه، التي نقل محتواها إليه المواطن الفلورنسي بينتي لاتيني الذي كان في كاتالونيا في العام 1260. ولم تلاق نظرية آسين في مثل هذا الطرح العنيف اعترافاً، وإن كان كتابه الغني بالمراجع والأفكار قد أماط اللثام عن مشكلات تاريخ وآداب العصر الوسيط التي أهملها وضع القرن 19 بسبب افتقاره للمصادر. لكن دراسة العلاقات المتبادلة بين الإسلام والمسيحية في العصر الوسيط تلقت نبضات مثمرة إلى جانب اكتشاف دانتي.

66 ـ مارتين هارتمان

إن المراجع التي توافرت لدى الباحثين في تاريخ الشعوب الإسلامية وحضارتها، صارت على مدار القرن التاسع عشر، بسبب رفدها بكم مستمر هائل من المصادر والمواد العلمية المعالجة، صارت من السعة، بحيث يتعذر على العلماء طرق هذا المجال طرقاً ثانوياً، وغدا اشتمال عقود التدريس على اللغات السامية أو أحدثها على أدنى تقدير ضرورياً. وفي فرنسا حسبت الإدارة الدراسية للمشاركة الضرورية في هذا العمل حسابها من خلال تقدم العلوم، حين أسست في العام 1885 في مدرسة (الإيتوديه) كرسياً للعلوم الإسلامية، والتي أعقبها في العام 1902 كرسي جامعي للعلوم الاجتماعية الإسلامية في الكلية الفرنسية. وفي ألمانيا كرّس مارتين هارتمان (1851 ـ 1918) الذي درّس العربية منذ العام 1887 في حلقة برلين للدراسات الشرقية، كرّس نفسه للاعتراف بالعلوم الإسلامية بأنها نظام علمي مستقل، وقدم للكشوفات من خلال بحوثه الخاصة دفعة قوية. وأقرّ بالفضل لمدرسة فلايشر بما قدمت من أساس متين. ومن خلال عمله مترجماً مستشاراً في القنصلية الألمانية في بيروت بين عامي 1876 ـ 1887، فقد اكتسب معرفة متعمقة في البلاد وأهلها. وفي ذلك الوقت ظهر كتابه (الدليل إلى اللغة العربية) الذي يقدم في جزئه السوري اللغة التي كان يتحدثها العامة حوالى سنة 1880 في سوق بيروت، في حين أن الجزء المصري المقابل استند على قواعد كتاب سبيتا لأسباب موضوعية. وفي رحلات أخرى قام بها زار تركستان ـ الصينية، وتركيا ومصر. وقد كان مولعاً أشد الولع بكل ما يتصل بتاريخ وحضارة العالم الإسلامي منذ بداياته حتى عصره الحاضر. وهكذا فكان أول من دوّن

(الأغاني الشعبية السورية)، وكتب حول هذا الموضوع في العام 1897 مقالة شاملة. وفي مناسبة أخرى جمع أغاني الصحراء الليبية، حتى إنه أمّ مصر خصيصاً من أجل معاينة ما قام بتسجيله على عين المكان ومن أجل استكماله. ودون أن ينصاع للاجتهادت المدرسية وبغير ما خجل من تقويمات أعماله، واجه الحقائق التي لم تلاق اهتماماً وتفحصها بنظر ثاقب، وجمع بنشاط جم كل ما يمكن أن يعينه على حلها. وهكذا فلم يعطه التأمل العفوي لاستعمال أوزان الشعر العربية في قصائد العصر الوسيط العبرية الحافز لعرض (فن النظم العبري كما جاء في مختصر عمانويل فرانسيس 1894)، بل دفعه أيضاً لتأملاته حول الوزن والإيقاع (1896)، وإلى الكتابة حول نشوء نوع البحر، وإلى وضع دراسات حول الموشحات الخارقة (1897). فإذا أميط اللثام في أعماله هذه التي دارت حول اللغة والأدب عن ولع مغمور لما هو شعبي، تكشفت هذه المودة للشعب بوضوح أشد في مساهماته حول استكشاف الرواد. وخلافاً لعدم الاكتراث الذي ساد قديماً والذي وصم فيه الأوروبيون الإسلام الحديث بالتخلف وكل تطور بالتقصير، أشاد بالتحولات الكبرى التي انتشرت قديماً في العالم الإسلامي، وشرع في جمع الوثائق الخاصة بهذه العملية المهمة. ومن هنا تمخضت على سبيل المثال أعماله حول الصحافة العربية. ولم يقتصر ذلك على المشرق العربي بل شمل بدائرة بحثه المنطقة الإسلامية كلها من الصين حتى شمال إفريقيا. وفي تعطش مستمر للنهل من المصادر، فقد قام بدراسات لغوية واسعة شملت اللهجات الكردية والتركية الشرقية، بل إن دائرتها اتسعت حتى طالت الصينية. وبمثل هذا التسلح النوعي والاعتماد على الوثائق العلمية، بدأ عمله الواعي في الجمع الذي مكن به البحث من مصادر جديدة حول الإسلام في الصين، والأدب الطاجكستاني، والكتابة باللغة التركية، بل تعداه إلى قضايا خلافية كثيرة كالتحديث في تركيا والقومية العربية وما إلى ذلك. ولم ينحصر اهتمامه في الحاضر فقط بأية حال من الأحوال بل تجاوزه إلى الماضي بهدف البحث عن المفتاح لفهم التطور التاريخي فيه. وهكذا فقد أردف كتابه (حول القضية العربية) بكتابه (محاولة حول آثار اليمن) بقصد تعليل وجهة

نظره حول الأوضاع الحكومية والاجتماعية لجنوب شبه جزيرة العرب قبل الإسلام وبعدم الارتياح لمجرد الاكتفاء بجمع المواد ووصفها، وهو الشيء الذي تكمن فيه أهم قيمة لعمل هارتمان في نظر من يستعملونها اليوم. تطلع إلى تنسيق مفيد لأكداس المراجع فوجده في علم الاجتماع، وحقق بذلك تفوقاً كبيراً على كل زملائه. بعد ذلك تعرّف من أحد أعمال رجل القانون آ. جاير على مفهوم الجماعة وعلى النظر إلى التاريخ من الآن فصاعداً بأنه ظاهرة للمجموعات البشرية أو الأفراد بوصفهم ينتمون إلى الجماعات. وانطلاقاً من الغرائز البشرية الأولى، على النحو الذي يعبرون به في وسطهم الأسروي والقبلي، وفي المحيط اللغوي، والتعامل الاقتصادي لسد الاحتياجات الاقتصادية، والتصورات الكونية الفردية والمجتمعية، ابتكر بالاستبدال نظاماً للاجتماع. وقد وصف الدولة بأنها صيغة للمجتمع البشري العليا التي تجد فيها المصالح المتشابكة للأفراد والجماعات توازنها النهائي. وطبق هذه القاعدة على المصادر الإسلامية، وسعى إلى تحسينها عن طريق المجموعات التاريخية الموثقة هناك. وقد أدى ذلك إلى تعمقه في دراسة أقدم كتب الفقه والحديث، فاطلع على موطأ مالك، ومسند أحمد، في البخاري وابن سعد، ووقف على الأهمية الجوهرية لرسالة الشافعي وكتاب الخراج لابي يوسف. غير أن طموحه تركز على فهم الإسلام كوحدة لا تتجزأ، أي ضرورة النظر لحاضر الإسلام كنتيجة حتمية لماضيه. وهكذا فقد ظهرت له الكتب التي يُعنى بها قطاع آخر من القراء، الإسلام: (تاريخاً، عقيدة، وتشريعاً 1909)، (والمحاضرات الخمس حول الإسلام) (1912). وبرغم احتواء نظام عمله على عناصر موضوعية، فقد كان على بيّنة من العجز عن فعل ما يكفي تجاه الوفرة المختلطة للحقائق التاريخية، لكن الاكتفاء بالحقائق المتفرقة كان يتعارض مع طبيعته الداخلية، وهكذا فقد حاول رسم صورة جامعة عمل على عدم افتقارها إلى الأحكام القيمة المثيرة. ومن أجل تنشيط الدراسات الإسلامية، المعاصرة على وجه الخصوص، فقد أسس في العام 1912 بالتعاون مع غيره (الجمعية الألمانية للعلوم الإسلامية)، وظل إلى أن وافاه الأجل أحد أنشط أعضائها العاملين،

فيما أصدر (جورج كامبفماير) (1864 ـ 1936) دورية (عالم الإسلام).

ولم تلاق استحقاقات هارتمان في ألمانيا اعترافاً رسمياً، فعلم الاجتماع الذي مارس بمناهجه بحوثه الإسلامية كان موضع شك من قبل الأوساط التي كانت تعد معايير علمية، فحورب من قبل معظم أساتذة التاريخ في الجامعات. يضاف إلى ذلك أن إدارات المعاهد العليا لم تر في تأسيس كراسٍ دراسية خاصة بالعلوم الإسلامية أي ضرورة. ونتيجة لذلك فلم تفتح أي جامعة أبوابها في وجهه كي يجود بإحدى أعظم مواهبه في مكان لائق ذي تأثير.

وبعد كفاح متكرر، تمكن في العام 1910 من إلقاء محاضرات في العلوم الإسلامية في حلقة بحث برلين، في حين لم يؤسس كرسي ثابت فيها للدراسات الإسلامية. غير أن العالم الخارجي قدر إنجازاته بما تستحق. أما في فرنسا، حيث كان يعرف العلماء قيمة علم الاجتماع، فقد أيقن الناس هناك أن هارتمان كان أستاذاً في العلوم الإسلامية.

67 ـ د. ص. مارجوليوث

في أوكسفورد، حيث لم تجد الدراسات العربية بحكم سطوة الكنيسة الأنجليكانية الشديدة خلال القرن 19 خدمة تذكر، فقد شهدت منذ تسمية العالم، المثقف، خفيف الظل متنوع الاهتمامات، دافيد صموئيل مارجوليوث، (1858 ـ 1940) أستاذاً متفوقاً للدراسات العربية، شهدت في العام 1889، ازدهاراً كبيراً. ولأنه عني بفقه اللغة التقليدي إلى جانب اللغات الشرقية، فقد أمدّ دراساته المبكرة بتوجه خاص. وهكذا فقد حقق في العام 1887 الترجمة العربية لنص (مختارات أدبية شرقية... وأرسطوطاليسية) استناداً إلى المخطوطة الباريسية الوحيدة، بالإضافة إلى كتب أخرى باللغتين العربية والسوريانية تتعلقان بالموضوع. كما اجتهد في أن يجعل قراءات الترجمات العربية، في الموضوع السابق وفي الكتاب الذي أصدره في العام 1911 تحت عنوان: (الأعمال الشعرية لأرسطو مترجمة من اليونانية إلى الإنجليزية ومن العربية إلى اللاتينية) تعود بالفائدة على تنقيح النص اليوناني الأصلي. وإلا فقد كان يعود أحياناً إلى الترجمات العربية لأرسطوطاليس، وأصدر في العام 1892 (Liber de poma).

وقد نال مارجليوث استحقاقات خاصة، بوصفه مستعرباً، عن أعماله التي نشرها. ففي العام 1898 أعد طبعة ممتازة لرسائل أبي العلاء المعري بترجمة إنجليزية، وشروحات توضيحية، وملاحق مسهبة. وفي العام 1903

---

(1) Anecdota oxoniensia, semitic series vog. x.

ديوان سبط ابن التعاويذي، وفي العام 1907 بدأ صدور (إرشاد الأرب) لياقوت الذي صدرت منه حتى العام 1926 سبعة مجلدات. وقد كلف هذا العمل مارجليوث كثيراً من المشقة والإحباط، فلم يكن تحت تصرفه سوى ثلث المخطوطات للمجلدين الأول والثالث التي تقدم للنص بغير اختصار. أما المخطوط الخاص بالربع الآخر والذي كان ملكاً خاصاً بأحد السوريين فلم يتمكن من الحصول عليه برغم كل ما بذل من محاولات. وهكذا فقد اضطر إلى الاكتفاء بمقتطفات لتغطية الربع الثاني والرابع، وهي لا تقدم سوى ثلث النص الأصلي على أحسن تقدير. وعلاوة على ذلك فإن النص يعتمد في معظم المواضع (باستثناء البند الخامس) على مخطوط واحد تقريباً. وقد بذل مارجليوث جهداً لتنقية النص من الأخطاء بمساعدة المواضع النظيرة الكثيرة. لكنه لم يتمكن بهذه الوسائل غير الكافية من الحصول على طبعة نقدية حقيقية، وخاصة أن الطباعة وإجراء التصحيحات أعقبت ذلك في مصر. وكان مارجليوث قد عقد النية في الأصل لتقديم قراءة نقدية وملاحق مستفيضة في مجلد ختامي، لكنه اكتفى فيما بعد بملاحق للمجلدين الخامس والسابع.

وفي العام 1912 كتب مارجليوث المدخل للمخطوطة اللندنية لكتاب الأنساب المكررة لدار ماكسميلان المقامة على نفقة صندوق (جِيْب) التذكاري، في حين سهر آ. ج. إيلليس على التنفيذ الفني. وبهذا العمل أصبح معجمٌ لا يستغنى عنه لمعرفة علم الأنساب العربية متداولاً، وإن كان مما يدعو للأسف أن المخطوطة اللندنية بالغة السوء كانت نواة هذا العمل.

بعد ذلك بزمن قصير تعاون مارجوليوث مع هنري فريديرك آميدروز (1854 ـ 1917) على العمل في تاريخ القرن الرابع الهجري الذي توجت خاتمته بالمجلد السابع (أفول الخلافة العباسية) وذلك بين عامي 1920 ـ 1921.

وكان أميدروز قد أصدر فصولاً من تاريخ وكتاب الوزير لهلال الشابي عام 1904، بالإضافة إلى تاريخ دمشق لابن الغلاونجي. ثم توجه لتاريخ

مسكويه الذي شرع بإصداره نسخة طبق الأصل منه من ضمن سلسلة إحياء ذكرى المستشرق جيب، وذلك استناداً إلى صورة لمخطوطة آيا صوفيا سبق أن أعدها المستشرق كاتاني. وقام أمدروز، بالاعتماد على المجلدين الرابع والسادس المنسوخين اللذين كانا في عهدته منذ صيف العام 1912 بوصفه عضواً استشارياً لإدارة الجمعية، قام بتحضير النص بالتعاون الوثيق مع مارجليوث لإخراج طبعة كما ينبغي. وقد طبعت في القاهرة بين عامي (1913 ـ 1914) في مجلدين ولكن لم تخل من أخطاء. وعمل على طبع إضافة ملحق الرودرواري، وفي الختام أصدر جزءاً من تاريخ هلال الشابي بعد تحقيقه من قبله مجدداً حيث استمر فيه العرض حتى سنة 393 للهجرة. وبعد موت أميدروز في العام 1917 استأنف مارجليوث العمل بمفرده، وقدم من نصوص المجلدات الثلاثة ترجمة إنجليزية في ثلاثة مجلدات، وتوج العمل كله بمدخل وفهرس عام على غرار (النسخة الفرنسية للمسعودي). وقد تخلى عن خطته الخاصة برسم الاتجاهات السياسية والاجتماعية الخاصة في مجلد مستقل بالنظر إلى أن (آدم ميتز) اعتمد في كتابه (نهضة الإسلام، 1922) على المصدر نفسه، لكنه عمل بالاتفاق مع س. خودا بخشه[1] على نقل هذا الكتاب إلى الإنجليزية. وقد وصل مارجوليوث في دراسته لحضارة القرن الرابع الهجري حتى (نشوار المحاضرة) للقاضي التنوخي. وفي الجزء الأول من (حديث المائدة) لقاضي ما بين الرافدين صدر نص وترجمة بين عامي (1921 ـ 1922) في (ذخر الدراسات الشرقية ن. س. 27 و 28)، فيما نشر نص الجزأين الثاني والثامن في (المجلة الأكاديمية العربية في دمشق) (XFF)، وصدرت الترجمة الإنجليزية في (مجلة الحضارة الإسلامية). وفي القاهرة نفسها شرع أيضاً في طباعة للكتاب التاريخي الحضاري (تلبيس ـ

---

(1) بالإضافة لذلك فقد قام صلاح الدين خودا بخشه بترجمة كتاب **(تاريخ الشعوب الإسلامية)** للمستشرق فايل كما ترجم جزءاً من (تاريخ الحضارة، وأركان الإسلام) للمستشرق فون كريمر إلى اللغة الإنجليزية. كما شارك بدور فعال في ترجمة (الإمبراطورية العربية) لفلهاوزن مع السيدة مارجريت جراهام.

إبليس) لابن الجوزي. أما مدى تقديره لقيمة الترجمات المعتمد عليها، فيمكن استخلاصه من كونه قام في العام 1948 بنشر ترجمة إنجليزية مرفقة غنية بالملاحظات التفسيرية للمقالة حول السورة (3) في عمله (مختارات من تفسير البيضاوي)، لأنه وعد مستمعيه، والإشارة هنا إلى فلايشر، بمدخل في أهم فروع العلوم الإسلامية والعربية القديمة من وراء اشتغاله بتفسير البيضاوي. وكان هذا خطوة هامة تجاه الأوضاع في ألمانيا حيث يترقب المبتدىء عبثاً مثل هذه الوسائل.

إن الاهتمام الذي أبداه مارجوليوث بالآداب العربية قد امتد إلى خارج الدراسات العربية التقليدية. وقد تعرف في وقت مبكر أهمية (جرجي زيدان)، وترجم له المجلد الرابع من تاريخ الحضارة الإسلامية (الأمويون والعباسيون) إلى اللغة الإنجليزية (GMSIv 1907). واهتم بالدراسات اليهودية ـ العربية فحقق (تفسير دانييل) ليثفيت بن علي 1889، واحتفظ بالمصطلحات العامية الواردة في النص عن عمد. وحين أصدرت الأختان العالمتان أجنس سميث لويس (1843 ـ 1920) والسيدة مارجيت وانلوب جبسون (1843 ـ 1920)إحدى وأربعين صفحة مؤرخة من المخطوطات المسيحية العربية في نسخة طبق الأصل (STUDIA SINAITICA XII 1957)، كتب مارجوليوث مقدمة لها في علم الجغرافيا البائدة. وحين تجمع مع مجموعة مخطوطات (إيرل كروفورد) عدد من أوراق البردي العربية وانتقلت إلى ملكية مكتبة جوهن رايلاند، أخذ مارجوليوث على عاتقه القيام بمهمة وصفها الشاقة في (فهرس البردي العربي 1933) الضخم. وقد قدم العون (لألفون منغاتا) (881 ـ 1937) الذي كان يعمل منذ العام 1915 في مكتبة جون لايلاند لإصدار كتاب (الدين والدولة) لعلي بن ربان الطبري، ورفض فيما بعد في كتابه: (حول كتاب الدين والدولة) الذرائع التي رفعها بيتر وبوجه، س. ي. ضد أصالة الكتاب.

وقد جمع مارجوليوث، بالإضافة إلى معارفه اللغوية والموضوعية وملكة سريعة في الوصف، خيالاً خصباً استماله أحياناً إلى نظريات شجاعة جداً.

وقد طالت اهتماماته أيضاً اللغات العربية الجنوبية، الحبشية، العبرية، الآرامية والسريانية. كما سهر على طبع آخر ما قدمه أبو زوجته (روبرت - باين سميث) مما تجمع لديه من (قاموس المفردات السرياني)، وساند زوجته (يسثيه باين مارجوليوث المتوفاة سنة 1923) في دراساتها السريانية. وقد أغرته في بعض الأحيان العروض الموجزة كذلك فكتب حول (محمد وظهور الإسلام) (1905، الطبعة الثالثة 1923)، حيث استدل بعشائر المورمون للمقارنة، كما كتب حول (التطور الباكر للإسلام) (1914).

68 ـ الدراسات العربية في كامبردج منذ العام 1890 حتى 1914

بعد وفاة و. روبرتسون سميث شغل كرسي الدراسات العربية في كامبردج في العام 1894 بشارلس ريو (1820 ـ 1902). وكان أنتوني آشلي بيفان (1859 ـ 1933) إلى جانبه بوصفه قارئاً في بادىء الأمر. وكان بيفان طالباً لدى كل من بيفان ورايت واشتهر بمعرفته الممتازة بالعربية.

واستناداً إلى تقييم صور المخطوطات التي خلفها (رايت) وفي مقدمتها المخطوط الذي حصل عليه المتحف البريطاني فيما بعد، أعدّ خلال الفترة (من 1905 ـ 1912) طبعة تذكارية في ثلاثة مجلدات لنقائض جرير والفرزدق، امتازت كذلك بمعالجة مجمل النص المثالية، وهوامش ومعجم نموذجي. وقد سانده دي جويه في المجلد الأول، ونولدكه وفلهاوزن فيما بعد، فيما قدم له أوجست فيشر في بعض الأحيان عونه العلمي الموضوعي. وبالمقابل فقد ساعد بيفان صديقه شارلس ليال في إعداد طبعته (المفضليات) وقدم له (الملاحق) التي تحتوي كذلك على معجم ألفاظ (GMNSIII, 1924). ووضع لأمالي القالي فهرساً للقوافي وأصدره بالتعاون مع (فريتز كرينكوف) في كتابه: (الملاحق لشواهد كتاب الأمالي) (1913). وللأسف فإن خطته لإصدار ملحق إضافي للمعاجم العربية لم تجد طريقها للتنفيذ.

إن السير (شارلس جيمس ليال) (1845 ـ 1920) الذي ورد ذكره قبل قليل، والذي لم يكن ينتمي لمدرسة كامبردج إلا بصورة غير مباشرة، عمل خلال الفترة من (1867 ـ 1898) في الإدارة البريطانية في الهند، ورأس في

الفترة من (1898 ـ 1910) قسماً لمكتب الهند في لندن. وفي ساعات فراغه انصرف إلى دراسة الشعر العربي القديم فحقق في العام 1885 (ترجمات للشعر العربي القديم لا سيما لشعر ما قبل الإسلام). وقد عمل في وقت لاحق على تقريب جمال هذا الشعر من أبناء وطنه من خلال ترجماته. وكان المستشرق نولدكه قدوة له حيث أدى له الزيارات في أثناء رحلاته الاستجمامية. وفي الهند حقق شرح التبريزي على المعلقات العشر (المكتبة الهندية 1891 ـ 1894). وبعد عودته إلى إنجلترا نشر ديواني عبيد بن الأبرص وعامر بن الطفيل بنصيهما الأصليين وبترجمة إنجليزية (GMSXXI 1913) ثم قصائد عمر بن قميئة 1919.

في هذه الأثناء نضج أيضاً عمله الرائع باستكمال (المفضليات). فمن حيث المبدأ فكر في استكمال طبعة توربيكه حتى نهايتها (اعتماداً على مراجعة المرزوقي المستندة إلى مخطوطة برلين غير الكاملة)، لكنه ما لبث أن أدرك ضرورة نشر القصائد الست والعشرين بعد المئة (بما فيها التي تحمل الرقم 43 والتي تعود إلى طبعة توربيكه) وذلك وفق مراجعة الأنباري والشرح عليها. وقد تم طبع النص منذ العام 1910 في بيروت، حيث أنجز لويس شيخو التنقيح وطابق آ. صالحاني المخطوطات المتوافرة هناك. ولم يتمكن من إصداره إلا في العام 1912 بعد أشهر من وفاة (ليلاس) بسبب الحرب العالمية. في هذه الأثناء صدر في أوكسفورد في العام 1918 المجلد الثاني مع الترجمة. وقرأ بيفان من كلا المجلدين التنقيح. وتلقى (ليال) من نولدكه مساعدة أيضاً كالتي تلقاها لدى طبعة (عبيد وعامر). وتلقى في بعض الأحيان معونة دي جويه، آ. فيشر، ي، جاير (د) ي. ي. هيس بوصفه عارفاً بأسماء الحيوان. وهكذا كانت هذه الطبعة الفخمة، التي قدم لها بيفان الملاحق في العام 1921 كما سبق القول عملاً علمياً تذكارياً مثالياً مشتركاً.

وبحث من (شارل ليال) فقد عمل (فريتز كرينكوف) (1872 ـ 1953) الذي سبقت الإشارة إليه أستاذاً خاصاً للشعر العربي القديم. وبحكم الاعتراف الذي أسبغه عليه أهلفاردت جزاء ترجمته (لباقة الشعر العربي

القديم) (XX-XIX. III)، وهي كناية عن مختارات وفصول جامعة من شعر رؤبة، فقد ذاع صيته. وبعد الحرب العالمية سافر إلى الهند حيث مارس نشاطه العلمي في حيدر أباد بادىء الأمر ومن ثم اليجارث. وبعدما درس كأستاذ زائر في جامعة بون بين عامي (1931 ـ 1934)، عاد إلى إنجلترا واختتم حياته في إنجلترا. وكان، مثل فوستنفلد، ناشراً لا يفتر للكتب، حيث جعل عدداً كبيراً من النصوص العربية المأخوذة من مختلف أنواع المصادر قيد التداول بالطباعة.

ومن بين هذه الكتب الكثيرة كتب مثل (الجمهرة) لابن دريد: (المناظر) لابن الهيثم وكتاب (الدرر الكامنة) لابن حجر، (ومعجم الشعراء) للمرزباني و(المعاني) لابن قتيبة. وقد أسهم (كرينكوف) بقسط إيجابي من خلال استعداده للمساعدة بوضع مصادره ومعارفه ومساعديه تحت التصرف.

ثم أصبح إدوارد جرانفيل براون (1862 ـ 1926) خلفاً (لريو) في العام 1902. وإلى جانب الطب، الذي أظهر ميولاً لدراسته في محاضراته حول الطب العربي، فقد درس على (رايت) الدراسات الشرقية، ثم قضى سنة (1887 ـ 1888) في إيران، ثم أصبح محاضراً للغة الفارسية في كامبردج، وقدّم أيضاً لعمل (السير توماس آدم) أستاذ العربية الرئيس في اللغة الفارسية، الذي حاول إقامته على أسس لغوية راسخة.

ويُعد عمله (تاريخ الأدب الفارسي) (1902 ـ 1924) المكون من الأمثال الأدبية والتاريخية الذي صدر في أربعة مجلدات عمله الرئيس. ولم يكن عالماً ذا ولع بالقديم فقط، بل درس أيضاً تاريخ فارس بحيث تبنى قضية المضطهدين تحت تأثير الإحساس الشديد بالعدالة.

وبإيحاء من براون استميل (رينولد آلين نيكولسون) (1868 ـ 1945) لدراسة الآداب الشرقية. وقد تمتع بفهم متميز تجاه مضامين الأفكار والقيم الخلقية للأدب الرفيع فاتجه، بعدما حصل لدى بيفان، روبرتسون سميث، ونولدكه على معرفة أساسية، ووضع يده على المناهج اللغوية الصحيحة، اتجه لدراسة التصوف، بحيث تحرك بالثقة نفسها سواء في مجال الدراسات

الفارسية أو الدراسات العربية. وفي العام 1898 أصدر مختارات شعرية من ديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومي بالنص الفارسي الأصلي وترجمة إنجليزية وتعليقات. وأعقب ذلك أي في العام 1911 كتاب (ترجمان الأشواق) بالعربية لابن عربي (ذخائر الترجمات الشرقية ن. ص 22). ولكي يميط اللثام عن بدايات الصوفية وتطورها خلال الفترة من القرن الثاني حتى القرن الرابع الهجري، فقد جعل العديد من أمهات الكتب في متناول القارىء سواء منها النصوص المترجمة ترجمة موثوقة وما أخضعه للنقد.

وفي العام 1907 أصدر (تذكرة الأولياء) لابن العطار (النص التاريخي الفارسي المجلد الثالث والرابع) بالنص الفارسي، وفي العام 1911 أصدر (كشف المحجوب) (GMSXVII) بالإنجليزية، وفي العام 1914 (كتاب اللحى) لأبي نصر الطوسي (المصدر السابق نفسه) بالنص العربي الأصلي. غير أنه وإن كانت صيغة سؤال بحثه تخضع للنقد التاريخي، فقد تجنب بالفطرة أخطار العقلانية الرصينة التي اعتقدت بإمكان إرجاع، وبالتالي تفسير التصوف، إلى تطابق حقيقي أو مزعوم مع التصوف في الأفلاطونية الحديثة، أو المسيحية، أو الهندية.

ودون أن يهمل القضايا الفكرية التاريخية المرتبطة بالسياق والأحاديث المرجعية، فقد جعل من أولوياته إزالة الإبهام عن النص المفسر في خصوصياته الفردية، وبلغ هذا الفن في التفسير ذروته في كتابه: (دراسات في الشعر الإسلامي) و (دراسات في التصوف الإسلامي) (1921).

وقد توخت تلك الدراسات تقريب شعر البلاط الفارسي كما جاء في (لباب الألباب) لدولت شاه، وتأملات أبي العلاء في (لزومياته) من أصدقاء الأدب العربي والدين الإسلامي. من جانب آخر فقد عالجت هذه الدراسات المتصوف الفارسي أبا سعيد بن أبي الخير، والمتصوفين الإلهيين، الجيلاني وابن عربي، وقصائد ابن الفريد. وقد اختتم جهده هذا بطبعته التذكارية في شيخوخته (1925 ـ 1943) (المثنوي مانوي) لجلال الدين الرومي مع الترجمة والتعليق (في عشرة مجلدات).

وإلى جانب هذه الطبعات، والترجمات والشروح، أخرج عدداً كبيراً من المقالات والدراسات عالج فيها مختلف القضايا. وخصصت دراساته (المتصوفون المسلمون) (1914) و (محاضرات حول فكرة الشخصية في التصوف) (1923) لقطاعات اجتماعية أخرى. وكمدخل عام إلى المراجع العلمية العربية، قدّم في كتابه (تاريخ العرب الأدبي) (1907، الطبعة الثانية 1930) قدم في لفتة ذكية لأعمال فون كريمر، جولد تسيهر، نولدكه، فلهاوزن، نظرة إجمالية حول الأدب العربي، والمؤثرات المعيارية التي كمنت خلف التطور الفكري التاريخي. وهنا أيضاً حاول تقريب جمال الشعر العربي من القارىء بواسطة أشعار مماثلة. ولمواجهة الاحتياجات التعليمية الأكاديمية، فقد جدد (حدث)، بمساندة من بيفان (1907 ـ 1911) كتاب ف. تونتون والمختارات الملحقة به المستندة على قواعد رايت الشهيرة (قواعد العربية الأساسية).

وقد أدت أعمال نكلسون بالضرورة إلى التغلب، في مجال الدراسات الإسلامية، على العقلانية والنقد التاريخي كجزء من موروثات حركة التنوير والخروج على المألوف بالرأي القائل: إنه لا ينبغي قياس الدين الإسلامي، التصوف والفلسفة (بالمنطق الأوروبي السليم) للقرن التاسع عشر، بل من الضرورة بمكان توظيف منهج يأخذ على عاتقه العمل بأساليب علم النفس الحديث، لوصف غزارة التجارب وحالة اليقظة الداخلية المحتملة في إطار الإسلام بطريقة مناسبة. وكان نيكلسون أول من أقرّ في أوروبا بأهمية محمد إقبال، وصدر له (لنيكلسون) كتاب (تطور الغيبيات في إيران) سنة 1908، وترجم للإنجليزية (أسرار ـ الحودي) للمثنوي 1920.

ويمثل هذه الرؤى سبق أهل زمانه، واحتاج لوقت طويل قبل أن يعترف له بمكان. وقد عمل لسنوات عدة محاضراً باللغة الفارسية، ولم يستدع للعمل إلا بعد وفاة براون. أما اليوم فقد بات معروفاً بأن براون يعد واحداً من مؤسسي العلوم الإسلامية الحديثة.

وإلى شلة أصدقاء ي. ج. براون ينتمي أيضاً(جاي لي سترنغ) (1854 ـ

1933) صاحب الاستحقاق على أعماله حول التاريخ الجغرافي للإمبراطورية العباسية.

وكان (سترنج) قد استميل في صباه وفي أثناء وجوده في باريس من لدن (موهل) للفارسية وللاهتمام باللغة العربية من قبل جايارد. وقد لفت السير هنري (رولنسون) انتباهه إلى الأهمية التي يتمتع بها وصف ابن سيرابيون[1] لأقنية بغداد من أجل إعادة تركيب طوبوغرافية بغداد في العصر الوسيط، وبخاصة حين يرتبط ذلك بأخبار الجغرافيين العرب الآخرين. وبحكم هذا التحريك، قام (لي سترنج) بترجمة معلومات كثيرة من المصادر العربية والفارسية، وحقق، بعدما شارك سنة 1880 في ترجمة نصوص حول الجغرافيين العرب في كتاب (فلسطين تحت الزحف الإسلامي)، حقق وصف ابن سيرابيون لبلاد ما بين الرافدين وبغداد نشر سنة 1895 في دورية (JRAS)، كما نشر، بمشورة صديقيه بيفان وبراون ودعم المعلومات التي أدلى بها دي جويه، ونشر كتابه (بغداد خلال الخلافة العباسية) الذي نشرت الطبعة الأولى منه في العام 1900 والطبعة الثانية في العام 1925، وكان كتاباً حاوياً زوده بالخرائط والمخططات. وأعقب ذلك في العام 1905 بعرضه التاريخي الجغرافي للمناطق الشرقية من الدولة الإسلامية الذي لم يكن أدنى قيمة مما في الكتاب الذي أطلق عليه اسم (بلاد الخلافة الشرقية). وبالنظر إلى أن (لي سترنج) أصبح شبه أعمى منذ العام 1912، فقد أتم فون برون كتبه الخاصة بالجغرافيين الفرس ونشرت في الدورية (GMSXXIII)، فيما أشرف نيكلسون على طباعة (GMNSI).

---

(1) ابن سيرابيون، لم نجد تحت (ابن) في المعاجم المتوافرة سواء العربي أو الأجنبي منها ترجمة لهذا الاسم.

69 ـ ي. د. روس (و) ث. و. آرنولد

خلافاً لما كانت عليه الحال في كل من أوكسفورد وكامبردج، لم تلاق الدراسات العربية في لندن سوى عناية قليلة، كما أن المساعي لتأسيس معهد كبير للاستشراق في العاصمة البريطانية لم تفلح إلا في العام 1917 بافتتاح (مدرسة الدراسات الشرقية)، وأضيف اسم الإفريقية منذ العام 1949. وقد أصبح الرحالة اللبق السير (إدوارد دنيسون روس) (1871 ـ 1940) أستاذاً للغة الفارسية فيها. وكان قد تلقى على رينان وشيفر ونولدكه دراسات متنوعة وقدم أطروحته لدى نولدكه في مدينة شتراسبورج.

وفي الفترة الواقعة بين عامي 1896 و 1901 عمل أستاذاً للفارسية في الكلية الجامعية في لندن، ثم رئيساً لمدرسة كالكوتا في الهند بين عامي 1901 ـ 1911، ثم تحول للعمل في المتحف البريطاني في لندن. لقد كان متعدد المواهب. أحد أقدم أعماله (فهرسة المجموعتين الفارسية والعربية) من مقتنيات مكتبة مكتب لندن (وقد تمت وأصدرها في العام 1902 ي. ج. براون) ووصف مجموعة مخطوطات وليم جونز. وفي الهند سمح بوصف كنوز مخطوطات مكتبة مكتب بانكيبور لمؤسسها خودا بخش وطبعها بعد فهرستها. ومن بين مخطوطات مدرسة كالكوتا التي اكتشفها مخطوط كتاب (ظفر الوالي) لحاجي دابير، وأصدره بمدخل قيم وزوده بملاحق كاملة تحت عنوان (تاريخ جايرات العربي) بين عامي (1910 ـ 1928) في ثلاثة مجلدات.

إن هذا العمل المضني الذي، تمكن فيه (روس) من تداول عمل نص مهم من الناحيتين الموضوعية واللغوية، ليستحق من الثناء أكثر بكثير مما قوبل به من عدم اكتراث لحظة صدوره.

وكما فعل روس، فقد قضى السير (توماس وولكر آرنولد) (1864 ـ 1930)، أستاذ العربية إلى مدرسة الدراسات الشرقية منذ العام 1920، قضى سنين طويلة في الهند، أولاً أستاذاً للفلسفة بين عام (1888 ـ 1898) في الكلية الإنجليزية ـ الشرقية التي أسسها سيد أحمد خان سنة 1875، ومن ثم في كلية لاهور الحكومية في الفترة من (1898 ـ 1904). وفي أليجار، حيث تعرّف في حركة أليجار على التحديث الإسلامي الهندي، وبإعجابه بالمؤسسات السياسية والاجتماعية الأوروبية، وعقلانيته، وإيمانه المستند على المنطق من خلال رؤية مباشرة، واختلاطه بالحركة بصداقة كانت تربطه بشبلي النوماني ممثلها العالمي المهم، جاء كتابه الفذ (موعظة الإسلام) الذي صدر في العام 1896 وصدرت الطبعة الثانية منه في العام 1913، حيث تناول فيه بالتحليل انتشار العقيدة الإسلامية والأسباب التي أدت لذلك. وقد أعطى المعتزلي الجديد أحمد خان وأتباعه آرنولد حافزاً للاطلاع على حركة الاعتزال القديمة، ولتحقيق الموضوعات المرتبطة بالموضوع من كتاب (المنية والأمل) للزيدي ابن المرتضى بالنص العربي الأصلي العام 1902. وبعد عودته إلى إنجلترا عمل في الفترة الواقعة بين عامي 1904 ـ 1920 في مكتب الهند. وقد شارك أحياناً في الكتابة حول القضايا الإسلامية، كمساهمته على سبيل المثال في دائرة المعارف الدينية والأخلاقية التي أصدرها (جيمس هاستنج)، وعالج سنة 1924 أيضاً في عمله (الخلافة)، وهي القضية التي كانت تتمتع قديماً بأهميتها الخاصة من زاوية نظر تاريخية وتشريعية. لكنه رغم ذلك التفت بجدية لدراسة تاريخ الفن الإسلامي، الذي أغناه بسلسلة من الأعمال.

70 ـ د. ب. ماكدونالد

لقد وجدت الدراسات العربية والعلوم الإسلامية في أميركا أول ممثل مهم لها في الاسكتلندي دانكال بلاك ماكدونالد (1863 ـ 1943) صديق وزميل المستشرق نيكلسون في الدراسة. وكان ماكدونالد قد درس بادىء الأمر في جلاسكو ثم في برلين خلال (1890 ـ 1891) وبخاصة على المستشرق ساخاو، ثم درس اللغات السامية في حلقة اللاهوت بمدينة هارتفورد منذ العام 1892، وذلك إلى جانب العبرية (وتفسير التوراة)، واللغة العربية بشكل أخص لأهميتها بالنسبة لعمله التبشيري المسيحي في الشرق. وقد شارك مشاركة نوعية في تأسيس مدرسة تبشيرية خاصة وهي (مدرسة كندي للتبشير) سنة 1911 في هارتفورد، كما أشرف على إدارة القسم الإسلامي سنين طويلة. ولأغراض التبشير ألّف كمدخل له كتابه (سمات الإسلام) (1911)، و (كيفية تقديم المسيحية إلى المسلمين) (1916). كذلك فإنه عمل ناشراً في دورية (العالم الإسلامي) التي قام بتأسيسها صموئيل زويمر خلال (1867 ـ 1952). ولم يكن خلال عمله أحادي العطاء ولا ملولاً، بل لقد وجد في محاولة تغيير الشعب الذي عاش بين ظهرانيه وفرض عليه حب نمط حياته، تناقضاً في حياة المبشر.

ولكي ييسر الطلب الكبير على عرض للإسلام مفهوم من قبل الجميع ويعتمد عليه علمياً، كتب ماكدونالد، معتمداً بالأخص على دراسة المراجع العربية بشكل أساس كتابه (تطور العقيدة الإسلامية، التشريع والبنية النظرية) (1903) ومقابل هذا العرض الوصفي للإسلام، ناقش، بعدما قام بزيارة إلى

كل من مصر بين عامي (1907 ـ 1908)، وفلسطين وسورية، ناقش تجارب المسلمين الدينية في كتابه (الموقف الديني والحياة في الإسلام) (1909)، وصدرت الطبعة الثانية منه في العام 1912. فإذا ما تعرض بالوصف للكتاب السابق تحت تأثير (جولد تسيهر) إلى تطور الأفكار الدينية عقلانياً، فقد طبق الآن مناهج الديانة النفسية التي ابتكرها وليم جيمس، وف. و. هـ. مبير على الإسلام، كما قدّم ظواهر غيبية لتبيان ذلك. وقد استهدف من وراء ذلك كشف الإبهام عن الغزالي وابن خلدون، اللذين نشر من مقدمتهما مختارات في سلسلة الدراسات السامية 5/ 1905.

وقد دوّن الجزء الأكبر من نتائج اكتشافاته في مقالات صحفية ومشاركات جمعت في شكل أعمال، من ذلك مثلاً دائرة المعارف الإسلامية. وبوصفه عضواً في الهيئة الناشرة لصحيفة إيزيس التي أسسها جورج سارتون عام 1913، فقد عني بتاريخ العلوم في الإسلام، وهو الحقل الذي طرقه من خلال اهتمامه بادىء الأمر بالمذهب المعتزلي الشهير بأهميته. ومن الميادين الأخرى التي حظيت باهتمامه تاريخ انتقال قصة ألف ليلة وليلة، التي عالج معضلاتها بسلسلة من المقالات.

71 ـ الدراسات العربية في سويسرا منذ سنة 1870 حتى 1914

وكما كانت عليه الحال في أمكنة أخرى، ارتبطت الدراسات العربية في سويسرا ارتباطاً وثيقاً باللاهوت لوقت طويل. وهكذا فقد اهتم السويسري هانيريش شتاينر (1841 ـ 1889) باللغات الشرقية إلى جانب اللاهوت، وكان ذلك على يد هيتزيج أولاً ثم على يد فلايشر. ومارس من خلال دراسته (المعتزلة أو المفكرون الأحرار في الإسلام) (1865) تأثيراً بعيد المدى على مجال بحث تاريخ الفكر الإسلامي. وفي العام 1870 عُين أستاذاً للعهد القديم واللغات السامية في جامعة بلده خلفاً للمستشرق ايبرهارد شاردر، ولم يلتفت في أعماله المتأخرة إلى الدراسات العربية بعد ذلك. وكان من تلامذته اللاهوتي السويسري ياكون هاوسيهير (1865 ـ 1943) الذي نال تحصيله العالي في العام 1889 على يد (توربيكه) في مدينة هاله، ثم أصدر في العام 1905 معلقة زهير بشرح النحاس.

ولم يتم تأسيس بعض كراسي اللغات الشرقية في سويسرا إلا مع نهاية القرن التاسع عشر. وفي مدينة بال كان آدم ميتز (1869 ـ 1917) وهو من أصل ألماني يزاول أنشطته هناك. وكان ميتز من الملمين إلماماً جيداً بالشعر العربي والأدب العربي الجميل لفترة صدر الإسلام، كما كان يتفهم المشكلات الأدبية. وفي العام 1902 حقق بالتعاون مع د. ت. أبو القاسم البغدادي كتاب (حكايات أبي القاسم) لأبي المطهر الأزدي ذي الأهمية اللغوية والتاريخية وزوده بمدخل تاريخي أدبي قيم، وشروح، ومعجم

مفردات. ولم يصدر عمله الرئيس (نهضة الإسلام) إلا بعد وفاته (1922)، وقد أشرف هـ. كندورف على طباعته. إن هذا الكتاب الذي ترجم إلى لغات عدة قام على اطلاع واسع، وعرض للحضارة الإسلامية في القرن الهجري الرابع وزود بتوثيق غزير. فإلى جانب التأليف في الحياة الإدارية والمالية، لم يكتف بعرض الحضارة العقلية، بل تطرق لعالم عامة الناس، معاشهم وأعيادهم، المدن، الاقتصاد، التجارة والمواصلات. وبوصفه معلماً رئيساً للتطور الحضاري في الحقبة التي عرض لها ميتز، وضع نصب الأعين فترة ما قبل الإسلام، وبالذات تراث اليونان الحضاري. إن هذه النظرية لا تلعب في الكتاب نفسه دوراً مميزاً، لكنها ـ النظرية ـ كانت مسؤولة، عن أن ميتز، على غير إرادة منه، إنحاز للعنوان (نهضة الإسلام).

وبعد آدم ميتز جاء في العام 1917 فريدريش شولتهس (1868 ـ 1922) الذي كان قد درس اللغات السامية في كونجسبرج خلال الفترة من (1910 ـ 1914) وفي شتراسبورج بين عامي (1914 ـ 1917). وقد درس اللاهوت في بادىء الأمر، ثم الاستشراق على نولدكه، وتحصل على إجازة التدريس في العام 1894، أعد من ديوان (حاتم الطائي) طبعة ما لبث كل من ي. بارث و.ي. جيير أن قدّم منها تنقيحات وملاحق.

كذلك فقد جمع في سنة 1911 متفرقات شعرية نسبت إلى أمية بن أبي الصلت، وحكم عليها هوارت، خطأ، بأصالتها واستدل بالقرآن كدليل على ذلك. غير أن أهم منجزاته كانت في مجال الآرامية.

وفي زوريخ مثّل جان جاك هيس (1866 ـ 1949) تخصص الدراسات العربية. فقد درس في شتراسبورج، وقضى عدة سنوات في الشرق، وتحصل من اختلاطه مع بدو قلب الجزيرة العربية على معرفة فريدة باللغة، ونمط التفكير، وطريقة العيش. وفي كتابه، قصص، وغناء وتقاليد وعادات من قلب شبه جزيرة العرب (1938)، وأصدر معجماً يتضمن لهجة بدو وسط الجزيرة. ومن بين مقالاته العديدة تسمق حول علم الكلمة سواء بسبب نتائجها المفاجئة غالباً، أو بسبب التوافق المثالي بين البحث الموضوعي.

كما وضع خبراته الواسعة تحت تصرف الآخرين عن طيب خاطر.

وفي شخص هاينريش سوتر (1848 ـ 1922)، كان لسويسرا عارف متميز بالرياضيات وعلم الفلك العربيين. فقد عمل منذ العام 1886 مدرساً للرياضيات في مدارس زوريخ الثانوية، وهنا بدأ في تلقي العربية على شتاينر وهاوس هر. وفي العام 1892 ترجم فهرس الرياضيات في كتاب فهرس ابن النديم. وفي العام 1900 أعقبه بكتابه الرئيس: (الرياضيون والفلكيون العرب ومؤلفاتهم). واقتداء، من حيث الظاهر، بكتاب فوستنفلد (صانعو التاريخ العرب)، جمع في كتابه هذا، بجدية متناهية، كل ما بدا له من أخبار حول 825 من أشهر الشخصيات الإسلامية خلال الفترة من 759 ـ 1600 للميلاد تقريباً، حيث قدم لكل منهم نبذة موجزة، وعدد أعماله والمخطوطات الخاصة به أيضاً. وفي خاتمة الكتاب (ص 203 ـ 207) ألقى نظرة قصيرة حول تاريخ الرياضيات لدى المسلمين.

بعد ذلك ضم إليه الطبعة التي أعدها آتلهارد لترجمة باث للجداول الفكلية التي تعود (إلى محمد بن موسى الخوارزمي) لمسلمة بن أحمد المغريتي، وراجع النص اللاتيني الذي أنشأه (بيورنبو)، ووضع دراسة موضوعية شاملة ومعجماً للمصطلحات العربية (قام بجمعه بستهورن)، بالإضافة لملحق بالإعلام والموضوعات. وعدا هذه المؤلفات الضخمة، فقد كتب سوتر عشرات الموضوعات في دورية (المكتبة الرياضية) وغيرها من الصحف التي عالج فيها مختلف موضوعات تاريخ الرياضيات خلال العصر الوسيط بدقته المعتادة.

72 ـ ماكس فان بيرشم

في الوقت الذي مارس فيه الرجال الذين سبق ذكرهم تأثيرهم في الأوساط الجامعية، زاول ماكس فان بيرشم (1863 ـ 1921)، مؤسس النقش العربي نشاطه كعالم مستقل. وينحدر ماكس من أسرة سويسرية ـ هولندية الأصل، ربي تربية حسنة، وتلقى في كل من لايبزيغ، شتراسبورج وبرلين دراسة متنوعة اتسعت لتشمل تاريخ الفن. ومتأسياً بالنقش المجسم الضخم في كل من متحف باريس الأكاديمي وبرلين، وضع خطة لجمع كل النقوش العربية كما هي، ونسخها بكل أمانة وحنكة، وشرحها لغوياً بكل دقة. وبموهبة في النظرة الثاقبة إلى العمل الفني المتميز، ومقدرة للخروج من هندستها باستنتاجات تنسحب على العلاقات الدينية والاجتماعية للمجتمع الإسلامي، فقد وجد أن من غير الجدوى معالجة نقش بفصله فصلاً متعسفاً عن معماره الذي يحمله. ولهذا السبب فقد اختار لعمله عنواناً خالياً من أي التزام (. . حول النقوش العربية)، وإن كانت السعة سرعان ما اضطرته إلى الاختصار من حيث الجوهر على النقش، وصرف النظر عن الجانب الفني التاريخي والهندسي. ولذلك السبب فقد سعى للحصول على تعاون الآخرين معه. وقد أنهى بنفسه المجلدات التي تحتوي على نقوش القاهرة والقدس وفي الجزء الأول من المجلد الثالث (آسيا الصغرى) ساعده خليل أدهم.

أما في نصوص المجلد الثاني الخاص (بشمالي سورية) فقد عمل معه موريس سوبرنهايم وآرنست هيرتزفلت. ونشر جاستون فيت مجلداً آخر حول مصر. من جانب آخر فقد عالج فان بيرشم في أعماله بولع معضلات

إسلامية تاريخية في الآثار والنقوش. وقد أعدّ من كتاب سي. ليهمان ـ هاوبت (مراجع حول التاريخ الغابر لأرمينيا وبلاد ما بين الرافدين) (1907)، (نقوش عربية من أرمينيا وديار بكر) (1909). وقام بمراجعة النقوش العربية التي جمعها ماكس فون أوبتهايم (1860 ـ 1946) في سوريا، وبلاد ما بين الرافدين وآسيا الصغرى. وفي كتابه الذي ألفه بالفرنسية حول النقوش التاريخية الإسلامية في ديار بكر ونشره في العام (1909)، عرض من خلال النقوش تاريخ المدينة. وقد أنجز هذا العمل بالتعاون مع جوزيف ستريجوفسكي الذي عارض الرأي السائد قديماً حول تقدير روما لأهمية الشرق في تطور الفن الأوروبي، ورأى في منطقة أميدا ـ أديسا ـ نيسيبس حلقة فنية يونانية شرقية تقاطعت في العناصر اليونانية والساسانية. وقد تعرضت مساهمات ستريجوفسكي حول تاريخ الفن لمناطق شمال بلاد الرافدين، وهيلاس، وأوروبا في العصر الوسيط الذي أرفد بها مؤلف أميدا، للنقد الشديد. كما أن جيرترود لاوتيان بيل (1868 ـ 1926) التي كانت شديدة الاهتمام بأبحاث ستريجوفسكي، أضافت ملحقاً لمؤلف آميدا قدمت فيه وصفاً لكنائس وأديرة باب عابدين.

وكان فان بيرشم وثيق الصلة من خلال الاهتمامات المشتركة مع هيرزفلد، الذي كان مهندساً، ودرس إلى جانب ذلك عدداً من اللغات، وتعمق في تقنيات الحفريات الأثرية بوقوفه على أعمال التنقيب الألمانية في آشور بين عامي (1903 ـ 1905)، ورافق خلال (1907 ـ 1908) فريدريش ساري (1865 ـ 1945) في رحلة أثرية إلى منطقة دجلة والفرات التي أدت إلى اكتشاف قصر الخلافة في سامراء خلال سني (1911 ـ 1914) وأسفرت عن نتائج مثيرة جداً. وقد أسند إلى بيرشم العمل في النقوش العربية وصدرت في المجلد الأول من الكتاب في العام (1911). وحدث الشيء ذاته حين نظم بتعاون فاعل في العام 1910 المعرض الضخم للأعمال المتفوقة للفن الإسلامي في ميونيخ، ثم أصدره سارتيز د. ف. ي. مارتين بعد سنتين في ثلاثة مجلدات وقدما وصفاً له. وبعدئذٍ أعدّ فان بيرشم النقوش الإسلامية

لبرجامون (1912)، ونقوش أبراج القبور في العام 1918 (في النصب التذكارية الخراسانية) لآرنست دييز. وكرّس سنوات عمره الأخيرة للعمل في (الفن الإسلامي)، واستطاع إنجاز الجزء المخصص لمدينة القدس. وبعد وفاته اقتضى استكمال المشروع الضخم تضافر جهود كثير من العلماء في أقطار مختلفة. وحيث إن ذلك لم يحدث، فقد بقي عمل العمر ذاك ناقصاً. لكنه ما إن يحين الزمن لإعداد (نقش عربي ضخم)، حتى يصبح فان بيرشم قدوة وأنموذجاً يحتذى.

73 ـ هـ. لامون والمدرسة البيروتية

في بداية هذا القرن تعرضت العلوم الإسلامية لحقبة متطرفة من الشكوك والنقد اللاذع، شأن غيرها من الفروع التاريخية الأخرى بوصفها نتيجة محتمة لمذهب النقد التاريخي، ولا سيما أن المعضلات المرتبطة بشخصية محمد ﷺ ونشوء الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، قدمت حقلاً شاسعاً للتآويل التأملية. أحد أبرز ممثلي هذا الاتجاه كان البلجيكي هنري لامون س. ي. (1862 ـ 1937)، الذي كان يعمل ابتداء من سنة 1882 وحتى 1908 ، ثم ابتداء من سنة 1920 في جامعة سانت جوزيف التي أسست في العام 1881 في بيروت. وبتحريض من نقد جولد تسيهر للأحاديث الصحيحة، فقد حاول هو أيضاً أن يقدم الدليل على أن النقولات التاريخية الإسلامية تدين بوجودها من حيث الجوهر إلى اتجاهات الفئات والأحزاب المتصارعة. وبحصافة نادرة تناول المصادر الخاصة بمعاوية الأول، وذلك في محاضراته التاريخية التي ألقاها في بيروت خلال الفترة 1904 ـ 1906، بنقد جارح، (ونزع) بمؤلفه (الصحابة الثلاثة، أبو بكر، وعمر، وعبيدة بن الجراح) (1909) الهالة القدسية عن أصحاب الرسول ﷺ، حين حاول اقتفاء أثر الأهداف السياسية السلطوية لسياستهم. وتمخض عن ذلك دراساته حول (الخليفة يزيد الأول). بعد هذا التفت لسيرة الرسول. فإذا كان الفيلسوف رينان قد أكد إن الإسلام قد نشأ في ضوء التاريخ الباهر، فقد وضع (لامون) فرضيته (القرآن والحديث) وحياة محمد (مجلة العلوم الدينية رقم 1) أن سيرة الرسول رواية تاريخية مختلفة عن القرآن، وأنها تُعزى إلى بعض الذكريات الغامضة لأحداث الفترة المدنية، وأن القرآن هو

المصدر الوحيد الذي يُعتمد عليه لعرض حياة الرسول. وبوصفه قسيساً كاثوليكياً فقد رفض لامون دعوى الرسول بالنبوة رفضاً تاماً، بل ذهب لأبعد من ذلك حين رفض أيضاً القول بصدقه (العلوم الدينية 1911/ العدد (1) و (2).). واستدعي لتدريس الأدب العربي في معهد الكتاب المقدس البابوي الذي أسس بمدينة روما في السنة 1909، وتناول بالنقد في كتابه (فاطمة ومحمد) (1912) الأحاديث الخاصة بالرسول وأسرته. هنا أيضاً عمّق في معظم مصادره اتجاهاً شبيهاً، بحيث قدّم الروايات السلبية والسلبية الخاصة بالرسول. وهكذا فقد كانت الصورة المرسومة هنا جانبية بالضرورة، ولم تتمكن سواء غزارة المصادر ولا حنكة العرض، من سد ثغرات ضعف الحجج المقدمة. وصدرت له في السنوات (1910)، (1914)، (1924) عدة مؤلفات ومقالات عالج فيها الظروف البيئية التي نشأ فيها الإسلام وترعرع، وقدم وصفاً معبراً لأهمية مكة من الناحية الاقتصادية، ووصفاً لمدينة الطائف وسكانها ودراسات أخرى متعددة.

وإلى جنب هنري لامون فقد ضمت البعثة التبشيرية اليسوعية في سوريا نخبة من الأساتذة الذين استحق كل منهم التقدير على نشاطه في الدراسات العربية بطريقته الخاصة. وكان من أقدمهم فيليب كوش. ي. ي. (1818 ـ 1895) الذي باشر دوراً فعالاً في سوريا منذ العام 1846، وألمّ إلماماً جيداً بلغة البلاد الدارجة. ولمواجهة الاحتياجات الملحة المدرسية والمنزلية، أعدّ (المعجم العربي ـ الفرنسي) (1862) الذي ضمنه لغة المجمع السوري الرفيعة. ولم يقتصر في هذا على المفردات اللفظية الفصيحة، كما كانت متداولة في الأوساط السورية المثقفة قديماً، بل اقتبس المفردات العامية التي وجدت طريقها إلى لغة التحدث اليومية. ومحاولة منه لتصوير اللغة العربية الفصحى الحاضرة معجمياً في المناطق السورية، فإن هذا الكتاب الذي قدم كوش في كتابه (المعجم العربي الفرنسي) نظيراً له يعد خُطوة متقدمة. وكان (جان بابتست بيلوت ي. ي.) (1822 ـ 1904) الذي استكمل أعماله المعجمية من طبيعة هادئة ترنو للتأمل. وكان قد انضم في العام 1842 إلى

الزاويا اليسوعية، وعمل منذ العام 1844 في الجزائر حيث تعلم اللغة العربية في قسنطينة إلى درجة أنه أصدر بعد عودته إلى فرنسا (أسس قواعد العربية) (فالز 1849)، كما أصدر باتر هويري (المعجم الفرنسي العربي) في العام 1857. وابتداءً من العام 1866 عمل في سوريا، حيث قضى في بادىء الأمر سنتين في الجزيرة، ثم ابتداءً من سنة 1868 حتى وفاته في بيروت. وخلال الفترة من 1872 حتى 1897 باستثناء العام 1880 حيث أعفي كوش من منصبه، تسلم إدارة المطبعة الكاثوليكية. وفي سنة 1870 أسس صحيفة (البشير) وهي أول صحيفة كاثوليكية تصدر باللغة العربية. وبالتعاون مع آ. روديت، س. ي. أصدر (نُخب المُلَح) معجمة إعجاماً كاملاً، التي شهدت إلى حين وفاته توسعاً بلغ 20 طبعة و 38,000 نسخة. لكن استحقاقه الأشد يقع في المجال المعجمي. وفي العام 1883 ظهر له المعجم العربي الفرنسي. وقد وضع في البدء ليكون عوناً على مطالعة ما تنشره المطبعة الكاثوليكية من مؤلفات ومختارات، وبخاصة (نُخب المُلَح) وكتاب مغاني الأدب الشهير. لذا فقد احتوى على نصيب وافر من مفردات الفصحى إلى جانب المصطلحات العامية العربية السورية. والقسم الأعظم منها مأخوذ من معجم كوش لسنة 1862 و (محيط المحيط) للبستاني الذي ظهر في العام 1870. وقد وضع بيلوت كذلك معجماً فرنسياً ـ عربياً (نقحه في العام 1890 رفائيل نخلة تنقيحاً كاملاً س. ي. 1952)، كما وضع (التدريب على اللغة العربية) (سنة 1896، الطبعة الخامسة 1922).

إن النجاح الكبير الذي لقيه معجم بيلوت أوحى لإدارة مطبعة بيروت بفكرة معجم عربي إنجليزي مقابل. وقد وجدت في شخص باتر جوزيف جابربيل هافا (1851 ـ 1916) المُعِد المناسب. وينحدر(هافا) هذا من أصل سوري ويحمل الجنسية التركية وقضى سني تلقيه الأربع في مؤسسة تعليمية يسوعية. ويُعد معجمه (المعجم العربي ـ الإنجليزي) (1899، الطبعة الثانية 1915) من حيث الجوهر ترجمة لكتاب بيلوت وانتشر انتشاراً واسعاً شأن هذا الأول.

وقد طبع في بيروت أيضاً كتاب (أقرب الموارد الأفصح ـ العربية والشوارد) لسعيد الخوري الشرتوني (1894 ـ 1912)[1]، وهو أوسع نسبياً من محيط المحيط، فضلاً عن كونه استقى مفرداته من قواميس العربية الفصحى بشكل أساس.

وقدم (دونات فيرنيير) س. ي. عرضاً مبتكراً للعربية أسوة بالأنموذج القواعدي (المجلد 2، 1891 ـ 1892) وذلك في كتابه (قواعد العربية) (المجلد 2، 1891 ـ 1892). على أن هذا المؤلف لم يستطع بسبب الهنات التي يعاني منها من منافسة (قواعد العربية الفصحى)، الذي ألفه (مورتيمر) سلوبر هوويل (1841 ـ 1925) مستنداً في ذلك على كتب العربية الفصحى، ثم قام بنشره بين عامي 1880 و 1911.

وكان نشاط لويس شيخو (1859 ـ 1927)، من ماردين، يتميز بالشمولية. فقد وضع في (مغاني الأدب)،(ويقع في 6 مجلدات، نص 3 مجلدات، شرح وملحق عام 1885 حتى 1888) مختارات من الأدب العربي لفترة ما قبل البعثة النبوية وصولاً إلى القرن 9 الهجري الموافق 15 الميلادي. وقد وجدت هذه الطبعة رواجاً وانتشاراً منقطعي النظير بسبب غنى محتواها. وقدم بعمله (حول خصوصيات الحرف العربي) مدخلاً مريحاً لقراءة المخطوطات العربية. وكتابه (علم الأدب) (في مجلدين 1928) كتاب منهجي جامع للإنشاء والشعر والبلاغة. وقد أسس في 1898 مجلة المشرق، ولم يكن رئيس تحريرها الذي لا يفتر أبداً وحسب، بل كان أنشط عامل فيها. وقد قدم وصفاً لمخطوطات مكتبة جامعة سانت جوزيف العربية. وكان من الأوائل الذين قدموا نظرة إجمالية على الأدب العربي الحديث، لكن ولعه الأشد كان بالأدب المسيحي العربي، وبعد مجهود شاق قدم عنه نظرة شمولية وكان ذلك في العام 1924.

وقد تطلع إلى تعظيم تأثير المسيحية في فترة ما قبل الإسلام على شبه

---

(1) للمزيد انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ص2، 769.

جزيرة العرب، واحتج في كتابه (الشعراء المسيحيون العرب قبل الإسلام) دون تحفظ بعدد غير قليل من الوثنيين الأخيار لفائدة العقيدة المسيحية. ولعل الأهم من هذه المجموعة هي الإصدارات التي جعل فيها لويس شيخو نصوصاً مجهولة حتى ذلك الوقت قيد التداول. من ذلك مثلاً أشعار الخنساء وأبي العتاهية، والسموأل وغيرهم من الشعراء العرب، والألفاظ لابن السكيت في مراجعة التهذيب للتبريزي، وكتاب الكتاب لابن درستويه، وطبقات الأمم لابن سعد وغيره الكثير. وفي العام 1910 حقق حماسة البحتري استناداً إلى نسخة لايدن الأصلية التي ظهرت منها قبل ذلك بوقت قصير طبعة طبق الأصل كأول ما نشر لإحياء ذكرى دي جويه. وقد اكتشف في أحد أديرة لبنان مخطوط قديم نسبياً لترجمة كليلة ودمنة لابن المقفع، وأعد منها نسخة دون تغيير في النص لأسباب تجميلية. وحقق وألّف بالتعاون مع آ. هافنز آ. دوراند أكثر من كتاب. وبرغم إنجازه الجبار هذا كان يجد الوقت الكافي لوضع معارفه المتنوعة وتجاربه في خدمة الآخرين، سواء كانوا من أبناء طائفته أو كانوا زواراً أجانب.

كذلك اكتسب أنطوان صالحاني (1847 ـ 1941) بوصفه ناشراً للنصوص العربية اسماً لامعاً. فبعد أن حقق في العام 1890 كتاب (تاريخ مختصر الدول لبار هيبريؤس)، عكف على دراسة الأخطل حيث نشر في العام 1891 ديوانه مستنداً في ذلك على مخطوط لينينجراد، وأعدّ في العام 1905 طبعة طبق الأصل لمخطوطة بغداد. ولاستكمال هذه الأعمال فقد عمل أوتجينو جريفييني في العام 1907 على طبع مخطوطة الأخطل اليمنية في صورة طبق الأصل. وشكلت طبعة الصالحاني لنقائض جرير والفرزدق التي صدرت في العام 1922 الخاتمة.

74 ـ ليون كيتاني

وفي إيطاليا حيث أخذت الأجيال المتعلمة التي أعقبت أجناسيوس جويدي بمزيد من التخصص بحكم مقتضيات العصر، بحيث أصبح الاستشراق في نهاية العصر يتركب من مجموعة ضوابط، وجد تاريخ الإسلام في شخص (ليون كيتاني) (1869 ـ 1935) باحثاً فذاً. وقد توصل في وقت مبكر جداً، متأسياً بالصورة التي قدمتها مدرسة (موراتوري أنالي) بما تتمتع به من منهج نقدي، توصل لوضع (تاريخ الإسلام)، الذي رُئِيَ أن يتضمن المادة العلمية الخاصة بتاريخ الشعوب الإسلامية الموجودة في المؤلفات المرجعية المطبوعة والمخطوطة حتى فتح مصر في عهد السلطان سليم الأول في العام 1517 وذلك بترجمة إيطالية. وبفضل ما وفر له التلقي على أجناسيوس جويدي ورحلاته المتكررة في مختلف أقطار المشرق من استعداد، شرع كيتاني في جمع ومراجعة المادة العلمية. وفرق، بوصفه إيجابياً وعقلانياً، بشدة بين المادة المرجعية الموضوعة أمام الباحث، وبين التحليل لها، بهدف تقديمها للقارىء في وضعها السوي، ومن ثم الفرضية التي يجمع بها فيما بينها لعرض جامع. وسرعان ما تبين أن أجزاء المجلدات الجديدة المتناولة المفترضة لهذا العمل غير كافية لوصف زخم المادة المجمعة من قبل كيتاني والعاملين معه، وخاصة أنه قام بالرد على أسئلة مهمة مختلفة بنقد حاسم ولاذع في بعض الأحيان وذلك في مدخل حاوٍ ومناسبات متكررة. وقد عالج بعض هذه المعضلات مرة أخرى في (تاريخ الدراسات الشرقية) (1/ 1911/ المجلد الثالث، 1914). وقد حاول هنا على سبيل المثال إرجاع هجرة الشعوب العربية لتغيرات مناخية تتعلق بعودة

الجفاف لشبه الجزيرة، وهي أطروحة رفضت عموماً بعد مداولات حامية الوطيس. كما أن كيتاني في عرضه لنفوذ محمد من مجلد دراسته الثالث، أولى العوامل الاقتصادية والسياسية أهمية خاصة.

وعلى مدار السنوات ظهر من تاريخه أحد عشر جزءاً ضخماً، تشتمل على عصر الرسول وعهد الخلفاء الراشدين الأربعة. إلى جانب ذلك فقد عمل كيتاني على صدور (التاريخ الإسلامي) (كرونوجرافيا) في العام 1912، حرص على تسجيل أهم الوقائع حتى عام 922/ 1517 بدون مقتطفات من المصادر ولكن بإشارات وافية إليها. وحين بلغ في عرضه بالجزء الخامس سنة 1922 اضمحلال الدولة العربية 132هـ. استأنف كيتاني مشروعه في مؤلف ثالث هو (التاريخ العام لحوض البحر المتوسط والشرق الإسلامي خلال الفترة من 612 ـ 1517)، لكن لم يصدر منه سوى مجلد واحد يشتمل على السنوات من 133 ـ 144هـ.

وبالتعاون مع جوزيي جابرييلي، شرع في إعداد (معجم للأعلام). وقد صدر منه في العام 1915 مجلدان يحتويان من حيث الجوهر على مسرد كبير بأسماء الرجال الذين يحملون اسم عبد الله. هذا وإن كيتاني الذي أخذ على عاتقه العمل بخطط أخرى، ولعب كذلك دوراً في حياة روما السياسي، أدرك في وقت مبكر أن حياة إنسان غير كافية لاستكمال التاريخ وما يتصل به من مشروعات. ومن أجل ذلك فقد أنشأ في الأكاديمية عام 1924 مؤسسة أوصى لها بكتبه، ومخطوطاته، ومنسوخاته، وبما جمع لأعماله فخلق في روما بذلك مكاناً فريداً لاستقطاب الدراسات الإسلامية الأثيرة على فؤاده.

75 ـ كارلو ألفونسو نيللينو

على العكس من المؤرخ كيتاني، كان (كارلو ألفونسو نيللينو) (1872 ـ 1938) لغوياً. وقد تميز هذا الصبي الفطن الذي نضج مبكراً بالميل نحو وصف البلدان الأجنبية، وللوصف الذاتي للعربية، وأحب الجغرافيا حباً خاصاً. وهكذا فقد درس في تورينو الجغرافيا إلى جانب الاستشراق على جويدو كورا، الذي قبل في العام 1890 نشر عمل لتلميذه الموهوب يتعلق بالجغرافيا في دوريته التي يصدرها المسماة العالم (1892 ـ 1893). وقد برهن الصبي من خلال اختياره الهادف، شروحه ومعجمه العملي في مختارات من القرآن العربي (1893)، برهن أيضاً على دراية بمحصلات بحوث القرآن التاريخية النقدية. وبعد اجتيازه الامتحانات الختامية في العام 1893، مكنته وزارة المعارف من منحة دراسية للذهاب إلى القاهرة لمدة نصف عام، حيث اندمج في دراسة العربية فأجادها كتابة ونطقاً. أما أنه تمعّن في دراسة العامية فذلك ما يكشف عنه معجمه المتميز عملياً ونظرياً (1900 ـ 1913). وبعد عودته من مصر نصحه مدير مرصد ميلانو الملكي (جيوفاني شياباريللي) وشقيقه المستعرب المعروف (سيليستينو شياباريللي) بنشر كتاب التباني الفلكي الذي مارس تأثيراً مستمراً على تطور الفلك والمثلثات الكروية في أوروبا. وإن نيللينو الذي كان منذ العام 1894 محاضراً، وأستاذاً خلال الفترة من 1899 وحتى 1901 للغة العربية في المعهد الشرقي في نابولي، انتهى في العام 1899 من تدوين نص المؤلف المذكور بحسب مخطوط مكتبة الإسكوريال. وبعد استدعائه في العام 1902 إلى جامعة باليرمو، أعقب ذلك بترجمة لاتينية للجزء النظري من الكتاب في العام 1903 وأرفقه بشرح

موضوعي كامل. وشكلت ترجمة الجداول، والمعجم القيم، والملاحق، الخاتمة في العام 1907. ولقد كان هذا الإنجاز المهم موضوعياً ولغوياً في الوقت ذاته وراء شهرة نيللينو العالمية. وبناءً على دعوة وجهتها إليه جامعة القاهرة، ألقى في الفترة من 1909 ـ 1910 محاضرات حول تاريخ علم الفلك عند العرب بالعربية، تم طبعها في (الفلك). وفي العام 1912 كلفته الحكومة بتأسيس مكتب للترجمة في مدينة طرابلس. وفي سنة 1913 عهدت إليه بإعادة تنظيم معهد الاستشراق في نابولي. وفي العام 1915 استدعي لشغل كرسي تاريخ التشريع الإسلامي في معهد الاستشراق، تولى إدارته وأصدر (دورية الشرق الحديث) التي سرعان ما اكتسبت، بحكم ما تمتعت به من خبر موثوق حول بلدان الشرق الإسلامي، احتراماً فائقاً. وبرغم الأعباء الملقاة على عاتقه جراء الالتزامات الوظيفية بأنواعها المختلفة، حيث كان منذ سنة 1932 عضواً في الجمعية الإيطالية الأكاديمية وقام بمراجعة مقالات المجلة كما كان رئيس التحرير المتخصص للمقالات الشرقية الخاصة بدائرة المعارف الإيطالية. برغم كل هذه الأعباء فقد وجد وقتاً لممارسة النشاط الأدبي على نطاق واسع. وكثيراً ما أعطاه اصطلاح (عربي ما) الحافز للبحث المتعمق، ليسلط الضوء على السياق الفكري التاريخي الكبير انطلاقاً من استعمال الكلمة، أو أنه ربط بالشرح الدقيق (كما في تائية ابن الفصيد) إشارات جذرية حول المؤلف وكتابه. وقد نبعت سلسلة طويلة من المساهمات حول تاريخ القانون في الشرق من الاختلاف حول أعمال كاروسي القانونية. وكما تحمل العبء الرئيس في تحرير كتاب أماري الذي صدر في العام 1910، فقد تكفل أيضاً بطبعة (تاريخ المسلمين في صقلية) لأماري.

ومن بين المستعربين الإيطاليين الآخرين الأفذاذ الذين رحلوا باكراً (أويجينو جريفيني) (1878 ـ 1925)، وهو عالم متنوع الاهتمامات أصدر كتاب (القانون الكبير) لزيد بن علي سنة 1919.

76 ـ ف. ف. بارتولد

يعد أبرز المستشرقين الروس تلامذةً للمستشرق فكتور روزن. ومن بين هؤلاء برز (فازيليي فلاديميروفي بارتولد) (1869ـ 1930) الذي استحق فضلاً كبيراً على بحوثه الآسيو ـ أوسطية بخاصة. وإن رسالته الرائعة حول تركستان في عصر سقوط المغول وما تميزت به من إلمامة واسعة بالمصادر، ومنهج ثابت، وحكم سليم، كانت متفوقة في عصرها. وصدرت نسخة ثانية في العام 1928 راجعها وأكملها بارتولد وترجمها المستشرق هـ. آ.ي. جيب (GMNS V). وشمل ببحوثه كذلك الجغرافيين والمؤرخين العرب، وحل بالتعاون معهم عقال بعض معضلات الجغرافيا التاريخية لآسيا الوسطى. إلى جانب ذلك فقد أفاد على الدوام فائدة جمة من المصادر غير الأدبية، النقود منها بوجه خاص. وفي السنة 1899 ترجم ستانلي لين ـ بول (الأسر المحمدية) (لندن 1894) إلى اللغة الروسية، كما أدخل عليها كثيراً من التصحيح والإضافات، بحيث استحقت مراجعته لها قيمة قائمة بذاتها وتقلدت زمام الريادة إلى حين صدور كتاب (إدوارد فون زامبورنس) حول (تاريخ الإسلام).

أما بارتولد الذي أصدر النقود التذكارية عن القسم الشرقي بجمعية الأثريين الروس منذ وفاة روزن في العام 1908، فقد أدرك الأهمية القصوى للعلوم الإسلامية وتولى لهذا السبب إصدار صحيفة (ميراسلاما) التي أسست حديثاً منذ العام الروم 1912. ويحتوي المجلد الأول منها مقالة بارتولد حول الخليفة والسلطان، التي كان لها أثر بعيد المدى في الشروح والتعليقات التي

وردت حول قانون الدولة في الإسلام. وفي السنة نفسها عالج في (صحيفة كريستيانسكي فوستوك 6، ص 203 ـ 234) السؤال الذي كثيراً ما طرق حول علاقات شارلمان مع هارون الرشيد، ووقف لأسباب قوية ضد الافتراض القائل بأن هذين الأميرين تبادلا الرسل. وفيما بعد قدم في كتبه أيضاً بعض التصورات المشتركة المفهومة حول الإسلام (1919)، وحضارته (1918)، وعالمه (1922). هذا وبعد ما أمضى بارتولد، بعيد الانتهاء من دراسته، فصلين دراسيين لدى آ. موللر في مدينة (هالة) وتيودور نولدكه في شتراسبورج ووطد علاقاته مع الباحثين الأجانب، تمتع منذ تقديم أطروحته بسمعة عالمية. فلقد كان أحد الذين أسهموا في دائرة المعارف الإسلامية، وكتب فيها عدداً غير قليل من المقالات وبخاصة حول تاريخ وجغرافية آسيا الوسطى والشعوب التركية. وفيما صدر من إفادات عن حلقة برلين لسنة 1898 وحتى 1903، فقد تحدث حول المطبوعات الروسية الحديثة في ميادين البحث الآسيوية الوسيط منها والأقصى. وقد ترجم العديد من أعماله إلى اللغة الألمانية. واستدعته الحكومة التركية في العام 1925 أستاذاً زائراً لإلقاء محاضرات في جامعة استانبول، وقدم من خلال محاضراته الاثنتي عشرة حول (أتراك آسيا الوسطى)، التي صدرت باللغة التركية في بادىء الأمر ثم ترجمت إلى اللغة الألمانية، نظرة إجمالية غنية حول الحصاد العلمي الذي أنجزه في حياته.

77 ـ أغناطيوس كراتشكوفسكي

لعل أهم مستعرب تخرج في مدرسة روزن، هو (أجناتي يوليانوفيش كراكوفسكي) (1883 ـ 1951). وقد بدأ منذ أن كان تلميذاً في المدرسة في تعلم العربية مستعيناً بكتاب قواعد دي ساسي في الخصوص. وفي رحاب الجامعة درس العربية على روزن، كما درس تاريخ الإسلام على بارتولد. إلى جانب ذلك فقد كان طالباً مستمعاً إلى ب. م. ماسيورانسكي (1868 ـ 1906) أستاذ اللغة التركية، وإلى ف. آ. زوكوفسكي أستاذ اللغة الفارسية المتوفى في العام 1918، وإلى كوكوفكوف أستاذ اللغة العبرية. وأخذ روزن بيده على طريق الشعر العربي، ونشر أطروحة الماجستير حول ديوان (أبو الفرج الوأواء)، وهو أحد شعراء حاشية سيف الدولة الحمداني مترجمة إلى اللغة الروسية ومدخل شامل لتاريخ الأدب حذا في منهجه حذو آ. ن. فيسيلوفسكي صاحب المؤرخات الأدبية. وقد تمخض عن هذا العمل المثمر الهادف لفهم الفن الشعري العباسي فيما بعد دراسة الشعر العربي، والبلاغة، والنقد الفني التي توجت بالطبعة النموذجية لكتاب (البديع) لابن المعتز (GMNSX 1935)، التي وصف كراتشكوفسكي في مدخلها مسار بحوثه في هذا الميدان. ومن بين الشعراء العباسيين نخص بالذكر المفكر الأعمى (أبو العلاء المعري) الذي مارست أعماله على كراتشكوفسكي جاذبية قوية.

وقد تعرف كراكوفسكي على الشرق من خلال رؤية خاصة به أتاحتها له رحلة قام بها بين عامي (1908 ـ 1909) إلى كل من مصر وسوريا. وقد تعلم هنا العامية وقضى فيهما شتاءين في جامعة سانت جوزيف الكاثوليكية

ببيروت، حيث ربطته علاقات صداقة مع كل من شيخو، صالحاني، وأعضاء آخرين في البعثة التبشيرية اليسوعية، كما احتك بكتاب عرب آخرين مثل أمين الريحاني، جرجي زيدان، محمد كرد علي وأحمد تيمور باشا. وتعرف الأهمية العلمية للأدب العربي الحديث، وشارك منذ ذلك الوقت بالعديد من المقالات والترجمات في مجالات البحث فيها. وقد تعلق أحد طلائع أعماله الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث. وقد ترجم العديد من بحوثه في العام 1930 إلى اللغة الألمانية مع مدخل لها. وقد كتب مقدمة حول مختارات (ك. ف. أودي فاسيليفا) تحتوي على تجارب للأدب العربي الحديث في الفترة من (1880 ـ 1925) ومعجم روسي عربي، وصدر بين عامي (1928 ـ 1929) بين منشورات معهد استشراق لينينجراد، وقد ترجمت تلك المقدمة أيضاً إلى اللغة الألمانية. ومن ثم قدم نظرة إجمالية رائعة حول الأدب العربي الحديث وأضرابه بالإضافة إلى فهرسة غزيرة وذلك في دائرة المعارف الإسلامية. وأخيراً فقد عمل بالتعاون مع (س. هـ. ك. بارانوف) في إعداد معجم ألفاظ لغة الأدب العربي الحديثة. هذا وقد تفحص بنشاط في أثناء القيام برحلته الشرقية المخطوطات العربية في مكتبات بيروت والقاهرة.

وفي العام 1914 نظم رحلة إلى مدينة هالة ولايبزيغ، ولايدن بهدف دراسة المخطوطات فيها. وبعد وفاة عالم اللغة الفارسية (كارل سيل مان) (1830 ـ 1916)، قام بتصنيف المخطوطات الشرقية التي تم الحصول عليها حديثاً من المتحف الآسيوي ليصبح بعدها رئيساً لقسم الإسلاميات. وقد تناول من بعد ذلك الأدب المسيحي العربي أيضاً في مجال دراسته. وهكذا فقد وصف في العام 1924 على سبيل المثال مجموعة المخطوطات العربية التابعة لجريجور الخامس أسقف أنطاكية. ثم تعهد مخلفات أستاذه فكتور روزن، وأنهى ، كما سبق القول، طبعة الدينوري، في الوقت الذي استكمل فيه سنة 1912 الملاحق التي أعدها روزن، وجمع حاشية الخطأ والصواب، وكتب المقدمة.

وقد تمثلت مقدرة كراتشكوفسكي في الدراسة العلمية وتبدت موهبته التي لا يشق لها غبار في الكشف عن الغاية من المخطوط والتعرف على المثالي والمستمر منها بشكل عام من خلال العينة الواحدة، كما تبدّت في مساهماته الكثيرة حول تاريخ العلماء التي اختتمت بتعليقاته حول تاريخ الدراسات العربية في روسيا. وقد نشر كراتشكوفسكي في العام 1954 مذكراته عن الكتب والناس فقوبلت بنجاح منقطع النظير (صدرت الطبعة الثالثة سنة 1953، والترجمة إلى الألمانية في العام 1949، وإلى البولونية في العام 1952، وإلى الإنجليزية في العام 1953، وإلى الفرنسية في العام 1954). وقد مكن القارىء فيها من المشاركة في عمل المستعرب، كما عرف بطبيعته غير الملحاحة كيف يقرّب طبيعة الدراسات العربية من غير المتخصصين أيضاً، وجعل أهميتها بالنسبة للتاريخ الحضاري جلية له، واطلاعه على أن مهام هذا التخصص لا يمكن حلها إلا بتضافر المستشرقين من الأقطار كلها.

وفي العام 1914 نشر تلميذ آخر لفون روزن، (ألكسندر إدواردوفيش شميدت) (1871 ـ 1939) مخطوط عبد الوهاب الشاراني بترجمة روسية ومقدمة مسهبة حول كتاب ونظرية المؤلف.

وفي السنة نفسها حقق (د. ك. بتروف) طوق الحمامة لابن حزم استناداً على نسخة لايدن الأصلية. هذا وإن بتروف الذي شغل كرسي أستاذ للدراسات الرومانية في جامعة بطرسبرغ، قادته دراساته الإسبانية نحو مشكلة الوسط الكبرى التي تشمل علاقة الشعر العربي الأندلسي مع شعر بلاد القرن المسيحي الوسيط، ثم درس العربية على فكتور روزن في السنوات التي تلت.

وقد كان لكتابه في المدونة العربية الشهيرة حول الحب أثر فاعل على البحث العلمي. وقد ترجمها آ. ي. نيكل إلى الإنجليزية في العام 1931، وترجمها م. آ. سالي إلى الروسية في العام 1933، وترجمها ماكس فايسفايلر إلى الألمانية في العام 1941.

وعمل عالم البيزنطيات ألكسندر فاسيلييف (المولود سنة 1867) في حقل علمي آخر على كتابه حول بيزنطة والعرب (1900)، إذ اتخذ، في معرض انتقائه للمصادر العربية، اتخذ من كتاب ف. ف. تيزنهاوزن حول الثلة الذهبية أنموذجاً له. وقام هنري جريجوار وماريوس كانارد بإعداد نسخة فرنسية حديثة في جامعة بروكسل (المجلد II ف. ف. 1935).

78 ـ الدراسات العربية في البلدان الاسكندنافية في الفترة من 1890 حتى 1914

حين استدعي فرانتس بوهل (1850 ـ 1932) في العام 1897 ليخلف المستشرق ميهرنس في كرسي الدراسات السامية في جامعة كوبنهاجن، كانت وراءه مسيرة مشرفة بوصفه أستاذاً للعهد القديم في كليات اللاهوت لجامعات كوبنهاجن (1878 ـ 1890)، ولايبزيغ (1890 ـ 1897) خلفاً لفرانس ديلتش، واشتهر بكتب مثل (التوراة نص وتشريع) وتنقيحه لمعجم جيسينوس (الطبعة 14 لسنة 1895). وقد تعلم العربية على ميهرن وفلايشر، وقدم أطروحته في قواعد العربية لابن حبيب.

ثم عكف على دراسة تاريخ الإسلام في صدر الإسلام. وبحصافة وتبصر، وروح ناقدة وتشكك تجاه كل التفسيرات المتطرفة (على النحو الذي بدت جلية في كتابات لامون، مارجليوث، جريمس وكيتاني)، قدّم في كتابه: (حياة محمد) (1903) وترجمته الألمانية المنقحة (1930) من خلال الاستعمال الأمين للمصادر، والمعرفة الوثيقة بها، والنقد المتحفظ، سيرة نبوية متميزة. إلا أن محاولته التي استندت على أسس خاطئة باشتقاق[1] الإسلام من الأديان السماوية الأقدم بالوراثة تاريخياً قد أخفقت. غير أن غزارة المراجع المأمونة، والعرض الشمولي للوقائع ظاهرياً، أكسب العمل قيمة رفيعة إلى يومنا هذا.

---

(1) تقدم المقالات المنشورة في دائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان (محمد والقرآن) أفضل مصدر لتصوراته حول هذه المسألة.

ومن تلامذة (ميهرن) أيضاً (يوهان أوستروب) (1867 ـ 1938) الذي سعى في كتابه (دراسة ألف ليلة وليلة 1891) والذي ترجمه (و. ريشر إلى الألمانية 1925)، سعى إلى تحليل مصادر هذا العمل وقدم في كتابه (حكايات دمشقية) إلى جانب النص والترجمة موضوعات في قواعد العامية الدمشقية. ومن الميادين التي يستحق عليها العلماء الدنماركيون الثناء تاريخ الرياضيات والفلك. فقد حقق و.ي. بستهورن (1847 ـ 1921) الذي حضَّر شهادة الدكتوراه على (ميهرن) بتحقيقه لرسالة ابن خلدون إلى ابن جعفر في العام 1889، حقق منذ العام 1893 الترجمة العربية للكتب الستة الأوائل لأويكلين وأردفها بترجمة لاتينية، ولم يكن من عالم اللغة اللاتينية القديمة في جامعة كوبنهاجن والعارف المتميز بالرياضيات القديمة (يوهان لودفيج هايبرج) (1854 ـ 1928) إلا أن يقف منه موقف المساند القوي. وفضلاً عن ذلك فقد زودها هايبرج بملاحظات توجيهية موضوعية.

وبرغم توفر كراس للغات السامية في كل من أوبسولا ولوند، فقد لقيت الدراسات العربية خلال النصف الثاني من القرن الماضي أفضل عناية بوساطة (هيرمان ألمكفيست المتوفى سنة 1904) العالم في اللغات المقارنة، وبوساطة العالم المستقل (كرالو لاندنبرج) (1848 ـ 1924)، أصبح دوقاً لمدينة لامبرج خلال هذين التاريخين. وكان ألمكفيست، الذي درس أيضاً على فلايشر، قد قضى عامين ونصف العام في كل من سوريا، ومصر، والنوبة، والسودان، وأعار اللهجات الدارجة التفاتة خاصة. وإن (مساهماته الصغيرة في الصناعة المعجمية للعامية العربية) التي وصفها بتواضع على أنها مقدمة مستقبلية لملحق دوزي، تتميز بالثقة العظيمة وهي من النمط نفسه، كما هي الحال هنا في اتحاد بحث اللفظ واللغة، تعد قدوة من الناحية المنهجية. كما أن اهتمام لاندبرج انصرف في المقام الأول إلى العامية العربية، ومع ذلك فقد كان يفتقر إلى القاعدة التعليمية الأساسية وإلى التربية المنهجية. ولم تتمكن إقامته الطويلة غير المعتادة في الشرق من تعويض هذا العجز. وقد خطط من حيث المبدأ، بإيحاء من المستشرق (شبيتا)، لجمع

أمثال شعبية عربية في خمسة مجلدات ولم يصدر منها سوى المجلد الأول الخاص بمنطقة صيدا السورية وذلك في العام 1883، ونال بها في العام 1883 الدرجة العلمية في لايبزيغ. ثم حقق ديوان أبي محجن سنة 1886 وديوان زهير في العام 1889، وعمل في الوقت ذاته على نشر المجلد الأول من (مداولات) في (النقد العربي) جرت عليه تقريعاً فظاً من المستشرق الهولندي سنوك هورجرونيه. وأعقب ذلك في العام 1888 مجلد (بنص عماد الدين الأصفهاني) لفتح القوصي. بعدئذٍ وجه عنايته لدراسة عامية جنوب شبه جزيرة العرب ونشر في العام 1901 المجلد الأول من الكتاب الذي يحمل الاسم نفسه، وهو شعر وقصص بلهجة حضرموت، بالإضافة إلى الترجمة والتعليق والمعجم. وأنجز المجلد الثاني في ثلاثة أجزاء خلال الفترة من (1905 ـ 1913) بعامية (داتينا) مع ترجمة لها وتعليق. وفي الوقت ذاته ضمّن لاندبرج آراءه حول (اللغة العربية وعاميتها) في دراسته التي قدمها لمؤتمر الاستشراق الذي انعقد في مدينة الجزائر في العام 1905. ثم عاد لدراسة العامية البدوية في الصحراء العربية السورية التي عكف عليها في العام 1883، وأصدر في العام 1919 المجلد الأول والوحيد من بعض نصوص (لغة البدو). وإنه ليتعذر تقويمها لسانياً بطبيعة الحال، وذلك أن الرجل الذي استند عليه لاندبرج لم يكن بدوياً بل فلاحاً مسيحياً من حوران. وكرس السنين الأخيرة من حياته في إعداد (معجم دايتنوس) الذي صدر منه في عامي 1920 و 1923 الجزءان الأول والثاني. وقام (سيترستين) بإصدار المجلد الختامي في العام 1942 من مخلفات لاندبرج، بعد أن نشر في العام 1940 بالطريقة نفسها (فهرس اللغة البدوية). وهذه المؤلفات أغزر من المعاجم المعتادة لاحتوائها على مقترحات اشتقاقية غنية تستند على قواعد اشتقاق الفصحى بالطبع كما عبر عن ذلك أحمد فارس الشدياق، الذي كان شديد الإعجاب بالمستشرق لاندبرج، في مؤلفه (سر الليالي).

وقد أفاد لاندبرج كذلك كثيراً من فرضية جذور نظم الشعر. ومال مع هيرمان موللر وهو مواطن مثله إلى وجود أواصر قربى ضاربة القدم بين

السامية وأصول اللغة الهندوجرمانية. غير أنه إلى جانب هذا الثقل الذي تشكله المعاجم فإنها تحتوي على مقاطع كثيرة حول الكلمات والمواضيع، وأسانيد من الأدب القديم، وملاحظات في القواعد لكنها تحتوي بشكل خاص على مادة معجمية غزيرة، ليس من اللهجات العامية التي تجري معالجتها، بل من واقع النبرة أيضاً. ولعل استحقاقه الباقي يتمثل في الوقوف على ذلك الزخم من الألفاظ والمصطلحات التي تتجلى فيها القوة الحيوية غير الواهنة للغة العربية في شعب لم يمسه تأثير الفصحى وبناؤها. وقد كان لجامعة أوبسالا في شخص كارل فلهلم سترستين (1866 ـ 1953) الذي سبقت الإشارة إليه، عالم فذ في اللغات السامية. وفي العام 1895 تحصل على شهادة الدكتوراه على أطروحته حول الكتاب المنهجي في قواعد الشعر لابن عبد المؤتي، وشارك في طبعة ابن سعد التي أعدها أستاذه ساخاو، كما قدم مساهمات مهمة حول (تاريخ السلطان المملوكي خلال الأعوام 690 ـ 741هـ. بالاعتماد على المخطوطات العربية). وفي شيخوخته شرع في إصدار كتاب نشوان (شمس العلوم).

لقد كان شديد التنوع، فحقق (دراسات نوبية) في العام 1911 وهو من مخلفات المكفيست، وقدم في مجلة (عالم الشرق) التي أسسها بنفسه في المجلدين 22 و 23، وصفاً للمخطوطات العربية، الفارسية، والتركية في مكتبة جامعة أبسولا، ودعم دائرة المعارف الإسلامية بمقالات غزيرة، تحدث فيها بموضوعية وفطنة حول الخلفاء، والولاة، والشخصيات السياسية التاريخية البارزة.

ومن تلامذة سيترستين أيضاً أكسل موبرج المولود سنة 1872، الذي حقق سيرة للسلطان المملوكي الأشرف باللغة العربية، ثم توجه فيما بعد للدراسات السورية. وقد قدم ألكسندر سايبل (1851 ـ 1938) بتدريس اللغات السامية في كريستينيا (بأوسلو) ونظم مجموعة المخطوطات العربية فيها بين عامي (1851 ـ 1938).

79 ـ أ. فيشر ومدرسة لايبزيغ

وبشخصية أوجوست فيشر (1865 ـ 1959) الذي استدعي في العام 1899 إلى لايبزيغ خلفاً للمستشرق (سوسين)، يكون قد اعتلى كرسي الدراسات الذي شغله فلايشر، عالم ترعرع في أفضل تقاليد مدرسة لايبزيغ واتخذ من المستشرق فلايشر قدوة علمية حسنة له. وعلى غرار فلايشر، نظر، بموضوعية وتحليل إلى فقه اللغة العربية، كأساس لا غنى عنه للتعامل العلمي مع كل النصوص العربية. وإن حدسه القوي للاحتمالات النحوية في مصطلحات اللغة، وتمكنه من الثروة اللفظية، والاستعمال اللغوي للعربية بدءاً بأقدمها وانتهاءً بلهجاتها الحاضرة، ومعرفته الوطيدة بالنحويين العرب، أهلته لأن يبعث الحياة مجدداً في كل ما يختفي خلف الحروف الميتة من النص العربي، وذلك من خلال فن في الشرح لا يضاهى. وهكذا فقد نما فيه، جراء احترامه للنص، إحساس عارم بالمسؤولية جعله يأخذ أعماله كلها آية في الدقة. وإن دراسته حول ترجمات القرآن المتداولة والسورة الثالثة من الكتاب، لا تكشف من خلال المثال الواحد للسورة العجز اللغوي في الصياغات الشائعة، بل تعالج كذلك بطريقة منهجية رائدة القضايا الأساسية في تفسير القرآن والضبابية التي تخيم على الإيحاءات القرآنية من جهة اللفظ والأسلوب، والقراءات، وأهمية البيئة العربية الوثنية في فهم محمد. وفي دراسته حول (أبو العلاء المعري) يصل فيشر بالقارىء نحو آخر الأسئلة المستخلصة من الغاية والاعتبار لشاعر فريد من نوعه.

ولمواجهة احتياجات الدراسات الأكاديمية، جدد (ي. بونو) كتاب

(مختارات عربية من كتاب النثر الفني)، واضعاً به بيد المبتدئين كتاباً في المطالعة، احتفظ بقيمته بسبب اختياره الموفق للنصوص، وبسبب معجمه الممتاز بالذات.

إن الحاجة إلى معجم مستقى من المصادر العربية أصبحت ماسة منذ مطلع القرن المنصرم، وقد بدا أن فيشر، بحكم موهبته وجبلته هو الرجل الصحيح القادر على سد الثغرة. وكانت فاجعة حياته حين اضطر لإلقاء القلم من يده مع انتهائه من أول مقالة في معجمه. وبدلاً من ذلك أُعدت مجموعة مخطوطات صغيرة حول المعجم تم الانتهاء منها في العام 1945 تحت عنوان (ملحق الشواهد)، التي قام فيشر بالتعاون مع تلميذه وخلفه (أريش بونيليش) (1892 ـ 1945) بجمعها.

ومن تلامذة فيشر أيضاً (آرثور شادي) (1883 ـ 1952)، (أريش جريفه) (1886 ـ 1914)، وجوتهيلف بيرجشتر سِّر (1886 ـ 1933).

إن بيرحشترسِّر الذي تنوعت دراساته، واهتم باللغات الهندروجرمانية واللغات القديمة إلى جانب اللغات السامية، طبق في البدء مناهج الفلسفة الموضوعية اللغوية والمناهج النقدية التاريخية على اللغة العربية، ومن ثم على العبرية الآرامية، ثم ما لبث أن وسع دائرة بحثه لتشمل تاريخ الفكر، بحيث لم تكن أوبته إلى حقول العمل القديمة نادرة. وهكذا فإن جانباً من أعماله أحاط بالقرآن. ولقد كانت أطروحته حول (الإنكار في القرآن) (1911) (المزيدة 1914) بداية بشرى لقواعد لغة القرآن التاريخية. إن تاريخ النص القرآني الذي بدأ به بعد وفاة سلفه (شفاللي) في الطبعة الجديدة من المجلد الثالث لكتاب (تاريخ القرآن) لنولدكه[1]، حفزته على بحوث جد مثمرة وعلى طبع جانب من كتاب القراءات لابن خالويه (نشرت في مجلة بيبليوتيكا إسلاميكا 1934) والمعجم الطبيعي لمعلم القرآن لابن الخرزي[2]. بذلك مهد

(1) أكملها تلميذه أوتو بيرتزل حتى نهايتها في العام 1938.

(2) ـ استكملها بيرتزل حتى نهايتها (في ثلاثة مجلدات 1933 ـ 1935).

الطريق، وإن تم مراراً على مخطوطات غير كافية، أمام حقل عمل لم يطرقه أحد من قبل. وبإجازة التدريس الجامعي التي حصل عليها برسالته التي كان موضوعها (حول ترجمات أبقراط وجالينوس العربية التي تم نشرها حتى الآن) (صدرت عام 1912 وزيدت عام 1913 بحنين بن إسحاق)، فقد قدم بحوثاً لغوية وأدبية تاريخية، تبعتها فيما بعد سلسلة من أعمال أخرى وطبعتان لمخطوطي حنين بن إسحاق. وقد جعلته الرحلة التي قام بها إلى الشرق في العام 1914 خبيراً باللهجات السورية، وأدت لإصدار نصوص نثرية باللهجة الدمشقية (1924)، وكذلك إلى (أطلس سوريا اللغوي وفلسطين).

وإن محاولته التي تعد الأولى من نوعها باستعمال مناهج جغرافية العامية الحديثة في حقل اللغة العربية، لتستحق الاعتراف. كذلك فقد قام بجمع نصوص آرامية حديثة بعامية معلولا، ونشرها مع مجموعات كل من بريم وسوسين، كما قدم لهما معجماً في العام 1921. وأخذ على عاتقه في العام 1913 تجديد كتاب جيسينيوس، وهو كتاب محافظ في النحو العبري، إلى كتاب تاريخي في اللغة، لكنه لم يتمكن من الانتهاء إلا من جزأين (الطبعة 29 لعامي 1918 و 1929) ويتضمنان علمي الخط والصوت والفعل. ويشكل (الدليل الأصلي إلى اللغات السامية) (1928) خاتمة هذه المؤلفات اللغوية التاريخية. وأخيراً فقد صرف بيرجشترستر اهتمامه أيضاً نحو تاريخ التشريع الإسلامي، وأثر تأثيراً مثيراً وغير عادي من خلال مقالاته الغاصة بالأفكار حول : (بدايات وسمات الفكر التشريعي في الإسلام) (مجلة الإسلام، XIV، 76ت 81)، (وحول منهجية البحث في الفقه) (إسلاميكا 4، 283 ـ 294). وقد أصدر تلميذه ي. شلاخت بوستهوم كتاب (الملامح الأساسية للتشريع الإسلامي في المذهب الحنفي (مجلة ل. س. وس. 35، 1935). وحين تعرض بيرجشترستر لحادث طرق جبلي وهو في السابعة والأربعين من عمره وكان ذلك في العام 1933، كانت تلك نهاية حياة عالم حمل في ذاته تباشير كثير من المعارف.

وإلى جانب فيشر، لعب في لايبزيغ المستشرق باول شفارتز (1867 ـ

1938) وهو تلميذ لسوسين أيضاً دوره. فقد اشتهر بمعرفته الجيدة باللغة العربية، فقد حقق ديوان عمر بن أبي ربيعة في العام 1909، وقدم حول لغة الشاعر وأسلوبه ووزنه الشعري بحثاً مفيداً. وبإيحاء من المستشرق فلهلم سيجلين، فقد عمل إلى جانب ذلك في حقل تاريخ الجغرافيا ليقدم في ثماني مجلدات (إيران في العصر الوسيط استناداً على مؤلفات الجغرافيين العرب) (1896 ـ 1923)، وهو جمع وصفي مصنف للأخبار ذات العلاقة بالموضوع.

والمستشرق هانز شتومه (1864 ـ 1936) تخرج هو الآخر في مدرسة سوسين وقدم، كما سبقت الإشارة، ديوان أستاذه (من قلب شبه جزيرة العرب).

وقد تركزت بحوثه الخاصة على اللهجات الدارجة للمغرب فضلاً عن كونه كان أحد الملمين بلغات البربر.

80 ـ هـ. ركندورف

إنه في الوقت الذي انصرف فيه معظم اهتمام ممثلي مدرسة لايبزيغ إلى القضايا المتعلقة بالنص في بحوثهم اللغوية التاريخية، ناب عنهم أحد تلامذة نولدكه (هيرمان، وفي الأصل شالمون ركندورف) (1863 ـ 1923) في تقديم عرض شامل للنحو العربي. وقد وصف في بداية الأمر العلاقات النحوية في العربية (1895 ـ 1923) محاولاً، بوحي من كتاب المستشرق هيرمان باولوس (مبادىء تاريخ اللغة) تفسير الظواهر اللغوية بحسب القواعد الأساسية للغويين المحدثين، بحيث لا تكون العلاقات المنطقية إدراكاً، كما فعل فلايشر، بل أن تكون وجهات النظر التاريخية والنفسية هي المعيار. وقد عبر عن رأيه (حول البحث النحوي) بشكل عام في خطابه الافتتاحي عام 1899. وفي العام 1921 أصدر كتاباً عنوانه (النحو العربي) عالج فيه الموضوع نفسه بالترتيب نفسه تقريباً، ولكن بوصف أكثر وبغير ملحق فرعي دليل. وكلا الكتابين يحتوي على مادة كافية من حيث الشواهد التي حشدها ريكندورف من الشعر والنثر القديم على مدى سنوات طويلة من الجمع. وفيه أشار إلى أن على الباحثين المستقبليين وجوب الفصل الكامل بين خصوصيات لغة الشعراء، وأضراب الأسلوب، وأقاليم اللغة وحقبها. وما دام العرض التاريخي للقواعد غير موجود، فلسوف تحتفظ مؤلفات ريكندورف بمنزلتها المشرفة.

81 ـ مدرسة برلين

إلى جانب مدرسة لايبزيغ، فقد تمتعت المدرسة البرلينية بأهمية خاصة بالنسبة للدراسات العربية، ذلك أن ساخاو أبدع بالتعاون مع تلامذته والمتعاونين معه في الطبعة الضخمة لكتاب ابن سعد. ومن بين هؤلاء كرس (جوزيف هوروفتز) (1874 ـ 1931) معظم نتاج حياته في بحوث صدر الإسلام. وكان موضوع رسالته (مغازي الواقدي) (1898)، وأصدر لابن سعد الجزأين المتعلقين بغزوات الرسول والمجاهدين في الفترة المدنية. وبتفويض من ل. كيتاني، فتش في مكتبات القاهرة ودمشق وإستانبول عن المخطوطات العربية ذات المحتوى التاريخي (م. س. و. س1 ـ 68). كذلك فإن طبعة (الهاشميات) للكميت فجرت اهتمامات تاريخية. وقد جعلت منه إقامته في الهند أستاذاً للعربية في (الكلية الإنجيلية ـ المحمدية الشرقية) خلال عامي (1907 ـ 1914). ولكونه عمل خطاطاً حكومياً للمخطوطات الإسلامية، فقد صار عارفاً ممتازاً بالإسلام في الهند. وقد سخّر عمله خلال فترة إقامته في فرانكفورت خلال الفترة من (1915 ـ 1931) لفترة صدر الإسلام بالذات وبحوث القرآن بشكل أخص، حيث تشدد بالأصول فيما يطلق عليه (مسألة التبعية الدينية)، أي الاكتفاء بالإشارة إلى النظائر لفترة ما قبل نزول القرآن فقط. وقد تخرج في مدرسته (هاينريش شبير) (1897 ـ 1835)، الذي جمع في كتاب غني بالمصادر (القصص الكتابي في القرآن) المواضع التي وردت فيها الشخصيات التوراتية المتشابهة في المصادر اليهودية والمسيحية والسريانية بشكل خاص. ولقد راعى هوروفيتز في بحوثه مصطلحات الشعراء اللغوية في فترة ما قبل الإسلام، وأخذ على عاتقه وضع خطة لمعجم مفردات شعر

العرب القديم، بحيث عمل على ترتيب الدواوين المطبوعة المتوافرة (حتى نهاية العصر الأموي) في المعهد الشرقي للجامعة العبرية التي افتتحت في العام 1925. وبتحريض منه، شرع في المعهد نفسه في نشر كتاب (أنساب الأشراف) للبلاذري (ماكس شلوسنجر 1938، المجلد الرابع، والخامس ل. س. د. ف. دويتاين 1936).

ومن جهة أخرى فقد تمثل استحقاق (أوتجن ميتفوخ) (1876 ـ 1932)، وهو الذي أصدر جزءاً من كتاب ابن سعد عن سيرة الرسول، تمثل بشكل خاص في حقل اللغتين الحبشية والسبئية. وقد تبدى اهتمامه بجنوب الجزيرة أيضاً في كتابه (من اليمن) (1926)، الذي قدم فيه التقرير العربي حول الرحلة الأخيرة للرحالة الباحث (هيرمان بوكهاردت) (1857 ـ 1909) بالإضافة إلى نماذج من لهجة أهالي صنعاء. وقدم (ميتفوخ ويوليوس ليبرت) الذي ورد ذكره قبل قليل، بالتعاون مع طبيب العيون (يوليوس هيرشبرج) (1843 ـ 1925) كتاب (أطباء العيون العرب) في مجلدين بين عامي (1904 ـ 1905) بترجمة ألمانية. وكلا الرجلين مد يد العون أيضاً لهيرشبورج في أعمال أخرى. من ذلك (الكتب المنهجية العربية في طب أمراض العيون) (1905). ومن ثم فقد قدم (ميتفوخ) العون اللغوي (لفريدريش ساري) في أعماله حول (تاريخ الفنون العربية).

وكان (يوليوس ليهرت) (1866 ـ 1911)، الذي أومأنا إليه قبل قليل قد عرّفه ساخاو بالمصادر اليونانية العربية، وأصدر، معتمداً على أعمال أوجست موللر التمهيدية، المقتطف من (تاريخ الحكماء) لابن القفطي في العام 1903، كما أعدّ لابن سعد المجلد الخامس. وكلف في أثناء عمله في حلقة برلين الدراسية بالعمل في لغات شمال إفريقيا التي كان تعلمها خلال قيامه برحلة إلى كل من طرابلس وتونس.

ولم يحتسب فريدريش شفاللي (1863 ـ 1919) الذي حقق نصف المجلد الأخير من سيرة ابن سعد سنة 1912، من تلامذة برلين بل كان تلميذاً لنولدكه. فقد أعدّ من كتاب (المحاسن والمساوىء) للبيهقي طبعة

نموذجية بدون ملاحق وذلك في العام 1902. ولعل أشهر عمل له هو مراجعته الجديدة لكتاب نولدكه (تاريخ القرآن)، أنجز منها مجلدين خلال عامي 1909 ـ 1919، في حين استكمل (بيرجشترستر وبرتزل) الجزء الثالث والأخير خلال الفترة من 1926 إلى 1938.

ومن الذين أسهموا في طبعة ابن سعد عالم السريانيات برونو مايسر (1868 ـ 1947). وقد أظهر ميلاً نحو الدراسات العربية في وقت مبكر من حياته، وذلك حين قام بنشر الأمثال، والأحاجي، والأشعار، والقصص التي سجلها في أثناء إجراء الحفريات في بابل، مقدماً بذلك أول أخبار جامعة حول إحدى لهجات جنوب العراق العامية.

وناب عن العربية الحديثة في حلقة برلين منذ العام 1907 (جورج. كامبف ماير) (1864 ـ 1936) وهو تلميذ لسوسين. أما أعماله الأقدم فقد وجهت بشكل أخص نحو العامية بما فيها العامية المغربية. وأسهم فيما بعد كثيراً في التعريف بالأدب العربي الحديث في ألمانيا.

وكان (بيرنهارد موريتس) (1859 ـ 1939) رجل المكتبة لزمن طويل في حلقة برلين الدراسية. وقد قام بترتيب مجموعة من مقاطع المخطوطات العربية التي تعود إلى عمان وزنجبار مع فهرستها في العام 1892، ثم تولى إدارة مكتبة القاهرة في العام 1896، وأصدر من محتوياتها الغنية بالمخطوطات المهمة تاريخياً مجموعة من 188 لوحة ضوئية مطبوعة رائعة بعنوان (البيبليوغرافيا ـ العربية) (1906). وقد عرف الشرق من محيطه حتى خليجه من خلال رؤية خاصة، لكن ميله الخاص كان نحو الجغرافيا التاريخية. وفي كتابه (جزيرة العرب) الذي صدر في العام (1923)، قدّم دراسات قيمة حول جغرافية البلاد البشرية والتاريخية، وبدون علم سابق في الوقت ذاته بالكتاب (قلب الجزيرة العربية) لمؤلفه هـ. س. ت. فيلبي المولود عام (1885)، الذي اختار جنوب نجد بطبيعة الحال.

ومن ثم عدّ (فريدريش كيرن) (1874 ـ 1921) من التابعين للوسط

البرليني. وكان هذا قد نوّع دراسته في كل من لوزان، يينا، لايبزيغ وبرلين، وكتب في القاهرة أطروحته حول الدراسة العربية الجديدة للأديب الفرنسي موليير[1] التي أعدها (محمد عثمان جلال)، ونال بها اللقب في العام 1898 في يينا على يد المستشرق فوللر. وقد تعلم لهجة القاهرة العامية، وتحدث العربية بطلاقة، وكان واسع الاطلاع ولا سيما على تاريخ الفكر الإسلامي، لكن نتاجه الأدبي تعطل بسبب إصابته بمرض عصبي. أما إنجازه الرئيس فكانت طبعته لأجزاء من كتاب الطبري (اختلاف الفقهاء) التي زودها بكشاف عربي شامل.

كذلك فقد كان (مارك ليزبارسكي) (1868 ـ 1928) تلميذاً لساخاو الذي نال على يديه درجته العلمية بأطروحته[2] (عام 1893). وبعدئذٍ انصرف للعمل بشكل رئيس في ميادين الدراسات الآرامية، والنقوش السامية الشمالية، ليؤدي دوراً ريادياً بما قدم من كتب وترجمات ونصوص من بلاد ما بين الرافدين. وفي المعهد العالي للعلوم اليهودية في مدينة برلي، مارس (مارتين شراينر) (1863 ـ 1927) منذ العام 1894 دوراً فاعلاً. وقد كان تلميذاً لجولد زيهر، وشارك بمساهمات نشيطة عدة حول تاريخ الشرع الإسلامي، لكنه أصيب في العام 1902 بعاهة عقلية.

---

(1) Moliea ea Femmes Sauantes.

(2) DE propheticis, quae dicantur, legendis arabicis Prolego mena.

82 ـ هـ. جريمه

وكان هوبرت جريمه (1864 ـ 1942)، الرجل الذكي الذي سلك طريقاً خاصة وأصيلة به، وزاول نشاطه منذ العام 1889 في جامعة فرايبورج التي أسست في العام نفسه واستدعي في العام 1910 إلى مدينة مونستر، كان أحد تلامذة ساخاو. وقد تحققت له بعض الاكتشافات في بحوثه الأثرية (النقوش).

وفي أحوال أخرى، وبالذات في معضلات كثيرة عرض لها بالنقاش، فقد كانت خواطره الخاصة شديدة الإثارة. وهكذا فقد تبين له الدور الحاسم بحكم العلاقات الاقتصادية التي أسندت لها حين ظهور الإسلام، لكنه أغفل تماماً طبيعة النبي محمد حين قدّمه في كتابه (محمد، المجلد الثاني، مونستر 1892 ـ 1895) كمصلح اجتماعي. ومما يسترعي الانتباه من جانب آخر، أنه قدّم في هذا الكتاب عرضاً وصفياً للشريعة في القرآن. وفي العام 1904 كرر (جريمه) نظريته في (محمد) وذلك في كتابه، الأهمية التاريخية لشبه جزيرة العرب، لكنه عبّر في هذه المرة عن أن أقدم تعاليم للنبي محمد تعود إلى التوحيد في الجنوب العربي. وفي الختام عاد (جريمه) مرة أخرى إلى تفسيره الفريد حول عظة النبي محمد، حين انتقى، وصنّف القرآن في العام 1923، وترجمه في وزنه الشعري الأصلي.

83 ـ يوسف هيل

شخصية أخرى، يوسف هيل (1875 ـ 1950)، الذي أوكلت إليه مهمة اللغات الشرقية، عمل بشكل أخص في حقل الشعر العربي القديم. وبتوجيه من أستاذه (فريتز هومل)، الذي كان قد أخذ على عاتقه وضع خطة لمعجم بالمفردات العشرية للعصر الجاهلي[1]، بدأ (هيل) بدراسة الفرزدق. وكان بوخر قد اقتنى صورة من مخطوطة (آيا صوفيا 3884) وشرع في طباعتها، لكنه لم يتجاوز مقاطع الآلاف الثلاثة الأولى. وأصدر (هيل) في العام 1900 وعن الصور التي قام بتصنيعها في إستانبول سنة 1898، صورة طبق الأصل من بقية المخطوط الذي لم يستكمل (بوخر) تحقيقه بوصفه ديوان الفرزدق.

وقد لاحظ بأن خلف القصيدة 467 ثغرة في المخطوط. والواقع، أنه في مقارنة جرت في هذه الأثناء بين (بوخر) وصورة أخرى تم الحصول عليها من كامبردج، تبين أن في النسخة الأخيرة زيادة تقدر بنحو 61 صفحة، أصدرها (هيل) فيما بعد بوصفها (ديوان الفرزدق) في صورة طبق الأصل عنها. ومن ثم عالج قصيدة الفرزدق في مدح الوليد بن يزيد في أطروحته التي ناقشها في العام 1902، ومن ثم قصائده في المهلبيين (مجلة جمعية المستشرقين الألمان المجلد 59، ص 589 ـ 631، المجلد 60، ص 1 ـ 42). ولعل دراسة لغوية شاملة حول الفرزدق وشعره لا زالت في الانتظار حتى يومنا هذا. وفي العام 1910 نجح (هيل) في الحصول على كتاب

(1) S. H. CTES du VI me congres International des ordientes III (s. 385 - 408).

طبقات الشعراء للجمحي، والكشف عن عدد من دواوين شعراء هذيل غير المعروفة حتى وقته، وذلك في المكتبة الخديوية بالقاهرة.

وحيث إن (هيل) كان يتبنى وجهة النظر القائلة، بأن الطبعة الأولى لا بد أن تقدم من حيث الجوهر النص المستحوذ خطياً، فإن طبعاته للجمحي (1916) وكذا الحال بالنسبة لدواوين الهذليين الحديثة، الأول والثاني، 1926، و1933، تترك الباب مفتوحاً أمام النقد تخمينياً.

84 ـ سي. هـ. بيكر

وفي الوقت الذي خاض فيه م. هارتمان في برلين حرباً غير مضمونة النتائج من أجل الاعتراف بالعلوم الإسلامية، أسس في مدينة هامبورج لدى إنشاء معهد المستعمرات سنة 1908 كرسي لحضارة الشرق وتاريخه، اعترافاً بأهمية البحوث التطبيقية في هذا المجال رسمياً. وقد استدعي لشغل الكرسي الجديد هذا (كارل هاينريش بيكر) (1876 ـ 1933)، الذي تلقى علومه الشرقية على عالم السريانيات (بيزولد و. ي. بارث). لكنه ما لبث أن وجه اهتمامه إلى البحوث الإسلامية بتأثير من كتابات فلهاوزن، جولدزيهر وسنوك هورجرونيه. وبفضل تقارير وبحوث (مارتين هارتمان) تعرف على معضلات الإسلام الحديثة، لكنه لم يشارك في النفور الذي ساد قديماً ضد علم الاجتماع، وزاول بحوثه الخاصة حول تاريخ الإدارة والاقتصاد بالمناهج النقدية التاريخية. وكلما طال توجهه ازدادت مناقشته لقضايا الإسلام التاريخية، الفكرية والحضارية الكبرى باهتمام متنوع، واستعداد لاستقبال كل جديد، يحدوه دافع شديد لنظرية واضحة. وبالتسامح نفسه أسس الحلقة الدراسية الخاصة بتاريخ الشرق وحضارته في هامبورج، التي أشرف عليها إلى حين استدعائه في العام 1913. بلغت مثابرته العلمية نهايتها، وبرغم ذلك فقد مارس بوصفه مستشاراً شخصياً، وسكرتيراً للدولة ومن ثم وزيراً منذ العام 1919، تأثيراً فعالاً على الاستشراق الألماني.

ولعل بيكر نال استحقاقه الكبير على الاستشراق، حين أخرج إلى النور في العام 1910 (الإسلام) (مجلة تاريخ الشرق الإسلامي وحضارته)، مقدماً بذلك إلى الكشف الألماني للإسلام عضواً متخصصاً في أوسع محيط (باستثناء الأعمال القواعدية واللغوية الخالصة).

85 ـ جورج ياكوب

كان جورج ياكوب (1862 ـ 1937) أحد الشخصيات البارزة بين المستشرقين الألمان في بداية هذا القرن. وقد بدأ دراساته التي نقلته من لايبزيغ إلى شتراسبورج، إلى برسلاو، إلى أرلانجن، إلى برلين والعودة إلى لايبزيغ مجدداً، بدأها رجل لاهوت. ثم التفت إلى الاستشراق ودرس كذلك قواعد اللغة وعلم الاجتماع. وقد تطابقت هذه الاهتمامات المتعددة مع اطلاع أدبي واسع غير معهود، انسجمت فيه معرفته اللغوية الواسعة، والإلمامة الأكيدة بمناهج اللغة مع المعرفة المفصلة بالتخصص في حقول الموضوع المترامية الأطراف. وهكذا فقد تمخض عن تبيانه لأحد تصاريح (المقدسي) (الصفحة 324 لديجويه) نقاش دار حول السؤال: أي سلع تجارية جلبها العرب في القرون الوسطى من البلدان الواقعة على بحر البلطيق؟ (ط الأولى 1886 ط2 1891). وقد شكل العنوان نفسه موضوع رسالته سنة 1887، وهي التي دلّت في الوقت نفسه على معرفته بالنقود الأثرية والدخيل على اللغة من مفردات. وتلا ذلك كتابه (دراسات حول الجغرافيين العرب). وبعد حصوله على أهلية التدريس في جرايسفلد سنة 1892، انشغل مؤقتاً بدراسة الشعر القديم، بحيث عاد فأعار الاختصاصات التطبيقية الاهتمام، ودرس الزراعة بجدية وذلك كي يتسنى له تعريف النباتات التي ترد أسماؤها في الشجر.

فبعدما قدّم في الفصول الأولى من كتابه (دراسة حول الشعراء العرب) مساهمة تهدف إلى فهم المعلقات، عرض في الجزء الثالث (1895) (حياة

البدو في العصر الجاهلي). لكنه قبل صدور الطبعة الثانية من هذا الكتاب الجدير بالقراءة حتى في عصرنا الحاضر في العام 1897 (وصف حياة البدو قبل الإسلام من واقع المراجع)، توجه ياكوب، الذي أدى زيارة إلى إستانبول في العام 1895، للدراسات التركية، وهو نظام أول ما أعد، وطنياً، من قبله وقبل تلامذته في ألمانيا. وقد قدّم لهذه الدراسات أجمل سني عمره وأهم أعماله. وقد ثناه مسرح الظل التركي نحو شعر لعبة الظل العربية لابن دانيال، فكرس لهذه النصوص، ذات الأهمية الأدبية والحضارية التاريخية في الوقت ذاته، كثيراً من الوقت والجهد. ومع ذلك فلم تمكنه الصعوبات اللغوية والموضوعية التي كتبت بها هذه الأشعار بالفصحى مرة وبالعامية تارة، والمصطلحات الدارجة في بعض الأحيان، لم تمكنه من طبعة ختامية بترجمة وتعليق.

ولدى إقباله على دراسة الشعر الشرقي، لم يكتف ياكوب بشرح للمحتوى يعتمد على الوسائل العقلانية، بل حاول أيضاً تقديم القيم الخلقية للقارىء الأوروبي. وقد استعان بوصفه رومانسياً تابعاً، استعان على ذلك شأن أستاذيه (رويس وآهلفاردت) بتقليد النظم. وهكذا فقد صب (لامية العرب) على سبيل المثال، التي حافظ بقوة على تقليد ناظمها الشنفري، في أبيات، فيما كرر محاولات الترجمة التي قدمها كل من ي. رويس، وفريدريش روكرت، وأنشأ في (دراسات حول الشنفرى) (1914 ـ 1915) من القصيدة نفسها طبعة مثالية في ملازمتها للنص مترجمة ومطبوعة، بالإضافة إلى المعجم والفهرس.

إن مقدرته على القيام بهذا العمل اللغوي المضني، والتحليق به في نشوة رومانسية في الآفاق البعيدة، طبعت أعمال ياكوب بهذا الطابع النموذجي. ووفاءً منه للقول المأثور: الجدّ والاجتهاد جناحان... بهما نحلّق فوق الهضاب والوديان...

تمكن ياكوب في أطروحته من تخطي حواجز القيود الواحدة بشجاعة، ونظر إلى التجارة بوصفها إحدى أهم رسل الحضارة، فيما أسند إلى التاريخ

الحضاري العام مهمة تفحص الحقائق التي قررت طبيعة الشعوب والتي تعد ضرورية من أجل الإنسانية الحقة. ومن هذا المنطلق نبعت نظرته العالمية: بأفقها غير المحدود في معرض تقديم كتابه الرائع: (التأثير الأوروبي على الشرق في العصر الوسيط خاصة 1924).

ومن المنظور نفسه أيضاً ألف كتابه: (تاريخ مسرح الظل في أوروبا والمشرق، الطبعة الثانية 1925). لكن ياكوب لم يقدم لجيل، آمن بالإقبال على التخصص العملي وكأنه قدر لا سبيل من الإفلات منه، لم يقدم للمرة الثانية الإيمان بعالمية كل البحث العلمي، بل علم الجيل مرة أخرى الإنسانية المنسابة من مثل هذه الأممية. وإنه لمن العسير بالطبع السير في عكس اتجاه الأحكام المتأصلة كالشك البدائي تجاه كل ما هو غريب، والإجلال غير القابل للنقد لذاتية الشعب، وتاريخه، وعدم الصبر الديني على معتقدات الآخرين.

كذلك فقد أضر ياكوب هذا العمل حين شنّ حرباً لا هوادة فيها على كلاسيكية العصر القديم. لكن هجومه الذي استغرق منه كل حياته كان أكثر ديمومة في تأثيره من نقده وهجومه، من حيث ينظر إليه كنصب تذكاري معبر للبحث، يشمل البشرية كلها بغض النظر عن اللغة، والعقيدة والحدود، ويقرّ دون حسد بفضل كل إنجاز يدين له تتابع التطور الحضاري.

86 ـ دراسة الفلسفة الإسلامية والعلوم العربية في ألمانيا

إن تاريخ الفلسفة الإسلامية التي عني بدراستها أوجست شمولدر (1809 ـ 1880) أول ما عني في ألمانيا، وإن تم ذلك بوسائل غير كافية، وجدت في شخص ماكس هورتن (1874 ـ 1945) عاملاً نشيطاً ذا إلمامة واسعة. وبحكم درايته بالفلسفة اللاهوتية، حاول من خلال ترجماته للأعمال العربية، تقريب قضايا الفلسفة الإسلامية وعلماء العقيدة المسلمين من ذهن القارىء الأوروبي. وقد اضطر على الدوام إلى الاستعانة بالمصادر غير الكافية، وهو عيب، أول من عمل على إصلاحه فيما بعد يسوعيو بيروت في معجمهم المفهرس عن المكتبة العربية. لكن ما ألحق الضرر أكثر بقيمة أعمال هورتن هو افتقارها إلى الدقة الفلسفية. وعالج إلى جانب ذلك في مقالات جامعة قضايا فلسفية متفرقة. وهكذا فقد أشار على سبيل المثال، وعلى العكس من س. هورفوفتز، إلى المعنى الذي كان يستعمله السقراطيون السابقون (نسبة إلى سقراط) في إشارتهم إلى أقدم فلسفة إسلامية.

وقد قدم عرضاً موجزاً في كتابه (الفلسفة الإسلامية في علاقاتها مع الرؤى الفلسفية العالمية للمشرق العربي) (1924)، دون أن يقابل ذلك بموافقة عامة. لكن محاولته قوبلت بالمعارضة بشكل رئيس لتعذر إقامة الدليل على وجود مؤثرات للتعاليم الفلسفية الهندية.

وقد وجد تاريخ العلوم الطبيعية في الإسلام في تلك الحقبة باحثاً فذاً يتمثل في شخص يوليوس روسكا (1867 ـ 1949). فقد درس الرياضيات

والعلوم الطبيعية، ثم التحق بالتعليم، لكنه، في مسعى منه لقراءة كتب الديانات السماوية الكبرى في نصها الأصلي، درس على بونوف، ومن بعد ذهابه على عالم التوراة آ. ميركس، وعالم السريانيات سي. بيزولد اللغات الشرقية. واختار الرجوع لمشورة ميركس، البحث في العلوم الطبيعية الإسلامية كمهمة مدى الحياة. وفي العام 1911 تخلى عن التعليم، وحصل على إجازة التدريس الجامعي في مدينة هايدلبرج بأطروحته (بحوث حول الكتاب الحجري لأرسطو) الذي أعقبه في العام 1912 بالنص العربي.

وقد تجلت في هذه الدراسات نظرة روسكا التاريخية البعيدة وموهبته النقدية في الظهور. والجدير بالذكر أن هذه النزعة نشأت في مقاعد دراسات الطب السرياني الفارسي. وتظهر (دراسات القزويني، الإسلام 5) أنه كان يجيد مناقشة الروايات التاريخية، حيث فك عقال تاريخ كتاب الفلك للقزويني. وقد أعطاه اكتشاف كتاب الرازي (سر الأسرار) في مخطوطة بمكتبة جوتنجن الحافز للقيام بدراسات حول علم الكيمياء عند العرب، حيث وقف بمفرده على الطبيعة التجريبية لمنجزات الرازي الكيميائية بعيداً عن الاستنباطات المشابهة التي توصل إليها ستابلتون قبله. وقد قاد السؤال عن أسلاف الرازي موضوعياً إلى قضية ساليماك، وقاد أدبياً إلى المخطوطات المتحصلة التي تحمل اسم جابر بن حيان، وفي الختام إلى خالد بن يزيد، الذي عرّف روسكا بأنشطته الكيميائية في كتابه (الكيميائيون العرب)، هذا وإن كانت الأشعار الكيميائية المتداولة والمقتطفات المنسوبة إلى خالد بن يزيد ليست يقينية. وقد عد باول كراوس (1907 ـ 1946) معاون روسكا، مجموعة جابريانوم الكاملة نتاجاً للطائفة الإسماعيلية في القرن 900 ميلادية. وينظر إليها على أنها أسس معرفية في تاريخ العلوم العربية بنى عليها الباحث كراوس في كتابه الرائع (جابر بن حيان، مساهمته في تاريخ البحث العلمي في الإسلام) (نشر بين عامي 1942 ـ 1943) في مجلة المعهد المصري. هذا وقد تمكن روسكا نفسه الذي تولى في العام 1927 إدارة معهد البحوث الذي تأسس في برلين لتاريخ العلوم، تمكن من جانبه من استكمال اكتشافات

الرازي بترجمة كتاب (سر الأسرار) (1937) وكان ذلك تحت عنوان (مراجع ودراسات حول تاريخ الطب والعلوم الطبيعية، المجلد السادس).

وبالاتفاق مع هاينريش فيلانيتر، أصدر روسكا تركة كارل شوي (1877 ـ 1925) الذي نال الاستحقاق على دراسته حول تاريخ الرياضيات والفلك الإسلاميين، وأصدر في العام 1927 كتاباً تحت عنوان (نظريات المثلثات عند البيروني). وبالإضافة إلى روسكا، فقد حظي الفيزيائي آيلهاردن فيدمان (1852 ـ 1928) الذي كان أستاذاً في جامعة أيرلانجن، بتقدير كبير جزاء له على معرفته الدقيقة بالعلوم الإسلامية. وبنشاط لا يعتريه الفتور، أخذ عن المادة المخطوطة والمطبوعة المتعلقة بالموضوع على حد سواء وعلق عليها بشروح موضوعية.

وتشكل مساهماته (حول تاريخ العلوم الطبيعية 1 ـ 78)[1]، وكثير غيرها من المقالات والبحوث التي نشرت في صحف مختلفة، مخزناً للمفقودات الغنية من أجل دراسة العلوم العربية.

وبِحثّ من فيدمان، قدم الطبيب آرنست شايدل (1852 ـ 1922) وكان طبيباً يهتم بتاريخ الطب، قدم ترجمة للفصول الطبية المشار إليها في مفاتيح العلوم وعلق عليها ونشرت عام (1915) في تقارير جلسات الجمعية الطبية.

كذلك فإن عمله الرئيس الذي كان نقله عن الترجمة الأرمنية (ميشتيهارس تيست) (1908)، هو من الأهمية بمكان للمهتمين بالدراسات العربية، وذلك نظراً لما تتضمنه من ملاحظات مستفيضة حول أسماء الأدوية. وحقق طبيب آخر وهو ماكس سيمون (1863 ـ 1909) النص العربي من الجزء السابع والأخير لجالينوس بلغته اليونانية لغوياً. ولم يكمله، لكنه أرفده بمعجم مفهرس للمصطلحات الطبية وبترجمة ألمانية (المجلد 2، 1906). وأخيراً فقد وجدت كذلك الصيدلة وطب العيون، بحسب ما جاء

---

(1) تقارير جلسات الفيزياء والطب، جميعة أيرلانجن المجلد 34 ـ 66، لسنة 1902 ـ 1928.

في بحوث ي. هيرشبرج التي سبقت الإشارة إليها، في شخص ماكس ميرهوف (1874 ـ 1945) باحثاً في مجال اللغة عمل خارج حدود تخصصه.

إلى جانب دي جويه وسنوك هورجرونيه، كان لهولندا طائفة من المستشرقين الذين عادت أعمالهم بالنفع على الدراسات العربية الإسلامية بخاصة. وقد حقق (مارتين تيودور هوتسما) (1851 ـ 1943)، الذي سبقت الإشارة إليه بوصفه أحد المشاركين في طبعته لايدن لتاريخ الطبري، وقام بتدريس اللغات الشرقية في مدينة أوترخت خلال الفترة من (1890 ـ 1917)، حقق كتاب (الأضداد لابن الانباري) (1881)، وتاريخ ابن الواضح اليعقوبي 1883، وفي المجلد الثاني من كتابه التاريخي حقق (زبدة الفترة) لعماد الدين الأصبهاني (1889)، وأخيراً معجماً تركياً عربياً (1894). وبعدما عالج في مؤلفه الأول (العقيدة في الإسلام) (للأشعري) (1875)، تطور الشريعة خلال القرون الثلاثة الأولى، قدم عرضاً شاملاً للإسلام في مساهمته حول الكتاب التعليمي الذي قام بإصداره رجل اللاهوت الهولندي ب. د. شانتيبي دي لاسوسيه وكان مداره التاريخ (الطبعة الثالثة لسنة 1905). ولعل ما يستحق التقدير عليه في الدراسات الإسلامية بشكل خاص، هو مساهمته في إصدار دائرة المعارف الإسلامية التي صدرت في مدينة لايدن منذ العام 1908، وجمعت كما كانت عليه الحال في طبعة الطبري ـ لايدن، العلماء من كل أقطار المعمورة لعمل جماعي على المدى البعيد.

وكان (تيودور فيلهلم جوينبول) (1866 ـ 1946) وهو خليفة هوتسمان في مدينة أوترخت، تلميذاً للمستشرق دي جويه. وكان قد درس أولاً القانون وعمل في حقول الحديث والفقه بخاصة. ففي العام 1896 حقق كتاب (الخراج) ليحيى بن آدم. وأصدر بين عامي (1907 ـ 1908) المجلد الرابع من صحيح البخاري، وقطع بالطبعة التي بدأها كريهل شوطاً معيناً، وإن كان المجلد الخامس الذي يفترض أن يتضمن الدليل، والتذييلات والتصحيحات، والملاحق، والفهرس العام، لم ير النور أبداً.

ولعل الأهم من طبعات النصوص هو عمله[1]، الذي ترجمه أرثور شادي إلى الألمانية تحت عنوان (مرجع التشريعات الإسلامية). وفي الوقت الذي كانت تفتقر فيه إلى مراجع القوانين الإسلامية القديمة في أغلب الأحيان إلى المنهج اللغوي التاريخي، قدم جوينبول، بالاعتماد على الأعمال التمهيدية للمستشرق سنوك هورجرونيه، عرضاً نقدياً لنظرية المراجع القانونية، ومن ثم الأجزاء المهمة عملياً للتشريعات الإيجابية مثل أهم الشعائر، والميراث، والمعاملات، وقواعد استنباط الأحكام، والحدود (العقوبات)، وأخيراً رأي الإسلام في السياسة.

وعلى صلة وثيقة بدائرة المعارف، كرئيس تحرير في بادىء الأمر ومن ثم مساهماً في الإصدار، كان (آرنت جان فنسنك) (1882 ـ 1939). وهو تلميذٌ لكل من هوتسماس، دي جويه، سنوك هورجرونيه (أصبح فيما بعد خليفة له في العام 1927)، وساخاو. وقد خصص كتابه الذي احتل مركز الصدارة (محمد ويهود المدينة) (1908) لمناقشة القضية التي استحوذت على النصيب الأوفى وهي العلاقة بين الرسول واليهود، كما ناقش في العديد من المقالات التي نشرت في دائرة المعارف مسألة البحوث القرآنية وأعلن في سنة 1916 للمرة الأولى عن عزمه جعل مسند الدميري، ومسند أحمد، والموطأ، من خلال فهرسة أبجدية للألفاظ للمجاميع الستة الصحيحة، جعل هذه الكتب الغنية بالأحاديث قيد استعمال البحث العلمي. وبالاشتراك مع 38 متعاوناً من مختلف الأقطار ودعم أكاديمية العلوم في أمستردام، وجهات هولندية أخرى، فضلاً عن عدة أكاديميات أخرى، شرع في ترتيب هذه النصوص الهائلة الكم، وأصدر في سنة 1932 المجلد الأول منه تحت إشراف (الاتحاد الأكاديمي الدولي). بالإضافة إلى هذا النتاج، تم تصنيف مرجع فنسنك حول الأحاديث النبوية في فجر البعثة بحسب الحروف الهجائية

---

(1) **Handleiding tot de Kennis van de mohammedanische Wet Volgens de Leer der Sjafitische School 1903, 1925.**

(1927)، وتبعه (مفتاح كنوز السنة) بالعربية، وسهل فؤاد عبد الباقي طريقة استعماله.

وأخيراً نظم فنسنك إصدار مخطوط أستاذه هورجرونيه في (النظم الشعري) (ستة مجلدات 1923 ـ 1927)، وأنجز من أجل ذلك جدولاً وفهرساً.

وإلى جانب ذلك وجد وقتاً لأعمال خاصة في ميادين عدة، كان لها بالإضافة لعمله (حول الغزالي) (1940) والدراسة الجذرية (للعقيدة الإسلامية) (1937) عائد طيب على تاريخ العقيدة الإسلامية.

وقد جاء إنهاء دائرة المعارف الإسلامية نتيجة تضافر جهود العلماء من كل الأقطار حيث وجهت العناية إلى الدراسات الإسلامية فيها. هذا وقد أسهم في المجلد الأول منها الذي صدر في العام 1913 قرابة المئة من بلجيكا، هولندا، إيطاليا، النمسا ـ المجر، روسيا، السويد وسويسرا، كما حضر إلى جانب الباحثين الأوروبيين منذ البداية وفي أعداد متزايدة دوماً، علماء مسلمون من كل الأمصار الإسلامية ممن تلقوا ثقافة غربية. وبذلك فقد تحولت دائرة المعارف الإسلامية إلى نصب تذكاري معبر للعمل العالمي المشترك يدعو للاقتداء به. وهكذا فإن تاريخ الدراسات العربية في أوروبا يكشف بشكل واضح عن وجود المزيد من المهام التي تنتظر الحل، والتي لا يطيقها جهد باحث فرد واحد بل جهد الباحثين في الدراسات العربية في قطر كامل.

ومن جملة تلك المهام ثغرة ملحة لا بد من ملئها، وهي صناعة مؤلف جامع للغة العربية يستغرق العمل فيه بالتأكيد أكثر من جيل واحد. على أن إنجاز المستلزمات المعاصرة لمعجم عربي كاف، هو مهمة لا سبيل لحلها إلا بتضافر المجهودات المتوافرة. يضاف إلى ذلك أن الخطة التي يشار إليها كثيراً حول نبذة للغة العربية بحسب الأنموذج اللغوي العربي للغويين الآخرين، لن يجد طريقه للتحقيق ما لم يمد أفضل أخصائيي الدول الأخرى

من كل الأقطار الأخرى أيديهم للتعاون. والقول نفسه يسري على أطلس إسلامي يفي بالمطالب، على كشاف يعمل بشكل مطرد على تسجيل المخطوطات المتداولة الآخذة في التزايد، وعلى فهرسة عربية تستأنف ما أنجزه بروكلمان في كتابه (تاريخ الأدب العربي)، فهل سيلتئم جمع المستعربين في كل أقطار الأرض مع إدراكهم لطبيعة المهام الملقاة على عاتقهم؟!

تم بعونه تعالى

المحتويات

تاريخ حركة الاستشراق

كان الاستشراق مجالاً لتطبيق ونشر العلم الحديث في الشرق، لكنه جعل من الشرق ميداناً إنثربولوجياً واثنولوجياً مجرداً من قيمه وتاريخه، وظهر، وفق توصيفاته، الشرقي: العربي والتركي والفارسي، صورة للشهواني القاسي، أو صورة البربري الفظ، خاصة الشمال أفريقي، يجمع بين هذه الصور دين بسيط وبدائي ومتعصب وعدواني هو الإسلام، وكانت مسيحية القرون الوسطى قد بثت هذه الصور، ونسجتها مخيلة تمركزها اللاهوتي الذي دفع إلى حدوث أكبر مواجهة دينية بين الإسلام والمسيحية خلال الحروب الصليبية.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا من أهم الكتب التي تؤرخ لحركية الاستشراق المعرفي، وترصد أهم التجليات التي رافقت هذا العلم بأشكاله المتباينة.



اوتوستراد شاتيلا - الطيونة، شارع هادي نصر الله - بناية فرحات وحجيج طابق 5
خليوي: 03/933989 - هاتف وفاكس 00961/1/542778

توزيع: دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية - زاوية الدهماني - السوق الأخضر
هاتف: 3338571 - 4449903 - 00218.21/4448750 فاكس: 00218.21/4442758
ص.ب: 13498 طرابلس - الجماهيرية العظمى



ISBN 99-5929-041-7
9789959290410